

الإبداع البياني

في القرآن العظيم

”في الأمثال. والتشبيه. والتمثيل. والاستعارة. والكتابة“
مع الإمتاع بروائع الإبداع

بقلم
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني



دار الكتب العصرية
سنة ١٤٣٥ هـ

الإبداع البياني في القرآن العظيم

“في الأمثال، والتشبيه، والقمیل، والإستعارة، والكناية”
مع الإمتاع بروائع الإبداع

بمقام
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي بن (رضا) فوني

للمكتبة العصرية
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - 2006 م

موقعنا على الإنترنت:

www.almaktaba-lassrya.com

شركة لبناء شريف الانصاري
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية

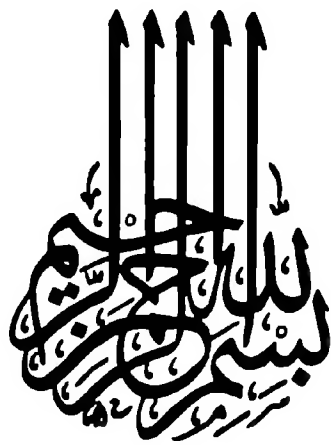
الدار الشموخية
المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب. ٨٣٥٥ - تليفون ٦٥٥٠١٥ ٠٠٩٦١١

صيدا - ص.ب. ٢٢١ - تليفون ٧٢٠٣١٧ ٠٠٩٦١٧

E-mail: alassrya@terra.net.lb - alassrya@cyberia.net.lb

ISBN 9953-34-456-6



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[يوسف: ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، منزل الكتاب المبين، المعجز ببيانه في كل وقت وحين،

والصلاة والسلام على الرسول الأُمِّيِّ الأمين، محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه الغرِّ الميامين، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين:

أما بعد.....

فإن القرآن الكريم معجزة الله لنبيه محمد ﷺ خاتم النبيين، قد حوى من بديع البيان والفصاحة العربية ما عجز عنه العرب أنفسهم، فصحاؤهم وبلغاؤهم وشعراؤهم وكبراؤهم، بل تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا ولو بآية من مثله، ولكنهم عجزوا، فالقرآن الكريم معجز ببيانه لأنه كلام الله الذي أنزل على عبده النبي الأُمِّيِّ محمد ﷺ: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومع اشتغال القرآن الكريم على كل ما يحتاجه الإنسان في كل أمور دينه وحياته، إلا أن إعجازه البياني وبلاغته هي من أهم ميزاته، وهي موضوع هذا الكتاب (الإبداع البياني في القرآن الكريم) الذي خطه خادم الكتاب والسنة الشيخ محمد علي الصابوني الذي نذر نفسه لخدمة هذا الكتاب العزيز، فقد استخرج فضيلته ما يقارب الألف ومائة مثال على الإبداع البياني، ليتذوق القارئ الكريم روعة ما تضمنه القرآن الكريم من بديع البيان وفصاحة العبارة والبلاغة، بأسلوب معجز، مفتدًا بذلك أقوال من نفى عن القرآن الكريم أهم خصائصه والتي هي إعجازه البياني والبلاغي، وليثبت أن القرآن الكريم معجز في بلاغته وبيانه وفصاحته، وأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأشرفها، وأنه تناول جميع ما استعمله العرب في

مخاطباتهم، من الاستعارة، والتشبيه، والكناية، والمجاز، والأمثال، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

نسأل الله العلي الكريم أن يجزي المؤلف أحسن الجزاء على ما قام به من جهد لإخراج هذا الكتاب على الوجه الذي نراه وعلى الترتيب الذي قام به، وأن يبارك في عمره ووقته وجهده، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

الناشر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أنزل كتابه العزيز، تبصرة وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء، وخاتم المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وأصحابه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن القرآن العظيم، هو (المعجزة العظمى) لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين، وقد حوى بين دُفْتَيْهِ الأمثال، والعظات، والعبر، وفيه من الروائع والبديع، ما يسلب العقول والألباب، وقد تناول بأسلوبه البياني، جميع ما استعمله العرب في مخاطباتهم من الاستعارة، والتشبيه، والكناية، والأمثال، وغيرها من الأساليب البيانية، وقد جمعت في هذا الكتاب طائفة من هذه الأمثال التي ضربها القرآن الكريم، مع ما جاء فيه من الاستعارة، والكناية، والتشبيه، وشرحتها شرحاً مبسطاً بديعاً، في غاية الحُسْن والإيجاز ليتذوق القارئ الكريم، روعة البيان الإبداعي، في أسلوب القرآن المعجز، الذي كان بحق معجزة محمد ﷺ الكبرى، وحبته البالغة على الخلق أجمعين ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٍ وَزَكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقد قال إمام المفسرين (الطبري) كلمته الرائعة (إني لأعجب لمن يقرأ القرآن الكريم، كيف يتلذذ بقراءته ولم يفهم معناه؟) والله أسأل أن ينفع به إخواننا المسلمين، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب الدعاء، وصلى الله وسلم على من بعثه الله رحمة للعالمين.

خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني

تمهيد

الإبداع البياني في القرآن العظيم

• يتربع القرآن العظيم على عرش الفصاحة والبيان... ويزيد في حلاوته وروعة بيانه، أنه نزل بأفضل اللغات، وأشرفها وأوضحها... ألا وهي (اللغة العربية) لغة الضاد... التي خصَّ الله بها كتابه المعجز، خاتمة الكتب السماوية... أنزله على أفضل رسله «محمد خاتم المرسلين» صلوات الله وسلامه عليه، ونوّه بالإشادة بعظمة هذا الكتاب وجلاله وجماله، حين قال جلّ ثناؤه: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آتَاؤُنَا عَلَىٰكَ إِلَٰهَ كُنْتَ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

نزل القرآن الكريم بذلك حين طلب المشركون من رسول الله ﷺ معجزة (حسية مادية) غير القرآن الكريم، كمعجزة موسى، ومعجزة عيسى، ومعجزة صالح، وغفلوا عن أعظم المعجزات، ألا وهي (القرآن العظيم) الذي عجز الفصحاء والبلغاء وأساطين العرب عن معارضته، وقد جاءهم به نبي أمي، لا يعرف القراءة والكتابة، أفيطلبون معجزة أخرى غير القرآن، وقد جاءهم بمعجزة المعجزات؟

• إن هذا الكتاب المجيد، هو (المعجزة الباقية الخالدة) لسيد المرسلين ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون، وقد حوى من الحكيم والعظائم والأمثال، وسائر الأحكام الدينية والدنيوية، ما يشهد بصدق هذا الرسول، الذي أنزل عليه هذا النور الإلهي الوضاء، فكان برهان نبوته ورسالته، وعنوان صدقه وأمانته، حتى سُمي ﷺ من أعدائه بـ(الصادق الأمين).

• ولنبدأ الآن بما عقدنا عليه العزم، من بيان هذه الروائع، التي جاء بها الكتاب المجيد، وذلك بتوضيح الأمثال، والبدائع، والإشارات، والتبصير بما فيها من أنواع (الاستعارة، والكناية، والتشبيه، والمجاز، والإعجاز) مستمدّين العون من ربّ العزة والجلال، أن ينفعنا ويرفعنا به،

إلى منازل أهل الفضل والإحسان، كما قال سيدُ الخلقِ ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ) رواه مسلم، أي يُغلي قدرَ أقوامٍ بهذا القرآن، ويخفضُ به منازل آخرين، وكفى بذلك موعظةً وذكرى من سيد المرسلين ﷺ!! .

الأمثال في الكتاب العزيز

لَمَّا كَانَ الْغَرَضُ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ: تَوْضِيحُ الْغَامِضِ، وَتَقْرِيبُ الْبَعِيدِ، وَتَجْلِيَةُ الْمَعْنَى، مِنْ غَيْرِ كَدٍّ لِلذَّهْنِ، وَلَا إِرْهَاقٍ لِلْفِكْرِ، لِذَلِكَ أَكْثَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، مِنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ، لِيَدْرِكَ كُلُّ سَامِعٍ وَقَارِءٍ، الْمَعْنَى الَّذِي قَصَدَ إِلَيْهِ الْكِتَابُ الْعَزِيزُ، مِنْ ذَلِكَ الْمَثَلِ، مَعَ غَايَةِ الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ وَلِهَذَا وَضَّحَ تَعَالَى الْحِكْمَةَ مِنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ، فَقَالَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿وَلِئَلَّا الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

أَيُّ مَا يَتَّعِظُ بِهَا، وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا، إِلَّا أَهْلُ (الْعِلْمِ وَالْفَهْمِ) الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، الَّذِينَ يَعْقِلُونَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُرَادَهُ، وَيَدْرِكُونَ بِثَاقِبِ فَهْمِهِمْ مَعَانِيَهُ وَأَهْدَافَهُ.

وَمِمَّا تَجَدُّرُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ أَنْ الْغَرَضُ مِنَ التَّمَثِيلِ: هُوَ التَّفَكُّرُ فِي بَدَائِعِ خَلْقِ اللَّهِ، وَصَنْعِهِ الْحَكِيمِ، فَمَا مِنْ ذَرَّةٍ فِي الْكَوْنِ، إِلَّا وَهِيَ نَاطِقَةٌ بِعَظْمَةِ جَلَالِ اللَّهِ، وَإِبْدَاعِ صَنْعِهِ، وَبِالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ، يَدْرِكُ الْإِنْسَانُ تِلْكَ الرُّوعَةَ وَالْجَلَالَ ﴿وَلِئَلَّا الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

أَيُّ لِيَتَفَكَّرُوا وَيَتَدَبَّرُوا مَعَانِيَهَا وَمَقَاصِدَهَا السَّامِيَةَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَرَدَتْ فِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنِ الْقُرْآنِ، وَعَظَمَتِهِ، وَعِلْوِ شَأْنِهِ، بِحَيْثُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى الْجَبَلِ، فَتَدَبَّرَ مَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، لَخَشَعَتْ وَتَصَدَّعَتْ - عَلَى قِسْوَتِهِ وَصَلَابَتِهِ - مِنْ خَوْفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْبَشَرِ أَلَّا يَتَأَثَّرُوا بِهِ؟

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَةِ الْحَشْرِ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَى الثُّورِ إِنَّ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُمْ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا كَانَتِ الْجِبَالُ الصُّمُّ، لَوْ سَمِعَتْ كَلَامَ اللَّهِ وَفَهَمَتْهُ، لَخَشَعَتْ وَتَصَدَّعَتْ مِنْ خَشْيَتِهِ، فَكَيْفَ بِكُمْ وَقَدْ سَمِعْتُمْ، وَفَهَمْتُمْ كَلَامَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟!». «.

تنوُّع الأمثال في القرآن الكريم

إذا تدبّرنا كتاب الله العزيز، نجد القرآن الكريم قد نوّع الأمثال بشكل عجيب، فمنها ما ضربه الله تعالى للكفار، ومنها أمثال عن المنافقين، ومنها أمثال ذُكرت عن الحياة الدنيا، وما فيها من متاع خادع، تشبه السراب، يحسبه الظمآن ماءً، ومن الأمثال ما يصوّر به أعمال أهل الرياء والنفاق، حيث تذهب أدراج الرياح، لأنها لم يقصد بها وجه الله تعالى.

كما ضرب المثل للمؤمن، الذي يُنفق ماله طلباً لمرضاة الله، بالزّارع الذي يزرع الحبّ، فتخرج كل حبة سبع سنابل، في كل سنبل مائة حبة، وهكذا تنوعت الأمثال في القرآن العظيم، حسب الأشخاص، والأقوال، والأعمال، وفي صورٍ عجيبة، تشمل (عبدة الرحمن) و(عبدة الأوثان)، وكل من سار في طريق الهدى، أو في طريق الضلال، كما سنبينه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. !



روائع الحكم والأمثال في أساليب القرآن

يَجْدُرُ بنا ونحن نتحدث عن الأمثال في القرآن، أن نعرّف تعريفاً موجزاً كلاً من (التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية) التي هي من أساليب الفصاحة والبلاغة، والتي اختصت بها اللغة العربية (لغة الضاد) ونزل القرآن الكريم - خاتمة الكتب السماوية - بهذه اللغة الفصحى، أشرف اللغات وأبدعها، كما قال جلّت عظمتُهُ: ﴿وَلَقَدْ لَنَزَّلَ رَبِّيَ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَيَّ قَلِيلًا لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * يَلْسَانِي عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] ومن المعلوم أن القرآن معجز في بيانه، كما هو معجز في تشريعه، وأحكامه، وفي أخباره الغيبية، وأخص معجزاته (المعجزة البيانية) التي عجز عنها البشر جميعاً، مع التحدي الصارخ الذي تحداهم به القرآن !

ما هو التشبيه؟

هو: تمثيل شيء بشيء، اشترك معه في صفة من الصفات، والغرض منه تقريب البعيد، وتوضيح الغامض، وتجلية المعنى بأوضح صور الإبداع والبيان، مثل قولنا: كلامه كالشهد - أي العسل - في الحلاوة، وقول الشاعر:

وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرُّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِنَهُ يَنْفَطِمِ
ووصف أعرابي رجلاً فقال: (كأنه الثَّهَارُ الزَّاهِرُ، والقمرُ الباهر، لا يخفى على كل ناظر) وأدوات التشبيه: هي (الكافُ، وكأَنَّ، ومثْل، وشبَّه، وشبيه) قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَزْشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] شبَّه قلوب اليهود في قسوتها وغلظتها، بالحجارة الصلبة، لا تلين لنصح ولا تذكير، وقال الشاعر:

أَنَا كَالْمَاءِ إِنْ رَضِيْتُ صَفَاءً وَإِذَا مَا غَضِبْتُ كُنْتُ لِهَيْبَا
وقال سبحانه عن مشركي مكة ﴿فَمَا لَكُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمُرٌ شَتِيرَةٌ

فَرَزْتُ مِنْ قَسْرَةٍ ﴿ [المدرثر: ٤٩ - ٥١]. شَبَّهَهُمْ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْقُرْآنِ، وَنَفُورِهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحُمْرِ الْوَحْشِيَّةِ، تَرَى الْأَسَدَ، فَتَفَرُّ وَتَهْرُبُ مِنْهُ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ. قَالَ أَبُو تَمَّامٍ فِي مَغْنِيَةِ تَغْنِيٍّ بِالْفَارْسِيَّةِ:

فَبِتْ كَأَنِّي أَعْمَى مُعْنَى يُحِبُّ الْعَانِيَاتِ وَلَا يَرَاهَا
المُعْنَى: الْحَزِينُ الْمَتْعَبُ، وَقَالَ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ:

تَقَلَّدْتُ نِيَّ اللَّيَالِي وَهِيَ مُذْبِرَةٌ كَأَنِّي صَارِمٌ فِي كَفِّ مُنْهَزِمٍ
شَبَّهَ نَفْسَهُ فِي إِفْلَاسِهِ، وَإِعْرَاضِهِ الدُّنْيَا عَنْهُ، بِالسَّيْفِ الْقَاطِعِ فِي يَدِ الرَّجُلِ الْمَهْزُومِ.

ما هو التمثيل؟

أَمَّا التَّمَثِيلُ، وَالمَثَلُ، وَالمِثْلُ، فَهُوَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ كَثِيرٌ، مُسْتَفِضٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَسَلِّهِمْ كَعَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وَقَالَ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وَسَيَأْتِي تَوْضِيحُ هَذِهِ التَّشْبِيهَاتِ وَالْأَمْثَالِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِبْدَاعِ الْبَيَانِيِّ، فِي مَوَاطِنِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، أَمَّا بِقِيَّةُ أَدَوَاتِ التَّشْبِيهِ فَالْأَمْثَلَةُ عَلَيْهَا كَثِيرَةٌ.

أقسام التشبيه

يَنْقَسِمُ التَّشْبِيهُ إِلَى عِدَّةِ أَقْسَامٍ هِيَ كَالآتِي:

١ - التَّشْبِيهُ الْمُرْسَلُ: هُوَ التَّشْبِيهُ الَّذِي تُذَكِّرُ فِيهِ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ، كَقَوْلِنَا: وَجْهَهُ كَالْقَمَرِ فِي الْحَسَنِ.

٢ - التَّشْبِيهُ الْمُؤَكَّدُ: التَّشْبِيهُ الَّذِي حُذِفَتْ مِنْهُ الْأَدَاةُ، كَقَوْلِنَا: هُوَ الْبَحْرُ فِي الْكَرَمِ.

٣ - التَّشْبِيهُ الْمَجْمَلُ: مَا حُذِفَ مِنْهُ وَجْهُ الشَّبْهِ، مِثْلُ: هَذَا الطَّعَامُ مُرٌّ عَلَقَمٌ.

٤ - التشبيه المفصّل: ما ذُكر فيه وجهُ الشُّبه، كقول المتنبي:

(نَحْنُ نَبْتُ الرُّبَا وَأَنْتَ الْغَمَامُ) أي كالسحاب الذي يُغيث الأرض.

٥ - التشبيه البليغ: ما حُذف منه وجهُ الشُّبه وأداة التشبيه، مثل: عليّ

أسدٌ، ومحمدٌ بدر، أي عليّ كالأسد في الشجاعة، ومحمد كالقمر في الحسن، ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عَنْتِي فَهَمٌّ لَا يَزِجُونُ﴾ أي هم كالصم لا يسمعون من يدعوهم إلى الخير، وكالخرس لا يتكلمون بما ينفع، وكالعمي لا يبصرون طريق الهدى والنجاة.

ويجب أن يكون وجهُ الشُّبه، أقوى وأظهر في المشبّه به، منه في المشبّه.

التشبيه المقلوب

٦ - وهناك نوع من التشبيه، يسمى (التشبيه المقلوب) وهو أن نَضَع

(المشبّه به) مكان (المشبّه) وذلك بادّعاء أن وجه الشُّبه فيه، أقوى وأظهر، كقولهم: البحرُ عطاؤه، والقمرُ وجهه، أصله: عطاؤه كالبحر في الكرم والسخاء، ووجهه كالقمر في الحسن والبهاء، فقلّب الكلام فجعل البحرُ على سعته كجزءٍ من كرمه، وجعل القمرُ في حسنه، كجزءٍ يسيرٍ من بهائه وجماله وجهه، وعلى هذا الإبداع، جاء قوله تعالى عن المشركين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] والأصل في الكلام أن يشبهوا الربا بالبيع، فيقولوا: الربا كالبيع، يكون بالتراضي فلماذا يكون حراماً؟ فعكسوا الأمر، وقلبوا الكلام، فقالوا: البيع مثل الربا، كأنهم جعلوا الربا أمراً مقطوعاً بحلّه، فقاوسوا عليه البيع، ولذلك ردّ الله عليهم، فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ لما فيه من تبادل المنافع بين البائع والمشتري ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لما فيه من المخاطر والأضرار الجسيمة التي تلحق بالاقتصاد المالي، بحيث يغدو الإنسان كالوحش المفترس، همّه جمع المال، وامتصاصُ دماء الآخرين، أناسٌ يكذّبون ويتعبون، وآخرون يجنون ثمرة جهد غيرهم على برد الماء.

ومن التشبيه المقلوب قول الشاعر:

وَيْدَا الصُّبَا حَاشَ كَأَنَّ غُرَّتَهُ وَجْهَ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ

والأصل في التشبيه أن يقول: إن وجه الخليفة يشبه نور الصباح، ولكنه

عَكَّسَ وَقَلَّبَ للمبالغة، فجعل أنوار الصباح، تشبه في الضياء وجه الخليفة، وهذا من مظاهر التفنن والإبداع.

التشبيه التمثيلي

٧ - وهناك التشبيه المسمى بـ (التشبيه التمثيلي) وهو: أن يكون وجه الشَّبه فيه، ليس مفرداً وإنما هو متعدّد، ولهذا يقول علماء البلاغة: هو ما كان وجه الشَّبه صورةً منتزعةً من متعدّد، كقول الشاعر:

إِنَّ مَنْ أَذْبَنَتْهُ فِي الضُّبِّ كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرْبِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقاً نَاضِراً بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

فليس وجه الشبه هنا مفرداً، إنما هو صورة منتزعة من متعدّد، وهو تشبيه أدب الطفل في الصغر، بالنبات والأغصان، التي تُسقى بالماء، فتكبر وتثمر وتورق، وتصبح خضراء زاهية، بعد أن كانت يابسة. وكقول البوصيري في الصحابة:

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبَتْ رُبَا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ
يُشَبَّهُ ثَبَاتُهُمْ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ، كَأَنَّهُمْ نَبَاتٌ غُرِسَ عَلَى رُؤُوسِ الْهَضَابِ،

فزكا واشتدّ ونما، من قوة حزمهم وشجاعتهم، لا من إحكام ربط الأحزمة على ظهور الخيل. وهذا (التشبيه التمثيلي) وَرَدَ كثيراً في القرآن الكريم، بصور بديعة من صور البيان، اقرأ قوله تعالى مثلاً: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَرَابٍ يَقِيعٍ يَخَسِبُهُ

الظُّلُمَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَرَّ يَحْدَهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قَوْنَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿[النور: ٣٩] وتمعن قوله سبحانه: ﴿كَشَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَنَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ﴿[الحديد: ٢٠] وقوله جل ثناؤه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ جَبْتٌ ﴿[البقرة: ٢٦١] فوجه

الشبه فيها ليس مفرداً، إنما هو صورة منتزعة من متعدّد، يوضح جمالها الباهر، وسيأتي الحديث عنها مفصلاً، في مكانها من هذا الكتاب إن شاء الله.

الغرض من التشبيه

أما الغرض من التشبيه: إمّا المدح، وإمّا الهجاء، وإمّا توضيح وصفه، وبيان حاله. فالمديح كقول النابغة في الخليفة (عبد الملك بن مروان):

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوْكَبُ

والهجاء كقول المتنبي عن شخصٍ متحدِّثٍ ثَقِيلُ الظِّلِّ:

وَإِذَا أَشَارَ مُحَدِّثًا فَكَأَنَّهُ قِرْدٌ يُقْفِهِ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ

أما بيان الوصف والحال، فكقول بعض الناصحين: (العلمُ بلا عملٍ، كالشجرة بلا ثمر) و(العلمُ في الصغر، كالنقش على الحجر) وقالت الخنساء في أخيها (صخر) ترثيه:

وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارَ

عَلِمَ: يعني جبل، شبهته بجبل عالٍ أشعلت على قمته النار ليراها المسافرون. وقال بعض الشعراء، يصف نفسه في حال الرضى، وفي حال الغضب:

أَنَا كَالْمَاءِ إِنْ رَضِيتُ صَفَاءً وَإِذَا مَا سَخِطْتُ كُنْتُ لَهَيْبًا

يصف نفسه مفتخرًا بأنه كالماء السلسبيل في حال الصفاء والرضى، وكالنار الملتهة في حال السخط والغضب.

(بين الحقيقة والمجاز والاستعارة)

حينما نتكلم عن لفظٍ من الألفاظ، المعروفة عند البشر، مثل اسم (الأسد) و(البحر) و(الجبل) يتبادرُ إلى أفهام الناس، الحقيقة التي يعرفونها، فالأسد اسمٌ للحيوان المفترس، والبحر اسمٌ للماء الذي تجري فيه السفن، والجبل اسمٌ للشاهق المرتفع من الأرض، ولكن عندما نقول عن رجل جريء، يقارع الأبطال ويغلبهم: إنه أسدٌ، فلا نقصد به السَّبْعَ المتوحش، الذي يفترسُ بأنياه، إنما نقصد به الرجلَ الشجاع، الذي يشبه الأسدَ في قوَّته وشجاعته، وعندما نطلق على إنسان، واسع العلم والمعرفة ونقول: إنه بحرٌ متلاطمُ الأمواج، فلا نقصد به البحر الحقيقي، إنما نشبِّهه بالبحر في سعة العلم والاطلاع، كما اشتهر ابنُ عباس: بأنه (الْحَبْرُ الْبَحْرُ) أي أعلمُ النَّاسِ بفهم الكتاب العزيز.

ومن هنا تفاوتُ الأدباء والفصحاء في بلوغ أعلى المراتب، بمقدار ما لديهم من مهارة فائقة، في التعبير عما يجول في صدورهم، من وصفٍ رائقٍ بديع، يسكبونه في عباراتٍ فاتنة، تُشبي المشاعر والألباب، حُذ مثلاً قول المتنبي، وقد رأى ممدوحه وعانقه:

فَلَمْ أَرِ قَبْلِي مَنْ مَشَى الْبَحْرَ نَحْوَهُ وَلَا رَجُلًا قَامَتْ تُعَانِقُهُ الْأَسَدُ

قَصْدٌ ممدوحه، الذي شَبَّهه بالبحر، في الكرم والسخاء، وأراد بالأسد الرجال الشجعان الذين قاموا لمعائنته، لأن من المستحيل أن يعانق الأسد الإنسان، بل يفترسه ويبلعه، فهذا الإدعاء جاء من استعمال اللفظ في غير حقيقته، بتشبيه الكريم بالبحر، والشجعان بالأسود - لعلاقة المشابهة - لأن البحر لا يمشي، والأسود لا تُعانق البشرَ، وهذا ما يُسمَّى عند علماء البلاغة بـ(الاستعارة) وهي ضربٌ من ضروب فصاحة الكلام، وروعة البيان.!

استمع معي إلى بعض هذه الروائع، في خطبة (الحجاج) وقد أرسله الخليفة (عبد الملك بن مروان) والياً على أهل العراق، بعد أن اشتد شقاقهم وخلافهم على بيعة الخليفة، وزاد تمردهم على جميع الولاة، فرماهم بالحجاج والياً عليهم فقال لهم: (يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، إني لأرى رؤوساً قد أينعت، وحنّاً قطافها، وإني لصاحبها) شبه الرؤوس بالثمرات، التي تكون على الأغصان، وقد نضجت وأينعت، وحنّ وقت قطفها، وحذف المشبه به، وهي الثمار الناضجة، ورَمَزَ لها بشيء من لوازمها، وهي (أينعت) لأن النضج إنما يكون للثمار، لا للرؤوس، على طريقة (الاستعارة المكنية) وهي من روائع أنواع الاستعارة.

والقرآن الكريم مليءٌ بأمثال هذه الوجوه البلاغية، باستعمال التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والكناية، لأنه نزل بلغة العرب، وبأساليب التي يتخاطبون بها، فأعجزهم بأسلوبه الرائع المبين، استمع إلى قوله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١] فإن الظاهر المتبادر، أن الناس كانوا في ظلام دامس من الليل، فأخرجهم إلى نور النهار الوضاء، وهذا المعنى غير مراد، فالظلمات والنور لا يُقصد بالأولى إلا الضلال، ولا يُراد بالثانية إلا الهدى والإيمان، فالمعنى الصحيح المقصود من الآية: لتخرج البشرية، من ظلمات الجهل والضلal، إلى نور الهداية والإيمان، ففي الآية (استعارة تصريحية) شبه الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور، ثم حذف الكفر واستعار له لفظ (المشبه) وهو الإيمان ليقوم مقامه، بادعاء أن المشبه به، هو عين المشبه، وهذا أروع في البلاغة، وأبدع في البيان، ومن هنا جاءت معجزة القرآن، حيث عجز العرب، بل البشر جميعاً أن يجاروه في فصاحته وبيانه.

ما هي الاستعارة

تعريف الاستعارة: الاستعارة تشبيهٌ حُذِفَ أحدُ طرفيه (المشبه) أو (المشبه به) فعلاقتها المشابهة دائماً، وهي من أنواع (المجاز اللغوي) أي الانتقال من المعنى الظاهر، إلى المعنى الحقيقي المقصود، وهي قسمان:

الأولى: (استعارة تصريحية) وهي: ما صُرِّح فيها بلفظ (المشبه به).

الثانية: (استعارة مكنية) وهي: ما حُذِفَ فيها المشبه به، ورُمِز له بشيءٍ من لوازم معناه، قال الله تعالى في كتابه العزيز بالوصية بالوالدين ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] أي تواضع لهما بتذلل وخضوع، من فرط رحمتك وعطفك عليهما.

لقد جاء التصوير في الآية، في أبداع (صور الاستعارة) والجمال، فقد شبه التذلل والتواضع لهما، بطائر له جناحان، فإذا طار فتح جناحيه ونشّرهما، وإذا أراد التوقّف عن الطيران، قَبَضَ جناحيه إليه، شبه شدة التواضع لهما بقبض الجناح، ولم يكتف بذكر الجناح، بل أضافه إلى الذلّ ﴿جَنَاحَ الذَّلِّ﴾ ليشعره بالانكسار والخضوع التام بين يديهما، كأنه جناح مكسورٍ لذلّه، وليس هذا الذلّ، عن مهانةٍ في النفس، إنما هو عن محبةٍ ورحمة، ولهذا قال بعده: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ تكميلاً للمعنى، لإشعارهما بفيض التوقير والمحبة، فما أسمى وأبداع هذا التعبير القرآني، الذي سَمّا بهذه (الاستعارة) إلى أوجِ الفصاحة والبيان!!

وسرُّ بلاغة الاستعارة: أن تركيبها يدلُّ على تناسي التشبيه، وتخيل صورة جديدة، تُنسِي رَوْعَتها ما تَضُمُّه الكلام، من تشبيه خفيٍّ مستور، استمغ إلى قول الله جلّلت عظمته في وصف نار جهنم ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] بمجرد تلاوتها والإمعان فيها، ترتسم أمامك نارُ الجحيم، في صورة شخص، ضخم بطّاش، مكفهر الوجه، عابس الجبين، يَغْلِي صدره جَفْدًا وغيظًا، تَكَادُ تَقْطَعُ نَفْسُهُ من شدة الغضب على أعداء الله، والآية في الحقيقة تمثيلٌ لشدة اشتعالها بهم، حتى كأنها إنسانٌ يكاد يتمزق، من الغيظ العظيم، وهي تلهُفُ على شفاء غليلها، من الكفرة المجرمين، فالروعة هنا في الآية من حيث الابتكار، وروعة الخيال، ولهذا كانت (الاستعارة) أبلغ من التشبيه البليغ، ومجالها فسيح للإبداع، وتسابق قُرسان الكلام.

الاستعارة التمثيلية

عرّف علماء البلاغة (الاستعارة التمثيلية) بأنها تركيبٌ استُعمل في غير ما وُضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة، من إرادة المعنى الأصلي، يقول العرب في أمثالهم: (أنت ترقم على الماء) ويقولون: (أنت تنفخ في رَمَاد) يُقال هذا لمن يُلح في الحصول على أمرٍ مستحيل، لا يمكن الحصول عليه، بحالٍ من الأحوال، كمن يكتب على الماء رسالةً من الرسائل، وكمن ينفخ في الرَمَاد ليشعل النَّارَ، وقد انطفأ كلُّ ما فيها من جذوة.!

ولا بدّ في الاستعارة التمثيلية، أن يكون كلُّ من المشبّه، والمشبّه به، صورةً منتزعةً من متعدّد، كقول بعض الأدباء عن شخص مجاهد، عاد إلى وطنه منتصراً على أعدائه، بعد سفر طويل: (عادَ السيفُ إلى قِرابه، وحلَّ اللَّيْثُ مَنِيْعَ غَابه) اللَّيْثُ: الأسد.

شبّه الرجل الذي خرج غازياً في سبيل الله، ثم عاد منتصراً، بالسيف الذي استلّ للحرب والقتال، حتى إذا ظفر بالنصر، عاد إلى غِمدِه، والغِمدُ بيتُ السيف، وغلافُه الذي يوضع فيه، وشبّهه أيضاً بالأسد الهَـصُور، الذي يصول ويجول في الغابة، باحثاً عن فريسته، ثم يرجع إلى مسكنه الآمن، وقد نال كلُّ ما يبحث عنه ويشتهيهِ.

ومن هذا النوع التمثيلي البديع، قولُ المتنبي عمن لم يُرزق الذَّوقَ، في فهم الشعر الرائع:

وَمَنْ يَكْ ذَا قَمٍ مُرٌّ مَرِيضٍ يَجْذُمُ رَأْيَهُ الْمَاءَ الزَّلَّالَا
شبّه الذين يعيبون شعرةً لفسادِ ذَوَقِهِم، بالمرِيضِ الذي يُصاب بمرارةٍ شديدة في فمه، تجعله يمجُّ الماءَ الحلوَ العذبَ، ويجده مُراً غيرَ مستساغ، وما هو إلّا من مرارةٍ فمه، وفسادٍ مزاجه.!

واستمع معي الآن إلى هذه الروعة البالغة في آي الذكر الحكيم، حيث يقول ربُّ العزة والجلال عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَقْبَتَ عَلَيْكَ حَبَّةٌ مِنِّي وَلَوُضَعَتْ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. أي زرعْتُ محبتك في القلوب، بحيث لا يصبر عنك من رآك، حتى أحبك فرعونُ.

والتعبيرُ بقوله سبحانه: ﴿وَلَوُضَعَتْ عَلَى عَيْنِي﴾ بالغُ الروعة في الإبداع، حيثُ

مثّل له بملك عظيم، بُني له قَصْرٌ فخْمٌ ضَخْمٌ، تحت سَمْعِهِ وبَصَرِهِ، فجاء في غاية الحُسْن والجمال، هل ترى أبدع وأروع من هذا التمثيل، ومن هذا التصوير الفني البديع، للرعاية والحماية التي أحاط ربُّ العِزَّة والجلال بها نبيّه (موسى) الكليم، عليه أفضل الصلاة والتسليم؟ فما من مخلوقٍ بقدرته - مهما أوتي من روعة البيان - أن يأتي بمثل هذا التصوير البديع (الصنع على عين الله) لتشبيه الحَنّان والرعاية، التي نالها موسى عليه السلام، بطريق (الاستعارة التمثيلية البديعة)

تعريفُ الكناية

عَرَّف علماء البيان الكناية بأنها (لفظ أُطْلِق وأريد به لازمٌ معناه، وبعبارة أخرى تركُ التصريح بذكر الشيء، إلى ذكرٍ ما يلزمه) كقولهم: (فلان نقيُّ الثوب) يعنون أنه إنسانٌ شريفٌ، لا يرتشي، ولا يصدر منه ما يدنس كرامته.

وكقول الشاعر: (المجدُّ يمشي في ركابه) كَنَى به عن العزة والشرف، وفي الذكر الحكيم: ﴿فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَتَقَى فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] كنى به عن الحسرة والندم، وقال تقدست أسماؤه: ﴿أَوْ لَكَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: ٦] كَنَى به عن الجَمَاع، ومثلها قوله سبحانه: ﴿أَيْلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَاحِ الرَّفْتُ إِنْ نَسَايَكُمُ﴾ [البقرة: ١٨٧] الرَّفْتُ: كنايةٌ عن الجماع.

قال ابن عباس: (أراد تعالى بالرفْتُ: الجماع، ولكنَّ الله عزَّ وجلَّ حليمٌ، كريمٌ، يَكْنِي) تفسير ابن كثير ١/ ١٦٤، ومعنى يَكْنِي أي يأتي بالكناية، بدل اللفظ الصريح، وهذا من الآداب القرآنية الرفيعة.

ولا نجد في القرآن العظيم كلمةً نابيةً، أو كلمةً قبيحة، وردت بلفظها الحقيقي، دون أن تُذكر بطريق (الكناية) وبخاصة ما يتعلّق بالعلاقات الجنسية، فإنها كلّها وردت بالكنايات، بلفظ (الملامسة، أو المساس، أو التغطية، أو المباشرة، أو الحرث، أو الإفضاء) اقرأ قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] أراد بالمسِّ الجماع، وقوله جلُّ ثناؤه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْنَاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي واقعتها، وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَيْنِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] عبّر عن الجماع بالمباشرة لتعليمنا الأدب في الحديث، واستمع إلى قوله تقدست أسماؤه: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ يَشْتِمَ﴾ [البقرة: ٢٢٣] شبههنَّ بالأرض التي تُزرعُ

وَيُلْقَى فِيهَا الْحَبُّ، وَاقرأ قوله جَلَّ وَعَلا: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَظْهَرَنَّ فَإِذَا ظَهَرَ فَأْتُوهُنَّ بِمِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقول الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] كُلُّهَا تعني (المعاشرة الزوجية) وهذه من أوضح مزايا الكناية، وهي التعبير عن القبيح الذي لا يحسن ذكره، باللفظ اللطيف الذي تستسيغ الآذان سماعه، وأمثلة ذلك كثيرة جداً في القرآن الكريم.

اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ الْأَطْعَامِ﴾ [المائدة: ٧٥] قف معي لحظة أمام روعة التعبير المعجز، وهو قوله سبحانه: ﴿كَأَنَّا بِكُلَّانِ الْأَطْعَامِ﴾ فقد أشار بهذه اللفظة البديعة، بطريق (الكناية) إلى أَنَّ من أكل الطعام، وشرب الشراب، يحتاج إلى إخراج الفضلات (البول، والغائط) ولَمَّا كان ذكرهما قبيحاً، أورده بالكناية بهذا التعبير البديع، وبأسلوب العرب، فقد كانوا لا يعبرون عما لا يحسن ذكره إلا بالكناية، وكانوا لشدة نخوتهم وحرصهم على العِرض والشرف، يَكْنُون عن المرأة (بالبيضة) و(الشاة) و(الثخلة)، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَتُ الظَّرْفِ عَيْنٌ كَأَنَّهُنَّ يَبْصُرُ مَكُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩] شَبَّهْن بالبيض المكنون أي اللؤلؤ المستور في أصدافه. وقال الشاعر:

أَلَا يَأْنِي خُلَّةً مِنْ ذَاتِ عِزِّي عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامُ
كُنِّي بالنخلة عن (المرأة التي يحبها)، وهذه من بدائع الكنايات.

ويقولون في وصف الكريم: (فلان كثير الرِّماد) وهو كناية عن الكرم، لأن كثرة الرِّماد تدلُّ على كثرة الطبخ، وكثرة الطبخ تدلُّ على كثرة الضيوف، وكثرة الضيوف عنوان السخاء والكرم.

ويقولون عن البليد: (عريض القفا) أي غبي سئ الفهم، وعمن يجاهر غيره بالعداوة (لَيْسَ لَهُ جِلْدَ الثَّوْمِ) و(قَلْبٌ لَهُ ظَهْرُ الْمِجَنِّ) وكلُّها كنايات بديعة عمّن انقلب عن الصداقة إلى العداوة، ويقولون عن المزاح الثقيل: (إنه رسول الشر).

وقالت امرأة لبعض الولاة (أشكو إليك قلة الفئران) وهي كناية عن فراغ بيتها من الطعام، حتى عادت الفئران لا تأوي إلى منزلها، فقال لعماله: املاؤا بيوتها حباً، وسمناً، وزيتاً!

وبإيجازٍ فإن الكناية مظهرٌ من مظاهر البلاغة، وغايةٌ لا يصل إليها، إلا من لطف طبعه، وصفت قريحته، وتذوّق أساليب البيان، والسرُّ في بلاغتها أنها تعطيك الحقيقةً مصحوبةً بدليلها، وتضع لك المعاني في صور الأشياء المحسوسة، وهذه من خصائص الرسّام المبدع، الذي يرسم لك صورةً للأمل، أو اليأس تبهرك، وتجعلك ترى ما كنت عاجزاً عن التعبير عنه، واضحاً ملموساً، استمع إلى قول الشاعر، وهو ينفحك ببيانه العذب:

عَسَى الْكَزْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرْجٌ قَرِيبُ

المجاز اللغوي

تعريف المجاز: وأما (المجاز اللغوي) عند علماء البلاغة، فقد قالوا: إنه اللفظ المستعمل في غير ما وُضع له لعلاقة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي.

والعلاقة قد تكون المشابهة، وقد تكون غيرها، كقول الشاعر: (بِلَادِي وَإِنْ جَارَتْ عَلَيَّ عَزِيزَةٌ) فإن البلاد لا تجور، وإنما يجور ويظلم أهلها، وكقوله تعالى: ﴿وَسَنَلِي الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فإن القرية لا تُسأل، وكذلك الإبل لا تُسأل، إنما يُسأل أصحابها وأربابها.

وبعد هذا الحديث عن (التمثيل، والاستعارة، والكناية، والمجاز، والتشبيه) نبدأ بذكر نماذج، استعملها القرآن الكريم، بأسلوبه المبدع، وبيانه المعجز، فنتناول بعض هذه الآيات الكريمة، على ضوء ما عرفناه من أساليب العرب، في مخاطباتهم ومحادثاتهم.

وعلى هذا المنوال في الأسلوب والحديث، جاءت آيات الذكر الحكيم، تخاطبهم بما يفهمون ويعرفون ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] فنقول مستمطرين رحمة الله، مستمدين منه العون والتوفيق.

الإبداع البياني
في القرآن العظيم



الإبداع البياني في سورة البقرة

١ - قوله تعالى: ﴿ خُتِمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧] في الآية (استعارة تمثيلية) كأن الكفار قطع من البهائم، لا تفقه، ولا تعقل، قلوبهم في حُجُب كثيفة، قد طُبِع عليها، فلا يدخل إليها إيمان، وكأنهم صُم لا يسمعون، وعمي لا يبصرون، والخُتْم: الطَّبْع والتَّغْطِيَةُ على الشيء حتى لا يدخله نور، والغشاوة: الغطاء، ولما كانت القلوب غير واعية، والأسماع غير مستفيدة من الكلام الذي تسمعه من الخير، جعلت بمتزلة الأشياء المختوم عليها، ختماً حياً، بطريق (الاستعارة التمثيلية).

٢ - قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَكَارِبَتْ يَحْتَرِثُهُمْ وَمَا كَانُوا مُنْذِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٦] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، شبه تعالى تركهم الإيمان، وأخذهم بذل الكفر، بإنسان اشترى بضاعة، ودفع فيها ثمنًا باهظًا، ثم ذهبت التجارة مع الربح، فعظمت خسارته، واشتدَّ حزنه!

استعار لفظ الشراء ﴿ اشْتَرَوْا ﴾ للاستبدال، ثم زاده توضيحاً بقوله: ﴿ فَكَارِبَتْ يَحْتَرِثُهُمْ ﴾ وهذا ما يُسَمَّى بالترشيح، الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا من البيان.

والمعنى: إنهم استبدلوا الكفر بالإيمان، فما ربحوا في هذه التجارة، بل خسروا، لأنهم اشترؤا الخسيس وهو (الكفر) بالنفيس وهو (الإيمان) فأصبحوا في غاية الخسران، بتزيين الشيطان. ١

٣ - قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَسْخٌ ۖ أَوْ يَنْسَخُ ۖ أَنْ يُصْرَبَ مَكَلًا ... ﴾ [البقرة: ٢٦] عبر بالحياة عن الامتناع والترك، عن طريق (إطلاق الملزوم وإرادة اللازم) بطريق (التمثيل) لأن من استحب من فعل شيء تركه، أي لا يمتنع ولا يترك ضرب المثل بأي شيء كان، صغيراً كان أو كبيراً.

قال الحافظ ابن كثير: ﴿ لَا يَنْسَخُ ۖ ﴾ أخبر تعالى أنه ﴿ لَا يَنْسَخُ ۖ ﴾ أي

لا يستكف أن يغرب مثلاً بالبعوضة، فما هو دونها في الحقارة والصغر، فكما لا يستكف عن خلقها، كذلك لا يستكف من ضرب المثل بها، كما ضرب المثل بالذباب، والعنكبوت. اهـ تفسير ابن كثير ٦٨/١.

٤ - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ عَهْدُ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٧] أصل النقص: فسح التركيب للشيء الحسي، كالحبل، والبناء، واستعمل في نقص العهد، بطريق (الاستعارة البديعة) فقد شبه تعالى العهد: بالحبل المفتول، إذا نُقِضَتْ أوصالُه، وحذَفَ المشبه به، وهو (الحبل) ورُمِزَ له بشيء من لوازمه، وهو (النقص) على وجه (الاستعارة المكنية).

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا يَمَانِيكُمْ فَمَا لَكُمْ أَنْ تَقُولُوا﴾ [البقرة: ٤١] الشراء هنا ليس على الحقيقة، وإنما هو بطريق (الاستعارة) لأن البيع والشراء إنما يكون في الأمور المادية الحسية، لا المعنوية.

قال ابن كثير: أي لا تعاضوا عن الإيمان، وتصديق الرسول، بشهوات الدنيا الفانية، فقد اعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وعن الإيمان بالكفر. اهـ ابن كثير ٥٥/١.

٦ - قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] الاستفهام ﴿اتَّخَذُوا﴾ خرج عن حقيقته، إلى معنى (التوبيخ والتفريع) وعبر عن ترك الدعوة إلى الخير بالنسيان ﴿وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ مبالغة في الترك والتوبيخ، كأن الأمر لا يجري لهم على بال، تأكيداً للغفلة المفرطة.

٧ - قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ سِوَةَ اللَّهِ بِالْعَذَابِ بِذُنُوبِكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٩] أصل السؤم إنما يكون في البيع والشراء، واستعماله في الإذاعة جاء بطريق (الاستعارة البديعة) أي يذيقونكم أشد العذاب وأفظعه، ثم فسر العذاب بذبح الذكور، واستبقاء الإناث على قيد الحياة، ولذلك لم يعطفه بالواو، لأنه تفسير له وتوضيح.

٨ - قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا...﴾ [البقرة: ٥٧] في الآية (إيجاز بالحذف) أي قلنا لهم: كلوا من طيبات ما رزقناكم، فحذف كلمة (قلنا) إيجازاً لدلالة السياق عليه، كما أن في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه أيضاً (حذف بالإيجاز) تقديره: فظلموا أنفسهم وما ظلمونا، وهذا من روائع (الإيجاز البياني) في الأسلوب العربي البديع

٩ - قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ نَارًا تُبْقِئُ الْأَرْضَ مِنْ قَرْنَيْهَا وَقَفَّاهَا﴾ [البقرة: ٦١] المخرُجُ الحقيقي للنبات هو الله رب العالمين، ونسبة الإنبيات إلى الأرض، علاقته (السيئة) لأن الأرض لما كانت سبباً لخروج النبات، أسند إليها بطريق (المجاز العقلي) لأن هذا الأمر يُدرك بالعقل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَرْزُقْكُمْ أَلَمْ نَرْزُقْكُمْ﴾ [الواقعة: ٦٤]؟ قاله هو المنيث لا الأرض اليابسة الجرداء.

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِنَا أَنَّهُمْ﴾ [البقرة: ٦١] في الآية استعارة لطيفة تسمى (الاستعارة بالكناية) شبه إحاطة الذل والهوان بهم من كل جانب، بإحاطة القبة أو الخيمة على من تحتها، أي لزمهم الذل والخشوع والخُنُوعُ وأحاط بهم، كما تحيط القبة بمن ضربت عليه.

قال الشاعر:

إِنَّ السُّمَّاخَةَ وَالْفُرُوءَةَ وَالسُّدَى قِي قُبَّةِ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْخُشْرِجِ
١١ - قوله تعالى: ﴿حُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ يَنْبُذْ وَادُّوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣] من أساليب العرب البلاغية (الإيجاز في التعبير) بحذف بعض الكلام، إذا كان السياق يدل على المحذوف، ففي الآية هنا (إيجاز بالحذف) أي قلنا لبي إسرائيل: ﴿حُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ واعملوا بما في التوراة، بحدٍّ وعزيمة، فحذف جملة (قلنا لهم) على حد قول علماء البيان: البلاغة الإيجاز.

١٢ - قوله تعالى: ﴿هَمَلْنَاهَا كَكَلَامِ إِنْسَانٍ يَذَّيَبُ وَمَا خَلَقَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦] في الآية ﴿لِّنَّاسٍ يَذَّيَبُ وَمَا خَلَقَهَا﴾ (كناية) عن الأمم والخلائق، الذين كانوا قبل اليهود، والذين يأتون بعدهم، والمراد أن مسخهم إلى قردة، كانت عظة وعبرة للخلق جميعاً، سواء منهم من شاهدها وعابنها، أو من سيأتي ويسمع أخبار هؤلاء المجرمين المعذبين، وهي من (الكنايات البديعة)، كقولهم (بين يدي السورة) ومعلوم أن السورة ليس لها يَدَانِ، وإنما المعنى: أمام السورة.

١٣ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَتَّيْتُ قُلُوبَكُمْ فَرَأَيْتُمْ أَفْعَادَ قَوْمٍ كَالْجِبَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] تشبيه القلوب في قسوتها بالحجارة فيه (استعارة تصريحية) بديعة، استعيرت (القسوة) لعدم تأثر اليهود بالمواعظ والعبر، تشبيهاً لها في الصلابة والغلظ، بالحجارة والحديد، التي تستعصي على الإلانة والتلين، فكأن قلوبهم لصلابتها وجفائها، أصبحت كالحديد، الذي لا يلين إلا بالنار الحامية الألهية.

١٤ - قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا خَلْقًا نَّكَارًا﴾ [البقرة: ٧٤]

الأنهار لا تتفجر، إنما الذي يتفجر مياؤها، أي تتفجر منه مياه الأنهار، ويسمى هذا عند علماء البلاغة (بالمجاز المرسل) والعرب يطلقون اسم المحل (كالنهر) على الحال فيه، وهو (الماء) بطريق المجاز المرسل.

١٥ - قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا خَلْقًا نَّكَارًا﴾

[البقرة: ٨١] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، شبه الجرائم والذنوب التي ارتكبوها، بجيش من الأعداء، نزل على قوم من كل جانب، فأحاط بهم إحاطة السوار بالمغصم، واستعار لفظ (أحاط) لغلبة الذنوب والسيئات على الحسنات، فكانها أحاطت بهم من جميع الجهات، بطريق الاستعارة التصريحية.

١٦ - قوله تعالى: ﴿كَذَّبْتُمْ فَتَقَلُّوا وَفَقِيرًا تَقْلُوبًا﴾ [البقرة: ٨٧]

ورد الأسلوب القرآني بصيغة الماضي ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ وفي الثاني بصيغة المضارع ﴿تَقْلُوبًا﴾ ولم يقل: قتلتم لتوافق مع كذبتم، وذلك للاحية بلاغية، وهي أن المضارع يفيد (التجدد والاستمرار) فالكذب حصل منهم لرسول الله وانتهى، والقتل لا يزال يتجدد منهم ويستمر، وكأنه بصور لنا جرائم اليهود، وهم ماضون في قتل الأنبياء، وسفك دماء الرسل، ويستحضر جرائمهم الشنيعة، كأننا الآن نراهم ماضين في هذا العدوان، تفضيلاً عليهم وتشجيعاً، وهذا هو السر في العدول عن (الماضي) إلى (المضارع)، كما نقول: المطر ينزل، فإنه يفيد الدوام وعدم الانقطاع؛ بخلاف قولنا: نزل المطر.

١٧ - قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَبُوا إِلَى قُلُوبِهِمْ لَمْ يَعْلَمِ بِغُفْلَتِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]

فيها (استعارة مكنية) شبه حب عبادة اليهود للعجل، بشراب لذيذ، سائغ الطعم، دخل إلى قلوبهم، ونفذ فيها نفوذ الماء، فتمكّن فيها، ومازجها ممازجة المشروب اللذيذ، وطوى ذكر المشبه به، على طريقة (الاستعارة المكنية) البديعة، وفرق كبير بين الأسلوب القرآني المعجز ﴿وَأَسْرَبُوا إِلَى قُلُوبِهِمْ لَمْ يَعْلَمِ﴾ وبين التعبير بقولنا: أحبوا عبادة العجل وتركوا عبادة الله، كالفارق بين الثرى والثريا.

١٨ - قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْمَا يَأْخُذْكُمْ بِهِ يَسْتَكْمِلْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مَرْجُومًا﴾

[البقرة: ٩٣] الإيمان لا يأمر بعبادة العجل، ونسبة ذلك إلى الإيمان، إنما ورد على سبيل (الشخيرة والتهكم)، بإضافة الإيمان إليهم، تهكم بهم وشخيرة.

١٩ - قوله تعالى: ﴿بَلَّ مَنْ آمَنَ وَجْهُهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُخْسِنٌ...﴾ [البقرة: ١١٢]
عبر عن الاستسلام الكامل بالنفس لله بالوجه، بطريق (المجاز المرسل) من
باب (ذكر الجزء وإرادة الكل) أي أخلص، وخضع لله رب العالمين بالكلية،
بروحه، وعقله، وقلبه، كقولهم: كرم الله وجهك.

قال الإمام الفخر: إسلام الوجه لله، يعني: إسلام النفس لطاعة الله
ومرضاته، وقد يكتفى بالوجه عن النفس - أي الذات - كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ
عَالِيكَ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أي إلا الله جل جلاله، وانظر أيضاً تفسير ابن
كثير ٤/١٤٤ فقد قال: عبر بالوجه عن الذات، والمعنى: كل شيء هالك إلا
الله الحي القيوم.

٢٠ - قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ...﴾ [البقرة: ١٣٣]
من المعلوم أن الموت إذا حل نفسه، لا يقول المحضر شيئاً، ففي قوله تعالى:
﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ كناية عجيبة غريبة، شبه الموت بالشخص الغائب، الذي
لا بد أن يقدم على أهله، وفي الدعاء المأثور: «واجعل الموت خيراً غائب
نتظره» فالموت قادم على كل إنسان، غائب عن الخلق، لا بد أن يفاجئهم
بحضوره.

٢١ - قوله تعالى: ﴿لِيَقْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّا يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ...﴾
[البقرة: ١٤٣] العقب: مؤخر القدم، والانتقال على العقين (استعارة تمثيلية)
بديعة، شبه من يرتد عن دينه، بمن ينقلب على عقبيه - أي يعود إلى الوراء
متكسباً في مشيه - كمن يمشي إلى الخلف، بدل المشي إلى الأمام، وردت الآية
بطريقة التمثيل، وهي استعارة بديعة.

٢٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُصِيعَ إِتْسَاكَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] يعني
صلاتكم، سئى تعالى الصلاة (إيماناً) لأن الإيمان لا يصح بدونها، ولأنها أهم
أركان الدين، فقد قال ﷺ: «أَلَا لَا دِينَ لِمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ».

نزلت الآية حين تحولت القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، فقال
بعض الصحابة يا رسول الله: كيف بإخواننا الذين كانوا يصلون إلى بيت
المقدس؟ - أي هل بطلت صلاتهم؟ - فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُصِيعَ إِتْسَاكَكُمْ﴾
أي صلاتكم، سئى الصلاة إيماناً. - اهـ ابن كثير.

٢٣ - قوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَاهِ...﴾ [البقرة: ١٤٤]

أطلق الوجه وأراد الذات أي توجه بكامل جسدك إلى جهة المسجد الحرام - الكعبة المشرفة - ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) وإذا لم يتحقق التوجه إلى الكعبة بالجسم كله، لم تصح الصلاة.

٢٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الثَّوَرِ مِنَ شُعَابِ اللَّهِ...﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية على حذف مضاف، أي من شعائر دين الله الذي شرعه لعباده، حذف من الآية لفظ الذين، ويسمى (الإيجاز بالحذف) وهو أسلوب بلاغي، كقوله تعالى: ﴿وَنَشِئِلَ الثَّوَرِ﴾ أي أهلها، والشعائر: جمع شعيرة وهي العلامة، أي من معالم دين الله، الذي أعلم بها عباده.

٢٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] الخطوات جمع خطوة وهي ما بين قدمي الماشي، والآية جاءت بطريقتين (الاستعارة التصريحية) البديعة، أي لا تسلكوا طرق الشيطان، فيما يزيته لكم من الفواحش والمنكرات، وهذه الاستعارة أبلغ عبارة عن التحذير من طاعة الشيطان، فيما يأمر به، ويدعو إليه، من الوسوس والسفاهات، كأن طاعة الشيطان سبب وراءه حثيث، بوضع القدم مكان القدم، والسير في ركابه خذو الثقل بالثقل.

٢٦ - قوله تعالى: ﴿وَنَشِئِلَ بِهِمْ ثَمَاقِيلًا أَثْقَلُ مَا يَأْكُلُونَ فِي ثُلُونِهِمْ إِلَّا نَارًا﴾ [البقرة: ١٧٤] شبه تعالى المال الحرام الذي أكلوه، بجم من نار جهنم يأكلونه يوم القيامة، ففي الآية (مجاز مرسل) باعتبار ما سيؤول أمرهم إليه، أي إنما يأكلون المال الحرام، الذي يفضي بهم إلى النار، وقوله تعالى: ﴿فِي ثُلُونِهِمْ﴾ زيادة تقبيح وتشنيع عليهم، وتصويرهم بمن يتناول زخف جهنم، وذلك أفظع سماعاً، وأشد إيجاعاً، ونهي المأكول نأراً، لأنه يؤول بهم إلى النار، كقوله تعالى: ﴿أَغْصِرْ حَنَرًا﴾ [يوسف: ٣٦] أي أعصر عباً يؤول إلى الخمر، وهو من بديع المجاز.

٢٧ - قوله تعالى: ﴿أَتَيْتُكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ [البقرة: ١٧٥] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، فقد استعار الشراء للاستبدال، أي استبدلوا الضلالة بالهدى، وأخذوا الكفر ببدل الإيمان، والعذاب بدل المغفرة، وهذا النوع من أطف الاستعارة وأبدعها، لأن البيع والشراء يكون في التجارة، فكأنهم بمنزلة من يشتري سلعة فاسدة، بمبلغ كبير من

المال، ثم تظهر خسارته الفادحة ﴿مَتَى أَصْبَرْتُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي ما أشد صبرهم على نار جهنم !! وهو تعجيب من أمر أولئك الأشقياء، الذين أكلوا الحرام حتى أوردتهم نار الجحيم.

٢٨ - قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَتُخْفَكُم بِذَلِكَ الشَّرِيفُ وَالْغُيُوبُ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية وردت على وجه المبالغة، فقد جعل البرُّ - وهو فعل الخير - الإيمان نفسه، وهذا معروف في كلام البلغاء، يقولون: السخاء حاتم، والشُّعْرُ زهير، أي السخاء سخاء حاتم، والشُّعْرُ شعْرُ زهير، وعلى هذا خرَّج سبويه الآية، فقال المعنى: ولكن البرُّ برُّ من آمن بالله واليوم الآخر، ونظيرُ هذا أن تقول: ليس الكرم أن تبذل درهماً، ولكن الكرم أن تبذل الملايين.

٢٩ - قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكَ عَلَى خَيْبٍ مِنْهُ يَدْعُ الْمُشْرِكُ﴾ . وفي الرِّقَابِ [البقرة: ١٧٧] في الآية إيجاز يسمى (الإيجاز بالحذف) أي وفي فك الرقاب يعني الأرقاء والمحاليك، وتخليصهم من رق العبودية، فالمراد (بالرقبة) العبد المملوك، وأن يُعتق في سبيل الله، ليصبح حراً، بعد أن كان عبداً، وأما ابن السبيل فهو المسافر الغريب الذي انقطع في سفره، تُسبب إلى الطريق (مجازاً) وهذا مشهور عند العرب، كأن الطريق أبوه وأهله، لضياح ثروته، وفقد ماله.

٣٠ - قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَتَذَكَّرُ الْأَنْبِيَاءُ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] في الآية الكريمة من (الإيجاز والحذف) روعةً تفوق الخيال، حيث بلغ بها أسمى درجات البلاغة والبيان، فقد جعل القصاص سبباً لحياة البشر، وثمرة للأمن والاستقرار، ورادعاً عن الظلم والعدوان، وقد كان للعرب حكمة بليغة حول هذا المعنى، حيث جاء في الأمثال قولهم: (القتل أنقى للقتل) ظلُّوها أسمى وأبلغ كلمة تُقال في هذا الموضوع.

أما سمو الآية عليها، فهو في الذروة العليا، التي لا يدانيها أسلوب من أساليب البشر، وذلك يتضح من وجوه:

١ - قلة الحروف.

٢ - عدم التكرار في الآية، بخلاف حكمة العرب، فقد تكرر فيها لفظ القتل.

٣ - التناسق والاطراد النام، إذ في كل قصاص حياة للبشر، وليس كل قتل أنقى للقتل، فإن القتل عدواناً وظلماً، يكون ادعى للقتل.

٤ - عذوبة اللفظ في الآية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ فقد جعل الحياة والأمن، والسعادة، والاستقرار، في (إقامة القصاص) لأن القاتل إذا أيقن أنه سيقتل، لا يُفْهِم على القتل، فكان القصاص سبب حياته وحياة غيره، وبذلك تصان الدماء، وتُحَفَظ حياة الناس، وهو كلام في غاية الفصاحة، فقد جعل الشيء محلّ ضده، بهذه المعادلة البسرة: (الاقتصاص من القاتل، سبب للأمن وللحياة، وعدم الاقتصاص منه، سبب للفناء والدمار).

٥ - ذكر الشيء وضده، وهو ما يسمى في علم البديع بـ(الطباق) فإن القصاص - يعني القتل - قَاتِلُهُ الحياة، قَطَابِقُ بين ذكر الشيء وضده، كقوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ وَيُنَبِّئُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿يُنَكِّطُ يَفْزُؤُ﴾ [الكهف: ١٨] إلى غير ما هنالك من الفوارق البديعة، التي تجدها في نفحات الإعجاز، حيث جعلت الآية إقامة القصاص في الأرض، سبباً لحياة البشر وأمنهم، والمثلّ العربي جعل القتل سبباً لنفي القتل، وهو لا يستلزم الحياة، بل قد يكون سبباً للإفناء، فقد كان العرب إذا قُتِلَ واحدٌ منهم، يقتلون به عشرة، وإذا قُتِلَ منهم عبدٌ يقتلون به حراً، أو يقتلون به رئيس القبيلة، فيحتاج المثلّ العربي إلى توضيح، وزيادة في اللفظ، ليصبح الكلام صحيحاً، مثل أن يقال: (القتل قصاصاً أبعد عن زيادة القتل)، وأين الثرى من الثرى!!

قال العلامة الشوكاني: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ هذا نوع من البلاغة بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع، فإنه جعل القصاص - الذي هو موت - حياة، باعتبار ما يؤول إليه، من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضاً، إبقاء على أنفسهم، واستدامة لحياتهم، وجعل هذا الخطاب موجهاً لأولي الألباب، لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب، دون ذوي الطيش والخفق، الذين قال بعض جهلائهم: مَا تُغْبِلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسِّنْفِ جَالِباً عَلَيَّ قَضَاءَ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِباً

اه تفسير الشوكاني ١/ ٢٤٣.

٣١ - قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] في الآية الكريمة (إيجاز بالحذف) تقديره: فمن كان منكم مريضاً يضره الصوم فأفطر، فعليه قضاء الأيام التي أفطرها، ومن كان منكم مسافراً سافراً بعيداً فأفطر، فعليه قضاء ما أفطر، بعدد الأيام التي أفطرها، وإذا صام المريض أو المسافر، فليس على أحدهما قضاء، فدلّ هذا على المحذوف

من الآية الكريمة، وهو من (روائع الإيجاز) ببدائع الإعجاز، لمن يدرك أسرار الكتاب العزيز! ولو حملنا الآية على ظاهرها، لوجب الصوم في جميع الحالات.

٣٢- قوله تعالى: ﴿أَيُّ لَكُمْ بَلَّةَ الْبَقَرَةِ أَلَمْ يَأْتِ الْبَقَرَةَ الْبَقَرَةُ﴾ [البقرة: ١٨٧] الرُّفْتُ هنا: (كناية) لطيفة عن الجماع، أي أبيع لكم جماعاً نساكنكم، في لبالي شهر رمضان، وعُذِّي بـ (إلى) لأن فيه معنى (المباشرة والإفشاء)، وهذا التعبير من (الكنايات الحسنة)، التي تذهب باللفظ إلى علياء السمو والطهر، دون لفظ مستهجن.

قال ابن عباس: أراد الله بالرفث: الجماع، ولكن الله عز وجل، حلیم، كريم، يكتفي!! أي يأتي بالكناية مكان اللفظ الصريح.

وقال الزجاج: الرُّفْتُ: كل ما يأتيه الرجل مع المرأة، من قبلة، ولحم، وملاعبة، وجماع، واستدل بقول الشاعر:

وَيُزِينُ مِنْ أُنْسِ الْحَدِيثِ زَوَانِيَاً وَيَسْهِنُ عَنْ رَفَثِ الرُّجَالِ يَفَاؤُ
فتح القدير للشوكاني ٢٥٤/١.

٣٣- قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِ لَكُمْ وَأَنْتُمْ يَأْتِ لَهَا...﴾ [البقرة: ١٨٧] الآية الكريمة جاءت في غاية الروعة والإبداع، في تصوير (العلاقة الجنسية) بين الزوجين، وسلكت بطريق الاستعارة اللطيفة، مسلماً أفاض عليها كساء البهاء والجمال، فقد شبه المرأة باللباس، الذي يزِين الإنسان، ويستُرُّ قبضه ﴿مَنْ يَأْتِ لَكُمْ﴾ ولولا اللباس الساتر، لبدت سواة الرجل، فكان منظره قبيحاً، تنفر منه الطباع، فالمرأة سترٌ للرجل، وسكنٌ له، تزِينه، وتُجَمِّلُه، وتكْمَلُه، والرجل سترٌ للمرأة، يزِينُها ويستُرُّها وتُجَمِّلُها، وهما حالة المعاشرة - الجماع - كأنهما روحان حلًا في جسد واحد، بثوب واحد، فسُتر كل منهما الآخر.

فانظر إلى روعة الجمال الفتي في تصوير القرآن، فقد أفضى بهذه الاستعارة البديعة، إلى أبدع صور الجمال والجلال، مع اللفظ اللطيف، والمعنى الشفيف، ولو تركنا الآية على ظاهرها، دون أن نسلك بها طريق (الإبداع البياني) بأسلوب (الاستعارة)، لجاء المعنى عجيباً وغريباً، بحيث يفسره الجاهل: هنَّ سراويل لكم، وأنتم سراويل لهن، وباللغة الفرنسية: هنَّ

بنطلونات لكم وأنتم بنطلونات لهن، كما ترجمها بعض المستشرقين من الفرنسيين، ظناً منهم أن هذا هو المراد، وعليه نقول: لا يجوز مطلقاً ترجمة القرآن باللفظ الحرفي إلى أي لغة من اللغات، إنما تكون الترجمة لمعاني القرآن الكريم، فتدبر هذا والله يردك.

٣٤ - قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] في الآية الكريمة (استعارة عجيبة) عبر عن إشرقة النور بالخيط الأبيض، وعن حُلكة الظلام بالخيط الأسود، بطريق (الاستعارة البديعة) العجيبة، وسأني قصة (عدي بن حاتم)، فانظرها صفحة (٤٥٥) والله يردك.

٣٥ - قوله تعالى: ﴿يَنْفَكُّ عَنْهُ اللَّهُ فَلَا تَقْرُبُوهَا...﴾ [البقرة: ١٨٧] كُتِبَ عن ارتكاب المعاصي، وفعل المويقات بالقرب ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أي لا تنتهكوا محارم الله، مبالغة في التحذير عن مقارفة ما حرم الله، وهو أبلغ من قوله: لا تفعلوا ما حرمه الله عليكم، فإذا كان القرب منها محرماً، فالفعل يكون بلا شك من باب أولى أشد إثمًا، وأعظم تحريمًا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّوَاجَ إِنَّمَا كَانَ فِتْنَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فهو أبلغ من قوله: ولا تغربوا.

٣٦ - قوله تعالى: ﴿يَتَنَبَّهُونَ عَلَى الْأَهْلَةِ فَذِينَ مَوَاقِعَهُ، لِلنَّاسِ وَالصَّيِّمِ﴾ [البقرة: ١٨٩] يُسَمَّى هذا في علم البديع (الأسلوب الحكيم) فالصحابة سألوا رسول الله ﷺ عن الهلال لِمَ يبدو دقيقاً، ثم يزيد ويكبر، حتى يصبح بديراً، ثم يرجع إلى النقصان؟ فنزلت الآية تصرفهم إلى معرفة ما هو أهم، وكأنها تقول: كان الأولى بكم، أن تسألوا عن حكمة (خلق الأهلة)، لا عن كيفية بدء الهلال صغيراً ثم اكتماله، ثم عودته صغيراً، فأخبرهم تعالى أنها معالم لمعرفة أوقات الصيام، والحج، وهذا ما يسميه علماء البلاغة (الأسلوب الحكيم).

٣٧ - قوله تعالى: ﴿الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْأَشْهُرِ الْحَرَامِ وَالْأَزْوَاجِ وَالْأَمْوَالِ﴾ [البقرة: ١٩٤] في الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: هنك حرمة الشهر الحرام، تُقَابِلُ بهتك حرمة الشهر الحرام، فإذا قاتلوكم في الشهر الحرام، فقاتلوهم فيه، ويسمى (حذف الإيجاز).

٣٨ - قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ فَأَعَدُّوا عَلَيْهِمْ بِشَرِّ مَا أَعَدَّكَ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] سُمِّيَ جزاء العدوان عدواناً، للتشابه بالصورة دون الحقيقة، ويسمى في علم البلاغة (المشاكلة) وهي الاتفاق باللفظ، مع الاختلاف في

المعنى، فالعدوان ظلم، ورد العدوان ليس بظلم، بل هو عدل محض، وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿وَعَزَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشورى: ٤٠].

قال الزجاج: العرب تقول: ظلمني فلان فظلمته أي جازيئه بظلمه، والمعنى: من اعتدى عليكم فقابلوه بعقوبة مماثلة.

٣٩ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحِلُّوا زِينَتَكُمْ حِينَ تَبُغُ الْمَسَاجِدَ﴾ [البقرة: ١٩٦] كنى عن (التحلل) بحلق الرأس، والخطاب للمحصرين أي لا تتحللوا من إحرامكم حتى تذهبوا الهذي، في المكان الذي تحصرون فيه، وهذه من (الكنايات البدعية) حيث أطلق الحلق، وأراد به التحلل من الإحرام.

٤٠ - قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ...﴾ [البقرة: ١٩٦] في الآية (إيجاز بالحذف) أي من كان منكم مريضاً فخلق رأسه، أو به أذى من رأسه، كجراحة أو قمل، فخلق، فعليه فدية ... الخ.

٤١ - قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] في الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: كان الناس أمة واحدة، على الإيمان والتوحيد، متمسكين بالحق، فاختلَفوا وتنازعوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين... ودل على المحذوف قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ فَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال ابن عباس: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون - يعني ألف سنة - كلهم على الإسلام، وعلى شريعة الحق، فاختلَفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) اهـ تفسير الشوكاني ٢٨٣/١.

٤٢ - قوله تعالى: ﴿يَتَخَلَّفُونَ عَنْ الْحَرِّ وَالْثَّيِّرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ [البقرة: ٢١٩] في الآية أيضاً (إيجاز بالحذف) أي يسألونك عن شرب الخمر، وتعاطي الميسر - القمار - فقل لهم: إن فيهما ضرراً عظيماً، وإثماً كبيراً، ومنافع مادية ضئيلة، وضررهما أعظم من نفعهما، وهذا من باب التفصيل بعد الإجمال.

٤٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَا يَلْعَنُ قَوْمًا يَعْزِفُ عَنْهُمْ مِنَ الْقُرْبِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] (كناية) عن الجماع أي لا تجامعوه حتى ينتهي الحيض ويفتسلن، فإذا تطهرن فأنهن في المكان الذي أحله الله لكم، وهو القبل لا الدبر، كنى عن الجماع بالقرب ﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾ كما كنى عنه أيضاً

بِالْإِتْيَانِ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ وكلُّ هذه من الآداب الإسلامية، التي ينبغي أن يستعملها الناس في مخاطباتهم، دون اللفظ الصريح.

٤٤ - قوله تعالى: ﴿يَنذَرُكَ حَرْثٌ لَّكَ فَاثَا حَرْثَكُمْ أَفَنَسْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]

الآية كما يقول علماء البيان: على حذف مضاف أي مواضع حَرْثٍ لكم، شُبِّهَت المرأة بالأرض، التي يُلقى فيها البذر للزراعة، وهو تشبيه واضح وعجيب، وذلك لما يُلقى في رحمها، من الطُّفْلِ التي تشبه البذور، فالأرض موطنٌ للزرع، والرحم موطنٌ لتخلُّق الجنين، والحَرْث: إلقاء البذر في الأرض.

وقوله: ﴿أَفَنَسْتُمْ﴾ أي كيف شتم، جالسةً، مستلقيةً، مضطجعةً، بعد أن يكون في الفرج، وهو المكان الذي يصلح للإنبات والولادة، فإن الذبَر ليس موضع الحَرْث.

والآية نزلت ردًّا على اليهود فقد كانوا يقولون: «إذا جامعها من ورائها في الفرج، جاء الولد أحول» فنزلت الآية، رواه البخاري. وفي الحديث: «ملعون من أتى امرأة في دبرها» رواه أبو داود.

٤٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَمْلَأُ أُلُوهَ غَيْثٍ بِالْمُغْرِبِ وَلِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]

في الآية (إيجاز) وإبداع في غاية الروعة والجمال، لا يخفى على الدارس لعلوم البيان، أي للنساء على الرجال من الحقوق والواجبات، مثل الذي للرجال على النساء من الحقوق والواجبات، فاختصر هذا الكلام كله بقوله: ﴿وَلَقَدْ يَمْلَأُ أُلُوهَ غَيْثٍ﴾ وفي الآية من المحسنات البيديعية ما يسمى بالطباق، بين (لهن) و(عليهن) وهو طباق بين حرفين، والدرجة التي أشارت إليها الآية: درجة (تكليف) لا درجة (تشريف)، فليس الرجل أكرم عند الله من المرأة ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَنَّهُ أَسْمَأَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] إنما هي مسؤولية الإنفاق، والرعاية، والتربية، وصيانة الأسرة عن الانحراف.

٤٦ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقَ الْمَرءُ نِسَاءً فَلْيَبْلُغْ أَشْكُوهُمْ بِمَرْءٍ﴾ [البقرة: ٢٣١]

في الآية ما يُسمى بـ (المجاز المرسل) في قوله تعالى: ﴿فَلْيَبْلُغْ أَشْكُوهُمْ﴾ وهو محمولٌ على (المشاركة) أي أشرفن وفاربن على انتهاء عدتهن، لأنها لو انتهت العدة، فقد بانت منه، ولم يُجزَّ له إمساكها، والآية تقول: ﴿فَلْيَكُفُّوا بِمَرْءٍ أَوْ سَرَّوْهُمْ بِمَرْءٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] أي طالما هي في العدة.

٤٧ - قول تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبُوهُمُ أَعْيُنُكُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ بَصِيرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٣٢] أي لا تمنعوهن من العودة إلى أزواجهن، إذا صلحت الأحوال بين الزوجين، والآية فيها (المجاز المرسل) والعلاقة هي (اعتبار ما كان) أي فلا تمنعوها أن ترجع إلى زوجها المطلق الذي كان زوجاً لها، أضاف الزوجات إلى الرجال ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾ لاعتبار أنهم كن زوجات لهم، قبل الطلاق، ففي الآية (مجاز) باعتبار ما كان، كما يقول علماء البيان.

٤٨ - قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ نِسَاءَكُمْ مَا تُمْسِكُوا﴾ [البقرة: ٢٣٦] كنى تعالى بالمس عن (الجماع) تعليماً للعباد اختيار أحسن الألفاظ في كلامهم.

٤٩ - قوله تعالى: ﴿عَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَبُذِنَ لَهُ أَثَمًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٤٥] صور إنفاق المال في سبيل الله، ابتغاء مرضاته، بمن يفرض الله - وهو الغني الجواد - قرضاً واجب الوفاء، بطريق (الاستعارة).

يروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (لما نزلت هذه الآية ﴿قَرْضًا﴾ أَلَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا﴾ جاء أبو الدُّخْدَاح الأنصاري إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله: إن الله تعالى يريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدُّخْدَاح! قال: أرني يدك يا رسول الله! فناوله يده قال: قلاني قد أقرضت ربي حائطي - أي بستاني - وله فيه ستمائة نخلة... الحديث رواه البزار والبيهقي، سُمي الإنفاق في وجوه الخير قرضاً على طريقة (الاستعارة التصريحية).

٥٠ - قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ كُنَّا أَفْرَغَ عَلَيْهِمْ كَبِيرًا وَنَحْنُ أَفْرَغٌ﴾ [البقرة: ٢٥٠] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، شبه حال المؤمنين وقت اشتداد المعركة، بمن صب عليه الماء صباً، من أعلاه إلى أسفله، وأفرغ على كامل جسده، واستعار لفظ (أفرغ) للصب، تشبيهاً للصبر بالماء الذي يُفرغ على الجسد، فصار الصبر للقلب برداً وسلاماً، وأمنًا واطمئناناً، وهو من بديع أنواع (الاستعارة التمثيلية).

٥١ - قوله تعالى: ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [البقرة: ٢٥٦] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، شبه المستمسك بدين الإسلام، بإنسان استمسك بحبل محكم متين، وتدلّى من الأعلى إلى الأسفل، فلم ينقطع به، ونجا من المهلكة، وذكر عدم الانفصام، ترشيحاً لهذه الاستعارة البديعة.

٥٢ - قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] في الآية (استعارة تصريحية) شبه الكفر بالظلمات، والإيمان بالنور، لأن الكفر كالظلمة الحالكة، والإيمان كالشمس المشرقة المضيئة، وعاقبة الكفر مظلمة كئيب الجحيم، وعاقبة الإيمان الفوز بجنت النعيم.

٥٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَنظُرْ إِلَىٰ آلِطَّيْرِ هَٰذَا مِثْلُ نُسْرَةٍ أَنشَأْتُم مِّنْهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩] الكسوة تكون باللباس للجسد العاري، وغير عن اللحم يستر العظام: (بالكسوة) التي تستر الجسد، واستعار لفظ ﴿نَكُومًا﴾ للتنطية للعظام وهي استعارة في غاية الحُسن والإبداع، ومعنى ﴿تُنشِرُهَا﴾: نرفعها ونركب بعضها فوق بعض.

٥٤ - قوله تعالى: ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ هَٰذَا إِنَّمَا مَوْتٌ الْقَرْيَةِ هُوَ مَوْتُ أَهْلِهَا وَسَكَانُهَا، لَّأَنَ الْقَرْيَةَ نَفْسُهَا لَا تَمُوتُ، إِنَّمَا الْمَوْتُ لِمَن يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْبَشَرِ، فِي الْآيَةِ (مجاز مرسل) من باب إطلاق المحل وإرادة الحال فيه، ومثلها ﴿وَنَشِدِ الْقَرْيَةَ﴾ أي أهل القرية.

٥٥ - قوله تعالى: ﴿فَتَنَلَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ آمُومًا هُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا تَلَبَّتْ حَبَّةُ الْبَنَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦١] إسناد الإنبات إلى الحبة ﴿أَلْبَنَتْ سَبْعَ سَائِلَ﴾ إسناد مجازي، لأن الحبة لا تنبت شيئاً إنما ينبتها الله، ويسمى هذا (المجاز العقلي) يعني الذي يدرك بالعقل.



الأمثال المذكورة في سورة البقرة

الإبداع في التمثيل لأحوال المنافقين

ضرب تعالى في سورة البقرة، مثلين للمنافقين، وضح فيهما خباياهم الفادحة، حيث استبدلوا الكفر بالإيمان، واشتروا الضلالة بالهدى، فلم يفلحوا ولم يربحوا، بل خسروا آخرتهم وسعادتهم.

١- قال تعالى في المثل الأول: ﴿تَلَّهْمُ كَفَلِ الْبَرِّ اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَتَاهَا مَا حَوْلَهُ دَهَبٌ اللَّهُ يَنْوِرُهُمْ وَزَكَّاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۚ ضَمَّ بَنُوكُمْ عَنْهُمْ لَا يَنْجِيهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

شبه تعالى حالة المنافق، الذي أظهر الإيمان، وأبطن الكفر، بحالة إنسان مسافر في الصحراء، في ليلة شاتية باردة، أوقد النار ليستدفئ بها، ويستضيء بنورها، فلما أنارت له الطريق، واستأنس بتلك النار واستدفأ، هبَّت عاصفة شديدة، أطفأت النار وأذهبت الضياء، وعاد يتخبط في الظلام، لا يدري ماذا يفعل، ولا ماذا يصنع؟ فقد أصبح في فرع شديد، وظلام دامس، ويا له من مثل بديع رائع، في تصوير حال المنافق ﴿تَلَّهْمُ كَفَلِ الْبَرِّ اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾.

يقول العلامة ابن القيم: ذكر تعالى في هذا المثل النار ﴿اسْتَوْفَدَ نَارًا﴾ والنار فيها إشراق وإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق، وهو «النور» وأبقى ما فيها من الإحراق، وهي «النار» وتأمل كيف وُحِدَ النور ﴿وَقَعَ اللَّهُ بِشُرُومِهِمْ﴾ وجمع الظلمات ﴿وَزَكَّاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ لأن الحق واحد، هو دين الله المستقيم، بخلاف طرق الباطل، فإنها متعددة ومتشعبة، كما قال سبحانه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٢- أما المثل الثاني: الذي ضربه الله للمنافقين، فهو أوضح وأبدع في إظهار حقيقة أمرهم ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كَتَبَ فِي السَّمَاءِ فِي وَرْعَةٍ ذُرَّةً يَعْملُونَ سَمْعًا وَمَآذِينَ مِّنَ الْأَشْرَاقِ حَذَرَ النَّارِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَبْيِهِمْ وَأَنْصَرَهُمْ بِكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَبِيرٌ ﴿٢٠﴾ [البقرة: ١٩، ٢٠]. شَبَّهَهُمَ تَعَالَى فِي حَيْرَتِهِمْ، وَتَرُدُّدِهِمْ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، بِقَوْمٍ غُرِبَاءَ، أَصَابَهُمْ مَطَرٌ شَدِيدٌ، يَهْطُلُ بِغَزَارَةٍ وَتَدْفُقُ، وَهَذَا مَعْنَى (الصَّيْبِ) فِي اللَّغَةِ، أَظْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ، وَارْتَجَّتْ لَهُ السَّمَاءُ، مَصْحُوبٌ بِالْبَرْقِ، وَالرَّعْدِ، وَالصَّوَاعِقِ، رَافِقَتُهُ ظُلُمَاتٌ دَاجِيَةٌ، وَرَعْدٌ يَصُمُّ الْأَذَانَ، وَيَرْقُ يَخْطِفُ الْبَصَارَ، وَهُمْ مِنْ فِرْزِهِمْ وَدَهْشَتِهِمْ، يَضَعُونَ رُءُوسَ أَصَابِعِهِمْ فِي آذَانِهِمْ، لِدَفْعِ خَطَرِ الصَّوَاعِقِ، يَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ يُنْجِيهِمْ مِنَ الْمَوْتِ، وَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا يَفُوتُونَهُ وَلَا يُعْجِزُونَهُ !

وَيَتَابِعُ الْقُرْآنُ التَّمثِيلَ فَيَقُولُ: ﴿بَكَدَ الْأَرَقُّ يَخْطَفُ أَبْشَارَهُمْ﴾ أَي: يَكَادُ الْبَرْقُ لَشِدَّةَ لَمْعَانِهِ، أَنْ يَذْهَبَ بِأَبْصَارِهِمْ، فَيَأْخُذُهَا بِسُرْعَةٍ، كُلَّمَا أَنَارَ لَهُمُ الْبَرْقُ الطَّرِيقَ، مَشَوْا فِي ضَوْئِهِ، وَإِذَا اخْتَفَى وَفُتِرَ لَمْعَانُهُ، وَقَفُوا عَنِ السَّيْرِ، وَثَبَتُوا فِي مَكَانِهِمْ، خَشْيَةَ التَّرْدِي فِي حَفْرَةٍ مِنَ الْحُفْرِ، وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ لَزَادَ فِي قِصْفِ الرَّعْدِ وَشِدَّةِ الْبَرْقِ، فَذَهَبَ بِأَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ، فَاصْتَمَّ وَأَعْمَاهُمْ . . .

هذا خلاصة المثل الثاني الذي ضربه تعالى للمتأففين.

٢- وبين المثلين جاء هذا التصويرُ الفطيعُ الشنيعُ لهم، حيث شَبَّهَهُم بِالضُّمِّ، الْبُكْمِ، الْعُمِيِّ، فِي عَدَمِ الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ هَذِهِ الْحَوَاسِّ، فَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿مَنْ نَكَّمْ غَنَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أَي هُمْ كَالضُّمِّ لَا يَسْمَعُونَ، وَكَالْبُكْمِ - أَي الْخُرْسِ - لَا يَتَكَلَّمُونَ، وَكَالْعُمِيِّ لَا يَبْصُرُونَ، لِذَلِكَ لَا يَرْجِعُونَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ وَالضَّلَالِ !!

وَالْآيَةُ وَرَدَتْ مَوْرَدَ (التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ) حَيْثُ حَذَفَتْ مِنْهَا أَدَاءُ التَّشْبِيهِ، وَوَجْهُ التَّشْبِيهِ، فَأَصْبَحَ التَّشْبِيهِ فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَالْبَيَانِ، وَتَوْضِيحُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ مِثْلُ الضُّمِّ، لَا يَسْمَعُونَ الْكَلَامَ، وَمِثْلُ الْخُرْسِ، لَا يَنْطَلِقُونَ بِالْخَيْرِ وَالْحَقِّ، وَمِثْلُ الْعُمِيِّ، لَا يَرَوْنَ طَرِيقَ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ، حَوَاسُّهُمْ مَوْجُودَةٌ، وَلَكِنَّهُمْ عَطَلُوهَا، فَأَصْبَحُوا كَمَنْ فَقَدَ تِلْكَ الْحَوَاسِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي مَوْطِنٍ آخَرَ ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا يَتَنَبَّهُونَ بِهَا وَلَمْ يَنْتَبِهُوا بِهَا وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ بِهَا وَلَمْ يَأْنِ لَهُمْ أَنْ يَنْتَبِهُوا بِهَا أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ هُمْ أَصْلُ أُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وَحَقًّا إِنَّ هَذَا التَّمثِيلَ وَالتَّصْوِيرَ، فِي غَايَةِ الرُّوعَةِ وَالْجَمَالِ.

الإبداع في التمثيل لقسوة القلوب

٤ - ومن التمثيل البديع في القرآن العظيم، ما ضربه تعالى مثلاً لقسوة القلوب، بالأحجار الصلبة، والحديد الصلب الذي ينبر عن الرقة والليونة، فقال سبحانه عن اليهود ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ مِنْهَا رَبُّنَا لَهَا أَنْتَهُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيرٍ غَافِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤]. و(قسوة القلب): استعارة عن الجفاء والغلظة، بحيث لا يتأثر الإنسان بالنصح والتذكير، ولا بالترغيب أو التهيب، والخطاب لليهود، توبيخاً لهم وتقريراً أي قسّت قلوبكم يا معشر اليهود وغلظت، فلم يعد يؤثر فيها نصيح ولا تذكير، من بعد رؤية تلك الآيات الساطعات، والمعجزات الباهرات، فهي في قسوتها مثل الحجارة، بل أشد وأفسى، إنها مثل الحديد لا تلين، وإن من الأحجار، ما تندفق منه الأنهار، بالماء العذب الزلال، ومنها ما يتصدع فيهبط من أعالي الجبال، إشفاقاً من عظمة الله جلّ جلاله، فالحجارة تلين، وقلوبكم لا تخشع ولا تلين!!

ترقى سبحانه في بيان تمثيل القلوب بالقسوة، فمثل لها بالحجارة، التي تتأثر تأثيراً بليغاً، بما فيه من منفعة عظيمة، من تفجر الأنهار، ثم على الحجارة المتأثرة تأثيراً ضعيفاً، بما فيه من منفعة قليلة من خروج الماء من العيون دون الأنهار، ثم على الحجارة المتأثرة بنفسها، دون خروج الماء، وهي التي تنفتحت وتهبط خشية من عظمة الله تعالى ﴿لَوْ أَنَّ مِثْلَ الْقُرْآنِ عَلٰى كُلِّ لَازِيَةٍ خَشِيَ تَنفُسَكُمَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢٢].

فالحجارة تتأثر وتلين، وقلوب هؤلاء اليهود، لا تتأثر ولا تلين لموعظة وذكرى، والتمثيل جاء في هذه الصورة البديعة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] وهو ما يسمى بالتشبيه (المرسل المجمل) لأن أداة التشبيه مذكورة وهي (الكاف)، ووجه الشبه محذوف، وهو (الجفاء والغلظة).

قال العلامة أبو السعود: والقسوة عبارة عن الغلظة، والجفاء، والصلابة بحيث لا تتأثر بالعظات والقوارع التي تبسغ منها الجبال، وتلين بها الصخور. اهـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ٩٠/١.

الإبداع في التمثيل بالراعي مع اغنامه

٥ - ومن روائع وبدائع التمثيل، ما صُوِّر به القرآن حياة الكفار، في مثل جاء في غاية الروعة والإبداع، في قوله سبحانه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْيَهُودِ يَتَّبِعُونَ بِأَلَا يَتَّبِعُ إِلَّا دُعَاً وَبِدَاً ثُمَّ نَعَمْ غَيْرَ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

تدبَّر هذا المثل بعين البقطة والاعتبار، لترى فيه روعة الجلال والإبداع، فقد مثل تعالى للكفرة القُجَّار، في عدم انتفاعهم بالقرآن، وحججه الواضحة، بمثل راع يرعى الغنم، أبصر الضبَاع والذئاب تقترب منها، فأخذ يصيح بأعلى صوته، يأمرها بدخول الحظيرة، فقد داهمها الخطر، فهي تسمع الصوت، ولكنها لا تفهم الكلام، فهؤلاء الكفار كالبهائم السارحة، لا يسمعون ولا يفقهون كلام رب العزة والجلال، يسمعون القرآن، ونصتُون عنه الآذان ﴿إِنْ مَدَّ إِلَا طَأْتَمَّتْ لَكُم مِّنْ أَصْلٍ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤]. ولهذا أتبع تعالى الآية بقوله: ﴿ثُمَّ يَكُفُّ عَنْهُمْ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي هم كالصُم لا يسمعون من يدعوهم إلى الإيمان، وكالخرس لا ينطقون بخير، وكالعمي لا يبصرون طريق الهدى والرشاد، فهم في ضلالهم يتخبطون، لا يفقهون ولا يعقلون.

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكفار، مثل لهم بالبهائم التي لا تفقه ما يقوله لها الراعي، أكثر من سماع الصوت، دون أن تفهم المعنى، فمثلهم كمثل من يصيح بالماشية، تسمع النداء، ولا تفهم المقصود.

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ بِأَلَا يَتَّبِعُ﴾ فإن الثَّق رفع الصوت إلى أعلى درجة الصياح، فالراعي يرفع الصوت، ويصيح بالأغنام، ويزجرها محذراً لها من الخطر، ولكنها لا تستجيب له، لأنها لا تفهم مراده ولا كلامه، وهكذا مثل الكفار، مع من يريد أن ينقذهم من عذاب النار، لا يسمعون ولا يفقهون، فهم شر من البهائم والأغنام.

الإبداع في تمثيل الإنفاق

٦ - ومن الأمثلة البديعة الرائعة، التي ضربها القرآن للمنفقين أموالهم، طلباً لمرضاة الله، هذا المثل الواضح ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْسِفُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَفَلاً فِي ثَوْبٍ مُّسْبِكٍ زَاكَّةٍ رَبُّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

شبه تعالى المؤمن، المنفق ماله في سبيل الله، بالفلاح المزارع، يثمر الحب في الأرض، متوكلاً على الله، راجياً فضله وإنعامه، ولما كان صادق النية، مخلصاً في برّه وإحسانه، راجياً مرضاة الله تعالى، بارك الله له فيما زرع، فأخرجت الحبة ساقاً، تشعب منها سبع سنابل التي تحمل الحب، في كل سنبل مائة حبة، فصار الحاصل من حبة واحدة (سبعمئة حبة) وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر، لمن أخلص في صدقته وإحسانه، طلباً لرضى ربه، حيث يضاعف الله له الأجر إلى سبعمئة ضعف، ولهذا قال تعالى بعده ﴿وَاللَّهُ يضاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يضاعف الأجر لمن شاء، حسب إخلاص الإنسان في إنفاقه، وهو سبحانه واسع الفضل والعطاء، عليم بنية العبد المخلص.

قال المفسرون: نزلت الآية في شأن (عثمان) و(عبد الرحمن بن عوف) رضي الله عنهما، وذلك في (غزوة تبوك)، حيث رغب رسول الله ﷺ أصحابه في الإنفاق لهذه الغزوة، فجهز عثمان رضي الله عنه ألف بعير، بأحلاسها، وأقتابها، ومؤنتها، ووضع بين يدي رسول الله ﷺ ألف دينار، فجعل الرسول الكريم يقلبها بين يديه ويقول: ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم!! وأتى (عبد الرحمن بن عوف) بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله! لست أملك إلا ثمانية آلاف درهم، أمسكت منها لأهلي وعيالي (أربعة آلاف) وأربعة آلاف أقرضتها لربي، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت» ففيهما نزلت الآية الكريمة^(١).

يقول ابن القيم: شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله - سواء أكان المراد بها الجهاد، أو جميع سبل الخير من كل بر - بمن يذر بذرة، فأنبت سبع سنابل، اشتملت كل سنبل على مائة حبة، والله يضاعف الأجر بحسب حال المنفق وإيمانه، وإخلاصه وإحسانه، وقدر نفقته ونفعها، ووقوعها في مكان موقعها^(٢).

تأمل أخي القارئ في هذه الآية الكريمة، كيف قرن سبحانه إنفاق المال بقوله: ﴿وَنَسَبِ اللَّهِ﴾ لينبه تعالى أن كل عمل، ونفقة، وإحسان، لا تكون مقبولة عند الله، إلا أن تكون خالصة لوجهه الكريم، فالمنفق قد ينفق المال،

(١) انظر أسباب النزول للواحدي.

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم ص ١٨٣.

ولكنّ للجاء والشهرة، ووازناً بين هذه النفوس الثقيّة الثقيّة، التي تتسابق في بذل المال، طلباً لرضى الرحمن، وبين ذلك المنافع الذي يبذل المال بسخاء، في سبيل الشيطان، طلباً للشهرة والثناء، كما في الآية التي تتلوها ﴿لَا تُطْلُوا مَدَقَّتِكُمْ بِاللَّيْلِ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤] مما فيه ذهابٌ للأجر، وإبطال للعمل، فكم يكون الفارق كبيراً بين هذا وذاك؟ فالمؤمن يزكي نفسه بإنفاق المال، والمرائي يهلك نفسه بالإنفاق بقصد الرياء.

الإبداع في إبطال العمل بالرياء

٧ - ومحاولة إخلاص المؤمن في الإنفاق للمال في سبيل الله، يأتي الحديث عمن ينفق ماله رياء الناس، ممّا يبطل العمل، ويقضي على الأمل، في إحراز الأجر والشواب، فيقول سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطْلُوا مَدَقَّتِكُمْ بِاللَّيْلِ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَتَصْلَاهُ كَمَا تَصْلَاهُ مَنَاقِبُ عَلَيْهِ زُرْتُ قَامَانَهُ وَإِلَّ قَرَضَكُمْ مَسَدًا لَا يَنْبُوتُ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا أَنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

بدأ تعالى الآية بطريق الالتفات البديع، الذي يقبل فيه ربُّ العزة والجلال على عباده، بالخطاب على وجه التكريم ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَطْلُوا﴾ بعد أن كان الحديث بطريق القبيّة ﴿الَّذِينَ يُعْتَوُونَ آمَنُوا لَهُمْ﴾ ليبالغ في النهي عن الإنفاق في سبيل الشهرة ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يريد بإنفاقه رضا الله، ولا ثواب الآخرة، ومعنى ﴿ريقَةَ النَّاسِ﴾ أي مرآة لهم وسمعة، ليروا نفقته ويثنوا عليه، فيقولوا: إنه سخيٌّ ومحسنٌ، ثم يأتي التمثيل الرائع لهذا المرائي، بأجلى صور الإبداع والبيان، فيقول سبحانه ﴿فَتَصْلَاهُ كَمَا تَصْلَاهُ مَنَاقِبُ عَلَيْهِ زُرْتُ قَامَانَهُ وَإِلَّ قَرَضَكُمْ مَسَدًا﴾ الصفوان: الحجر الأملس الصلب، الذي ليس فيه ثقب، المعروف باسم (حجر الرخام) الذي يزين الناس به الدور والقصور، والوابل: المطر الشديد الدافق، الذي ينزل بشدة وقوة، ومعنى الصلد ﴿فَتَكُ مَسَدًا﴾ أي أجرد نقياً من التراب، لا شيء يستره ويواريه.

لنرجع إلى الصورة البانية في إبداع هذا التمثيل، ولننصور أرضاً مجردة ملساء، من الرخام، في مدخل قصرٍ شامخ، يهر الألبصار، في روحته وجماله، على هذه الأرض الملساء، شيء من التراب الناعم، نزل عليه مطرٌ شديد دافق، فذهب بهذا التراب، حتى لم يبق له أثر، ولو أنّ الماء القليل انصب عليه

لأزاله، فكيف وقد نزل عليه الماء الهاطل الدافق؟ هكذا شأن المرائي يضع عمله، ويذهب أجره كله، ويبوء بالخيبة والخسران، لأنه لم يقصد بإتفاقه وجه الله تعالى!!

لقد شبه تعالى المنفق بالزارع، فمن زرع في أرض خصبة طيبة التربة، ثبت زرعه، وطاب ثمره، وجنى ثمرة ما زرع، ومن زرع في أرض صخرية ملساء، ونزل عليها قليل من الماء، أذهب كل أثر للزرع، لأن الأرض ليست صالحة للزرع، فكيف إذا نزل عليها الغيث الدافق، والصيب الماحق؟ وهذا شأن المرائي الذي أبطل الله عمله ومحق ماله، ولهذا ختم الله الآية الكريمة بقوله: ﴿لَا يَتَذَكَّرُ عَلَى شَيْءٍ إِنَّمَا هُمْ كَسِبُوا وَأَلَّهَ لَا يُنْهَى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا يستفهمون بما أنفقوا، ولا يجدون له ثواباً، في وقت يكونون أشد الحاجة فيه إلى قطف الثمار، وهو يوم القيامة يوم الحساب والجزاء.

تأمل بعين البصيرة، الفارق الكبير بين شخصين: أحدهما أنفق ماله لوجه الله، فبارك الله له فيما أنفق، فزكا ماله وطاب، حتى غدا القليل أضعافاً مضاعفة، وبين شخص آخر أنفق المال، طلباً للشهرة والشاء، فمحق الله ماله، وأذهب ما كان يؤمله من الأجر والثوبة، ورجع عليه إحسانه بالخيبة والدمار، وغضب الجبار، ما أبعد الفارق بين الرجلين؟

التعقيل بالجنة ذات الربوة

٨ - وتأكيداً لهذا المعنى، يضرب القرآن الكريم مثلاً آخر، لمن ينفق المال، طلباً لمرضاة الله، دون من ولا أذى، ولا رغبة في ثناء الناس، فيقول جل ثناؤه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُرُواْ نِسَاءَهُمْ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

هذا المثل البديع، في مقابلة من أنفق ماله للجاه، وحسن الثناء، فذهب أجره، وبطل عمله، مثل تعالى للمؤمن المحسن، الذي يطلب بإتفاقه وجه الله، بحديقة غناء، كثيرة الشجر، هي مكان مرتفع من الأرض - وهي الربوة - أصابها مطر غزير مدرار، فأخرجت ثمارها، وافية كاملة، مثلي ما كانت تثمر من قبل، فإن لم ينزل عليها المطر المدرار، فكفها الثدى - وهو الطل - لمكانها المرتفع، وهوائها العليل، لتخرج ثمارها الطيبة الجنية، هكذا مثل القرآن لأعمال

المحسنين، الذين يشكرون بإحسانهم وبذل أموالهم، وجه الله تعالى ﴿إِنَّمَا تَعْلَمُونَ

بِرَحْمَةِ اللَّهِ لَا يُدْرِكُ حَزَنَ لَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩] فإن إنفاقهم يزهر ويربو،

ويزيده الله بركة ونماء، كمثل الجنة - الحديقة - التي نزل عليها المطر،

فتضاعف فيها الخير والثمر.!

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيْتًا لِّأَنفُسِهِمْ﴾ أي تثبيتاً لها على الإيمان،

وطلب رضى الرحمن، فإن المال شقيق الروح، فمن بذله لوجه الله، كان

حافظاً لدينه، مثبِتاً لنفسه على الإيمان واليقين ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ شَيْئًا فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ

خَبِيرٌ الزَّوَالِ﴾ [سبا: ٣٩].

يقول ابن القيم رحمه الله: شبه تعالى الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله

الطيب لله تعالى لا لغيره، باذر ماله في أرض زكية، وغلته منها بحسب بذره،

وطيب تربته، وتعاوده البذور بالسقي، ونفي النبات الغريب عنها، فإذا اجتمعت

هذه الأمور، ولم تحرق الزرع نارا، ولا أصابته جائحة، جاء أمثال الجبال،

وكان مثله مثل جنة بربرة - وهي المكان المرتفع من الأرض - الذي يكون فيه

البستان، تُضرب الشمس والرياح، فتربى الأشجار فيه أتم تربية، ثم ينزل عليها

من السماء، مطر عظيم القطر، دافق، فزواها ونماها، حتى آت ثمارها ضغفني

ما يؤتية غيرها بسبب ذلك الوابل، فإن لم يصبها الوابل - المطر الغزير

المدرار - فيكفيها الطل، وهو المطر الخفيف الصغير القطر، لكرم منبتها،

وجودة هوائها^(١).

وما أبدع هذا الوصف؟ وأجمل هذا المثال؟!

الإبداع في ذكر الإعصار الذي فيه النار

٩ - ثم يأتي المثل التاسع، في تصوير مشهد مفرع، يضيغ فيه عمل

الإنسان، مع ضباغ ماله، فيقول سبحانه: ﴿يَوْمَ أَهْلُكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ حَتَّةً يَنْتَحِلُونَ

وَأَعْيَابَ تَجَرَّى مِنْ تَحْتِهَا الْأَشْجَارُ لَمْ يَبْقَا مِنْ كَثْرِ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكَلْبُ وَلَهُ دُرَّةٌ مُنْقَاةٌ

فَأَسَافَتَهَا وَبَعَثَ مِنْهُ النَّارَ فَاتَّقِرَفَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[البقرة: ٢٦٦].

تأمل هذا المثل البديع، الذي أثاره هذا المشهد المعجيب، بهذا البيان

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ١/ ١٨٤.

الرائع، مشهد رجل غني، أفاض الله عليه النعم، ووسّع عليه الرزق، له بستان حوى جميع أنواع النخيل والأعناب، والفواكه والثمار، تحف به من جوانبه الأنهار، كل غلته وثروته من هذا البستان، ينفق منه على نفسه وأولاده، ما يكفيهم ويغنيهم، وقد أدركته الشيخوخة، وكبرث به السن، فلم يعد يستطيع العمل، وعنده أطفال صغار، وليس له أمل، إلا في هذا البستان، الذي يخرج له الخير الخصيب، والرزق الدائم، وبينما هو في هذه الحالة، أحوج ما يكون إلى ثمر بستانه، إذ جاءت ريح عاصفة مدمرة، تصحبها نار محرقة، فأحرقت الزرع والثمر، كم تكون حسرته عظيمة، ومصيبته جسيمة؟

قال الحسن البصري رحمه الله: (هذا مثل قل والله من يعقله!! شيخ كبير، ضَعُف جسمه، ووهن عظمه، وكثر أولاده وصبيانُه، أحوج ما كان إلى جنته - يعني بستانه - فجاءها إعصار فيه نار فأحرقها، وإن أحذكم واللّه، أفقر ما يكون إلى عمله، إذا انقطعت عنه الدنيا)^(١).

هذا المثل الذي ضربه القرآن، في غاية الحسن، ونهاية الكمال، كما يقول العلامة النيسابوري: (ولا يخفى أن هذا المثل أبلغ الأمثال، فإن الإنسان إذا كانت له حديقة - أي بستان - في غاية الجمال والكمال، وكان في غاية الاحتياج إلى المال، وقت الشيخوخة والكبر، مع وجود الأولاد والأطفال الصغار، فإذا أصبح وشاهد بستانه محترقاً، فكيف يكون في قلبه من آلام الحسرة؟)^(٢)

وفي هذه الآية لون من ألوان البديع، يسميه علماء البلاغة بـ(الاستقصاء) وهو أن يتناول المعنى من جميع جوانبه، حتى لا يترك فيه شيئاً يمكن أن يقال، لأن العبارة أحاطت بجميع ما يخطر على البال، في مثل هذا المقام.

فانظر كيف استقصت الآية المعنى، أتم وأكمل استقصاء، فبدأت بالأسلوب الاستفهامي الرائع ﴿أَيُّهَا أَحْذَكُمُ؟﴾ أي هل يتمنى أحدكم مثل هذه الأمنية العجيبة ﴿لَوْ كُنْتَ لَدُنْكَ مِنْ نَجْدٍ لَجِدَ أَعْنَابٌ﴾ أي بستان مشر، فيه من جميع الفواكه والأعناب والثمار ﴿لَخَرَبَ مِنْ غَيْهَا الْأَنْهَارُ﴾ يسقيه ماء النهر دون جهد ولا تعب ﴿لَوْ يَهَامِرُ كَثِيرٌ النَّارِ﴾ له في هذا البستان، من جميع ما يخطر

(١) التفسير الواضح الميسر صفحة ١٢٠ / للنيسابوري، نقلاً عن تفسير ابن كثير رحمه الله.

(٢) غرائب القرآن للنيسابوري ٣/ ٥٣.

على البال، من أنواع الفواكه والثمار، واللفظ هنا يفيد العموم والتنوع، كما يفيد الدوام والخلود، فلنتصور أنواع الفواكه، من كل ما لذ وطاب، لا تنقطع ولا تفنى، فما من ثمرة يشتهيها الإنسان إلا ويجدها ﴿وَأَنبَأَهُ الْكَرِيمُ﴾ تقدمت به السن، فكبر وضعف، وعجز عن العمل، وعن تدارك أسباب المعاش ﴿وَلَمْ يَزِدْهُ مَعْلَفَةً﴾ وله أطفال صغار، لا قدرة لهم على الكسب، وكل هذه القيود والأسباب، توحي بشدة الحاجة، وعظم الخطب، وهو في هذه الحالة من العجز والضعف، وشدة الحاجة الملحة إلى ثمار بستانه، جاءه المصائب والبلاء ﴿فَأَنبَأَهُ بِإِعْصَارٍ فِيهِ نَارٌ فَاشْتَرَقَتْ﴾ والإعصار ما يكون من هبوب الرياح المدمرة، التي تقلع الشجر، وتلف الثمر، ومع هذا الإعصار ناز، فكيف يكون حال هذا المسكين؟ بعد أن أتلف الإعصار الشجر، وأحرق الثمر؟ وهل هناك من مزيد لبيان هذه الصورة المفجعة؟

هذا شأن من أهناه الله، ووسّع عليه الرزق، فبدل أن يشكر الله على فضله وإنعامه، عمل بالمعاصي، فسلب الله عنه النعمة، وختم له بخاتمة السوء في آخر عمره، وحقاً إنه لمثل عجيب، في غاية الحسن، ونهاية الكمال.

روى الإمام البخاري في صحيحه: (أن عمر رضي الله عنه، سأل يوماً أصحاب النبي ﷺ فقال لهم: فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ آتٍ تَأْتِيكُمْ ثُمَّ لَا جُنَّةَ لَهُ إِلَّا بِالْحَيْدِ وَأَغْصَابٍ...﴾ الآية. فقال بعضهم: الله أعلم!! فغضب عمر رضي الله عنه، وقال لهم: قولوا: نعلم، أو لا نعلم!!

فقال ابن عباس: - وكان حاضراً معهم وهو شاب - يا أمير المؤمنين في نفسي منها شيء - أي لي في الآية فهم خاص، لا أدري أصحيح هو أم خطأ - فقال له عمر: يا ابن أخي، قل ولا تحقر نفسك!! فقال ابن عباس: ضربت هذه الآية مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل!! قال: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله، أي دمر أعماله الصالحة بمعاصي الله) رواه البخاري، فاستحسن ذلك منه عمر وارتضاه، رضي الله عنهم جميعاً، فالرياء يبطل العمل الصالح، والمعاصي تدمر فعل الخير والإحسان، قال الشاعر:

أَنذَرْتُ بِالْمَنِّ مَا أَشَدِّتْ مِنْ خَسَنِ لَيْسَ الْكَرِيمُ إِذَا أُنْذِيَ بِمِثْلَانِ

الإبداع في التمثيل لأكل الربا

١٠ - وفي سورة البقرة آية كريمة، هي ضاية في الإبداع، والتصوير الفني الرائع، الذي يفوق الخيال، في روعة الجمال، وهو ما مثل به القرآن الكريم، لأكل الربا، الذي يمتص دماء الكادحين: بالشخص المصروع، الذي يتخبطه الشيطان من الجنون، فهو يمشي ويسقط، ويترشح في مشيته، ويهذي في كلامه، يقول جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ...﴾ [البقرة: ٢٧٥] والتمثيل هنا ﴿لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ﴾ [البقرة: ٢٧٥] تمثيل لحال المرابين، الذين يمتصون دماء البشر، فقد صورهم القرآن، بهذا التصوير المرعب، صورة الممسوس، الذي أصابه مس من الجن، فتخبط تخبط المجنون، فهذي في كلامه، وضرع في مشيه، وأصبح فاقد الوعي والإحساس، ذلك لأن الربا أثقل بطونهم، فلم يستطيعوا المشي سوياً.

قال سعيد بن جبير: تلك علامة أهل الربا يوم القيامة. ﴿وَالَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَيْمَنِ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي ذلك العقاب لهم، بسبب أنهم قالوا: الربا مثل البيع، يكون بالتراضي، فلماذا يكون حراماً؟ فنظموه في سلك واحد مع البيع، وقالوا: إن البيع إنما أجل من أجل الكسب، وذلك في الربا متحقق، لإفشاء كل منهما إلى الربح، وما عرفوا أنهم بهذا الضنيع، يسرقون جهود الآخرين، ويمتصون دماءهم، ذاك العامل يتعب ويشقى، ليجمع الغلة، ويقوم بأود أمرته، وهذا يسلب منه المال، دون جهد أو تعب، ولهذا كذبهم تعالى بقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَحْلَلْنَا لَكَ الْبَيْعَ وَحَرَّمْنَا الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي أحل البيع لما فيه من تبادل المنافع، وحرم الربا لما فيه من الأضرار الجسيمة، حيث يغدو الإنسان، كأنه وحش مفترس، منه جمع المال، وامتصاص دماء الآخرين، أناس يعملون ويتعبون، وآخرون يجنون ثمرة المال، على برد الماء، وما يقال عن الربا: إنه تبادل منافع، كذب صريح، فإن من أعطى درهماً بدرهم، ضيع درهماً، فلا يقال: إن عوضه الإمهال، لأن الإمهال ليس مالاً، حتى يجعله عوضاً، والمال لا يتولد بالإمهال، إنما الذي يتمه هو الجهد، والكذب، والتعب.

ولما كان الربا يدمر اقتصاد البلاد، جاء التحذير منه، والكف عنه، في أعلى صور الوعيد والتهديد، وذلك بإعلان الحرب على المرابين، الحرب السافرة المدمرة، بكل ما تحمله معنى (الحرب) من ويلات، وبلايا، ونكبات،

فقال سبحانه: ﴿إِنْ لَمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩] واللّه العليم الحكيم، لم يعلن الحرب على الزاني، ولا على السارق، ولا على شارب الخمر، ولا على قاطع الطريق، مع ضخامة تلك الجرائم، وقياحة أمرها، إنما أعلن الحرب على المرابين، إعلاناً صريحاً مكشوفاً، بقوله ﴿فَاذْنُوا﴾ أي تحققوا وتيقنوا بحرب من الله ورسوله لكم، وبإله من وعيد شديد؟

يقول شهيد الإسلام (سيد قطب): في كتابه الظلال، عند قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْوَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخِرُّ شَيْطَرُ مِنْ أَلْسِنَةٍ...﴾ الآية: (إن هذه الحملة المفزعة، والتصوير المرعب، ما كان لأني تهديدي، مهما بلغت شدته وقسوته، ليلج إلى الحس، ما تبلغه هذه الصورة الحية المجسمة، صورة الممسوس المصروع... ولقد مضت معظم التفسير، على أن المقصود بالقيام (في هذه الصورة المفزعة) هو القيام من القبور يوم البعث والنشور، ولكننا اليوم نراها واقعة على الأرض عملياً، على هذه البشرية الضالة، التي تتخبط كالممسوس في حكم النظام الربوي.

إن العالم الذي نعيش فيه اليوم، هو عالم القلق والاضطراب، والخوف والفزع، والأمراض النفسية والعصبية، ذلك على الرغم من كل ما بلغته (الحضارة المادية)، وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي، إنه عالم الحروب الشاملة، والتهديد الدائم بالحروب المبيدة، وحرب الأعصاب والاضطرابات، التي لا تنفك ولا تنقطع عن البشر، هنا وهناك^(١).

وإنه لمعنى جديد، لما آلت إليه البشرية في عصرنا المنكود، المملوء بالظلم والطغيان، واستعباد الإنسان للإنسان، حيث يتقاتل البشر وينتحرون، على صخرة المادية، التي ورثنا إياها هذا النظام الربوي المدمر، فلا عجب أن نرى إعلان الحرب على المرابين ﴿فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وأن تلحق اللعنة كل من ساهم في نشر هذا الداء والوباء، ويلعن الرسول الكريم، كل من ساعد أو أعان على هذا المنكر الفظيع المدمر، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «لعن الله آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء»^(٢).

(١) في ظلال القرآن ٨٢/٣ السيد قطب رحمه الله تعالى.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

أي كلهم متساوون في اللعنة، وغضب الجبار^{١١}، لأن البنك الذي يتعامل بالربا، إنما يقوم على أكتاف هؤلاء الموظفين، من مُدْرَاء، وكُتَّاب، ومحاسبين، والمتعاملين مع البنك بالطرق الربوية، والقاعدة الشرعية، هي: (أن كل من أعان أحداً على معصية الله، شارك في الذنب والإثم) فافهم مغزى الحديث الشريف.



١١ ظهر في هذا الزمان، من أفتى بتحليل فوائد البنوك، من علماء السوء، فباهوا بالخزي والعار، وغضب الجبار «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» [الزمر: ٦٠].

وانظر كتابنا المطبوع (صبحة النذير: جريمة الربا أعظم الجرائم الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية) ففيه الرد الحاسم، على دعاة التحليل لأخطر الجرائم، المدمرة للاقتصاد المالي العالمي.

الإبداع البياني في سورة آل عمران

١ - قوله تعالى: ﴿رَكَعَاتِكَ أَلْكَتِبَ بِالْحَرْفِ نَسِيفًا يَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣] التعبير بقوله: ﴿لَيَايَدَيْهِ﴾ (كناية لطيفة) أي لما تقدمه وسبقه من الكتب السماوية، فكشى عن الكتب السابقة بقوله: ﴿لَيَايَدَيْهِ﴾ لغاية الظهور والاشتهار، فكانها معروضة بين يدي القرآن العظيم، آخر الكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالى على الرسل الكرام.

٢ - قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ لَهْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُخَكِّمُ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧] هذه استعارة بديعة في غاية الحسن، فالآيات المحكمات - يعني الواضحات التي لا التباس فيها ولا غموض - من أصل القرآن وعموده، فهي بمنزلة الأم لسائر الآيات، وكان سائر القرآن يتبعها ويتعلق بها، كما يتعلق الولد بأمه عند اشتداد الفزع، والعرب تسمي كل أمر جامع يكون مرجعاً (أماً) يعني أصلاً، كتسميتهم مكة المكرمة (أم القرى) قال تعالى: ﴿لَتَبِيرَ أُمِّ الْقُرَى﴾ [الشورى: ٧].

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَفَ الْأَنْبِيَاءُ أَرْثُوا أَلْكَتِبَ إِلَّا مِنْ بَيْنِمْ جَاءَهُ الْبَلَاءُ﴾ [آل عمران: ١٩] التعبير عن اليهود والنصارى بقوله: ﴿أَرْثُوا أَلْكَتِبَ﴾ أي التوراة والإنجيل، لزيادة التقييد والتشيع عليهم، فإن الاختلاف في الدين، مع العلم بالكتاب، في غاية القبح والشاعة.

٤ - قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَتَلْتَمِزُونَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَلْكَتِبَ﴾ [آل عمران: ٢٠] أطلق الجزء (الوجه) وأراد الكل (كامل البدن) وهو (مجاز مرسل) من إطلاق الجزء وإرادة الكل، أي استسلمت بكليتي لله رب العالمين.

قال الشوكاني: عبّر بالوجه عن سائر الذات، لكونه أشرف أعضاء الإنسان، واجمعها للحواس، أي أخلصت ذاتي لله عز وجل. اهـ تفسير الشوكاني ١/ ٤٠٤.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَلْكَتِبَ بِالْحَرْفِ نَسِيفًا يَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

يَكْذِبُ أَيَسْمُ ﴿[آل عمران: ٢١] البشارة تكون في الخير وبما يسر، واستعمالها في الشر (للسخرية والتهكم)، ويسمى (الأسلوب التهكمي) وهو أسلوب مشهور عند العرب، كقول القائل: «تَحْتَهُ بَيْنَهُمْ قَرْخُ الثَّعَالِ».

٦ - قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [آل عمران: ٢٧] الإيلاج: الإدخال، واستعير لزيادة النهار في الليل، وزيادة الليل في النهار، بحسب المطالع والمغرب، فما يُنْقَضُ من الليل، يزيده في النهار، وبالعكس، ففي الآية (استعارة عجيبة بديعة) كأنَّ كلاً منهما يدخل في الآخر، فيأكل منه ما يشتهي.

٧ - قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧] الحي والميت (استعارة) عن المؤمن للكافر، أي يُخرج تعالى المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، شبه المؤمن بالحي، والكافر بالميت، وهذا قول لبعض السلف، منهم (ابن عباس) رضي الله عنه، يشهد له قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ نَسِئًا فَاجْتَنِبَتْ﴾ [الأنعام ١٢٢] ومثله في الواقع (إبراهيم) عليه السلام مؤمن وأبوه (آزر) كافر، و(نوح) عليه السلام مؤمن، وابنه (كنعان) كافر.

ورجح الإمام الطبري أن الآية على ظاهرها، أنه تعالى يخرج الإنسان الحي والأنعام من النطف الميته، ويخرج النطفة الميته من الإنسان الحي، وكذلك يُخرج الحب من الزرع، والنخلة من النواة، والبيضة من الدجاجة، وبالعكس. وقول ابن عباس أظهر، يؤيده ما روي (أن امرأة دخلت على النبي ﷺ، فقال: من هذه؟ قيل: إنها خالدة بنت الأسود، فقال: سبحان الذي يخرج الحي من الميت) وكانت امرأة سالحة، وكان أبوها كافراً، رواه الطبراني بإسناد جيد. تفسير الشوكاني ٤٠٩/١.

٨ - قوله تعالى: ﴿تَلْقَاهَا فِيهَا بِقُبُولٍ حَسْرٍ وَأَنْتَهَا نَبَاتًا حَسْرًا﴾ [آل عمران: ٣٧] شبهها في نموها وترعرعها بالزرع، الذي ينبت وينمو شيئاً فشيئاً، أي ربّاه تربية كاملة، ونشأها تنشئة سالحة، بما يصلاح أمورها وأحوالها، عبّر عن ذلك بالنبات بطريق (الاستعارة التبعية) البديعة، كما ندعو لمن وُلد له غلام، فنقول: أنبت الله نباتاً حسناً، وأصل نباتاً: (إنباتاً) أي نما وترعرع بكامل الصحة والعافية.

٩ - قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَإِنَّكَ إِنَّكَ كَذِبٌ مُبِينٌ﴾ [آل عمران: ٤٥] المنادي هو (جبريل) عليه السلام، بدليل قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّتَا

إِلَيْهَا رُوحَاتُ فَتَنَدَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ [مريم: ١٧] وإنما وردَ بلفظ الجمع (الملائكة) تعظيماً وتفضيماً لأمر جبريل، وهذا من (المجاز المرسل) من باب (إطلاق العام وإرادة الخاص) لأن جميع الملائكة لا يأتون للبشارة لها، والكلمة في الآية (كناية) عن البشارة بعيسى عليه السلام، لأنه خلق بأمر الله (كن) فكان.

١٠ - قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا زَوْجٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] كنى عن الجماع (بالمن) وهي من الكتابات البديعة المستحسنة، كما جاءت الكناية عنه أيضاً بالحرق، واللباس، والمباشرة، لأن القرآن العظيم، يتحاشى الألفاظ الصريحة، المتعلقة بممارسة الجنس، وقد وضحتنا هذا في سورة البقرة صفحة (٣٧)، فارجع إليه هناك والله يردك!!

١١ - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَصْبَحَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَدْعُوهُ﴾ [آل عمران: ٥٢] أي تحقق كفرهم عنده كأنه مدرك بالجنس، وأصل الإحساس: إدراك الشيء بإحدى الحواس الخمس، وقد استعير هنا للتحقق والعلم.

قال في البحر المحيط: في الآية (استعارة لطيفة) إذ الكفر ليس بمحموس، وإنما يعلم بالفطنة، لإطلاق الحس عليه استعارة. اهـ البحر المحيط ٤٨٠/٢.

١٢ - قوله تعالى: ﴿وَتَكْفُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ مُّكْرٍ﴾ [آل عمران: ٥٤] المكْر لا ينسب إلى الله عز وجل إلا على وجه المقابلة، ويسميه علماء البيان (المشاكلة) وهي الاتفاق باللفظ مع الاختلاف بالمعنى، لأن أصل المكْر: الجِدَاغُ، وإذا نسب إلى الله ﴿وَتَكْفُرُوا﴾ أي جازأهم على مكْرهم بطريقة عجيبة، وهي أن الله ألقى شبه (عيسى) على الخبيث الخائن، الذي دل اليهود على مكان عيسى، ونجى رسوله من قتل اليهود له، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] سناه مكراً بطريق المقابلة لمكْرهم الخبيث.

١٣ - قوله تعالى: ﴿قَدْ يَأْمُرُ الْكِتَابُ أَنْ تَلِيزُوا إِلَى سَلَمَةَ سَلَامٍ...﴾ [آل عمران: ٦٤] الكلمة هنا هي: الدعوة إلى الإيمان بالله، وإفراجه بالوحدانية، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) كما نقول: تستمعون الآن إلى كلمة من فضيلة الشيخ أو من معالي الوزير، ونريد بها المحاضرة الطويلة التي أعدناها للإلقاء، وقد جاء توضيح الكلمة في الآية الكريمة بقوله ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

وَلَا تُشْرِكْ بِهِ - كَيْفًا وَلَا بَشَرًا نَفِثَ بَعْضُ آيَاتِنَا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿[آل عمران: ٦٤]﴾ ففي الآية (مجاز مرسل) أطلق الجزء وأراد الكل.

١٤ - قوله تعالى: ﴿وَذِكْرُ بَائِسُهُ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَرْبَعِينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] في الآية (إيجاز بالحذف) حذف منه جملة ليس علينا إثم ولا ذنب في (أكل أموال الأميين)، لدلالة السياق عليه، وقد استحل اليهود أكل أموال العرب وغيرهم من الأمم، الذين ليسوا على دينهم، وهذا كذب وافتراء على الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَوْلُوكَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أَفَ تَسْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

١٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ يَشْتَرُونَ بِمَنَّهُمْ اللَّهَ وَأَتَمَّهِمْ نَسَاءً قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧] عبر عن نقض العهد مع الله (بالشراء) على طريق (الاستعارة الملقية) واستعار لفظ الشراء للاستبدال، أي يستبدلون حطام الدنيا بالعهد الذي عاهدوا به ربهم على الإيمان به واتباع رسله، وأمثال هذا كثير في القرآن الكريم، وقد تقدم توضيح هذا في سورة البقرة.

١٦ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [آل عمران: ٧٧] كناية عن غضبه تعالى عليهم، لأن من سخط على إنسان، أعرض عنه، ولم يلتفت إليه.

قال الزمخشري: هذا مجاز - أي كناية - عن الاستهانة بهم، والسخط عليهم، لأن من اعتد بإنسان التفت إليه، وأعاره نظر عينيه. اهـ الكشف ٩٠/١.

وقال الشوكاني: أي لا يكلمهم بما يسرهم، ولا ينظر إليهم نظر رحمة، بل يسخط عليهم ويعذبهم، بدليل قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

١٧ - قوله تعالى: ﴿وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾ [آل عمران: ١٠٣] (حبل الله): القرآن العظيم، شبه القرآن بالحبل المتين، واستعار اسم المشبه به وهو (الحبل) للمشبه وهو (القرآن) على سبيل (الاستعارة التصريحية) والجامع بينهما هو النجاة من الهلكة، لأن من سلك طريقاً صعباً، يخاف أن تنزلق رجله فيه، تمسك بحبل مشدود الطرفين، ففي الآية (استعارة بديعة).

١٨ - قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا...﴾ [آل عمران: ١٠٣] شبه حالهم الذي كانوا عليه في الجاهلية، بحال من كان مشرفاً على حفرة عميقة، وهوة سحيقة، فنجاه الله منها، ففي الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، والشفا: الطرف.

والمعنى: كنتم على طرف حفرة من جهنم، وكنتم مشرفين على الوقوع فيها بسبب الكفر، فأنقذكم الله ونجاكم منها بالإسلام.

١٩ - قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا الَّذِينَ تَبَيَّنَتْ وَجُوهُهُمْ مِّن رَّحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] الرحمة صفة من الصفات، لا يمكن أن يسكن ويستقر بها الإنسان، والمراد بها هنا: الجنة، التي هي مكان تنزل رحمة الله، ففي الآية (مجاز مرسل) أطلق (الحال) وأراد به (المحل) لأن الخلود والإقامة إنما يكون في الجنة، وإنما عبر بالرحمة دون لفظ الجنة، لينبه المؤمن أنه مهما استغرق في طاعة الله وعبادته، لا يدخل الجنة، إلا برحمته وفضله، كما قال سيد البشر ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ: قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» رواه البخاري ومسلم.

٢٠ - قوله تعالى: ﴿شَرَّتْ لَهُمُ الذِّلَّةَ نَزَّلْنَا بِالْحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِّنَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١١٢] شبه الذل بالقبة أو بالخباء - أعني الخيمة - الذي ضرب على اليهود، فأحاط بهم من كل جانب، على طريق (الاستعارة التمثيلية) وقد تقدّم توضيحها في سورة البقرة. والمراد بالحبل من الله: عهد الذمة الذي يعطيه لهم المؤمنون، ﴿وَيَسِّرَ لِّلَّذِينَ هُمْ يُغِيثُونَ﴾ هو نصرة أهل الكفر لهم (كامريكا) التي تحتضن عصابة الصهاينة المجرمين (وأوربا) التي قدّمت باليهود إلى ديار المسلمين!

٢١ - قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِمُ الْيَوْمَ مَائِدَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ فِي سُدُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١٨] في الآية (استعارة بديعة) شبه خواص الرجل المقربين، الذين يبوح لهم بسرّه، ببطانة الثوب، التي تكون داخله، لأنهم يلازمونه ملازمة الثوب اللاصق بجسد الإنسان، بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي استعارة لطيفة في غاية الإبداع والجمال، أي لا تتخذوا الكفار أصدقاء، تؤدّبونهم وتحبونهم، وتظلمونهم على أسراركم، وهم لكم أعداء الذمّة.

قال الشاعر:

وَهُمْ خُلَصَائِي كُلُّهُمْ وَبَطْنَاتِي وَهُمْ غَيْبَاتِي مِنْ دُونِ كُلِّ قَرِيبٍ

٢٢ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُزُوا عَظُّوا عَلَيْكُمْ الْأُنَامِلَ مِنَ التَّغَيُّبِ﴾ [آل عمران: ١١٩] عَضُّ الْأُنَامِل عادة الشخص النادم، الذي لا يستطيع أن يفعل شيئاً، فيعضُّ على أصابعه تحسراً وأسى، وهو (كناية) عن شدة الغيظ والجحش على المسلمين.

٢٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بَنَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا فَزَوَّيْنَهُنَّ أَطْهَرُ مِنَ الْفَوَاحِشِ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

الانقلاب على الأعقاب معناه: الارتداد عن الدين، ففي الآية (استعارة تمثيلية) شبه من يرجع عن دينه، بمن يمشي إلى الخلف القهقري، ومن يرجع إلى الارتياب، بالراجع على الأعقاب، وهو تصوير فني بديع، بطريق الاستعارة التمثيلية.

٢٤ - قوله تعالى: ﴿أَمْسَى أُنْتَجِ رَسُولُ اللَّهِ كَمَنْ يَأْتِي بِسَحَابٍ مِّنَ اللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١٦٢] هذا من (الاستعارة البديعة) جعل سبحانه ما شرعه لعباده من الأوامر والنواهي، كالدليل الذي يرشد من يتبعه إلى الصراط المستقيم، وجعل العاصي الذي ينتهك محارم الله، كالمعرض عن هداية الله، يرجع بالخزي والعار، وغضب الجبار، والمراد بمن ﴿أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ﴾ المؤمن، وبمن ﴿يَأْتِي بِسَحَابٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ المنافق، أعادنا الله من النفاق، وسَخَطَ الخلاق. ١

٢٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ يَحْسَبُوا أَنَّهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٧] وَضَعَ لفظ ﴿اشْتَرَوْا﴾ موضع لفظ «استبدلوا» أي أخذوا الكفر بدلاً عن الإيمان، ففي الآية (استعارة تصريحية) وقد تقدم أمثالها في سورة البقرة.

٢٦ - قوله تعالى: ﴿لَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] استعار لفظ (الخبث) للكافر الفاجر، ولفظ (الطيب) للمؤمن الصالح، وهي (استعارة بديعة) لطيفة بطريقة التمثيل، أي لِيُفَرِّقَ بين أهل الإيمان، وبين أهل الكفر والظلم.

٢٧ - قوله تعالى: ﴿سَتَكُنُّنَّ مَقَالُوا وَقَتْلُهُنَّ الْأَلْبِيَّةَ بِقَتْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١] في الآية مجاز لطيف يسمى (المجاز المرسل) أي نأمر ملائكتنا الحفظة، بكتابة أقوالهم الشنيعة، ونجازيهم عليها، أسدّ الكتابة إليه، لأنه تعالى هو الأمر بها، وهذا (الإسناد مجازي) كقولهم: بنى الأمير البلدة أي أمر ببنائها.

٢٨ - قوله تعالى: ﴿وَتَنَادَوْا إِنَّمَا وَعْدَنَّا عَلَىٰ رَسُولِنَا...﴾ [آل عمران: ١٩٤] في الآية (إيجاز بالحذف) أي ما وعدتنا به على السنة رسلك، لأن الرسل هم الذين وعدوا بالجنة لمن أطاع الله، وهم مبلغون عن الله أوامره وأحكامه.

٢٩ - قوله تعالى: ﴿لَا يَشْرُكَكَ نَفْسٌ أَلَيْسَ كَقَوْمٍ قَدْ كَفَرُوا بِآيَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٩٦] استعير لفظ (التقلب) للسفر والضرب في الأرض، من أجل المكاسب الدنيوية، وهي (استعارة بديعة) أي لا تنظر إلى ما عليه الكفرة من الشعة، وبسط العيش،

ولا تقتز بظاهر حالهم في أسفارهم؛ للتجارة والكسب، فهو متاع قليل يتمتعون به في هذه الدار، ثم مصيرهم إلى جهنم.

روي أن بعض المؤمنين، كانوا يرون المشركين في سعة ورخاء، ولين عيش، فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير، ونحن في الجهد، والجوع، والبلاء!! فنزلت الآية تنبيهاً للمؤمنين، لئلا يتخدعوا بما عليه الكفار، من سعة الحال، فإنه متاع قليل زائل، ثم مصيرهم إلى نار الجحيم.



الأمثال في سورة آل عمران

وفي سورة آل عمران، ذكر تبارك وتعالى مثلاً بديعاً، من الأمثال الواقعية، في حياة البشر، بقصد العظة والاعتبار، ضرب مثلاً من أروع الأمثلة للكفار، في ضياع أعمالهم الصالحة، وتبدد آمالهم، التي كانوا يؤملونها، فقال تقديست أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْبِئَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦].

بدأ الآية الكريمة، بالتذكير لهم بسوء المتقلب والمصير، أي لن تفيدهم الأموال التي جمعوها، وتهالكوا على اقتنائها، ولا الأولاد الذين تقاتوا في خبثهم، لن تنفعهم في الآخرة شيئاً، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، وهم مخلدون في نار جهنم.

لقد جمعوا في هذه الحياة الثروة والمال، واغترؤوا بكثرة البنين والأولاد، وكانوا يتعززون بذلك، ويقولون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعْصِيينَ﴾ [سبأ: ٣٥] ولكن هيهات أن ينفع المال والولد، أو يفيد الجاه والحسب، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

١ - المثل الأول: ثم جاء المثل البديع، في ضياع أعمالهم، وتبدد آمالهم، فيقول سبحانه: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ يَبْرِئُ أَسَاسَاتٍ خَرَّتْ قَوْمٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَمْلَصَتْهُمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

لقد مثل الباري جلّ وعلا، لأعمالهم الصالحة، وما أنفقوه في هذه الحياة الدنيا - بقصد الشقاء وحسن الذكر - بقوم زرعوا أرضهم، ونعوا في ذلك الزرع، حتى إذا نما الزرع واشتد، وأصبح صالحاً للحصاد، أرسل الله عليه ريحاً عاصفةً مدمرة، فيها صبرٌ أي بردٌ شديد، وصوتٌ مخيف، فأهلك الحرت والزرع، ودمرت الشجر والشمرا، فلم تترك لهم شيئاً ينتفعون به، كذلك الكفار يوم القيامة، يمحى الله أعمالهم الصالحة، كما تذهب الريح العاصفة، الشديدة البرد، ثمار ونبات هذا الزرع، بذنوب أصحابها.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يوحي بالسبب، فما كان الله ليتلف زرعهم، ويدمر ما أنفوا فيه أعمارهم، بدون موجب أو سبب، إنما هو نتيجة إجرامهم وطغيانهم، وثمرة بغيتهم وعدوانهم، ولهذا عقب الآية الكريمة بقوله جل شأوه: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

أي ما ظلمهم الله بإهلاك زروعهم وثمارهم، وضياع أموالهم وجهودهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم، بارتكاب أنواع الجرائم، التي منها معاداة دين الله، وتكذيب رسله، فاستحقوا ذلك العقاب الشديد.

مَثَلٌ مِنْ صُورِ الْبَطُولَةِ وَالْفِدَاءِ

٢ - المثل الثاني: وفي هذه السورة الكريمة، صورة رائعة من صور البطولة والفداء، أبلغ من كل مثل يمكن أن يُعرض على الأذهان، ويحس ويشعر به كل إنسان، فلقد صور القرآن (غزوة أحد) وكأنها رأي عين، وصور حالة المسلمين، وهم يولون الأدبار، معنيين في الهزيمة والفرار، أمام جحافل المشركين، وجاءتهم الهزيمة بعد النصر، بسبب مخالفتهم أمر الرسول ﷺ، وكانت هذه الهزيمة درساً للمسلمين لا ينسى، وفي أعقاب هذه المعركة، جاء التصوير لأحداث هذه الغزوة، في آيات بينات، تفيض روعةً وجمالاً، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَكُمْ اللَّهُ وَعَذَّبَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي وفي لكم ما وعدكم به، من النصر على عدوكم، فانتصرت عليهم وهزمتهم ﴿بِأَمْرِ رَسُولِهِ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي حين كنتم تحصدونهم بسيوفكم، وتقتلونهم قتلاً ذريعاً، بإرادة الله وحكمه. ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُيِّتُكَ وَتُنَاجَيْتُ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٢] حتى إذا جبتم وضعفتم واختلقتم في أمر المقام في الجبل ﴿وَعَصَيْتُمْ أَمْرًا﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي وعصيتم أمر الرسول ﷺ، من بعد أن كان النصر حليفكم انتكستم وانهزمتم ﴿بِنَهْيِ الَّذِي يُؤْتِي أَمْرًا﴾ [آل عمران: ١٥٢] منكم من يرغب في الغنائم، ومنكم من يريد الشهادة في سبيل الله ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ عَنْهُ﴾ [آل عمران: ١٥٢] أي ردكم عن الكفار بالهزيمة التي أصابتكم، ليمتحنكم ويمتحن إيمانكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] صفح عنكم مع عصيانكم، تفضلاً منه وكرماً، والله ذو فضل عظيم، على عباده المؤمنين، ولذلك لم يعاقبكم.

غزوة أحد، وأشاع المنافقون أن محمداً قد قُتل، قال أنس بن النضر: (اللهم إني أعذر إليك مما ضَعَّ هؤلاء - يعني الرماة الذين تركوا الجبل ونسبوا في الهزيمة - وأبرا إليك مما فعل هؤلاء!) - يعني المشركين - ثم تقدَّم شاهراً سيفه نحو أعداء الله، فلقيته أحد الصحابة (سعد بن مُعاذ) فناداه: أين يا سعد؟ والله إني لأجد ریح الجنة، من دون أحد، ثم اخترق صفوف المشركين بشجاعة وبسالة، فقتل منهم عدداً كبيراً ثم استشهد رضي الله عنه، فمُثلَّ به المشركون تمثيلاً شنيعاً، فلم يعرفه أحد من الصحابة، بعد انتهاء المعركة، إلا أخيه عرفته من بتانه - أي رؤوس أصابعه - فوجدوه وبه بضَعُّ وثمانون جراحة، ما بين ضربة سيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم^(١١).

قال أنس بن مالك: ففيه نزلت هذه الآية الكريمة ﴿بِئْسَ الْفَوْسِقُونَ إِنَّمَا يُدْرِكُ النَّفْسَ الْكَافِرَةَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

استشهاد سبعة من الصحابة

وروى الحافظ ابن كثير: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (إن النساء كنَّ يوم أحد خلف الرجال، يُجهِزْنَ على قتلى المشركين، ولو حلفت يومئذ لرجوث أن أبرَّ بيمينني - أي لا أحنت فيه - أن ليس أحد منا يريد الدنيا، حتى أنزل الله قوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله، وعصوا ما أمروا به، أفرد الرسول في تسعة من الرجال أنا عاشرهم، فلما أرهق المشركون بالنبال، قال: رحم الله رجلاً ردَّهم عنا، فقام رجل من الأنصار، فقاتل ساعة حتى قُتل، فلم يزل رسول الله ﷺ يقول ذلك، حتى قُتل سبعة منهم، من ضمنهم (حمزة) عم النبي ﷺ، فنظروا فإذا حمزة قد بُعِزَ بطنه، فأخذتْ هندُ كبدَه فلاكتها - من شدة غيظها منه - فلم تستطع أن تبتلعها، وخزن عليه رسول الله ﷺ حزناً شديداً، وصلى عليه يومئذ سبعين صلاة^(١٢).

بأمثال هؤلاء الشجعان، عاد النصر للمسلمين بعد الهزيمة، فلا عجب أن يصوِّر القرآن هذه المعركة بهذه الصورة الرائعة من التضحية والقداء، وبهذا

(١١) انظر قصته في جامع البيان للطبري ٨٥/٢٠ ورواه مسلم وأحمد والترمذي.

(١٢) أخرجه أحمد في المسند، وانظر تفسير ابن كثير.

التمثيل البديع، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّدَكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ، إِذْ نَحُسُّوهُمْ بِإِذْنِهِ. حَتَّى إِذَا فُتِنْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَا مِنْكُمْ مِنْ رُسُلٍ وَمِنْكُمْ أَلَّذِينَ أَلْهَيْنَا عَنْكُمْ دُورَ فَضْلِنَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].



الإبداع البياني في سورة النساء

١ - قوله تعالى: ﴿وَأُولَ الْأَنْثَرِ أَمْوَالُهُمْ وَلَا يَنْتَهِوا عَنْهَا وَلَهُمْ أَمْوَالُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [النساء: ٢] (مجاز مرسل) أي الذين كانوا ينامي، ادفعوا إليهم أموالهم، فهو باعتبار ما كان، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿بَلَاءٌ يَأْتِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِمَا كَانُوا يُكَفِّرُونَ﴾ [النساء: ١٠] (مجاز مرسل) باعتبار ما يشول إليه. وفي قوله: ﴿تَقِيَّتُ الرِّبَا وَالْفِطْرَةِ﴾ استعارة بديعة عن (الحرام) و(الحلال)، أي لا تستبدلوا الحرام من أموالهم، بالحلال الطيب من أموالكم.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَسَيُكْفَىٰ هَذَا حُجْرًا وَيَرْفَعُ رَجُلًا وَهُوَ مِنَ الْمَلَايِكَةِ رَاقٍ يُدَارِي رَجُلًا بِرَأْسِهِ وَيُخَفِّضُ رَجُلًا وَهُوَ مِنَ الْمَلَايِكَةِ رَاقٍ يُدَارِي رَجُلًا بِرَأْسِهِ وَيُخَفِّضُ رَجُلًا﴾ [النساء: ١٥] في الآية (مجاز عقلي) أسند التوفي إلى الموت، والمراد تتوفاهن الملائكة، أو يتوفاهن الله ﴿أَلَمْ يَكُنْ عَلَى الْأَرْضِ حِينِ مَوْتِكُمْ﴾ [الزمر: ٤٢] فهو إسناد مجازي يدرك بالعقل.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْقَرْتُمْ مِنْكُمْ إِنْ تَعْلَمُونَ﴾ [النساء: ٢١] في الآية (كناية لطيفة) كثر تعالى عن (الجماع) بلفظ (الإفشاء) لتعليم المؤمنين الأدب الرفيع، أن يستعملوا الكتابات في الأمور المستهجنة.

قال ابن عباس: الإفشاء في هذه الآية: الجماع، ولكن الله عظيم، كريم، يكتفي. اهـ تفسير القرطبي ١٠٢/٥.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ بَيْعَاتٍ غُلِيظَةً﴾ [النساء: ٢١] في الآية (استعارة بديعة) استعار لفظ الميثاق للعقد الشرعي، الذي أمر به الله عز وجل: ﴿فَأَنْكِحُوا الَّذِينَ بِأَيْدِي أَيْمَانِكُمْ أَهْلَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٥] وهو ما أشار إليه النبي ﷺ في حجة الوداع، بقوله: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» رواه مسلم.

٥ - قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] ليس المراد بتحريم الأمهات والبنات تحريم ذواتهن، بل تحريم نكاحهن، فالآية على حذف مضاف، ويسمى هذا (المجاز المرسل) أي حُرِّمَ

عليكم نكاح الأمهات، والبنات، والأخوات، والخالات... إلخ.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا لَكُمُ الْأَنْفُسَ الَّتِي فِيكُمْ مِنَ الْأَنْفُسِ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣] معنى الدخول بهن: إدخالهن السر، وهي (كناية) عن الجماع، كقولهم: بنى عليها، وضرب عليها الحجاب، وتغشاها، كلها من ألفاظ الكناية، التي يستحب استعمالها، عوضاً عن الألفاظ الصريحة، المتعلقة بمعاشرة النساء، ولا نجد في القرآن الكريم لفظاً نابياً من غير الكناية.

٧ - قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَفْتَيْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤] استعار لفظ (الأجور) للمهور، لأن المهر يشبه الأجر في الصورة، ففي الآية (استعارة نصريحية) بديعة، والمعنى: فما انتفعتن وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الشرعي، فادفعوا لهن مهورهن ولا يراد به (نكاح المتعة) لأن الآية وردت في النكاح الذي أحله الله، بعد ذكر المحرمات من النساء، وأما نكاح المتعة فباطل باتفاق أهل السنة والجماعة، ولو كان يراد به المتعة، لكان اللفظ (فما نكحتموهن لمتعة) ومن شروط النكاح الشرعي الدوام والاستمرار، لا النكاح المؤقت بسنة، أو شهر، أو أسبوع، فإنه يتنافى مع مقاصد الإسلام السامية، فتدبر هذا والله يريكم.

٨ - قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢] شبه تعالى استحقاق الرجال والنساء للميراث وتملكهم له (بالاكتساب)، واشتق من لفظ الاكتساب ﴿كَسَبُوا﴾ على طريق (الاستعارة التبعية) أي لكل من الرجال والنساء، نصيب في الميراث، بسبب القرابة، أو النكاح، فرضه الله لهم.

عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله: يغزو الرجال، ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلَا تَمْسُوهُمَا بِمَا كَسَبَ اللَّهُ يَدَ﴾ [النساء: ٣٢] الآية، رواه الترمذي في كتاب التفسير رقم / ٣٠٢٢ .

٩ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي تَخْتَفُونَ نُفُوسَكُمْ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: ٣٤] كثر بالهجر في المضاجع عن الجماع، قال ابن عباس: (الهجر في المضاجع هو أن لا يجامعها، ويضاجعها على فراشها، ويوليها ظهره) تفسير ابن كثير ٥٠٤/١.

وهذه كناية لطيفة، من الكنايات التي تتعلق بالحياة الزوجية، والمعاشرة الجنسية.

١٠ - قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْمَاءِ أَوْ لَسْتُمْ أَنسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣] أصل الغائط: المكان المنخفض من الأرض، والمجيء منه (كناية) عن الخدث، لأن المعتاد أن من يريد قضاء الحاجة، أنه يذهب إلى الأرض المنخفضة، ليؤاري شخصه عن عيون الناس، وملامسة النساء (كناية عن الجماع) ولفظ اللمس، واللمس، وردا في القرآن بمعنى (الجماع)، وهذه كلها من الكنايات المستحسنة في الشريعة الغراء، وهو ما دعانا وأرشدنا إليه الكتاب العزيز.

١١ - قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُونَ الْمَلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤] اشتراء الضلالة (استعارة لطيفة) لأنها في صورة المبادلة المالية، حيث أخذوا الضلالة، ودفعوا الثمن وهو الإيمان، فكانت الخسارة فادحة، والمراد بالسبيل: الطريق المستقيم وهو الإسلام، كثر عنه بالسبيل، لأنه طريق النجاة، وهي (كناية لطيفة) من أبدع أنواع الكنايات!!

١٢ - قوله تعالى: ﴿زَيْتُونًا تَمِيثًا وَعَصِيْنَا عَنِّي سَمِيعًا﴾ [النساء: ٤٥] في الكلام (إيجاز بالحذف) أي سمعنا قولك، وعصينا أمرك، وهذا ابلغ في الكفر والعناد، وقولهم: ﴿وَأَنصَحْ عَنِّي سَمِيعًا﴾ أصله دعاء بالخير أي لا سمعت مكروها، ولكن اليهود الخبيثة، كانوا يقصدون به الدعاة على الرسول ﷺ، أي لا أسمعتك الله، وهو دعاء عليه بالضم، أو دعاء عليه بالموت.

١٣ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النساء: ٤٦] أصل اللي: قتل الحبل، واستعير للكلام الذي يقصد به غير ظاهره، كأنه يقتل الكلام قتلاً، ليخرجه عن حقيقته إلى مقصده الخبيث، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا فِي الْقَرْيَةِ﴾ روي أن اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك يا محمد!! أي الموت عليك، وأظهروا أنهم يريدون السلام عليه، وكانوا يقولون: لو كان محمد نبياً حقاً، لأخبر بما قلنا له!! فأظهره الله على حُبث ضمائرهم، وما يحملون في صدورهم من الحقد والبغضاء، فكان ذلك دالة واضحة على صدق نبوته عليه الصلاة والسلام، لأن الإخبار عن الغيب من المعجزات الواضحة.

١٤ - قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْبَسَ رِيَالُهَا وَأُذُنُهَا﴾ [النساء: ٤٧]

(كناية) لطيفة عن إذهاب الحواس، من عيون، وأنف، وحاجب، حتى تصبح كخف البعير، وحافر الدابة، هذا خلاصة قول ابن عباس، كثي عن طمس الحواس بالرد على الأدبار.

١٥- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] المراد بالناس محمد ﷺ، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (ذكر العام وإرادة الخاص) تعظيماً لشأن الرسول ﷺ، الذي جمعت فيه كمالات الأولين والآخرين.

كان اليهود يطمعون أن يكون خاتم الأنبياء منهم، فلما خص الله محمداً ﷺ بختم النبوة، وهو من العرب، ولم يبعث من بني إسرائيل، حسدوه وكذبوا نبوته. قال ابن عباس: حسدوا النبي ﷺ على النبوة، وحسدوا أصحابه على الإيمان.

١٦- قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يَوْمُنَاَ حَقٌّ يَحْكُمُوكَ مِثْلَ شَجَرٍ سَهْمٍ...﴾ [النساء: ٦٥] في الآية (استعارة بديعة) شبه ما يحدث بينهم من الخلاف والمنازعات، باشتباك أغصان الأشجار، وتداخل بعضها ببعض، وهي استعارة للمعقول بالمحسوس، تشبيهاً للتنازع الذي يدخل به بعض الكلام في بعض، باشتباك الأشجار وتداخل بعضها ببعض، وهي من لطيف أنواع الاستعارة.

١٧- قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، أي يبيعون الحياة الغانية، بالحياة الخالدة الباقية، واستعار لفظ الشراء للمبادلة، وهذا من لطيف الاستعارة.

١٨- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُلٍّ مُؤْمِنًا حَقًّا فَتَحَرَّ رَقَبًا مُؤْمِنَةً...﴾ [النساء: ٩٢] أطلق الرقبة وأراد (إعتاق العبد) المملوك، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) ويسمى عند علماء البيان (المجاز المرسل)، أي فعلية عتق عبد مؤمن مملوك، ويشترط في العبد الإيمان، لقوله تعالى: ﴿فَتَحَرَّ رَقَبًا مُؤْمِنَةً﴾ والحكمة في هذا أنه لما أزهق روح نفس مؤمنة خطأ، لزمه أن يدخل نفساً يثلها في جملة الأحرار، فإن إطلاقها من قيد الرق إحياء لها.

١٩- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا صَرَّمْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قِتْلًا﴾ [النساء: ٩٤] استعار لفظ (الضرب) للجهاد في سبيل الله، واستعار لفظ

(السييل) لدين الله عز وجل، ففي الآية استعارة من وجهين: استعارة (الضرب) للجهاد، واستعارة (السييل) لدين الإسلام.

والمعنى: إذا خرجتم للجهاد في سبيل الله، نصره لدين الله عز وجل، فتثبتوا ولا تتعجلوا في القتل، حتى يظهر لكم المؤمن المسالم، من الكافر المقاتل، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلَسْتُم مِّمَّنْ﴾ [النساء: ٩٤].

٢٠ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةُ ظَالِمِي النَّاسِ﴾ [النساء: ٩٧] أطلق الجمع وأراد الواحد ﴿تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةَ﴾ يراد به (ملك الموت) وذكر بصيغة الجمع (الملائكة) تفضيماً له، وتعظيماً لمكانته، ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿قَدْ يَرْفَعُكُمْ فِيكَ الْمَوْتُ الَّذِي فِيكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

٢١ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ بِيَمِينٍ مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥] إسلام الوجه: الاستسلام الكامل والانقياد التام، لأمر الله عز وجل وحكمه، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) فيه (مجاز مرسل) أي جعل نفسه وقاته سالمة خالصة لله تعالى، لا سبيل لأحد عليها.

٢٢ - قوله تعالى: ﴿وَأَحْصَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] تصوير فني بديع، كأن الشُّح - وهو البخل الشديد - كان غائباً عن البشر، فحضر كل نفس، وجعلها مطبوعة عليه، لا تنفك عنه أبداً، ولما كان الشُّح غير مفارق للأنفس، ولا متباعد عنها، كان كأنه أحضرها ولازمها من غير فراق، فاستعار الإحضار للملازمة، وهي (استعارة) لطيفة بديعة.

٢٣ - قوله تعالى: ﴿يَنْبِئُ الْخَفِيَّاتِ بِمَا لَمْ يَدَّاهَا أَلْسَانُ﴾ [النساء: ١٣٨] الأسلوب هنا أسلوب (سخرية وتهكم) حيث استعمل لفظ البشارة مكان الإنذار، لأن البشارة تكون بالخير، لا بالشر، واستعملها للشر للسخرية والتهكم.

٢٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْخَفِيَّاتِ يُخْدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] استعار اسم الخداع للمجازاة على العمل، والله تعالى منزّه عن الخداع، لا يُخدع، أي يفعلون ما يفعل المخادع، فيظهرون الإيمان، ويضمرون الكفر. ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي فاعل بهم ما يفعله الغالب في الخداع، حيث تركهم في الدنيا معصومي الدماء، وأعد لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار، سقى

جزاءهم (خداعاً) على وجه المقابلة، ويسمّيها علماء البلاغة (المشاكلة) أي توافق اللفظ، مع اختلاف المعنى، كقول العرب: ظَلَمَنِي فظلمته، أي: جازيته على ظلمه بما يستحقّه من العقاب. ١

٢٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ التَّائِبِينَ إِلَى اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا لَآتِينَ الْكِفَارِ﴾ [النساء: ١٤٥] الدُّرُكُ كالدَّرَج، إِلَّا أَنَّ الْفَارِقَ بَيْنَهُمَا، أَنَّ الدُّرُكَ يُقَالُ بِاعْتِبَارِ الْهَبُوطِ، وَالدَّرَجُ بِاعْتِبَارِ الصُّعُودِ، فَالدُّرُكُ الطَّبَقَةُ الَّتِي فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، وَإِنَّمَا كَانَ عَذَابُهُمْ أَشَدَّ مِنَ الْكُفَّارِ، لِأَنَّهُمْ أَخْبَثُ الْكُفَرَةِ، إِذْ ضَمُّوا إِلَى الْكُفْرِ اسْتِهْزَاءً بِالرَّسُولِ وَالْإِسْلَامِ، وَخُدَاعاً لِلْمُسْلِمِينَ، وَتَدْبِيرَ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَانْظُرْ بَعَيْنَ الْعِظَةِ وَالْاعْتِبَارِ، إِلَى حَالِ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ الْأَشْرَارِ، فَقَدْ شَرَطَ تَعَالَى لِلتَّوْبَةِ عَلَى الْكُفَّارِ شَرْطاً وَاحِداً، وَهُوَ الْإِنْتِهَاءُ عَنِ الْكُفْرِ ﴿قُلْ لِلَّهِ كُفْرًا إِنَّ يَتُوهَا يُمُكِّرُ لَهُمْ فَذَرْنُوهُمْ وَاعْبُدْ اللَّهَ﴾ [الأنفال: ٢٨] وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ، فَقَدْ شَرَطَ لِلتَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ أَرْبَعَةَ شُرُوطٍ، وَهِيَ (التَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ، وَإِصْلَاحُ مَا قَسَدَ مِنَ الْعَمَلِ، وَالْإِعْتَصَامُ بِاللَّهِ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ) فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاتَّقَوْا وَأَخْلَصُوا إِلَهُهُمُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦] وَمَعَ كُلِّ هَذِهِ الشُّرُوطِ فَقَدْ جَعَلَهُمْ تَعَالَى فِي ضَمَنِ الْمُؤْمِنِينَ تَبَعاً، وَلَمْ يَقُلْ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَجَعَلَ الْأَجْرَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ دُونَهُمْ، لِلتَّنْبِيهِ عَلَى عَظَمِ جَرِيْمَةِ النِّفَاقِ وَالْمُنَافِقِينَ، فَتَدْبِيرَ أَسْرَارِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ.

٢٦ - قوله تعالى: ﴿وَقَتْلُوا الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥] لَمْ يَقْتُلُوا جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّمَا قَتَلُوا بَعْضَهُمْ، فِيهِ الْآيَةُ (إِطْلَاقُ الْكُلِّ وَإِرَادَةُ الْبَعْضِ) وَهَذَا مِنَ (الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ) وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ بِالتَّعْمِيمِ، لِبَيَانِ فِظَاعَةِ جَرِيْمَتِهِمُ الشَّنِيعَةِ، فَإِنَّ مِنْ سَفَكِ دَمِ نَبِيٍّ، فَكَأَنَّمَا سَفَكَ دَمَ الْأَنْبِيَاءِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَحْلَى ذَٰلِكَ كِتَابًا عَلَى نَفْسٍ لَّئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ قَتْلِ نَفْسٍ بِغَيْرِ سَبَبٍ أَوْ فَكَاوَى الْأَرْضِ فَحَسْبُنَا فَنَالِ الْآسَرَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَثَابًا أَخِيَا النَّاسِ حَبِيبًا﴾ [المائدة: ٣٢].

٢٧ - قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُفْلَةٌ﴾ [النساء: ١٥٥] غُفْلٌ أَيُّ مَغْشَاةٍ بِأَغْشِيَةِ كَثِيفَةٍ، لَا تَفْهَمُ مَا تَقُولُهُ يَا مُحَمَّدُ، بَلْ خَتَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، اسْتِعَارَ (الْغُلَافَ) بِمَعْنَى (الْغَطَاءِ) لِعَدَمِ الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ، يَقُولُونَ: قُلُوبُنَا فِي أَغْطِيَةٍ، لَا تَفْقَهُ مَا نَقُولُ يَا مُحَمَّدُ! أَرَادُوا أَنَّهُ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنَ الذِّكْرِ، وَالْمَعْرِفَةِ، عَلَى طَرِيقَةِ (الِاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ).

٢٨ - قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]

أي قول اليهود نحن قتلنا المسيح عيسى بن مريم، قالوه على سبيل (التهمكم والاستهزاء) لأنهم لا يؤمنون برسالته، فوصفهم له بعنوان الرسالة (سخرية وتهكم)، كقول المشركين لرسول الله ﷺ ﴿يَأْتِيهَا الْيَتِيمُ يُنْزِلُ عَلَيْهِ الْكِتَابَ بِتِلْكَ لَمْخَضَةٍ﴾ [الحجر: ٦] مع أنهم لا يؤمنون بالقرآن، كأنهم يقولون: أنت الذي تدعي أن الله أنزل عليك القرآن، حقاً إنك مجنون!! فاثلمهم الله أنى يوفقون.

٢٩ - قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي بَيْعِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] اللفظ عام يشمل (اليهود والنصارى) ويراد به الخصوص (النصارى) فهو من باب (إطلاق العام وإرادة الخاص) تشبيهاً على النصارى، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ وهذه مقالة النصارى خاصة، ففي الآية (مجاز مرسل) كما هو معروف عند علماء البيان.

٣٠ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتُمْ أَخِيَّا لِكُنتُمْ﴾ [النساء: ١٧١] في الآية (إيجاز بالحذف) أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة (الأب، والابن، وروح القدس) وهي التي يعبر عنها النصارى بالأقانيم الثلاثة، وهي المعروفة بعقيدة (التثليث)، حُذف من الآية لفظ (الإله) أي الإله ثلاثة، ويسمى (حذف الإيجاز).

٣١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَةً أَلْقَاهَا ابْنُ مَرْيَمَ ذَرِّعُ رِيحٍ﴾ [النساء: ١٧١] الكلمة في الآية ﴿وَكَلِمَةً أَلْقَاهَا﴾ أي عيسى مكون بكلمته تعالى وأمره، الذي هو (كُنْ) من غير واسطة الأب، ولا واسطة النطفة ﴿هَئِذَا مَثَلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ كَلِمَةً مِنْ رَبِّهِ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقوله سبحانه: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ كناية لطيفة عن النفخة التي نفخ بها (جبريل) في مريم فحملت بعيسى ﴿فَنَحْنُ كَائِدَاتُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى﴾ (من) ابتدائية لا تبعيضية كما زعمت النصارى، أي روحٌ مبتدأة من الله سبحانه وتعالى.

يحكى أن طبيباً نصرانياً ناظر الإمام الواقدني ذات يوم، أمام الخليفة (هارون الرشيد) فقال له النصراني: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى ابن الله، وجزء منه تعالى، وتلا هذه الآية ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (من) للتبعيض، فهذه شهادة من القرآن على أن عيسى ابن الله، فضحك الواقدني، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُ نَفْسٌ ذَا ذُرِّيَةٍ وَمَا أَلْمِزْنَا بِهِ مَثَلًا﴾ [الجاثية: ١٣] وقال له: يجب على فهمك السقيم، أن يكون ما في السموات وما في الأرض بعضاً من

الله، لأن الله يقول ﴿جِيءَ بِنَبِّ﴾ فانقطع النصراني وأسلم، وفرخ الرشيد فرحاً شديداً، ووصل الوافدي بصلوة عظيمة. فمن هنا للابتداء، لا للتبويض، أي روح مبتدأة من الله تعالى (بالنفخة) التي نفخ بها جبريل، وأضافها تعالى إلى نفسه تشریفاً، لأنها كانت بأمره وتقديره! اهـ تفسير القرطبي ١٨/٦.

٣٢- قوله تعالى: ﴿قَالُوا الَّذِي نَدْعُو بِاللَّهِ وَآفَعَسَمُوْا بِهِ. لَسَيَدْخُلُهُ فِي رَحْمَتِنَا وَقَمَلِ...﴾ [النساء: ١٧٥] الرحمة صفة من الصفات، لا يمكن أن يدخل فيها الإنسان، ويُراد بها (الجنة) التي هي موضع تنزل الرحمة، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الصفة وإرادة الموصوف) أي سيدخلهم في جنته، دار الرحمة والرضوان، والنعيم الدائم المقيم.

٣٣- قوله تعالى: ﴿يَحْيَىٰ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦] في الآية (مجاز بالحذف) أي يبين الله لكم الأحكام والشرائع، لتلا تضلوا، وخشية أن تضلوا، وليس المعنى: لنضل، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

الإبداع البياني في سورة المائدة

١ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرًا﴾ [المائدة: ٢] الشعائر: جمع شعيرة ومعناها في اللغة: العلامة، وهي (استعارة لطيفة) استعار الشعيرة وهي العلامة، للأحكام والتكاليف التي تعبد الله بها عباده، من الحلال والحرام، أي لا تستحلوا حرمات الله، ولا تتعدوا شرائعه التي شرعها لكم، ففي الآية (استعارة تصريحية) قال الحسن: يعني شرائعه التي حذها لعباده.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا إِلَيْكَ الْخَرَامَ فَتَكُونَ فَوَاحِشًا ذُرِّيَّتِهِمْ وَرَبْوَتَهُ﴾ [المائدة: ٢] الآية على حذف مضاف، أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، لحج أو عمرة، ففي الآية الكريمة (مجاز بالحذف) نهى تعالى عن الإغارة عليهم كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

٣ - قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ، مَا أَهْلَ لَحْمٍ اللَّهُ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] التحريم والتحليل إنما يتعلقان بالأفعال، دون الأعيان والذوات، أي حُرِّمَ عليكم أكل الميتة والدم، ففي الآية (حذف بالإيجاز) وإنما ذكر لحم الخنزير، ولم يقل: والخنزير، لبيان أنه حرام بعينه، حتى ولو ذبح بالطريق الشرعي ﴿وَمَا أَهْلَ لَحْمٍ اللَّهُ بِهِ﴾ أي ما ذبح لغير الله، أو ذكر عليه اسم غير الله، كقول أهل الجاهلية: بأسم اللات والعزى، أو بأسم الملبك، أو رئيس الجمهورية.

والمعنى: ما ذبح لغير الله، أو سمي عليه اسم غير الله، فكل هذا حرام لا يجوز أكله، وأصل الإملا: رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم توسع فيه، فصار رفع الصوت عند الذبح، أو عند ولادة المولود، (بطريق الاستعارة) أي ذبح بذكر اسم غير الله تعالى عليه !

٤ - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النَّبِيَّ كَتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣] لا يراد باليوم يوم محدّد، إنما يراد به العصر والزمان، أي في هذا الزمان الحاضر، الذي أكرمكم الله فيه بالإسلام، انقطع رجاء الكفار منكم، أن ترتدوا عن

دينكم، فالיום يراد به الزمان الحاضر، ونظيره قولهم: كنت بالأمس شاباً، واليوم صرت شيخاً، كنى بالأمس عن زمن الشباب، وباليوم عن زمن الشيخوخة.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّ الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْكُفْرِ مِنْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المائدة: ٥] هذا من العام الذي يراد به الخاص، أطلق عليه لفظ الطعام، ويراد به الذبائح، أي ذبائح أهل الكتاب (اليهود والنصارى) حلال لكم أن تأكلوا منها، كما أن ذبائحكم حلال لهم، فلا حرج أن تشتروا منهم وتبيعوهم الذبائح، ففي الآية (مجاز مرسل) أطلق العام والمراد به الخاص.

قال الحسن البصري: إذا ذبح اليهودي أو النصراني، فذكر اسم غير الله وأنت تسمع، فلا تأكله، وإذا غاب عنك فكل، فقد أحل الله لك أكل ذبائح أهل الكتاب.

٦ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُتِلْتُمْ إِلَى الْعَتَاةِ فَأَعْلُوا وَجُوهَكُمْ...﴾ [المائدة: ٦] أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة، فعبر عن إرادته الفعل بالفعل نفيه، وأقام المسبب مقام السبب، بطريق (المجاز المرسل) للملاسة بينهما، وفي الآية «إيجاز بالحذف» أيضاً، أي إذا قسم إلى الصلاة وأنتم محدثون، فلا يلزم الرضوء على كل قائم إلى الصلاة، سواء كان محدثاً أم لا؟ بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم (فتح مكة) الصلوات الخمس بوضوء واحد، كما في صحيح مسلم.

٧ - قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ﴾ [المائدة: ١١] بسط الأيدي (كناية) عن البطش والفتك، كما أن كف الأيدي (كناية) عن المنع والحبس.

والمعنى: اذكروا فضل الله ونعمته عليكم، حين هم يهود بني النضير، أن يبطشوا بكم بطريق القدر والخيانة، فعصمكم من شرهم ونجاكم، وسبب النزول يوضح المراد، فانظره في مختصر تفسير ابن كثير ٤٩٦/١.

٨ - قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِرَأْفَةٍ رَبِّكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦] في الآية (استعارة تصريحية) استعار الظلمات للكفر، والنور للإيمان، أي يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال، إلى نور الهداية والإيمان، وقد تقدم مثلها في سورة البقرة.

٩ - قوله تعالى: ﴿إِذْ حَتَلْ بَيْنَكُمْ أَنْبِيَاءَ وَحَمَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] في الآية تشبيه جميل، يُسمى (التشبيه البليغ) أي جعلكم تعيشون كالملوك، في رَغَد العيش، وراحة البال، حُذِفَ منه أداة التشبيه، ووجه التشبيه، فأصبح بليغاً، كما هو معروف عند علماء البيان، لأن بني إسرائيل لم يكونوا جميعاً ملوكاً، إنما عاشوا كالملوك في الثرف والنعيم.

١٠ - قوله تعالى: ﴿مَنْ تَكَلَّ نَفْسًا بِمَقْرِ تَقِي أَوْ فَكَاوِي الْأَرْضِ فَصَاغْنَا قَتَلَ أَنْتَ حَيِّعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَتْ أَحْيَا النَّاسِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] إحياء النفس بعد موتها مستحيل، لا يقدر عليه أحدٌ إلا الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَتْ أَحْيَا النَّاسِ جَمِيعًا﴾ الإحياء هنا (مستعار) عن إبقائها على قيد الحياة، وعدم التعرض لقتلها، لأن المراد من لم يقتل نفساً، ونَسِبَ لبقاء حياتها، فكانت أحيا جميع الناس، استعار لفظ (الإحياء) لترك إزهاق النفس، وهي (استعارة بديعة) والمقصود هنا: تعظيم قتل النفس، وتفخيم شأن الإحياء، للمحافظة على حياة الجميع، وبيان ما يجب من وحدة البشر.

١١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ الَّذِينَ يَحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [المائدة: ٣٣] الله عز وجل لا يُحَارَبُ ولا يُغَالَبُ، والآية على حذف مضاف، أي يحاربون المؤمنين أولياء الله، ويحاربون رسوله، ففيها (مجاز مرسل) كقوله تعالى: ﴿وَتَشْتَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهل القرية، أو المراد بالآية: يحاربون الإسلام دين الله الحق.

١٢ - قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتَّبِعُوا مِنَ الْأَرْضِ إِلَيْكَ لَهْمُ جَزَى فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: ٣٣] الثقي من الأرض (كنية) عن السجن والجبر، قال مالك رحمه الله: الثقي: السجن، يُنْفَى من سعة الدنيا، إلى ضيقها، فكانت أخرج إلى عالم آخر، غير العالم الذي يعيش فيه، قال أحد الشعراء وكان مسجوناً:

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَعَنْ وَضَلْ أَهْلِهَا قَلَسْنَا مِنَ الْأَحْيَا وَلَسْنَا مِنَ الْمَوْتَى
إِذَا جَاءَنَا السَّجَانُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ عَجَبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

أهـ تفسير الفخر الرازي ٢١٦/١١.

١٣ - قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتْرَكُوا مِنَ الشَّارِ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [المائدة: ٣٧] عبث عن التمني بالإرادة، بطريق (الاستعارة) أي يتمنون أن

يخرجوا من النار، وليسوا بخارجين منها، ولهم عذاب مقيم دائم، وهذه الآية في حق الكفار، ولا تنافي الشفاعة لعصاة المؤمنين في الخروج من النار، لما روي عن جابر رضي الله عنه في حديث الشفاعة أنه قال: «يخرج قوم من النار بالشفاعة - أي شفاعة سيد المرسلين ﷺ - فيدخلون الجنة» قيل لجابر: يقول الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [المائدة: ٣٧] قال: أثل أول الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: ٣٦] فهي في الكفار، لا في المؤمنين، تفسير ابن كثير ٥٦/٢.

١٤ - قوله تعالى: ﴿وَالنَّارُ وَالنَّارُ قَاطِعَتَا أَيْدِيَهُمَا...﴾ [المائدة: ٣٨] أطلق اليد وأراد بها (الكف) من الرُغ، وهذا من باب (إطلاق الكل وإرادة الجزء) فيه مجاز مرسل، والكف التي تَقَطع هي (اليمنى) لأنها آلة السرقة، وختم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة ٣٨] أي غالب لا يَحْكُم إلا بما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

حكاية لطيفة: قال الأصمعي: كنت أقرأ القرآن، وبجاني أعرابي جاء من البادية، يسمع ما أقرأ، فقرأت هذه الآية ﴿وَالنَّارُ وَالنَّارُ قَاطِعَتَا سَهْواً﴾ ﴿وَاللَّهُ غَزِيرٌ رَحِيمٌ﴾ أي ختمها بذلك عن غير قصد، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت: كلام الله عز وجل! قال: حاشا، ليس هذا كلام الله! أئخذ علي ما قرأت، فأعذتها، وتنبهت، فقلت في ختامها ﴿وَاللَّهُ غَزِيرٌ حَكِيمٌ﴾ فقال: الآن أصبت، هذا كلام الله تعالى! فقلت له: وكيف عرفت؟! فقال الأعرابي: يا هذا، عز، فحكمت، فقطع، ولو غفر، وزجم، لما قطع!! المقتطف من عيون التفاسير ٣٦/٢.

١٥ - قوله تعالى: ﴿بَنَاتِهَا الرُّسُلُ لَا يَنْزِلُكَ إِلَيْهِ يَسْعَوْنَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] خطب ﷺ بعنوان الرسالة (للتشريف) وتعليم المؤمنين أن يعظموا رسول الله ﷺ عند مخاطبته، وينادوه بلفظ فيه إجلال وتوقير، كقولهم: يا نبي الله، ويا رسول الله، والمصارعة تتعدى بد(إلى) وتعدت هنا بد(في) لإشارة بديعة دقيقة، وهي التنبية على أنهم مستقرون في الكفر، لم يخرجوا عنه إلى الإيمان، وهم مغرقون في الكفر والإجرام، يتسابقون فيه بالمصارعة، كأنهم في ميدان سباق، وحقاً إنه لتصوير بديع.

١٦ - قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعَدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ...﴾

[المائدة: ٤٣] استفهام للتعجب من تحكيمهم لرسول الله ﷺ وهم لا يؤمنون برسالته، ولا بكتابه!! فهم قد عدلوا عن التوراة، التي يعتقدون بصحتها، إلى حكم الله في القرآن، الذي يعتقدون ببطلانه، وهذا منتهى الشقه والتخبط في الذين! أي ألا تعجب لحال هؤلاء اليهود؟ يتحاكمون إليك وهم لا يؤمنون برسالتك، ويتركون حكم الله في التوراة؟!

١٧ - قوله تعالى: ﴿فَاسْتَفِواْ الَّذِيْنَ إِذْ أَتَىٰهُمُ مَّرْجُطُهُمْ حَبِيبُهُمْ...﴾ [المائدة: ٤٨] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، أي يادروا بفعل الخيرات والطاعات، استعار لفظ (الاستباق) للمبادرة إلى ما يرضي الله، حيث شبههم بالمسابقين على ظهور الخيل، كل واحد ينافس صاحبه في السبق، لبلوغ الهدف، على طريق الاستعارة اللطيفة.

١٨ - قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ تَقُولُونَ بِآلِهِنَا إِنَّا مُشْرِكُونَ...﴾ [المائدة: ٥٩] هذا النوع من التعبير، يُسمى عند علماء البيان (تأكيد المدح بما يُشبه الذم) فقد جعلوا التمسك بالإيمان، وبما أنزله الله تعالى من الكتب السماوية، سبباً موجباً للإنكار والنفقة، وهو على النقيض سبب للمديح والثناء، إذ الإيمان نعمة، والكفر نقمة.

والمعنى: قل لهم يا معشر اليهود والنصارى، هل تعيين علينا وتكثرون منا، إلا إيماننا بالله وبرسوله؟!

١٩ - قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ مَثْوًى بِحَدِّ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ...﴾ [المائدة: ٦٠] وضع الثواب موضع العقاب (للتهكم والسخرية) فقد وضعت المثوبة - يعني الثواب - مكان العقوبة، للسخرية والتهكم، فالمثوبة مختصة بالخير، واستعمالها في الشر سخرية، وهذا من أساليب العرب، فيمن يريدون إهانته وتحقيره، قال الشاعر:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

٢٠ - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْيَهُودُ يٰٓأَنَّهُ مَقُولُهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَأَعْمُوا بِمَا قَالُوا...﴾ [المائدة: ٦٤] غُلُ اليد (كناية) عن البخل، وبسط اليد كناية عن الجود والسخاء، أي قال اليهود للنعاء: إن الله بخيل يفتّر الرزق على العباد، ﴿سَأَلْتُمُوهُمْ﴾ دعاء عليهم بالبخل المذموم، والفقر والتكد، واليهود أبخل الناس في الخير.

قال الحافظ ابن كثير: لا يعنون بذلك أن يذ الله موثقة - أي مربوطة -

ولكن يقولون: إنه بخيل، أمسك ما عنده بخلاً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. اهـ تفسير ابن كثير ٧٨/٢.

٢١ - قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَزَلْنَا نَارًا لِيُحْرَبَ أَهْلُهَا أَلْهَمْنَا اللَّهُ وَيَسْتَعِينُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤] الحرب لا ناز لها، وإنما شُهِت بالنار، لأنها تاكل أهلها، كما تاكل النار حطبها، ففي الآية (استعارة تمثيلية) شبه معاداتهم للبشر، وإلقاء الفتن بين الناس، بمن يُشعل النار ويضرمها، والله يطفئها بإلقاء الرعب في قلوبهم، وبخاصة إذا سمعوا بجهاد المسلمين (نُصرت بالرعب من ميرة شهر).

والتعبير بالمضارع ﴿وَيَسْتَعِينُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يفيد الدوام والاستمرار، أي هم دائمون مستمرّون في إثارة الفتن، بين طوائف الناس، وما الحرب العالمية الأولى والثانية، إلا شاهد على جرائم اليهود المتتابعة، قطع الله دابرهم، ونجى الناس من شرورهم وأثامهم.

٢٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْمَلُوا فِيهِمْ وَبَرًّا لَّكُنَّ أَفْجَاءً أَعْمَاهُ . . .﴾ [المائدة: ٦٦] عبّر عن إغداق الرزق عليهم، وتوسعة الخيرات، والشعم الوفيرة، بالأكل من فوقهم ومن تحتهم، بطريق (الاستعارة البديعة) كما يقول العرب: عمّه الرزق من فوقه إلى قدمه.

والمعنى: لو أنهم استقاموا على شريعة الله، وعملوا بما في التوراة والإنجيل، وما أنزل إليهم في القرآن، لو شاع الله أرزاقهم، وأغداق عليهم الخيرات، بإفاضة بركات السماء والأرض، بإنزال الأمطار، وإخراج النبات والثمار.

٢٣ - قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ عَلَىٰ غُرَّتِي يُسْمِعُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ٦٨] في الآية (كناية لطيفة) كُتِبَ بها عن التحقير والتصغير، بما لا غاية وراءه، أي لستم على دين يُعتد به، ويليق بأن يسمى شيئاً، حتى تطبقوا أحكام الله، التي شرعها لكم في التوراة والإنجيل، ومن جعلتها التصديق بخاتم الأنبياء ﷺ.

٢٤ - قوله تعالى: ﴿وَحِصْنُوا أَلَّا تَكُونَ بَنَةً فَسَوْا وَاسْتَوْا﴾ [المائدة: ٧١] استعار (العمى والضنم) للإعراض عن الهداية والإيمان، تشبيهاً له بالأعمى الذي لا يبصر، وبالأصم الذي لا يسمع، وهي (استعارة بديعة) مشهورة، يقال لكل معرض عن الهدى والإيمان: إنه أعمى، قال سبحانه: ﴿أَسَىٰ بِقَوْلِكَ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكَ رَجَبٌ مِّنْكَ أَنتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ رَجَبٌ مِّنْكَ أَفْهَمُ ۚ﴾ [الرعد: ٩١].

٢٥ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُمَا أَمْرًا أَوْ لَعْنًا أَوْ مَعْرَافَةً فَقُلْ لَهُمَا قُلُوبُنَا بِلَا أَعْيُنٍ تُرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّيْءِ﴾ [المائدة: ٨٣] الفيض: أن يمتلئ الإناء ويسيل، من شدة الامتلاء، ففي الآية (استعارة تمثيلية بديعة) شبه أعينهم عند سماعهم آيات القرآن، وهي تنهمر منها الدموع مدراراً، بالإناء الذي فاض منه الماء، لكثرة امتلائه، واستعمار لفظ (الفيض) - الذي هو الانصباب بكثرة - عن الامتلاء بالدموع الغزيرة، بطريق الاستعارة التمثيلية، قال الشاعر:

ففاضت دموع العين مني صبابةً على الشجر حتى يل دمي مغاصلي
٢٦ - قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِالْفَوْرِ أَتَيْنِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ، فَتَلَمَّامُ عَقْرَةٍ مَسْكُونَةٍ . . .﴾ [المائدة: ٨٩] في الآية (إسجاز بالحذف) فقد حُذف من الآية: (إذا حنثتم في اليمين) فإذا برّ بيمينه ولم يحنث، فلا كفارة عليه، والحنث: أن يحلف على فعل شيء ثم لا يفعله، أو يحلف على تركه ثم يفعله.

٢٧ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمُ اللَّيْلَ وَاللَّيْلَةَ وَالْأَمْثَالَ وَالْأَمْثَالَ يُرَىٰ عَلَى الشَّيْطَانِ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٩٠] الميسر: القمار، والأزلام هي الأقداح التي كانوا يستقسمون بها، والتعبير بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا﴾ نص قاطع في التحريم، أبلغ في النهي والتحريم، من لفظ (حُرِّمَ) لأن معنى الاجتناب: البعد عنه بالكلفة، كأنه يقول: ابتعدوا عنه، وكونوا في جانب آخر غير جانبه، ومثله لفظ المنع عن القرب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوَاجَ﴾ [الإسراء: ٣٢] لأن القرب منه إذا كان حراماً، فيكون الفعل محرماً من (باب أولى) وكذلك هنا، ولقد أكد الله تحريم الخمر والميسر، بفنون التأكيد، حيث صُدِّرت الجملة بـ(إنما) المفيدة للحصر، وقرنا بالأصنام والأزلام، وسُمِّيا رجساً من عمل الشيطان، وأمر المؤمنون بالاجتناب عن عيניהما، ثم وضح تعالى ما فيهما من المفاصد الدينية والدنيوية، ثم أعيد الحث على الترك والانتهاه بصيغة الاستفهام ﴿هَلْ أَتَىٰكُمْ مِنْهُنَّ أَشْيَاءٌ﴾ [المائدة: ٩١] الذي يراد به الأمر، أي انتهوا، وهو أبلغ ما ينهى عنه، فهل هناك تحريم أبلغ من هذا التحريم؟ حتى يقول بعض المغفلين: ليس في الآية نص على التحريم.

٢٨ - قوله تعالى: ﴿مَنْ لَا يَتَّقِ اللَّهَ وَآتَىٰ الْغَيْبَ وَالْغَيْبَ وَلَوْ أَعْبَاكَ كَفَّةً الْغَيْبِ﴾ [المائدة: ١٠٠] في الآية (كتاية لطيفة) كَتَى عن (الحرام) بالخبيث، وعن

(الحلال) بالطيب، وهو تمثيل عام ضربه الله تعالى للتمييز بين (المؤمن والكافر) و(البز والفاجر) و(الحلال والحرام) فالحلال كالعسل، والحرام كالسُم، والمؤمن كالنور، والكافر كالظلمة، والله تعالى يسوق الجنس إلى الجنس ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ الْغَائِبُونَ وَالْحَرَامُ وَالْحَرَامُ وَالْغَائِبُونَ وَالْغَائِبُونَ وَالْغَائِبُونَ﴾ [النور: ٢٦].



الإبداع البياني في سورة الأنعام

١ - قوله تعالى: ﴿أَمْ بَرَأْتُمْ أَفْئَكُم مِّن قَبْلِهِمْ مِّن قَرِيبٍ...﴾ [الأنعام: ٦] لا يراد بالقرن هنا المدة من الزمن، التي هي مائة عام، إنما يراد به أهل ذلك العصر والزمان، فقيهه (مجاز مرسل) أطلق القرن وأريد به أهله، على نموذج ﴿وَتِلْكَ الْقَرْيَةُ﴾ يعني أهل القرية.

قال أهل اللغة: القرن عبارة عن أهل عصرٍ من الأعصار، ومعنى الآية: ألا يعتبرون بمن أهلكنا قبلهم من الأمم، التي كذبت رسلها وأنكرت خالقها؟

٢ - قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِطْرًا وَجَعَلْنَا الْفُلَّامَ نَحْرًا مِّنْ غَنِيمَةٍ فَأَهْلَكْنَاهُ﴾ [الأنعام: ٦] أطلق السماء وأراد به (المطر) لأنه ينزل من السماء، ففي الآية (مجاز مرسل) كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] أي مطراً هو سبب رزقكم ومعاشكم.

٣ - قوله تعالى: ﴿أَبَرُّ شُرَكَاءُكَ الْيَهُودُ كُفَرُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُم كَفَرُوا﴾ [الأنعام: ٢٢] في الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم آلهة مع الله؟ ادعوهم ليقضوكم من العذاب!!

٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَكْفُرْ يَكْفُرْ لَهُ بِمَا هُوَ شَاقٌّ وَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَكْفُرْ يَكْفُرْ لَهُ بِمَا هُوَ شَاقٌّ وَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَكْفُرْ يَكْفُرْ لَهُ بِمَا هُوَ شَاقٌّ﴾ [الأنعام: ٢٦] الضمير يعود على القرآن، أي ينهون الناس عن استماعه ﴿وَيَتَّبِعْهُ يَكْفُرْ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم، وفي الآية جناس، والجناس فنٌّ من فنون (علم البديع) يزبد الكلام رونقاً وجمالاً، وحُسناً وبهاءً، فقد اتفقت الحروف بين (ينهون) و(ينأون) إلا في حرف واحد، ويُسمى هذا (بالجناس الناقص) وهناك الجناس التام كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُخْرِجُ مَن لَّمْ يَكُن مِّنَ السَّاعَةِ شَيْئًا مِّنْ دُونِهَا﴾ [الروم: ٥٥] فالساعة الأولى يراد بها القيامة، والثانية المدة البسيطة من الزمن، فقد اتفقا في اللفظ والحروف، واختلفا في المعنى المقصود.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَأَوْا بُرْقَانًا مِّنَ السَّمَاءِ لَقَالُوا لَسَاقِبَةٌ ذَلَّ السَّابِقُ وَلَا تَكُنْ لَهُ أَهْلٌ مِّنْ يَّامِينٍ وَمَا يَكُونُ مِن

الَّذِينَ ﴿[الأنعام: ٢٧] جواب (لو) محذوف للتنهويل والتفطيط، أي لرايت ما لا يخطر على بال، ولا يحيط به خيال، من أنواع الكرب والشدة، والحذف في مثل هذا أبلغ، ليذهب ذهن فيه كل مبلغ، يمكن أن يتصور. !

٦ - قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْزٌ وَلَهْزٌ﴾ [الأنعام: ٢٢] الكلام من باب (التشبيه البليغ) جعلت الدنيا نفسها ﴿لَهْزٌ وَلَهْزٌ﴾ مبالغة في تحقير شأنها، بالنسبة للآخرة، أي ليست الدنيا إِلَّا كَلْعَبِ الأطفال، يتلهى بها الصبيان، وعما قريب تزول، والآخرة هي دار النعيم والخلود.

٧ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْقَوْمَ يَقْعِبُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] في الآية (استعارة بديعة) شبه تعالى الكفار بالأموات، لأنهم موتى القلوب، لا يفقهون، ولا يحفلون، ولا يسمعون، كأنهم خُشِبَ مسندة.

والمعنى: إنما يقبل دعوتك يا أيها الرسول، الذين يسمعون ما يلقي إليهم، سماع تفهم وتدبر، دون الموتى - وهم الكفار - كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ السَّمْعَ﴾ [النمل: ٨٠] والمراد من السماع، سماع الفهم والتدبر، لا مجرد السماع الخالي عن الانتفاع.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سُبُّهُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] أي هم كالظلم، والبُحْم، في عدم السماع، وعدم الكلام والانتفاع، حذفت منه الأداة، ووجه الشبه، فأصبح بليغاً، كقولهم: محمد يدر.

٩ - قوله تعالى: ﴿نُفِيعَ دَائِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ وَأَنفُسُهُمْ رَبِّ الْأَعْمَى﴾ [الأنعام: ٤٥] كناية عن إهلاكهم بعداب الاستئصال، أي هلكوا عن آخرهم وأبيدوا، كنى بقطع الدابر عن الهلاك التام، والذمار الشامل.

١٠ - قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ لَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] في الآية (استعارة بديعة) الأعمى: الكافر، والبصير: المؤمن، أي هل يتساوى الكافر مع المؤمن؟ لا يتساويان أبداً، كما لا تساوى الظلمات مع النور، استعار لفظ (الأعمى) للكافر، لأنه يتخبط في ظلمات الجهل والضلالة كالأعمى الذي يتعثر في الطريق، واستعار لفظ (البصير) للمؤمن الذي يبصر بنور الإيمان، طريق الخير والسعادة، فهو يسير على هدى واضح، وطريق مستقيم.

١١ - قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكُونُوا مِنَ الْمُقْتَلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٩]

﴿تَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه، استعار (المفاتيح) جمع (مِفْتَاح) للأمور الغيبية، التي لا يعلمها إلا الله، شبه الأمور الغيبية، بخزائن مفاتيحها بيد الفُتَّاح جلُّ جلاله، لأنَّ المفاتيح يُتوصل بها إلى ما في الخزائن، المغلقة بالأقفال، بطريق (الاستعارة التصريحية) البديعة، والمقصود: أنه سبحانه هو العالم بالمتغيّيات وحده.

١٢ - قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيُعَلِّمُ الْفَرَاسَ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] في الآية (استعارة بديعة) استعار (الوفاة) للنوم، أي يُنمِكم في الليل، لما بينهما من المشاركة، في زوال الإحساس والتمييز ﴿فَتُنتَضَكُّ بِهِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي يوقظكم في النهار، وأطلق البعث ترشيحاً للتوفي، فالوفاة، والبعث (استعارة) عن النوم، واليقظة، وهما من لطائف الاستعارة.

١٣ - قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ عَنْ ظُلْمِ الْبَرِّ وَالْبَرِّ...﴾ [الأنعام: ٦٣] ﴿ظُلْمِ الْبَرِّ وَالْبَرِّ﴾ استعارة لطيفة عن الشدائد والأهوال، والمخاوف التي تصيب البشر في أسفارهم، استعيرت الظلمة للمشقة والشدّة، لمشاركتها في الهول، وإبطال البصر، ولهذا قيل لليوم العصيب الشديد: يومٌ مظلم.

والمعنى: قل يا أيها الرسول لهؤلاء المشركين: من ينجيكم من شدائد البر، والبحر الهائلة، التي تُدهش الألباب، وتُغمي الأبصار؟ هل هناك غير الله تلجأون إليه؟

١٤ - قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا إِلَهَكُمْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ...﴾ [الأنعام: ٧١] الردُّ على الأعقاب (كناية) عن الإشراك والعودة إلى الضلالة، أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى، وإلى الشرك بعد الإيمان؟ وعبر عن ذلك بالردُّ على الأعقاب، لتوضيح زيادة قبح الشرك، كمن يرجع إلى الوراء المُهَقَّرى، مع الإشارة إلى أن حالة الكفر، قد بُذت وراء الظهر.

١٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] في الآية الكريمة (استعارة عجيبة) حيث شبه سبحانه، ما يلحق الكفار من كُرْب الموت وُغْصه، وأهواله وشدائده، بالذين تنقادفهم غمرات الماء، ولُججه، والغمرة: الشدّة، لأنها تغمر قلب الإنسان، وجواب (لو) محذوف للتوهيل، أي لرايت أمراً فظيماً هائلاً، يقطع له قلب الإنسان.

١٦ - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا آمَنُوا قُلُوبُهُمْ مُّغْشَاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤] في الآية الكريمة (مجاز مرسل) من باب تسمية (المسبب باسم

السُّبْب) أي جاءكم حجج وبراهين، تبصرون بها الحقائق، وتميزون بها بين الحق، والباطل، وهذه البصائر هي (القرآن الكريم) جنح بصيرة، وهي نور يُنصر به القلب، كما أن البصر نور تُبصر به العين، فالقرآن سبب لاكتساب الأنوار.

١٧ - قوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَذِبَتَا فَجِئَتِنِمْ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمُنِي بِهِ، فِي النَّارِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] في الآية (استعارة بديعة) فالموت والحياة، والنور والظلمة، كلها من باب الاستعارة، استعار (الموت) للكفر، و(الحياة) للإيمان، و(النور) للهدى، و(الظلمة) للضلال، شبه المؤمن بالحي الذي استنار قلبه بنور المعرفة والإيمان، وشبه الكافر بالميت، الذي يتخبط في ظلمات الضلال والكفر، قال الشاعر:

وَفِي الْجَهْلِ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتُ لِأَهْلِهِ فَأَجْمَعَانَهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورُ
وَإِنْ أَمَرَأَلَمْ يَحْيَى بِالْعِلْمِ نَيْتٌ فَلَيْسَ لَهُ خَشَى الشُّورِ نُشُورُ

١٨ - قوله تعالى: ﴿تَكُنْ بِرَأْفَةِ اللَّهِ أَنْ يَهْدِيَهُمْ بَشَرُكَ سَدًّا لِلْإِنْتِهَى﴾ [الأنعام: ١٢٥] الشرح: جعل النفس قابلة للحق، مستنيرة بنور الإيمان، وفي الآية (استعارة بديعة) استعار لفظ (بشر) للتوسعة، أي يوسع صدره لقبول الحق والإيمان، حتى يقبله بصدر منشرح، وإلى هذا أشار النبي ﷺ حين سئل عنه فقال: «نور يقدفه الله في قلب المؤمن، فيشرحه له وينفسيح»، فقالوا: هل لذلك علامة؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل النزول» تفسير ابن كثير ١٨١/٢.

١٩ - قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢] هذا من لطيف الاستعارة، وهي أبلغ عبارة للتحذير من طاعة الشيطان، والشير في ركابه، وقد تقدم بيانها في سورة البقرة صفحة (٣٠).

٢٠ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] اتباع السُّبُل: (استعارة) عن البدع، والضلالات، والمذاهب المنحرفة، وسائر الملل الزائفة، تشبيهاً لها بالطرق غير المستقيمة.

روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «خط رسول الله ﷺ خطأ

بيده، ثم قال: هذا سبيلُ الله تعالى مستقيماً. ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطِّ، وعن شماله، ثم قال: هذِهِ السَّبِيلُ، ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ الآية: ﴿وَأَنذَرْتُ بِهِمْ مَسْجِدَنا أَنبِيؤُنَا، لَا تَبْنِوا فِيهِ شَيْئاً فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] رواه أحمد، والحاكم.

٢١ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِيكُم مِّنْهُمُ الْقَحْطَبُ وَالنَّارُ وَالْجَذَعُ وَالسَّمُومُ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] اشتملت هذه الآية الكريمة، على النوع المعروف (باللف) أي لفَّ الكلام وجمعه، وجعله كلاماً واحداً، بلاغةً، وإيجازاً، وإعجازاً، وأصل الكلام: يوم يأتي بعض آيات ربك - أي أشرط الساعة - لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنةً إيمانها، بعد مجيء تلك الأشرط، ولا نفساً لم تكسب في إيمانها خيراً، ما تكسبه من الخير بعد، فلفَّ الكلامين، فجعلهما كلاماً واحداً، بلاغةً وإيجازاً.



الأمثال في سورة الأنعام

١ - المثل الأول: من بدائع وروائع التمثيل في سورة الأنعام، ما ذكره تعالى عن الكفرة المشركين، وإعراضهم عن النور الإلهي الوضاء (القرآن المبين) وفيهم يقول رب العزة والجلال: ﴿إِنَّمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَنفَعُونَ وَاللَّوْنُ يَبْعَثُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] لا يراد بالموتى في الآية، الذين فارقوا الحياة، وإنما يراد بهم (موتى القلوب) الذين لا ينتفعون بالآيات البينات، ولا يستفيدون مما حولهم من العبر والعظات، فهم كالموتى وإن كانوا يأكلون ويشربون، ويمشون على وجه الأرض، وكالدواب السارحة وإن كانوا يسمعون ويبصرون، وقد جعلهم تعالى في زمرة الموتى الذين لا يسمعون صوتاً، ولا يفقهون قولاً، ولا يعقلون دعاء، إذ كانوا لا يتدبرون حجج الله، وآياته البينات. ١

قال قتادة: الآية مثل للمؤمن والكافر، فالمؤمن يسمع كلام الله، وينتفع به، ويعقله، والكافر أصم أبكم، لا يبصر هدى، ولا ينتفع به. شبه تعالى الكفار بالأموات، لأنهم موتى القلوب، لا يفقهون ولا يعقلون، ولا يسمعون، وكأنهم خشب مسثدة، لا تدرك شيئاً مما حولها ﴿أُولَئِكَ كَالْأَشجارِ بَلَّ هُمْ أَصْلٌ أُولَئِكَ هُمُ الْفَافِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ضرب المثل بالأعمى والبصير

٢ - المثل الثاني: ضرب الله جل ثناؤه في سورة الأنعام مثلاً للمؤمن والكافر، والمهتدي والضال، بالأعمى والبصير، فقال سبحانه: ﴿قَدْ هَدَى اللَّهُ الْبَصِيرَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

شبه الله تعالى الكافر بالأعمى، والبصير بالمؤمن، أي هل يتساوى عند الله الكافر مع المؤمن؟ والضال مع المهتدي؟ فالمؤمن على نور من ربه وهداية، يبصر الطريق، ويستجيب لدعوة الله، والكافر يتخبط في ظلمات

الشرك والضلالة، لا يُفَرِّق بين نور وظلمة، وهدى وضلال، فكيف يستويان؟ ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ؟﴾ أي أفلا تتفكرون في أمثال هذه الأمور والعيظات، التي جاءكم بها خاتم الأنبياء والمرسلين؟ فكما لا يتساوى الأعمى مع البصير، كذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر، ولا البر مع الفاجر. قال المفسرون: هذا مثلٌ ضربه الله لأهل الإيمان، مع أهل الكفر والطغيان، وكثيراً ما يضرب الله المثل للكافر بالأعمى، وللمؤمن بالبصير، كقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۚ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠] وكقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَقُولُ إِنَّمَا رَبِّيَ الْمَوْتُ كُلُّ مَنْ هُوَ أَمَّنٌّ إِنَّمَا يَذْكُرُ آوْثًا الْأَلْبَسَ﴾ [الرعد: ١٩].

التمثيل لعباد الوثن بآلثائه في الصحراء

٣ - المثل الثالث: ورد في هذه السورة مثلٌ بديع، فقد مثل تعالى لعباد الوثن والصنم، بآلثائه في الصحراء، الذي سارت به الشياطين في المقاوِز والمهالك، فأضلَّته عن الطريق، وهوت به في هوةٍ سحيقة، فضاع وهلك، يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَدْعُوا بِرَبِّهِمْ أَنَّهُ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ عَنْ أَشْيَاءٍ لَعَنَ إِلهُنا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أُوَيْسًا قُلْ إِيَّاكَ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأُوَيْسًا يُسْلِمَ رَبِّكَ الْغَلِيظَ﴾ [الأنعام: ٧١].

هذا مثلٌ جميل رائع، ضربه الله لمن عبدَ حجارة، لا تفكر ولا تنفع، فهو في تخبطه وضلاله، كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلَّته، وألقته في هوةٍ سحيقة، بعيداً عن الناس، وعن النجاة.

قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لمن يدعو إلى عبادة الأوثان، ومن يدعو إلى عبادة الرحمن، مثلٌ له بمثل رجل ضلَّ عن الطريق في سفره، وبقي تائهاً حائرًا، لا يدري أين يسير وأين يشج؟ وقد اغتالته الشياطين واختطفته، فسارت به في دروب المهالك، بعيداً عن رفاقه وأصحابه، وبينما هو في خوفٍ وفزع، إذ سمع صوت إخوانه، يدعونه إلى الجادة والطريق، يقولون له: يا فلانُ تعال، أقبل، فهذا هو طريق الأمان! فإن هو استجاب لهم نجا وفاز، وإلا ضلَّ وهلك، فذلك مثلٌ من يعبد الأوثان، يظن أنه على نور وهدى، فإذا جاءه الموت، رأى الندامة والهلكة! ويا له من تمثيل رائع، في غابة الجمال، والبيان، والإقناع^(١).

(١) انظر تفسير الطبري ٤٥٢/١١.

مثلٌ للتمييز بين نور الإيمان وظلمة الكفر

٤ - المثل الرابع: مَثَلٌ واضحٌ الدلالة، رائعٌ التصوير، للمؤمن والكافر، المؤمن الذي استنار قلبه بنور الهداية والإيمان، فهو يعرف الطريق، ويهتدي إلى منافع الدنيا والآخرة، والكافر الذي يتخبط في ظلمات الجهل والضلالة، لا يعرف المنفعة، ولا المخلص، يقول سبحانه: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَحَمَلْنَا لَهُ نُورًا بَنِي سَاعٍ فِي النَّارِ كَمَنْ تَخَلَّى فِي أَظْلُمَاتٍ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ومعنى الآية الكريمة: هل من كان كافراً ضالاً، أعمى البصيرة - بمنزلة الميت - فأحيا الله قلبه بالإيمان، وجعل له النور الوضاء، الذي يميّز به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، كمن يتخبط في ظلمات الكفر والجهالة، ليس له منها منفذ ولا مخلص؟ هل يستويان في المرتبة والمكانة؟

قال المفسرون: نزلت في (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه و(أبي جهل) والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي تعم كل مؤمن وكافر، وبقر وفاجر.

قال ابن عباس: (المراد بالميت: الكافر، وبالنور: القرآن، وبالإحياء: الهداية). فالله أحيا المؤمنين بنور القرآن والهداية، وأعمى قلوب المشركين بظلمة الجهل والضلالة، ولهذا ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ نُزَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَسْتُخْفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي كما زَيَّن للمؤمن إيمانه، كذلك زَيَّن للكافر فجوره وطغيانه، حتى رأى القبيح حسناً، والمعروف منكراً.

قال العلامة الشوكاني: في تفسيره (فتح القدير): (المراد بالميت هنا: الكافر، أحياه الله بالإسلام، وكثيراً ما تُستعار الحياة: للهداية والعلم، والظلمات للكفر والجهل، ومنه قول القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأفله
فأجستهم قبل القبور قبور
وإن أضرأ لم يخفى بالعلم ميت
قليل من له حتى الشوور نشور

مثلٌ رائع للإيمان والكفر

٥ - المثل الخامس: وتأكيذاً للمعنى الذي جاء في المثل السابق، للتفريق

بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، يضرب الله مثلاً آخر، فيقول تقدست
اسماؤه: ﴿قَسِرَ بِهِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُشْرَحَ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُدِ أَنْ يُعْلَمَ يَحْمِلُ صَدْرُهُ ضَيْقًا
حَاجًا كَأَنَّمَا يَضَعُ فِي النَّفْسِ كَذَلِكَ يَحْمِلُ اللَّهُ الرَّجُلَ عَلَى أَلْيَتِهِ لَا يُؤْمِنُ﴾
[الأنعام: ١٢٥]. هذه الآية الكريمة، ثَوَقُنَا على الحقيقة ناصعة، وهي أن
الإيمان والكفر نقبضان لا يجتمعان، وأن الهداية والضلالة بيد الله، فمن كان
قلبه مستتباً بتور الله، مستضيئاً بضياء الحق، شَرَحَ الله صدره للدين القيم
- دين الإسلام - ومن كان أعمى القلب مطموئس البصيرة، ضَرَفَ الله عن تذوق
أنوار الإيمان، فالإيمان نور، والكفر ظلمة. ولما نزلت هذه الآية الكريمة، قال
بعض صحابة رسول الله ﷺ: يا رسول الله: كيف يشرح الله صدره؟ فقال
عليه الصلاة والسلام: «نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن، فينشرح وينفسح!!»

فقالوا: هل لذلك أَمَارَةٌ - أي علامة - يُعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار
الخلود، والتجافي - أي البعد - عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل
نزوله».

وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّمَا يَضَعُ فِي النَّفْسِ﴾ هذا من تمام التمثيل، أي
يجعل صدره ضيقاً شديداً الضيق، شبهه مبالغة في ضيق صدره، بمن يعلو
ويرتفع في طبقات الجو، حتى تكاد نفسه تُزهِق، وروحه تتمزق، وتكاد تخرج
من جلدها، وتأتيه عوارض الاختناق، من قلة (الأوكسجين) وهذه حقيقة
علمية، يعرفها رُؤَاد الفضاء، وكلُّ من ركب الطائرة، يتنبه (الكابتن) إلى
استعمال قناع الأوكسجين، إن شعر بضيق التنفس، وكذلك كلُّ من صعد شواطئ
الجبال يدرك ذلك، وقد كان المفسرون القدامى يقولون في تفسير الآية: كمن
يحاول الصعود إلى السماء، وهو لا يقدر على ذلك، لأنه ليس في وسعه
الصعود إليها، وقالوا: هذا مثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة، فالإيمان يمتنع عن
الكافر، كما يمتنع عنه الصعود إلى السماء!! وهم معذورون في هذا، لأنهم ما
كانوا يعرفون هذه (الحقيقة العلمية) التي كشف عنها القرآن، وهي: أن
الأوكسجين يقلُّ في الطبقات العليا، حتى يكاد الإنسان أن يختنق وتتمزق
روحه.

ثم إن الآية وردت بلفظ: (يَضَعُ) بالتضعيف، أي يعلو شيئاً فشيئاً، حتى

يصل إلى طبقات الجو العليا، ولم يأت التعبير بلفظ (يَصْعَدُ) حتى نقول في تفسيرها كمن يحاول الصعود إلى السماء وهو مستحيل، فما أثبت العلم الحديث، أقرب إلى تصوير القرآن الرائع البديع، وهذه من (الحقائق العلمية) التي نبه عليها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، تُضاف إلى المعجزات العلمية، لهذا الوحي الإلهي المجيد.

وخلاصة معنى الآية: أن من أراد الله به الخير، قَذَفَ في قلبه نور الإيمان، فانفسخ له صدره، واستنار به قلبه، ووجد حلاوة الإيمان، ومن أراد الله تعالى خذلانه وضلاله، جعل صدره ضيقاً، شديد الضيق، ينبو عن قبول الحق، ويمتنع عند سماع القرآن، وكأنه يخفق وتزهق روحه من كلام الرحمن، وذلك علامة عمى القلب، ولهذا ختم الله بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَمَعَكُمُ اللَّهُ الْإِنْسُ عَنْ النَّبِيِّ لَا يَأْمُرُ﴾ أي كما يكون صدر الكافر ضيقاً، شديد الضيق، لا يتسع لشيء من الهدى، كذلك يجعل الله الخزي واللعة والعذاب، على الكفرة المجرمين، الذين لا يؤمنون بالرحمن.

قال الإمام الطبري رحمه الله: هذا مثلٌ ضربه الله لقلب الكافر، في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، يثلُّ امتناعه عن الصعود إلى السماء، وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه .

مثل للإسلام الحق والأديان المختلفة

٦ - المثل السادس: كما ضرب تعالى مثلاً لدين الإسلام الحق، الموصل إلى جنات النعيم، وإلى الأديان المختلفة المعوجة، التي تهوي بأربابها إلى دركات الجحيم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا هَذَا جَزَاءٌ مَنْ تَتَّبَعُوا إِلَّا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَضَعْنَا لَكُمْ لَعْنَةً﴾ [الأنعام: ١٥٣].

شبه تعالى الإسلام، بالطريق السوي المستقيم، الذي لا يضل من سلكه، وما سواه من الأديان، فإنها طرقٌ معوجة، لا يصل صاحبها بها إلى شاطئ السلامة والأمان، لأنها طرق ملتوية، لا يأمن سالكها من المخاطر، حيث فقدت صفاءها ونقاها، بسبب ما اعتراها من الأباطيل والأساطير، والعقائد الزائفة.

توضيح للآية بياني: روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (خط

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَنَا خَطَأٌ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ تَعَالَى مُسْتَقِيمًا، ثُمَّ خَطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطِّ، وعن شماله، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ - أَيِ طُرُقٍ - لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ...﴾ [١١] الآية.

وقد نبهت الآية بأسلوبها الممتع البديع، أن الإسلام هو دين الله المستقيم، الذي لا يقبل الله ديناً سواه. بعد بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ، لأن الله قد نسخ بالإسلام، جميع شرائع الأديان التي سبقت، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عِزَّ الْإِسْلَامِ دِينًا فَإِنَّهُ يُقْبَلُ بِهِ وَهُوَ فِي الْأَجَرَةِ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] كما أمر عباده بالاستمسك بالإسلام، وعدم اتباع الطرق الملتوية، والأديان المختلفة التي صُدَّتْ عن سبيل الهدى والرشاد، بما أصابها من التبديل والتحريف، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا لُتَّ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّكُمْ أَعْرَضْتُمْ عَنْ إِلَهِكُمْ فَهُمْ يَنْفَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩] وهذه الآية الكريمة، يدخل فيها طوائف أهل الكتاب، وطوائف المشركين وغيرهم، ممن ابتدغ في الدين ما لم يأذن به الله، اللهم كما أكرمنا بالإسلام، نسألك أن تحفظه علينا، إلى يوم لقائك يا رب العالمين. ا



الإبداع البياني في سورة الأعراف

١ - قوله تعالى: ﴿التَّسْمِيَةُ الْكَلِمَةُ الْوَحْدَةُ لَكَ وَلِلَّهِ الْكَوْنُ كُلُّهُ﴾ [الأعراف: ١، ٢] حرج: أي ضيق، إن قيل: كيف يضيق صدر النبي ﷺ من القرآن؟ وهو نُورٌ وشفاء لما في الصدور؟ فالجواب: أن الآية فيها (مجاز بالحذف) على حذف مضاف: أي لا يضيق صدرك من تبليغي للناس، خوفاً من تكذيب قومك لك، ففي الآية (مجازاً مرسل) كما في قوله تعالى: ﴿تَنفِيهِ الْقُرْآنِ﴾ أي أهل القرية.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَنَّ عَلَيْكُمْ ثُمَّ قَلَّ أَنْتُمْ أَنْ تَتَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١١] الحديث هنا عن (خلق آدم) بدليل قوله تعالى: ﴿أَتَذَكَّرُوا لَكُمْ﴾ ففي الآية (إيجاز بالحذف) أي خلقنا أباكم آدم، وصوّرنا أباكم، وإنما أضيف الخلق إلى البشر ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ مَنَّ عَلَيْكُمْ﴾ لأن في تكريم آدم بالامتنان عليه بالخلق، وإبداع صورته، تكريم لذريته، فكان خلقه بمنزلة خلق أولاده، ولأن المقصود من خلقه، تعمير الأرض بذريته، فصارت وجه الامتنان عليهم واضحاً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَفَعْنَاهُمْ فِي الْأَنْفُسِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

٣ - قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا أَنشَأْنَاهُ كَمَا أَنشَأْنَاكَ لِنَبْلِيكَ﴾ [الأعراف: ١٦] في الآية (استعارة) فقد استعار (الصراط المستقيم) لطريق الهداية الموصل إلى جنات النعيم، وانتصب (صراطك) بنزع الخافض.

والمعنى: قال إبليس اللعين يا رب: بسبب إغوائك وإضلالك لي، لأقعدن لآدم وذريته، على طريق الحق وسبيل النجاة، كما يقعد قطاع الطريق، على طريق المسافرين، وهذا إعلان صريح من اللعين بأنه قاطع طريق، وردت الآية بأسلوب التمثيل، لمن يقف في الجادة، لقطع الطريق على الناس.

٤ - قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَهْلُ الْقُرَىٰ: أَمَّنْ يَأْتِي الْبُحْرَانُ﴾ [الأعراف: ١٧] حرج: أي ضيق، إن قيل: كيف يضيق صدر النبي ﷺ من القرآن؟ وهو نُورٌ وشفاء لما في الصدور؟ فالجواب: أن الآية فيها (مجاز بالحذف) على حذف مضاف: أي لا يضيق صدرك من تبليغي للناس، خوفاً من تكذيب قومك لك، ففي الآية (مجازاً مرسل) كما في قوله تعالى: ﴿تَنفِيهِ الْقُرْآنِ﴾ أي أهل القرية.

﴿[الأعراف: ٢٦] في الآية (استعارة لطيفة) شبه تعالى الإيمان، والتقوى، والوزن، باللباس الذي يستر الجسم والعورة، ويزين الإنسان ويجمّله، ويخفي منه القبايح، ولولا اللباس الساتر، لأصبح الإنسان كالحيوان، بادي السوء والعورة.

والريش: هو لباس الزينة، استُبعد من ريش الطير والطاووس، لأنه لباسه وزينه، كأنه قال: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سواكم، ولباساً يزينكم ويجملكم، قال الشاعر:

وخيّر لباس الممرّ طاعة ربّي ولا خير فيمن كان لله غاصياً

٥ - قوله تعالى: ﴿يَنْبَغِي أَنْ تَخُذُوا يَتَكَّرَ مِنْكُمْ تَجِيرًا...﴾ [الأعراف: ٣١] المراد بالمسجد هنا: (الصلاة) ولما كان المسجد مكان الصلاة، أطلق ذلك عليها، ففي الآية (مجاز مرسل) علاقته المحلّة.

قال المفسرون: كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت غرة، ويقولون: لا تطوف في ثياب عصينا فيها الله، فأمرهم الله أن يلبسوا ثيابهم ولا يثعروا عند كل مسجد، سواء دخلوه للصلاة أو الطواف. انظر صحيح مسلم رقم ٣٠٢٥.

٦ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْآيَاتِ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا فَالْآيَاتُ لَمْ أَنْقَلْ﴾ [الأعراف: ٤٠] تفتّح أبواب السماء (كناية بديعة) عن عدم قبول العمل، بمعنى أن الله تعالى لا يقبل منهم عملاً، ولا يرفع لهم دعاء، كثي عن ذلك بفتح أبواب السماء، وهذا قول مجاهد.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْلَوْنَ إِلَهًا غَرَّبَ بَلِغَ الْجَمَلِ وَكَانَ كَلِيبًا﴾ [الأعراف: ٤٠] هذا تمثيل بالغ الروعة، في تصوير استحالة دخول الكفار جنة النعيم، إلا إذا أمكن دخول الجمل، على ضخامة جثته، في ثقب الإبرة، على ضيقه وصغره، والعرب إذا أرادت تأكيد النفي، علّقت بما يستحيل وقوعه، فيقولون: لا أفعل كذا حتى ينشب الغراب، وحتى تنفطر السماء.

٨ - قوله تعالى: ﴿لَمْ يَرَوْا حَتَمَ مَهَادٍ مِنْ مَرْفَعِهِ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ حَرَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١] هذه استعارة لما يحيط بهم من النار من كل جانب، والمهاد: الفراش، والغواش جمع غاشية وهي الغطاء، وهو تعبير فيه إهانة لهم وتحقير، فالنار تحيط بهم من كل جانب، هذا فراشهم، وذاك غطاؤهم، فليناموا هانئين.

٩ - قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]
 هذا من الأسلوب البياني البديع، فقد جمعت هذه الآية - على وجازتها - جميع
 الأمور، والشؤون، والعوالم الكونية، على وجه الاستقصاء، فالله سبحانه مالك
 الكون، له الملك والملكو، والأشياء والمخلوقات، وله الحكم والقضاء،
 يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد!

قال المفسرون: لقد جمعت هذه الآية ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الألفاظ البسيطة،
 والمعاني الجمة الكثيرة، وهذا ضرب من ضروب إعجاز القرآن، حتى قال ابن
 عمر رضي الله عنه: «من بقي له شيء فليطلبه» ويسمى هذا النوع (إعجاز
 قُصر) وهو من روائع الإبداع البياني.

١٠ - قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا بِقَالَا سُبْحَنَ لِّبَلَدِهِمْ...﴾ [الأعراف: ٥٧]
 وصف البلد بالموت (استعارة حسنة) فإن البلد ليس له روح
 حتى يموت، وإنما استعار (الموت) للجذب، وعدم النبات، تشبيهاً له بالجسد
 الميت، الذي لا روح فيه، والمعنى: سقنا السحاب إلى أرض مئنة مجدبة،
 لا نبات فيها ولا ثمر، فأنزلنا الماء، فأخرجنا به من جميع الثمرات.

١١ - قوله تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَ الدِّمِ كَقَدْرًا يَنْبَغُ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]
 قطع الدابر (كناية) لطيفة عن استئصالهم جميعاً بالهلاك، وقد
 تقدم مثلها في سورة الأنعام في قوله سبحانه: ﴿قَطَعْنَا دَائِرَ الْقَوْرِ الَّتِي ظَنُّوا﴾ [الأنعام: ٤٥].

١٢ - قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ رَبِّكَ كَيْفَ إِنَّهُمْ أَشَاسٌ يَلْمِزُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]
 يُسمى هذا النوع في علم البديع (التعريض بما يوهم الذم)،
 ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «عابوهم بما يُمدح به الإنسان» فالآية
 مدح بما يُشبه الذم.

١٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ لَشَاءُوا نَسَوا وَأَتَقُوا النَّعْمَةَ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] بركات السماء بالمطر، وبركات الأرض بالنبات
 والثمار، شبه تيسير الخيرات والبركات عليهم، بفتح الأبواب، بطريق
 (الاستعارة التمثيلية) لإغداق الرزق عليهم من كل جانب، وكان أبواب السماء
 والأرض فتحت عليهم بأنواع الخيرات والبركات.

١٤ - قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ الْخَلْقُ وَمَنْ لَّمَّا كَانُوا إِعْمِلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨] الحق

لا يقع إنما يظهر ويثبت، استعير (الوقوع) للثبوت والظهور، بطريق (الاستعارة التبعية) أي ثبت وظهر الحق، لمن شهده وحضره، وبطل إفك السحرة وكذبهم، وسعي فرعون ومكره الخيث.

١٥- قوله تعالى: ﴿وَلَنَأْخِطِبَنَّهُمْ فِيهِمْ وَأَوَّاهُهُمْ فَتَسْمَعُوا﴾ [الأعراف: ١٤٩] العرب نقول لكل متحسر نادم: سقط في يده، بطريق (الكناية) والآية كناية لطيفة عن شدة الندم، فإن النادم المتحسر، يعرض بذه غمًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْلَمُ الْفُقَرَاءُ عَلَى مَنِّيَنِي يَقُولُ يَتَّبِعُونِي أَتَعَذَّبُونَ﴾ [الفرقان: ٢٧].

١٦- قوله تعالى: ﴿وَلَنَأْخِطِبَنَّهُمْ فِيهِمْ وَأَوَّاهُهُمْ فَتَسْمَعُوا﴾ [الأعراف: ١٥٤] في الآية (استعارة مكنية) بديعة، في أوج البلاغة والجمال، شبه الغضب بشخص يُرْعِدُ وَيُزْجِرُ، يريد أن يبطش بخصمه، وصوته يرتفع يريد الانتقام، ثم اختفى هذا الصوت وَسَكَتَ، ويا له من تصوير بياني بديع، يستشعر جماله كل من عرف كلام البلغاء، وتذوق أسرار البلاغة البيانية، أي ولما ذهب عن موسى غضبه باعتذار أخيه، وتوبة قومه، أخذ الروح التوراة التي كان ألقاها.

١٧- قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَ عَنْهُمْ إِصْرُهُمْ وَلَأُغْلِلَنَّ آلِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أصل (الإضر) الشغل لأنه يمنع صاحبه من الحركة، والأغلال: جمع غُلٍّ، وهو قيد الحديد الذي يوضع في اليد، والآية فيها (استعارة تمثيلية) بديعة، شبه التكليف الشاق، التي كانت على بني إسرائيل، بالحمل الثقيل، وبالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق، بطريق الاستعارة البديعة، فقد جاء خاتم الأنبياء محمد ﷺ برفع جميع تلك الأثقال، والتكاليف الشاقة التي كانت على اليهود عقوبة لهم، كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «بعثت بالحنيفية السمحة» رواه ابن جرير.

١٨- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْنَا الْوَيْ مَاتِيَةً، إِنَّا فَانَكْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] التعبير بالانسلاخ عن الآيات، تعبير رائع في غاية الحسن والجمال، وفيه تشبيه بانسلاخ الشاة عن جلدها، للمتنبيه على أن الإيمان، لم يكن متمكنًا من القلب، إنما كان طلاء وزينة، وقد مثل له القرآن، بأشنع وأقبح تمثيل، مثل له في الخسنة والدناءة بالكلب، إن طارذنه وجريت وراءه مد لسانه فلهث، وإن تركته دون إزعاج، مد لسانه فلهث، وهو تمثيل بادي الروعة، ويُسمى هذا في علم البلاغة بـ (التشبيه التمثيلي).

١٩- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَشَّيْهَا حَلَّتْ خَشْيَةً خَافِئَةً يَدِ﴾ [الأعراف: ١٨٩]
عبر عن الجماع بقوله: ﴿تَخَشَّيْهَا﴾ وهي أحسن كناية، والطفٌ تعبيري، والغشاء
هو الغطاء، وكان الرجل عند الوقاع - الجماع - غطاءً للزوجة، وهذه - وأمثالها
- من الكنايات البديعة، التي أرشدنا إليها القرآن الكريم.

٢٠- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا يَزْعُمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ﴾ [الأعراف: ٢٠١] النزْعُ: النُخْسُ والغُرْزُ، شبه وسوسة الشيطان،
وإغراءه للإنسان بالمعاصي بالنُخْسِ، كما يغرز السائق الدابة التي يسوقها بآلة
حادة لتسرع المشي، وهذه (استعارة بديعة).

والمعنى: إِمَّا يَحْمِلُنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَسُوسَةٌ لِإِغْرَاكَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ،
فالتجئ إلى الله تعالى من شره.

٢١- فسوِّله تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
[الأعراف: ٢٠٣] هذا الكلام خارج مخرج التشبيه البليغ، وفيه أيضاً (مجاز
مرسل) من باب تسمية (السُّبِّ باسم المسبب) أي هذا القرآن بمنزلة البصائر
للقلوب، به يبصر الإنسان الحق، ويدرك الضوابط، فأطلق عليه (بصائر) بطريق
التشبيه أي بمنزلة البصائر، لأن القرآن لما كان سبباً لتنوير العقول، أطلق عليه
لفظ (بصائر).



الإبداع التمثيلي في سورة الأعراف

التمثيل لاستحالة دخول الكفار جنات النعيم

١ - المثل الأول: في سورة الأعراف، وردت صور للتمثيل، في أبهج حلل الإبداع والبيان، فقد مثل تبارك وتعالى لاستحالة دخول الكافر الجنة، بهذا التمثيل الرائع البديع ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْعَلُ لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاقُوا فِي سِجِّينَ الْهَبَاطِ وَفِي ذَلِكَ نَجْزِي الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠] لتصور هذا التمثيل البديع: هل يمكن أن يدخل البعير الضخم - الجمل - على عظم جثته، وضخامة هيئته، في ثقب الإبرة؟ إذا كان هذا مستحيلاً، فمن المستحيل دخول الكافر الجنة، و﴿سِجِّينَ﴾: ثقب الإبرة، وهو تمثيل في منتهى الإبداع والبيان. لقد وضح تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة، أن الكفرة الذين كذبوا بالقرآن، مع وضوح بيانه، وسطوع إعجازه، وتكبروا عن العمل به، لا تُفْعَلُ لأرواحهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال، إلا إذا أمكن دخول الجمل في ثقب الإبرة، فكما يستحيل هذا، يستحيل دخولهم جنة النعيم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ مَنْ يُشْرِكْ يَأْتَوْ فَقَدْ فَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

• وإتماماً لخلودهم في جهنم، وعذابهم الدائم فيها، لكفرهم وإجرامهم، يخبر سبحانه عما ميثأ لهم في نار الجحيم، من الفراش الذي يمتهدونه، والغطاء الذي يلتحفونه، فيقول تقدست أسماؤه: ﴿لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ تَوَحُّشِهِمْ عَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٤١] أي لهؤلاء المجرمين، مضجع وفراش من نار جهنم، ولهم من فوقهم أغطية، ولحف من النار أيضاً، وهذا تمثيل لما يكونون عليه في نار الجحيم، من العذاب الدائم، الذي يحيط بهم من كل جانب، كما قال تعالى عنهم في آية أخرى: ﴿لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ لُتْلُوفٌ وَسُلْطَانٌ كُلَّ يَوْمٍ تَخْرُجُ فِئْتَانٌ مِنْهُمْ لِقَاءَ رَبِّهِمْ فِي يَوْمٍ أَلَمٍ﴾ [الزمر: ١٦] وفيه تمثيل أيضاً لنار الجحيم، أنها تغشاهم وتحيط بهم

من جميع الجهات، وتسميتها (بالظلل) للتهكم والسخرية، فإن الظلة ما يستظل بها الإنسان من الحر، فإذا كانت تلك الظلة من نار السموم، كانت أقطع وأشنع، تحرق أجسادهم بلظماها، والعرض أن النار محيطة بهم من جميع الجوانب، فكيف يتخلصون من العذاب؟ لقد انقطع الأمل بدخولهم الجنة، كما انقطع الأمل بتخفيف العذاب.

ولا يخفى على المتأمل في لطائف الكتاب العزيز، ما في إعداد (المهاد) - أي الفراش - (والغواش) - أي اللحاف - الذي أعدّه الله لهؤلاء المستكبرين عن الآيات، ومنعهم من العروج إلى الملكوت، وتقييد عدم دخولهم الجنة، بدخول البعير بحرق الإبرة، من اللطافة وإبداع التعبير ما فيه!!

الإعجاز في الإيجاز من خصائص القرآن

• ومن خصائص القرآن، التي انفرد بها الكتاب العزيز، الإعجاز الذي يصل إلى مرتبة الإعجاز، وهو المجيء بالألفاظ القليلة، التي تحمل المعاني الوفيرة الكثيرة، والتي تصل إلى أوج (السمو البياني) مما يعجز عنه البشر، استمع معي إلى هذه الآية الكريمة ﴿الْأَلَمْ يَخْلُقْنَا وَالْأَنزِلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فقد جمعت هذه الآية الكريمة - على وجازتها - جميع الأمور، والشؤون، والأحوال والأفعال، على وجه الاستقصاء، فله جلّ وعلا الملك، والتصرف التام، في الخلق، والرزق، والإحياء، والإعدام، وله الملك والملكو، والأشياء والمخلوقات، وله الحكم والفصل، بفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا خالق ولا مالك، ولا معطي ولا رازق، ولا متصرف في الكون غيره، تمجد وتعظم الله الخالق، المبدع الحكيم!!

فالآية على قلة ألفاظها، جمعت المعاني الكثيرة الوفيرة، كما استوعبت جميع الشؤون والأشياء، حتى قال ابن عمر: من بقي له شيء فليطلبه، وهذا ضرب من إعجاز القرآن ﴿الْأَلَمْ يَخْلُقْنَا وَالْأَنزِلَ﴾ وهو من الأسلوب البلاغي البديع.

التعثيل بالأرض الطيبة والأرض الخبيثة

٢ - المثل الثاني: ومن الأمثال والتشبيهات البديعة، ما مثل الله به للمؤمن بالأرض الخصبة، الطيبة التربة، وللكافر بالأرض المنيعة، الخبيثة التربة، في قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَالَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يُخْرَجُونَ مِنَ الْأَرْضِ فَكَذَّبُوا

تَعْرِفُ الْآيَاتِ بِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ [الأعراف: ٥٨]. والمراد أن الأرض الكريمة التربة، يخرج النبات فيها حسناً، وافيأ، غزير النفع، لطيب تربتها، كذلك مثل المؤمن، يسمع الموعدة فينتفع بها، فالمؤمن طيب وعمله طيب، كالبلد الطيب، ثمره طيب، والأرض الخبيثة التربة، كالأرض السبخة أو الصلدة التي تكثر فيها الصخور، لا خير فيها ولا بركة، ولا يستفاد منها شيء إلا بظهور الحشرات والبعوض، كذلك مثل الكافر، هو خبيث، وعمله خبيث، يسمع المواعظ فلا ينتفع بها، ولا يلين قلبه بآيات الذكر الحكيم.

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالمؤمن طيب، وعمله طيب، كالأرض الطيبة ثمرها طيب، والكافر خبيث وعمله خبيث، كالأرض السبخة المالحة، لا خير فيها ولا بركة، ولا يُنتفع شيء منها^(١).

التعليل النبوي للعلم والقلوب التي تستوعبه

وشبيه بهذه الآية الكريمة، في جمالي التشبيه وروعة البيان، ما جاء في (هذه النبوة) من كلام سيد المرسلين ﷺ، بالتمثيل للهدى والعلم، الذي جاء به من عند الله، بالمطر الغزير النافع، ينزل على الأراضي المتنوعة، فتمتأ ما يُفيد ويستفيد وهي الأرض الطيبة، ومنها ما يحفظ الماء فقط وهي الصخرية، ومنها ما يضر ولا ينفع، ويكون سبباً للوباء والبلاء وهي الأرض السبخة، حيث يقول ﷺ: «إِنْ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ - أَيِ مَطَرٍ - أَصَابَ أَرْضاً، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ - أَيِ أَرْضٍ طَيِّبَةٍ - قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْمُشْبِ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبٌ - أَيِ أَرْضٍ صَلْبَةٍ صَخْرَاوِيَّةٍ - أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهُ وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قَيْحَانٌ - أَيِ أَرْضٍ سَبْخَةٍ مُسْتَوِيَةٍ - لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَّهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ اللَّهُ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ، فَتَعَلَّمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ^(٢)».

حكاية لطيفة: يُحكى في بعض القصص والأخبار، أن يهودياً خبيثاً، أراد أن يطعن في صديق القرآن وصيخته، وأن فيه من الأشياء ما ليس بصحيح،

(١) رواه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير الطبري ٤٩٧/١٢.

(٢) رواه البخاري ١٨٥/١ في العلم، ومسلم في الفضائل رقم (٢٢٨٢).

ولا يتفق مع الواقع، فدخل أحد المساجد الكبرى، ورأى شيخاً مهيباً جليلاً،
 يفسر آيات القرآن الكريم، وقد تحلق حوله الآلاف من طلاب العلم، ومن
 الوجهاء والكبراء، فوقف يستمع لحديثه بإصغاء، فلما انتهى الشيخ من الدرس،
 باعته الخبيث بسؤال مخرج، فقال: يا حضرة الشيخ: قرآنكم يقول: ﴿ثُمَّ قَوَّضْنَا
 الْيَنْتِبِ مِنْ شَوْرَةٍ﴾!! [الأنعام: ٣٨] أي فيه كل ما يحتاج الناس إليه من أحكام،
 وأخبار، وأدواء - وكان اليهودي أقرغ - وتابع كلامه فقال: لقد بحثت عن دواء
 يشفي من هذا الداء والوباء، وعجزت الأطباء، فلم أجد عندهم ما يشفي من
 هذا المرض اللعين، فإذا سمحت فضيلتكم، فأخرج لي العلاج والدواء من
 القرآن، لأصدق أن كتابكم صحيح، منزل من عند الله، حتى أدخل في دين
 الإسلام، وأؤمن أنه كلام الرحمن!! - وأراد الخبيث بذلك، المغالطة،
 والتشويش على المستمعين والتشكيك لهم في القرآن - وكان الشيخ ذكياً، سريع
 البديهة في الجواب، فقال له: من أخبرك أنه ليس في كتابنا علاج لهذا المرض
 الذي تشكو منه؟ افسحوا له يا معشر الطلاب الطريق، ففسحوا له حتى وصل
 عند الشيخ، وجلس أمامه متأدياً، فقال له الشيخ: تريد دواء من القرآن
 لقرعتك، حتى تُشفى منها! قال: نعم وسأكون لك من الشاكرين!! فحمل
 الشيخ الحذاء، وأخذ يضرب به رأس اليهودي، بشدة وقوة، وأمر التلامذة أن
 يمسكوه، لئلا يهرب، وهو ينزل بالنعال على رأسه، واليهودي يصيح مستغيثاً:
 يا شيخ أنوب إلى الله، ذغني فقد كدت تهلكني، والشيخ يصيح به، لا يمكن
 أن أتركك حتى أخرج لك الدواء! وأخذت الدماء تسيل من رأس ذلك الخبيث،
 حتى كاد من شدة الضرب أن يموت ثم قال له: اسمع يقول الله تعالى في كتابه
 العزيز: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ بِحَرَجٍ تَائِهٍ بِإِدْبَارِهِ. وَالَّذِي حَتَّ لَا يَحْجُجُ إِلَّا نَكْدًا﴾ إن قرعتك
 خبيثة، كالأرض الصلدة الخبيثة، التي فيها الحجارة الصماء والصخور، لا يد أن
 تعمل فيها المعاول والفؤوس!! وضحك الناس جميعاً، وشفوا غلبتهم من هذا
 اليهودي، المتناول على كتاب الله، وكانت حادثة عجيبة، وقصة طريفة، لنباهة
 الشيخ، وحسن استدلاله.

التمثيل الشنيع لعلماء الشوء

٣- المثل الثالث: من أقبح وأشنع الصور، الذي يُجسّد قضاة وشناعة
 الأمر القبيح، ما مثل تبارك وتعالى به (لعلماء الشوء) الذين لم يتفهموا بعلمهم، بل

كان العلم سبباً لشقائهم ونعاستهم، فقد ضرب لهم المثال بصورة الكلب اللائع، إن طردته وزجرته وجريت وراهه، مذ لسانه فلتهت، وإن تركته على طبيعته دون إزعاج له، ودون مطاردة، مذ لسانه ولتهت، يقول تعالى عن هذا الصنف: ﴿كَذَّبَ الْكَذِبُ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْغَوْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَقْصِرْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وهذا أفبح تمثيل في الخسة والدناءة، لم يضربه الله عز وجل، إلا لمن أتر الدنيا على الدين، وباع دينه بشيء من عرض الدنيا حقير، ولا يراد بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ حمل الأثقال على الظهر، وإنما يراد به المطاردة والملاحقة له، فالكلب هذه طبيعته، دائم اللهث، يدلع لسانه ويمدّه، لضعف قلبه، فهو بحاجة إلى التنفس الشديد، بخلاف سائر الحيوانات، فإنها لا تحتاج إلى التنفس الشديد، إلا عند التعب والإعياء!

ولنرجع إلى الآية الكريمة من بدايتها، يقول سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ آيَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٧٥] أي اقرأ يا أيها الرسول على قومك، وعلى اليهود خاصة، هذا الخبر الهام، خبر ذلك الرجل العالم الخاسر، الذي أوتي علماً ببعض كتاب الله في التوراة ﴿فَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] فأنزل من تلك الآيات، أنسلاخ الجلد عن الشاة، كما تنسلخ الحية من جلدها، والتعبير بالانسلاخ منها، فيه إشارة إلى أن الإيمان كان طلاء، لم يخالط بشاشة قلبه، ولو رسخ الإيمان في قلبه لم يحصل منه ذلك ﴿فَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي تبعه حتى لحقه وأدركه، وفي الآية تلويح بأن ذلك العالم الزائع، الذي باع دينه بقرض من الدنيا خيس، كان أشد غواية من الشيطان، إذ صار كأنه إمام للشيطان، والشيطان تلميذ له، يتبعه ويلحقه، كما قال بعض غلاة الضلالة:

وكنث فثن من جند إبليس فازتقن بي الحال حتى صار إبليس من جنبي
﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخَذَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦] أي لو أردنا لرفعنا قدره بهذا العلم، وبهذه الآيات، إلى منازل العلماء الأبرار، ولكنه مال إلى الدنيا، وسكنث نفسه إليها، فأثر خطامها الفاني، على ما عند الله من الأجر الباقي، واتبع هوى نفسه، فانحط إلى أسفل سافلين ﴿مَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثْ﴾ أي فمثله في الخسة والدناءة

كمثل الكلب، إن طردته وزجرته وجريت وراءه، مدَّ لسانه فلهت، وإن تركه على حاله وطبيعته، مدَّ لسانه فلهت ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ فَأَقْصَىٰ انْقِصَافٍ لَّهُمْ بِنَفْسِهِمْ﴾ أي هذا المثل الخسيس السيء، هو مثل لكل من كذب بآيات الله، من أحبار اليهود، وعلماء النصارى، الذين أوتوا (التوراة والإنجيل) ولكنهم بسبب حب الرئاسة والزعامة، تلاعبوا بأحكام الدين، وخرفوا كلام رب العالمين، فباءوا بالخزي والعار، وغضب الجبار.

حكى المفسرون أن أحد علماء بني إسرائيل، ويدعى (بَلْعَم بن باعورا) بعثه موسى عليه السلام إلى ملك (مَدْيَن) داعياً إلى الله، فرشاه الملك وقربه منه، وأغدق عليه المال، فترك دين موسى، واتبع دين الملك، فزاع وضل، وأضل كثيراً من الناس، بسوء صنيعة، ففيه نزلت هذه الآية، والحكم فيها عام، لكل من فتنه الدنيا بالمراتب والمناصب.

ومن تفكر في الأمثال المضروبة في القرآن، يرى بكل وضوح، أن المثل الذي ضربه الله لعلماء السوء، أقيح وأشنع من كل مثال، ضربه الله لعبدة الأصنام والأوثان، فقد مثل لها بالعنكبوت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعْنَاءٍ...﴾ [العنكبوت: ٤١] ومثل لها بالذباب الذي يتهاونت على الطعام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِمْ هُمْ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَلْقَوْنَ ذِكْرًا وَلَوْ لَحِطْتُمْ عَلَيْكُمْ لَأَعَزَّتْ رَزَوْنَكُمْ وَلَا لَتَلْمِزُوكَ...﴾ [الحج: ٧٣]. أما علماء السوء، فقد مثل لهم تعالى (بالكلب) و(بالحمار) وهو أقيح تمثيل على الإطلاق، عافانا الله وإياكم من ذلك المرض والوباء، الذي حذرنا منه سيد المرسلين ﷺ بقوله: (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين) (١) ولهذا ختم الله الآية الكريمة بقوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتٍ فَأَقْصَىٰ انْقِصَافٍ لَّهُمْ بِنَفْسِهِمْ﴾.

قال الإمام الشوكاني: ﴿مَثَلُ كَلْبٍ لِسَانُهُ﴾ أي لما انسلخ عن الآيات، ولم يعمل بها، صار منعطاً إلى أسفل رتبة، مشابهاً لأحسن الحيوانات في الدناءة، ومماثل لها في أقيح الأوصاف، وهو أنه يلهث في جميع الحالات، سواء قُضد الإنسان أو تركه، وسواء زجره أولم يزجره، شدَّ عليه أولم يشدَّ عليه، وليس بعد هذا في الخساسة والدناءة شيء.

قال القنبي: كل شيء يلهث، وإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث، في حال التعب وحال الراحة، وحال المرض وحال الصحة، وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته، فقال: إن وعظته ضل، وإن تركته ضل، فهو كالكلب، إن طردته لهث، وإن تركته لهث^(١).

التمثيل للكفار بالدواب والأنعام

٤ - المثل الرابع: ومن التمثيل البديع، الذي جاء في سورة الأعراف، ما شبه به تعالى حياة الكفار الضجار، بالدواب والبهائم، بل جعلهم أضل منها حالاً، وأسوأ مآلاً، حيث شبههم بهذا التشبيه الرائع المشين، بقوله تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ النَّارِ وَلَئِنَّ قُلُوبَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يَبْصُرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ومعنى الآية: والله لقد خلقنا لنار جهنم، كثيراً من المخلوقات، من الإنس والجن، ليكونوا لها وقوداً وحطباً، لهم قلوب معمية لا يفهمون بها دلائل فطرة الله، ولهم أعين لا يبصرون بها طريق الخير والسعادة، ولهم آذان صماء لا يسمعون بها آيات الذكر الحكيم، أولئك كالبهائم والدواب، بل هم أضل منها وأسوأ حالاً، لأن البهائم تدرك منافعها ومضارها، وهؤلاء لا يميزون بين الهدى والضلال، والمنافع والمضار، فهم غارقون في الشهوات والملذات، يعيشون لبطونهم وشهواتهم.

أثبت تعالى لهم القلوب، والأسماع، والأبصار، ولكنهم لما لم يستفيدوا منها، صاروا كالبهائم السارحة، والحيوانات المعجماء، وهو تمثيل رائع، في غاية الإبداع والجمال.



(١) فتح القدير للإمام الشوكاني ٢/٢٧٩.

الإبداع البياني في سورة الأنفال

١ - قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمِنْهُمْ مَن رُّزِقَ كَرِيمَةً﴾ [الأنفال: ٤] الدرجاتُ جمعُ درَجَة، وهي ما يصعدُ عليه الإنسان إلى الأعلى، واستعارَ (الدرجات) هنا للمراتبِ الرفيعة، والمنازلِ العالية، التي يُكرم الله تعالى بها عباده المؤمنين في الجنة، وهي (استعارة بديعة) أي لهم عند الله مكانة سامية، ومنزلة رفيعة، في جنات الخلد والنعيم.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَيُؤَذِّنُكَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكُوكِ تَكُونُ لَكُمْ...﴾ [الأنفال: ٧] الشُّوكَة (مستعارٌ) من واحدة الشُّوك، التي تؤلم الجسد، والمراد بها هنا: الحربُ والسلاحُ، استعيرت للسلاح بجامع الشدة والحدة بينهما، أي تحبسون الغنيمة وتكرهون الحرب، وهي (استعارة بديعة) وقد كان رسول الله ﷺ بشر أصحابه فقال لهم: إن الله وعدني إحدى الطائفتين: إما العير، أو النفير، فكانوا يحبون الطائفة التي لا سلاح فيها، وهي العير، لأنها كانت محملةً بتجارة قريش، وهي غنيمةٌ على بزد الماء.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ أَلْحَقَ يَكْمَتِ. وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] قطعُ دابرِ الكافرين: (كناية) عن استئصالهم بالهلاك، وقد تقدم أمثالها في سورة الأنعام، والأعراف.

٤ - قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَمَا تَعْمَلُونَ...﴾ [الأنفال: ١٩] ﴿تَسْتَفِيحُوا﴾ أصلُ الفتح: التُّصْرَةُ على العدو، وهو خطابٌ لكفار مكة، سُمي تعالى إهلاكهم نصراً على طريق (التهمك والسخرية) وهو ردٌ على قول أبي جهل يوم بدر: «اللهم إنا كان أفجر، وأقطع للرحم، فأهلكه اليوم» تفسير الطبري.

ومعنى الآية: إن تطلبوا يا معشر الكفار، الفتح والنصر على محمد والمؤمنين، فقد جاءكم الفتح، وهو الهزيمة والاندحار، وهذا كله على وجه (السخرية والتهمك)

مثلُ قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَصِيرُ الْكَاسِمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وأيُّ عزة وكرامة لمن يُعَذَّب في نار السعير؟

٥ - قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَلِكِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ الْغُثَرِ﴾ [الأنفال: ٢٤] الحيلولة بين الإنسان وقلبه، من باب (الاستعارة التمثيلية) شبه تعالى تمكُّنه من قلوب العباد، وتصريفها كما يشاء، بمن يحول بين الشيء والشيء، بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي استعارة لطيفة، وفي الحديث الشريف: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» رواه مسلم.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا أَنَّهُ حَذَرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] المكْر: الاحتياَل بطريق الخديعة، لإيقاع شخص في الهلاك، وهذا لا يجوز نسبته إلى الله عز وجل، إلا على طريق (المشاكلة) ومعناه: إحباط ما دبروا من كيد ومكر، سماء (مكراً) مقابلةً لمكرهم، بطريق (المشاكلة) وهي الانفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى.

قال ابن عطية: ﴿وَيَذْكُرُوا أَنَّهُ﴾ هو إبطال لمكرهم، ودفع له، وغير جائز أن يُقال: الله يمكر، على ما يفهم في اللغة، وإنما هو من باب (تسمية العقوبة باسم الذنب) اهـ المحرر الوجيز ٢٧٥/٦. والمعنى: يحتالون ويتآمرون عليك يا أيها الرسول، والله يدبر لك، ما يُبطل مكرهم، ويفضح أمرهم ﴿وَاللَّهُ حَذِرُ الْكَافِرِينَ﴾ أي أقدرهم وأعزهم جانباً!

٧ - قوله تعالى: ﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...﴾ [الأنفال: ٣٧] الطَّيِّبُ، والخبيث (كناية لطيفة) عن المؤمن، والكافر، والبرّ والفاجر، أي ليفرق الله ويفصل بين أهل الإيمان، وأهل الكفر والطغيان، وبين لفظ (الخبيث) و(الطيب) طباق وهو من المحسنات البديعة.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْرِعُوا الْقَوْلَ زَدَمَ يَحْكُمُ...﴾ [الأنفال: ٤٦] أي تذهب قوتكم وشوكتكم، وذهابُ الريح (استعارة بديعة) عن (الغلبة والقوة).

قال الشوكاني: الريح: القوة والنصر، كما يُقال: الريح لفلان إذا كان غالباً في الأمر، شُبِّهَتْ في نفوذ أمرها بالريح في هبوبها، ومنه قول الشاعر:

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُكَ فَأَغْشَيْنِيهَا فَتَغَشَّى كُلَّ خَافِقَةٍ سُكُونُ

تفسير الشوكاني ٣٣٤/٢.

أقول: هبَّ بالريح التي تعصف بالأشجار والأوراق فتدمرها، وهكذا إذا

دب الخلاف والتنازع بين الأمة، شتتها ودمرها، وانهمزت أمام أعدائها!!.

٩ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الْفَيْسُ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يَخْشَوْنَ﴾ [الأنفال: ٥٥] شبه تعالى الكُفَّارَ بالبهائم، والدواب، بل جعلهم شراً منها ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ وذلك منتهى البلاغة، ونهاية الإعجاز، إذ إنَّ الكافر لا يسمع الحق، والبهائم لا تسمع، والكافر لا ينطق به، والبهائم لا تنطق، والكافر يأكل ويشرب، والبهائم تأكل وتشرب، بقي أنه يضر، والبهائم لا تضر، فكيف لا يكون شراً منها؟ وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ مِمَّ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].



الإبداع التمثيلي في سورة الأنفال

التمثيل للكفار بالبهائم والدواب

١ - المثل الأول: في سورة الأنفال، مثل تعالى للكفر، (بالبهائم والدواب) في أسلوب بديع متعمق، بل جعلهم شراً من جميع الدواب والبهائم، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّعُفَاءُ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ ۖ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ يَهُنَّ غَيَّرُوا لَأَسَمَهُمْ وَلَوْ أَسَمَهُمْ لَوَلَّوْا وَهُمْ لَمْ يَرْضَوْا﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣] في هذه الآية تمثيل للكفار بالدواب السارحة، لأنهم سمعوا الهدى والقرآن، بأذانهم دون قلوبهم، فلم يسمعوا ولم يتفهموا، لأن الغرض من الاستماع، التدبر والانتفاع، فمن لم يتفهم من الكلام، فإنه بمنزلة الأنعام.

ومعنى الآية الكريمة: إن شرّ المخلوقات، وشرّ البهائم، التي تدب على وجه الأرض، الضعفاء الذين لا يسمعون الهدى، البكم أي الخرس الذين لا ينطقون بالحق، السفهاء المجانين الذين فقدوا العقل، فصاروا كالدواب السارحة!! لم يكشف القرآن أن شبههم بالدواب والبهائم، بل جعلهم أخس من البهائم بقوله: ﴿شَرُّ الدَّوَابِّ﴾ وذلك نهاية الذم، وغاية التضييق للكفرة المجرمين.

قال بعض العارفين: الآية في منتهى الإيجاز والإعجاز، إذ إن الكافر لا يسمع الحق، والبهائم لا تسمعه، ولا ينطق به، والبهائم لا تنطق به، والكافر يأكل ويشرب، والبهائم تأكل وتشرب، بقي أنه - بإبطاله للعقل - يضرب، والبهائم لا تضرب، فكيف لا يكون شراً منها؟ ولهذا ختم تعالى الآية بقوله: ﴿وَلَوْ أَسَمَهُمْ لَوَلَّوْا وَهُمْ لَمْ يَرْضَوْا﴾ أي لو فرض أن الله أسمعهم - وقد علم أن لا خير فيهم - لأعرضوا عن هداية الله كفرًا وجحودًا، لأن بصائرهم مطموسة، وعقولهم منكوسة.

تشبيه الكفرة بالقمامات التي تحرق

٢ - المثل الثاني: ومن غرائب الأمثال، التي ضربها الله للكفار، أنه شبههم

بالقمامات والتفائيات، التي تتجمع ويتكدس بعضها فوق بعض، لتُحرق بالنار، بعد أن أصبحت سبباً للوباء والبلاء ﴿إِنَّ الدِّينَ كَفَرُوا كُفْرًا يُعْمَلُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسُيِّرَتْهَا ثُمَّ كَفَرُوا عَلَيْهَا حَتَّىٰ تَمْ يَفْلُتُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُخْرَجُونَ • لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَقَعًا عَلَىٰ بَقَعٍ فَيَرْكُضُهُ رِجْلًا فَيَحْمَلُهُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَبِيرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦، ٣٧] قوله سبحانه: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الخبيث: الكافر، والطيب: المؤمن، أي ليفرق تعالى بين جند الشيطان، وجند الرحمن، ويفصل بين المؤمنين الأبرار، والكفرة الفجار، ويجمع الكفار حتى يتراكموا، ويتكدس بعضهم فوق بعض، ثم يقذف بهم في نار الجحيم، لأنهم كالأوساخ والقمامات، لا يتخلص منها إلا بالإحراق، ومعنى ﴿فَيَرْكُضُهُ رِجْلًا﴾ أي يصبحوا كالخطام والركام، متكدس بعضهم فوق بعض في نار جهنم، أولئك هم الكاملون في الخسران، شبههم تعالى بالتفائيات والقمامات، وهو تشبيه في غاية الإهانة والقبح.

من معجز الإيجاز في الكلام

القرآن معجز في بيانه، كما هو معجز في أحكامه، فحين يكون بين المسلمين والمشركين، أو أحد من أهل الأديان، عهد وميثاق، ثم شعروا بخيانة من جهتهم، فلا يجوز للمسلمين أن ينقضوا العهد، حتى يعلموا عدوهم بذلك، لئلا يكون ذلك خيانة من طرف المسلمين، ومن معجز الإيجاز في الكلام، ما جاء في سورة الأنفال قول الله جل ثناؤه: ﴿وَأَنَا نَحَافُ مِنْ قَوْمِ خِيَانَةٍ فَاِنِذِ الْيَهُدَ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

قال النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن، على إيجازه وكثرة معانيه، والمعنى: إن كنت تخاف خيانة من قوم، بينك وبينهم عهد وميثاق، فأنذِ إليهم العهد، على علم منك ومنهم، بأن تقول لهم: قد نبذت إليكم عهدكم، وأنا سأقاتلكم، ليعلموا ذلك، فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقابلهم وبينك وبينهم عهد، وهم يثقون بك، فيكون ذلك خيانة، والله لا يحب الخائنين، فأوجز الله ذلك كله، في هذه الآية الكريمة^(١).



الإبداع البياني في سورة التوبة

١ - قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] في الآية (استعارة حسنة) لمضي وانقضاء (الأشهر الحرم) وأصل الانسلاخ: سلخ الجلد عن الحيوان، حتى يظهر منه اللحم، استعار (انسلاخ) لمعنى مضي وانقضى، بطريق (الاستعارة التصريحية) لبيان أن صيانة دمائهم إنما كانت لكرامة تلك الأشهر الحرم عند الله، فإذا انقضت استبيح قتلهم وإهلاكهم.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَتَتْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَانْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ [التوبة: ٢٥] ضيق الأرض إنما هو تصويرٌ بديع بطريق (الاستعارة التمثيلية) على ما نالهم من (الشدة والكرب) شبه ما حل بهم من الكرب والهزيمة، والضيق النفسي الذي أصابهم، بضيق الأرض على سعتها، وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ وَانْتُمْ مُذْهِبُونَ﴾ أي انهزمت أمام أعدائكم، وفيه زيادة بيان وتوضيح، لضيق الأرض، وهو ما يُسمى بـ (التذليل) أي ختم الآية بما يناسب أولها.

٣ - قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نَارَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمُ...﴾ [التوبة: ٣٢] هذا التعبير من لطائف أنواع (الاستعارة التمثيلية) فقد شبه تعالى القرآن بنوره الوضاء، بنور الشمس الساطعة، وأعداء الله الكفار، يحاولون القضاء على القرآن ودين الإسلام، وقد مثلت حالهم بحال من أراد أن يطفى نور الشمس، المنبث في الأفاق، بالنفخ عليها بقمه الحفير، لإذهاب نورها وضيائها، وبما له من تصوير رائع بديع، لخيبتهم وخسرانهم!!

٤ - قوله تعالى: ﴿فَنَبِّئْهُمْ بِكَذَابِ آيِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٤] أسلوب سخرية وتهكم لأن البشارة تكون بالخير، لا بالشر، وقد تقدم توضيحها في سورة النساء.

٥ - قوله تعالى: ﴿ارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ذِي الْأَرْحَامِ﴾ [التوبة: ٣٨] في

الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: أرضيتم بنعيم الدنيا الفاني، عن نعيم الآخرة الباقي، و(من) هنا بمعنى (بذل) نعيم الآخرة، ففي الآية (إبداع بياني) بطريق الحذف والإيجاز.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَ كَبِيرَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا الشُّقْلَى وَكَبِيرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] في الآية (كناية بديعة) كنى عن الشرك بكلمة الذين كفروا وعن التوحيد بكلمة الله وجاءت الجملة الأولى فعلية ﴿وَحَمَلَ كَبِيرَهُ﴾ وكأنها في طريق الانتهاء والزوال، والجملة الثانية اسمية ﴿وَكَبِيرَهُ اللَّهُ﴾ لأن الجملة الاسمية، تدل على الثبات والدوام، ولا يخفى ما في الأسلوب البديع من المبالغة، للتفريق بين ﴿وَكَبِيرَهُ اللَّهُ﴾ و﴿كَبِيرَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا الشُّقْلَى﴾ فتدبر أسرار الكتاب العزيز.

٧ - قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فَرَقًا بَيْنَ أَصْفَانَا لَأَتَّخَذُوا لَكِن تَعَذَّتْ عَنْهُمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢] (الشُّقَّة): المسافة الطويلة البعيدة، التي توجب المشقة على النفس، سئى تعالى المسافة البعيدة بالشُّقَّة (بطريق الاستعارة) لأنَّ النفس تحب الراحة، وتكره المشقة، يريد أنهم يُعَذُّ عليهم الطريق، فلم يخرجوا معك، ولو كان قريباً لاسرعوا للخروج، طلباً للنعمة، لا رغبة في الجهاد في سبيل الله، وفي هذا التعبير تشييع عليهم وتحقير.

٨ - قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا لِقَاءِ رَبِّكَ إِذَا رَأَوْكُمْ إِذَا جَاءَ لَا تَأْمِنُوا عَلَيْهِمْ لَكُمْ فِيهِمْ يَغْوِيكُمْ الْفِتْنَةُ﴾ [التوبة: ٤٧] في الآية (استعارة تبعية) شبه سرعتهم في الإفساد بين المؤمنين، بسرعة سير الراكب، واستعير لها (أرضعوا) من الإيضاع: وهو إسراع الإبل، على طريقة (الاستعارة التبعية).

ومعنى الآية: لو خرج المنافقون مع المؤمنين، ما زادوهم إلا فساداً وشرأ، ولأسرعوا بينهم بالنعمة، طلباً للفتنة، وإلقاء العداوة بين المؤمنين.

٩ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْإِنْسَانُ لَشَقِيرٌ وَإِنَّكُمْ حَقِيرَةٌ لِّمُحِيطَةٍ بِالْكُفْرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] تشبيه بديع، لاشتمال الثار عليهم من كل جانب، بإحاطة العدو بالجنود، بطريق (الاستعارة التمثيلية) بحيث لا يستطيعون الخروج أو الهرب، فنار الجحيم محيطة بالكافرين والمنافقين، إحاطة السوار بالمغمض، ويا له من إبداع في التعبير!

١٠ - قوله تعالى: ﴿يَا مُؤْمِنُونَ بِالْمَعَكَمِ وَيَتَنَوَّعَتِ عَنِ الْمُتَدَوِّبِ وَيَقْبُضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] قبضُ اليد (كناية لطيفة) عن الشُّح والبخل، كما أن بسطَ اليد كناية عن الجود والكرم، قال الشاعر:

تَعَوَّذَ بِسَطِ الْكُفِّ خَشْيَ لَوْ أَنَّهُ أَزَادَ لَهَا قُبْضًا لَمْ تُطَاوِعْهُ أَتَابِلُهُ

١١ - قوله تعالى: ﴿سُورَاتُ اللَّهِ فَتِيحُهُمْ...﴾ [التوبة: ٦٧] الآية من باب (المشكلة) ومعناها: الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى.

والمراد أن المنافقين تركوا طاعة الله عز وجل، فتركهم من هدايته وتوقيفه، والله تعالى لا ينسى، فالنسيان منهم على حقيقته، والنسيان من الله تعالى بمعنى الترك من رحمته ورضوانه، وتركهم في العذاب الأليم. قال ابن عباس: تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه. اهـ فتح القدير ٣٩٩/٢.

١٢ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يَخِرُّونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] وهذه الآية أيضاً من باب (المشكلة) والمعنى: أنهم يعيبون المتبرعين في صدقاتهم، الذين لا يجدون إلا طاعتهم - وهم الفقراء - فيستهزئون منهم ويسخرون، جازاهم الله على سخريتهم بإدخالهم نار الجحيم.

قال النحاس: معنى ﴿يَخِرُّونَ مِنْهُمْ﴾ أي جازاهم على سخريتهم، فسئى الثاني باسم الأول على الازدواج - أي التوافق في اللفظ دون المعنى - اهـ معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ - ٢/٢٣٨ بتحقيقنا.

١٣ - قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ...﴾ [التوبة: ٨٠] الآية واردة على المبالغة في عدم التوبة على المنافقين، لا يراد بها العدد المذكور (السبعون) إنما هي على التكثير، أي مهما استغفرت لهم، فلن يغفر الله لهم، فهي لتأكيد النفي، لا للتحديد، وهذا كما يقول القائل: لو سألتني حاجتك سبعين مرة، لم أقضيها لك، ولا يريد أنه إذا زاد على السبعين، قضى حاجته، وهذا على أسلوب العرب في المبالغة في عدم القبول، بذكر العدد الكبير.

قال الشوكاني: في الآية بيان من الله تعالى لعدم المغفرة للمنافقين، وإن أكثر النبي ﷺ من الاستغفار لهم، وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين، لكان ذلك مقبولاً، بل المراد بهذا: المبالغة في عدم القبول. اهـ فتح القدير ٤٠٥/٢.

١٤ - قوله تعالى: ﴿رَسُولًا يَكُونُ أَمْعَ الْخَوَالِفِ وَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِ فَمَهُ لَا يَمَقُورُ﴾ [التوبة: ٨٧] هذه (كناية لطيفة) كثر بالخوالف عن النساء، أي رضي المنافقون أن يبقوا مع النساء المتخلفات في البيوت، من أجل رعاية أطفالهن، خوفاً من القتل في الحرب، وهذا غاية الذم، ومنتهى التشنيع على المنافقين، لتركهم الجهاد في سبيل الله، كما قال الشاعر:

دَعِ السَّكَّارِمَ لَا تَزَحَلْ لِبُعْثِيبِهَا وَاقْعُدْ فَلِإِنَّكَ أَتَتْ الطَّاعِمَ الْكَاثِمِ
١٥ - قوله تعالى: ﴿أَلَسْ عَلَى الصُّلَمَاءِ وَلَا عَلَى الرُّسُلِ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُبْعَثُونَ خُرُجٌ إِذَا لَقَّاهُمْ رَسُولٌ مِنْ رَبِّهِمْ...﴾ [التوبة: ٩١] في الآية (إيجاز بالحذف) أي ليس على هؤلاء أصحاب الأعداء المذكورة، إثم في ترك الجهاد، والتخلف عن الخروج مع رسول الله ﷺ، حذف من الآية (التخلف وترك الجهاد) لدلالة السياق عليه، وهو من أساليب الإيجاز البديع.

١٦ - قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ فِي رَحْمِهِ إِذَا اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩] الرحمة صفة لا يمكن أن يسكن فيها الإنسان، والمراد بها هنا: الجنة، التي هي محل تنزل رحمة الله عز وجل، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الحال وإرادة المحل) أو إطلاق (الصفة وإرادة الموصوف) كما يقول علماء البيان، وقد تقدم مثلها في سورة آل عمران.

١٧ - قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَشَسَ بَنِيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرَسُولٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَشَسَ بَنِيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْئِي مَكَارٍ فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...﴾ [التوبة: ١٠٩] في الآية (استعارة تمثيلية مكنية) شبهت التقوى والرضوان من الله، بأرض صلبة مبنية، يعتمد عليها البنيان، وطوى ذكر المشبه به، وزمّن له بشيء من لوازمه، وهو وضع الأساس للبناء، كما شبه الباطل والنفاق، في ذهابه واضمحلاله، ببناء بُني على حافة هوة سحيقة، فهوى البناء لعدم وجود أساس له، ولكونه على حافة الحفرة العميقة، وهي (استعارة يديعة) وتمثيل رائع من روائع صور التمثيل.

والمعنى: أفمن أشس بنيان دينة، على قاعدة صلبة محكمة، هي التقوى، والإيمان، والإخلاص، فارتفع المصريح، وشيد البناء، فكان راسخاً ثابتاً كالجبال، كمن بنى على طرف وادٍ سحيق، ولم يضع له أساساً، فما لبث أن تحطم البناء وتهدم؟ ويا له من تمثيل رائع بديع!

١٨ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى بِكَ أَلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] في الآية (استعارة تبعيثة) بديعة، شبه تعالى بذل المجاهدين للأموال، والأنفس في سبيل الله، ومجازاتهم عليها بالجنة دار النعيم، بعقد بيع وشراء، بطريق (الاستعارة التبعيثة) وفي الآية تمثيل لهذا العقد ببيع رافع، صفقة فيها بيع وشراء، وشهادة وضمان، وبيع مضمون مؤكد، البائع فيه (المؤمن) والمشتري فيه (رب العزة والجلال) والضمن فيه (الجنة) والشهود فيه (الملائكة) الأبرار، والصك فيه (الكتب السماوية) والواسطة فيه خاتم الأنبياء (محمد رسول الله) ﷺ فأكرم به من عقد، وأكرم بها من تجارة رابحة، فيها الضمان والبشارة؟! ﴿لَا تَسْتَبِشُوا بِمَا يَبِيعُكُمُ الَّذِينَ يُبَايِعُكُمْ بِذَلِكَ هُوَ أَتَمُّ الْغَيْبِ﴾ [التوبة: ١١١].

١٩ - قوله تعالى: ﴿الْمُحْكِمُونَ أَلْسِنَتَهُمُ الْآسِرُونَ بِالْعُرْوَةِ وَالْشَّاهِدُونَ عَلَى الْحُكْمِ﴾ [التوبة: ١١٢] في الآية (مجاز مرسل) اطلق الركوع والسجود، وأراد بهما (الصلاة) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) وخضهما بالذكر، لأنهما أعظم أركان الصلاة، وفي الحديث الشريف: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء» رواه مسلم، فعبر عن الصلاة بالركوع والسجود أي المصلون.

٢٠ - قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا الَّذِي كُفِرُوا فِيهِ عَصَيْنَا إِنْ كُنْتُمْ عَلِيمِينَ﴾ [التوبة: ١٢٥] السورة من القرآن، لا تزيد أحدا رجساً، بل هي شفاء لما في الصدور، وجلاء للقلوب، ونسبة ذلك إليها ﴿فَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلِيمِينَ﴾ وزد بطريق (المجاز) لأنهم بتكذيبهم لكلام الله، ازدادوا فتنة وضلالاً، وشفاء وبلاء، فكان نزول السورة، كأنه السبب لهذا الرجس والتنجس. والمعنى: أما المنافقون الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، فرادتهم نفاقاً إلى نفاقهم، وكفراً فوق كفرهم، فازدادوا رجساً وضلالاً، ولم يستفيدوا من هداية القرآن، والفرق بين (الرجس) و(التنجس) أن الرجس أكثر ما يستعمل في الأمور المفتونة، والتنجس أكثر ما يستعمل في الأمور الحسية المادية، كنجاسة الثوب، ونجاسة البدن، والله أعلم.

٢١ - قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَّبِعُ الشَّيْطَانُ سَوَاعِدٌ لَهُمْ وَأَسَافُوتٌ﴾ [التوبة: ١٢٥].

[التوبة: ١٢٦] لا يراد بقوله: ﴿ثُمَّ أَتَوْنَهُنَّ﴾ العَدَّةُ نَفْسُهُ، وإنما وردت للتكثير، والمعنى: نبشلي هؤلاء المنافقين، بأصناف البلايا والشدائد، ونكشف مخازيهم، ليتوبوا ويتعظوا، ثم لا يرجعون ولا يتعظون، لأن قلوبهم ميتة، والقلب الميت لا يرجع إلى الله، مهما بذلت معه من جُهد. ١.



الإبداع التمثيلي في سورة التوبة

التمثيل للكفار بالقدر والنجس

١ - المثل الأول: شبه تعالى المشركين، ومثل لهم في مواطن عديدة، بضروب من وجوه التشبيه، شبههم بالدواب السارحة، وبالغنم، والبُكم، والضُم، وبالأنعام التي تسمع الكلام، ولا تفهم المُرَام، وبالأعمى الذي يمشي مكباً على وجهه، إلى غير ما هنالك، من التشابيه والأمثال، لينبه تعالى إلى شديد خطرهم، وعظيم ضررهم، وفي سورة التوبة شبههم تعالى بالنجس والقذر، الذي ينبغي أن يحذر منه الإنسان، يقول الله تقدس أسماؤه: ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْأَلُوا اللَّهَ الْغَنَاءَ إِنَّهُ مُجِيبُ الدُّعَاءِ وَلَا يَفْرُغُوا الْكُفْرَ أَكْثَرُ بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَكَذَا وَإِنْ جِئْتُمْ عَمَلَكُمْ اللَّهُ بِكُمْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ خَصْبٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

والمعنى: إن المشركين كالشيء النجس، الذي ينبغي أن يجتنبه العاقل، لخبث اعتقادهم، وكفرهم بالله، وعدم تطهرهم من الجنابة، وشربهم الخمر، وارتكابهم الفجور، فلا تمكنوهم من دخول المسجد الحرام وإن خفتم الفقر بمنعكم لهم من دخول مكة - شرفها الله - فإن الله يرزقكم من فضله، ويوسع عليكم الرزق من حيث لا تحسبون.

والآية الكريمة واردة على (التشبيه البليغ): شبههم بالنجس أي هم كالنجس في خبث الباطن، وخبث الاعتقاد، حذفت منه أداة التشبيه، ورجه الشبه فأصبح بليغاً، كما نقول: عليّ أسدٌ، أي كالأسد في الشجاعة والإقدام، وزوي عن بعض السلف، أن أعيانهم نجسة كالكلاب، والخنازير، والجمهور على أن الآية محمولة على التشبيه، جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في التقييد والتشنيع، والحقيقة أن نجاسة الباطن، أخبث وأقبح من نجاسة الظاهر، ولهذا جاء التعبير بأسلوب الحصر ﴿إِنَّ اللَّهَ تَزَكَّى عَنْ﴾ فمن لم يطهر قلبه من

الشرك، وفعل المنكر والخبيث، وكل ما يضرُّ الناس، فإنه أنجس من كل نجس، وأخبث من كل خبيث، كما قال الشاعر:

يُغْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ خِلَاوَةٌ وَيَرْوُغُ فِيكَ كَمَا يَرْوُغُ الثُّغْلُ

التمثيل للإسلام بالشمس الساطعة

٢ - المثل الثاني: من التمثيل البارع البديع، تفخيم شأن الإسلام، وإعلاء قدره، بتشبيهه بالشمس الساطعة اللامعة، وأعداء الإسلام يريدون إطفاء هذا النور الإلهي، وفيهم يقول تقدست أسماؤه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نَورَ اللَّهِ وَاللَّهُ يُضِيهِ أَنَّىٰ يَشَاءُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَإِن يَشَاءُ يُؤْخِرْ وَلَهُ كُتُبُ الْكَامِلِينَ ۝ خُوِّنَ الَّذِينَ أُرْسِلَتْ رَسُولُهُم بِالْهَدَىٰ وَبِالنَّهْيِ يُظْهِرُ عَلَىٰ الَّذِينَ كُفِرُوا وَلَوْ كَفَرُوا الْمُشْرِكُونَ ۝﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

المراد بـ﴿نُورَ اللَّهِ﴾: دين الإسلام، فإن الإسلام بنوره المضيء، وحججه القاطعة، يشبه الشمس الساطعة في نورها وضئائها! مثل تعالى لهؤلاء الكفار، الذين يعادون الإسلام ويحاربونه، يمثل بديع رائع، مثل لهم بأناس حمقى جهلاء، أرادوا أن يطفئوا نور الشمس، بالنفخ عليها بأفواههم، فتفخخوا عليها ليزهبوا نورها، ويكسفوا ضياءها، ولنتصور مقدار الخيبة لهؤلاء السفهاء الجهلاء، هيهات أن يعكروا نورها أهل الأرض جميعاً، لو استعملوا في النفخ أحدث الآلات، فكيف إذا كان النفخ (بأفواههم الصغيرة) الحقيرة؟ وهو تمثيل بادي الروعة والجمال، يدل على خيبة وضباع جهود أعداء الإسلام، ولهذا أتبع التمثيل بقوله: ﴿فَرَأَىٰ الَّذِينَ أُرْسِلَتْ رَسُولُهُم بِالْهَدَىٰ وَبِالنَّهْيِ يُظْهِرُ عَلَىٰ الَّذِينَ كُفِرُوا وَلَوْ كَفَرُوا الْمُشْرِكُونَ ۝﴾ أي أرسل محمداً ﷺ خاتم النبيين، بالقرآن الهادي إلى الطريق المستقيم، ويدين الإسلام الحق، ليعليه على سائر الأديان، وفي التعبير عن الإسلام (بالدين الحق) نبيه على أن كل دين بعد مجيء الإسلام، باطل غير مقبول، لأن الإسلام نسخ ما سبقه من الأديان، وهذا مقتضى ظهوره، وغلبته على سائر الأديان.

العال قد ينقلب إلى نقمة

٣ - وفي سورة التوبة أخبر تعالى على أن العال الذي هو نعمة، قد ينقلب إلى بلاء ونقمة، إذا لم يحسن الإنسان استعماله، قال جل ثناؤه: ﴿فَلَا تُجِدَكَ أُولَئِكَ إِلَّا أُولَئِدُمْ ۖ إِنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ ۖ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَعَفُ أَسْهُمُ ۖ وَهُمْ كَافِرُونَ ۝﴾

[التوبة: ٥٥] أي لا تستحسن أيها السامع العاقل، ولا تفتقر بما أوتي الكفار والفجّار، من زينة الحياة الدنيا، من الأموال والأولاد، فإنما هو استدراج لهم، ظاهره نعمة وباطنه نقمة، والآية عامة في الكفار والمنافقين، فإن الله يهلكهم بأموالهم بهذه (المخترعات الجهنمية) التي يخترعونها بأنفسهم، من طائرات حربية، وقاذفات وراجمات، وصواريخ، ومدافع، ودبابات، وقنابل ذرية، وهيدروجينية، وغيرها من الأسلحة الفتاكة، وليس أدل ولا أصدق على هذا الدمار الساحق، الذي أخبر عنه القرآن، مما حدث في الحرب العالمية الأولى، والثانية، فقد ذهب في الحربيين ما يزيد على ثلاثين مليوناً من البشر، وما ينتظرهم أدهى وأمر، تحقيقاً للوعيد الإلهي، الذي أخبر عنه القرآن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَةَ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

التمثيل للمنافقين بالدابة الجموح

٤ - العثل الثالث: ومما جاء من التمثيل البديع للمنافقين، في سورة التوبة، التمثيل لهم بالدابة الجموح، التي لا يستقر على ظهرها راكبها، والتشبيه لهروبهم من الرسول ﷺ والمسلمين، بالفئران التي تدخل في أضيق الجحور، يقول سبحانه عن المنافقين: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يُبْعَثُ عَلَيْهِمْ مَقَاتِلٌ يَكْفِهِمْ ذُنُوبُهُمْ يُفَكُّونَ﴾ [التوبة: ٥٦] أي يقسم لكم هؤلاء المنافقون، أنهم مؤمنون مثلكم، وما هم بمؤمنين في الواقع، لكفرهم، وخباثة باطنهم، ولكنهم قوم جبناء، يخافون أن تقتلوه، لذلك يُظهرون لكم الإسلام تقيّة، ويؤيدونه بالإيمان الكاذبة الفاجرة... ثم جاء التشبيه البديع لأحوالهم الغريبة العجيبة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [التوبة: ٥٧] أي لو وجدوا لهم حصناً يلجأون إليه، أو (مغارات) أي سرايب تحت الأرض يختفون فيها منكم (أو مُدْخَلًا) مكاناً ضيقاً يدخلونه، كالجحر ليُسَلِّمُوا من الخطر، لانصرفوا نحوه، وأقبلوا إليه مسرعين، كإسراع الدابة، والبغل الجموح. ١

وهذا تمثيل رائع بديع، لحال المنافقين، مثل تعالى خوفهم من انتصاح أمرهم، عند الرسول والمؤمنين، بحيث لو قدروا على الهروب منهم، ولو في شر الأماكن، وأخشى، وأخبثها، لما تأخروا عن ذلك، شبههم بالفئران تدخل الجحور، والبغال الجامحة التي لا يستقر عليها راكبها، من كثرة الاضطراب والنفور، وبإله من تمثيل رائع!!

التعطيل بجيش العسرة

٥ - لقد كانت (غزوة تبوك) التي خاضها النبي ﷺ مع أصحابه الكرام، في أيام عصبية وشديدة، كانوا في قلعة من الظُهر، يعتقب العسرة على بعير واحد، وفي قلعة من الزاد، وفي عُسر من وجود الماء، حتى نحروا الإبل واعتصروا كروشها، وكانوا في بُعد من الطريق، وشدة من الحر، ولهذا سميت (غزوة العسرة) فقد كادت أعناق المسلمين أن تُقطع، من شدة العطش، وقد مثل القرآن لهذه الغزوة بأنها (أيام العسرة) وفي هذه الغزوة يصور القرآن حالة الصحابة، وما نالهم فيها من شدائد وأهوال، فيقول تقدس أسماءه: ﴿لَقَدْ تَأْتَى اللَّهَ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ تَلَدٍ مَا كَانُوا يَريُّونَ قُلُوبُهُمْ مُرِيحًا بِرَيْبِهِمْ أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ دُخَانٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [التوبة: ١١٧].

والمعنى: لقد تاب الله على النبي وأصحابه، من المهاجرين والأنصار، الذين رافقوه في غزوة تبوك، وقت العسرة، وتوبه الله على الرسول ﷺ للإذن للمنافقين في التحلف، وتوبه على المهاجرين والأنصار، لأجل ما وقع في قلوبهم، من الميل إلى القعود، لأن الغزوة كانت في حر شديد، ووقت عصب، لذلك سميت (غزوة العسرة).

معجزة نبوية في هذه الغزوة

روى ابن جرير الطبري عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، في حر شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن الرجل لينحر البعير، فيعصر قرئه - يعني كرشه - فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده!! فقال أبو بكر: يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيراً، فادع لنا!! قال: أتحب ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه، فلم يردّهما حتى سكبت السماء أمثال العيون، فملأنا ما معنا - يعني من أوعية وأواني - فلم نرّها تجاوزت العسكر) (١).

والتعبير بقوله سبحانه: ﴿يُرَادُّهُمَا حَتَّى سَكَبَتْ السَّمَاءُ امْتَالًا عِلْيُونَ، فَمَلَأْنَا مَا مَعَنَا - يعني من أوعية وأواني - فلم نرّها تجاوزت العسكر﴾ يوحي بالشدّة والهلول، والكرب العظيم الذي أصابهم، حتى كاد بعضهم يموتن في دينه،

فيترك المعركة ويولي الأدبار، راجعاً إلى المدينة، ولكن الله غصمهم، فصبروا، وثبتوا، واحتسبوا، ولهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي وفقهم للثبات في الميدان، ليتوب عليهم، وهذا من لطفه سبحانه ورحمته بالمؤمنين، والآية فيها تمثيل بديع، وتصوير دقيق، لما نال المسلمين فيها من شدائد وأهوال، ومتاعب ومصاعب.

قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة

وفي الآية بعدها، لفات دقيقة بديعة، تصور حالة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة، من أهل الإيمان، وهم (كمب، وهلال، ومرارة) ولم يكن تخلفهم عن نفاق، فقد كانوا من أهل الدين والصلاح، وفيهم يقول سبحانه: ﴿يَزِيدُ الْفَاسِقَ﴾ [التوبة: ١١٨] أي وتاب أيضاً على الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْأَرْضِ بِمَا رَزَخَتْ﴾ [التوبة: ١١٨] أي ضاقت عليهم الأرض على رخبها وسعتها، لإعراض الناس عنهم، بأمر الرسول ألا يكلموهم، وهو مثل لشدة الحيرة، والحزن، والألم، الذي كان يعتصر قلوبهم ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَشْجَارُ﴾ [التوبة: ١١٨] أي ضاقت قلوبهم بما اعتراهم من الغم والكرب والهم، بحيث لا يسمعا أنس ولا سرور، وفي هذا التصوير ترقق من ضيق الأرض عليهم، إلى ضيقها في أنفسهم، وهو في غاية البلاغة والبيان، والتمثيل الفني البديع ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ اللَّهِ أَيْسَرُ بِلَا إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ﴾ [التوبة: ١١٨] أي أيقنوا أنه لا نجاة، ولا ملاذ ولا خلاص لهم، من سخط الله وعقابه، إلا بالرجوع إليه ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] إنه سبحانه المتفضل على عباده بأنواع النعم، الرحيم بمن تاب وأناب إليه، والآيات تصوير للشدائد التي نالها المسلمون في هذه الغزوة (غزوة تبوك) حيث كانت أصعب الغزوات في حرب المسلمين، كان السفر فيها طويلاً، والبلاء فيها شديداً، جابهوا فيها جيش الروم، ولهذا أفاض القرآن الكريم، في ذكر بعض مشاهداتها، وتحذث عن المنافقين الذين تخلفوا عنها، وعن بعض المؤمنين المتخلفين، وهم ثلاثة من أهل الدين والصلاح (كمب بن مالك) و(هلال بن أمية) و(مرارة بن الربيع) الذين تاب الله عليهم، بعد أن هجرهم المسلمون فلم يكلموهم، بأمر الرسول ﷺ لهم بذلك، كما أمرهم باعتزال نساتهم، ويقوا على ذلك خمسين يوماً، حتى نزلت توبة الله عليهم، وفي هذه الغزوة نزلت الآيات الكريمة في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَنَافِعُ مِمَّا حُتِّمَ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَفُوا أَمْ

رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَلَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْلَانَا يَعْزُبُ عَنِ الْكَافِرِ وَلَا يَتَالُوتُ مِنْ عَذَابِ بَلَاءٍ إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِمْ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ أَجْرَ الْخَيْرِينَ . . . ﴿ [التوبة: ١٢٠] وكانت هذه الغزوة درساً بليغاً للمسلمين^(١).



(١) انظر كامل قصة (غزوة العسرة) والمتخلفين عنها، في (البخاري ومسلم) ففيها دروسٌ وجيِّزٌ، وتصويرٌ للحالة التي لاقها المسلمون من الشدائد والأهوال عجيب.

الإبداع البياني في سورة يونس

١ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نُنِيتُ أَنُؤَاتِنَهُمْ قَدَمَ سِدْفٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] هذه (استعارة بديعة) فالصدق ليس له قدم، وإنما هو تعبير عن المنزلة العالية، والدرجة الرفيعة، التي نالوها بسبب الإيمان، وهذا من باب (تسمية الشيء باسم آله) لأنَّ بالقدم يكون السبق، والتقدم، كما سُميت النعمة يداً، لأنها تُغطى باليد، والعبارة غاية في البلاغة والجزالة.

والمعنى: المؤمنون لهم أعمالٌ صالحة سابقة، قدّموها ذخراً لآخرتهم، فلهم عند ربهم المكانة الرفيعة، والأجر الحسن المحمود.

٢ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَشَعْنَا خَلْقَهُ وَأَنزَلْنَاهُ بِمَدِينَةٍ كَيْفَ نَحْكُمُ﴾ [يونس: ١٤] الله عز وجل عالم بما يفعله البشر، ليس بحاجة إلى امتحانهم، ليعلم ما يصنعون، وإنما ورد التعبير ﴿يَعْلَمُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بطريق (الاستعارة التمثيلية) شبه حال العباد مع ربهم، بحال ملك مع رعيته، أراد أن يختبرهم، ويمتحن ولائهم له، فأمهلهم فترة من الزمن، ليعرف طاعتهم، واستجاباتهم لأوامره، واستعير الاسم الدال على المشبه به للمشبه، على سبيل التمثيل والتقريب للأذهان، والله المثل الأعلى.

قال في تفسير روح البيان: الله لا يحتاج في العلم إلى الاختبار والامتحان، ولكن يعامل الناس معاملة من يطلب معرفة ما يكون منهم، ليجازيهم بحسبه. اهـ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ١٣٢/٢.

٣ - قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنُؤَاتِعُ مَكْرَأً إِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ مَا تَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٢١] المكْرأ لا يُنسب إلى الله، بالمعنى اللغوي المعروف، وإنما سُميت عقوبة الله لهم مكرأ، لوقوعها في مقابلة مكرهم، وتسميتها مكرأ من باب (المشاكلة) وهي الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، أي قل لهم: الله أعجل عقوبة، وعذابه أسرع وصولاً إليكم، من مكرهم الخبيث.

قال الشوكاني: ﴿انْعُرْ زَكَرَى﴾ أي اعجل عقوبة، وتسمية عقوبة الله مكرأ من باب (المشاكلة) ﴿إِنْ رُسُوتُ يَكْتُبُونَ مَا تَكْزُرُونَ﴾ المعنى: أن رسل الله وهم الملائكة يكتبون مكر الكفار، ولا يخفى ذلك على الملائكة الحفظة، فكيف يخفى على العليم الخبير. اهـ تفسير الشوكاني ٤٥١/٢.

٤ - قوله تعالى: ﴿خُنْ إِنْ أَهْلَكَ الْأَرْضُ زَرْعَهَا وَارْتَبَتْ...﴾ [يونس: ٢٤] هذا من بديع الاستعارة، وروائع (التشبيه التمثيلي) شبه الأرض حينما تنزير بالأزهار والنبات، بالعروس التي تنزير بالحلي والثياب، واستعير لتلك الزينة، والبهجة، والنضارة لفظ (الزخرف) وقد تقدم التفصيل والتوضيح لهذه الآية في هذا الكتاب.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْعَلَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧] في قوله: ﴿نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ استعارة لطيفة لما سبقه من (التوراة والإنجيل) فإنها قد بشرت به، أي مصدقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية، التي أنزلها الله على رسله الكرام صلوات الله عليهم.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَكْبِرُونَ إِلَهُكَ أُفٍّ أَنْتَ تُسَبِّحُ الْمَلَأَ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ وَمَنْ مَرَّبَطُ إِلَهُكَ أَفَاتَ حَبْرٍ أَلْفَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٢، ٤٣] الضم، والمُعْتَمَى كلاهما من باب (الاستعارة التمثيلية) شبه الكفار بالضم وبالمعنى، لإعراضهم عن الحق، وتعاضبهم عن الشور الوضاء (القرآن العظيم) وإذا اجتمع مع فقدان الشمع، فقدان العقل، فقد استكمل الشقاء والبلاء، فالكفار لا ينتفعون من القرآن، إلا كما تنتفع البهائم من كلام الشاعر الذي يصيح بالأغنام.

٧ - قوله تعالى: ﴿فَدُجَاتُكُمْ مَوْعِدَةٌ لِمَا فِي أَعْدُورٍ﴾ [يونس: ٥٧] في الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق المحل وإرادة الحال) أي شفاء للقلوب، أطلق الصدور وأراد بها (القلوب) لأن الصدور محلها، أي هو دارة من أمراض القلوب، كالجهل، والشرك، والنفاق، وسائر الأمراض القلبية.

٨ - قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَشْكُرُوا بِهِ وَالنَّهَارَ مُبِيناً...﴾ [يونس: ٦٧] هذه (استعارة عجيبة) على طريق الإبداع والروعة في التعبير، سعى تعالى النهار مبيناً، لأن الناس يبصرون فيه، فكان ذلك صفة الشيء

بما هو سبب له، على (طريق المبالغة)، كما قالوا: ليلٌ أعمى، وليلةٌ عمياء، إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً، لشدة إظلامها، وفي الآية أيضاً (إيجازٌ بالحذف) ذكر سبحانه الليل والنهار، فحذف من الليل (مظلماً) لدلالة ما ذكره عن النهار ﴿تَنصَرَّ﴾ عليه، وحذف من النهار (لتحركوا فيه) لدلالة ما ذكره عن الليل ﴿يَنصَرُّوهُ﴾، فالليل للسكن والراحة، والنهار للكسب والعمل، وتبارك الذي جعل كتابه معجزاً، وكلامه رائعاً مبدياً!!

٩ - قوله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَمْرَكُمْ مُشْرَافًا وَمُنْصَرًّا ۚ سُبْحَانَكَ لَا يَبُكُنْ أَمْرُكَ عَنْكَ﴾ [يونس: ٧١] يعني بقوله: ﴿عَنْكَ﴾ أي مخفياً مستوراً، غير عن السر بالغمّة، بطريق (الاستعارة التصريحية) أي لا يكن أمركم مستوراً، فيكون كالغمّة العمياء، بل اجعلوه ظاهراً منكشفاً، خاطبهم نوح عليه السلام بذلك، ثقةً بنصر الله له، وهو واحدٌ بينهم، وهم جعٌ غفير، متفقون على قتله أو إخراجهم ﴿قَالُوا لَيْسَ لَهُ تَنْصَرُّ يَسُوحُ لَكَ كُوزٌ مِنَ الْخَمِيرِ﴾ [الشعراء: ١١٦] وهو بذلك يتحداهم ويقول لهم: إن عزمتم على قتلي وطردي، فانا أعتد على الله، ولا أخافكم ولا أخشاكم، وفي هذا التحدي لهم، ما يدل على وثوقه بنصر ربه، وعدم ميالاته بما يتوعد به قومه.!

١٠ - قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَنْصِرْ عَلَيْنَا أَوْلِيَّانَا وَانصُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا ضَالِّينَ﴾ [يونس: ٨٨] أصل الطمس: المحو وإزالة الأثر، وهو هنا (استعارة) عن محوها وإذهاب منفعتها، والشذ: الإيشاق والربط، وهو هنا (استعارة) عن تغليب العقاب، ومضاعفة العذاب، ولهذا ختمت بقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ والمعنى: الدعاء عليهم بأن يمحى الله أموالهم ويهلكها، ويجعل قلوبهم قاسية مطبوعة، لا تقبل الحق ولا تشرح للإيمان. اهـ فتح القدير ٤٨٣/٢.

١١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلِيَّانَا خَلَقْتَهُمَا خَلْقًا مَّا يَتَذَكَّرْنَ﴾ [يونس: ٩٦] ﴿خَلَقْتَهُمَا﴾ كناية عن القضاء السابق عليهم بالشقاء، والحكم الأزلي الذي لا ينتقض، والمراد سبق حكمه وقضاؤه، بأنهم يموتون على الكفر، ويخلدون في نار الجحيم.

الإبداع التمثيلي في سورة يونس

١ - من التمثيل البديع ، ما جاء في سورة يونس عن طبيعة البشر ، فهم يميلون دوماً إلى الضجر ، لا يشكرون في السراء ، ولا يصبرون عند الضراء ، قد يفضب الوالد على ولده ، فيسارع فيدعو عليه بالهلاك والموت ، ولو استجاب الله دعاءه في الشر ، كما يستجيب في الخير ، لهلك البشر ، ولكنه تعالى حلیم ، رحيم ، ودود ، لا يعجل للناس البلاء ، كما يعجل لهم في الخير والصلاح ، بقول تعالى : ﴿لَوْ يَسْأَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَيْسَاءَهُمْ بِالْخَيْرِ لَغَيَّبُ عَنْهُمْ آلَهُمْ قَدْ أُنْمِطُوا لِلْإِنسَانِ الْأَشَدَّ لَقِيْلًا﴾ [يونس : ١١] .

والمعنى : لو يعجل الله إجابة دعاء الناس بالشر ، كما يعجل لهم استجابة الدعاء بالخير ، لهلكوا وما أمهلوا طرفة عين ، ولكن الله سبحانه من رحمته بهم ، أنه لا يعجل لهم الاستجابة بالشر .

قال مجاهد : هو دعاء الرجل على نفسه ، أو ولده حين يغضب عليه فيقول : اللهم أهلكه ، اللهم دمه ، اللهم لا تبارك فيه ، فلو استجاب الله دعاءه ، فأهلكه وأمانه ، لبقى الإنسان طول عمره متحسراً على ما بدر منه ، ولذلك لا يستجيب الله الدعاء لهذا المتعجل ، رحمة به ، كما لا يهلك الكافر شفقة عليه ، ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿قَدْ أُنْمِطُوا لِلْإِنسَانِ الْأَشَدَّ لَقِيْلًا﴾ أي نترك الكفرة المجرمين ، ونمهلهم دون عقوبة ، نتركهم في نمرادهم وعثرهم ، يترددون ويتحيرون ، لتلزمهم الحجة ، إذ لا صلاح ولا حكمة ، في إهلاكهم عاجلاً .

والتمثيل جاء في حذف (أداة التشبيه) أي مثل استعجالهم بالخير ، أو كاستعجالهم بالخير ، فحذفت من الآية الأداة مبالغة .

وشئة تصوير آخر لطبيعة البشر ، وهي الملل والضجر ، يذكر ربه عند الشدة ، وينساه عند الرخاء ، يقول جل ثناؤه : ﴿وَإِنَّا لِلْإِنسَانِ أَكْثَرُ دَعَاً لِيَجْهِيَءَ أَوَّ

فَأَيْدِيَّ أَوْ قَدَمَيْ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُشَّةَ رَأْسِهِ كَانُوا لَهُ يَدْعُونَ إِلَى مَسْئَتِهِ... ﴿[يونس: ١٢]

وهو تصوير بديع لغفلة الإنسان، وتناسيه نعمة الله عليه، فهو يتضرع إلى الله وقت الشدة، فإذا كشف عنه الضر، نسي ربه كما نسي كربه!!

اللجوء إلى الله عند الشدائد والكروب

٢ - في القرآن الكريم صور بديعة، من صور (التشبيه التمثيلي) وهو الذي يكون فيه التشبيه متنوعاً، ليس من وجه واحد، إنما هو من وجوه متعددة ومننوعة، استمع معي إلى هذه الآيات البينات. وهي تفيض روعةً، وجلالاً، وإبداعاً ﴿هُوَ الَّذِي يَنْفَخُ فِي الْقُرُونِ وَتَنفَخُ فِيهَا إِذَا كُنْتَ فِي الْعَلَمِ وَخَرَّتْ بِهِ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَقُرْحُوا بِهَا خِلَابَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَمِمَّا تَنْفَخُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَمَ أَنْتُمْ أَيْدِيَّ يَهُدَى دَعَا اللَّهَ يُخَيِّرُ لَهُ الْبَرِّ لَيْسَ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿[يونس: ٢٢].

ما أعجب أمر البشر!! إنهم عند اشتداد الكروب والخطوب يعرفون ربهم، ويتضرعون إليه!! يلجأون إليه في الشدة، ويكفرون به في الرخاء، وقد ضرب تعالى مثلاً لبغيهم وعدوانهم، فمثل لهم بأناس ركبوا البحر، فهاج بهم واضطرب، وشعروا بالخطر، يخدق بهم من كل جانب، فهم في هذه الحالة يعرفون ربهم، ينسئون الأوثان، ويدعون الرحمن، لكشف الضر عنهم، ولا يخطر عليهم في ذلك الحين، أحد من الآلهة المزعومة التي كانوا يعبدونها، حتى إذا ما نجاهم الله من الغرق، عادوا إلى الكفر والضلال، وقبح الأعمال.

والتعبير بقوله ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَمِمَّا تَنْفَخُ فِي كُلِّ مَكَانٍ﴾ تعبیر یوحى بشدة الهول الذي أصابهم، بعد أن كانوا آمنين مطمئنين، يلهون ويفرحون، حتى إذا جاءتهم عواصف شديدة، وأحاطت بهم أمواج البحار، من كل جانب، وأيقنوا بالهلاك، هناك يتذكرون الله، ويلجأون إليه، مخلصين له الدين، قائلين: ﴿لَيْسَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي لئن أنقذتنا من هذا الكرب، وخلصتنا من هذه الشدائد والأحوال، فسوف نعبدك وحدك، ونخلص لك الطاعة والعبادة، ﴿فَلَمَّا أَنْقَذَهُمْ مِنْ الْغَرَقِ وَالْهَلَاكِ، عَادُوا إِلَى الْكُفْرِ وَالْعَصْيَانِ، وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

ثم يأتي دور الوعيد والتهديد، فيقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مَا

أَنْفُسَكُمْ نَسَخَ الْعَذَابَ الَّذِي نَزَّلْنَا بِكُمْ فَأَمْرًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ [يونس: ٢٣] أي يا أيها البشر، وبإلّ بغيكم عائد عليكم، لا يجني ثمرته إلا أنتم، تتمتعون في هذه الدنيا بالشهوات الفانية، التي تعقبها الحسرات الباقية، فالبغي نهايته وخيمة، والظلم ظلمات يوم القيامة.

وردت الآية على طريقة (التشبيه التمثيلي) لأن وجه التمثيل يكون فيه متنوعاً ومتعددًا، مثل لهم بركاب سفينة، ومثل بالريح الهينة اللينة التي تسيبها، ثم بالريح العاصفة التي تصارعها، وبأمواج البحار المتلاطمة، وكل هذه الوجوه المتعددة من (التشبيه التمثيلي) وهي صورة راتعة من صور البيان، فالآية تمثيل لطبيعة الإنسان، لا يرجع إلى ربه، إلا وقت الكرب والعسر، فإذا نجا من الضيق، وكشف عنه الكرب والبلاء، نسي ربه، ورجع إلى الكفر والعصيان.

التعقيل للدنيا ونعيمها الزائل

٣ - الإنسان الجاهل يظن أن سعادته، في التمتع بنعيم الدنيا، وجمع المال فيها، للنيل من لذائذها وشهواتها، ولذلك يُجهد نفسه في جمع حطامها، ويكدّ ويتعب لينال أكبر قسط من متاعها، وينسى الآخرة.

ولقد ضرب تعالى مثلاً للحياة الدنيا، وسرعة فنائها وزوالها، وصورها بأنها سراب خادع، فقال تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَزْهَقَ مِنَ السَّمَاءِ وَخَلَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ كَمَثَلِ غَزَاةٍ دُفِّقَتْ عَلَيْهِمْ فَفُتَّتْ عَلَيْهِمْ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لِيَوْمَئِذٍ فِي آفَاقٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤] فالآية الكريمة تصويرٌ بديعٌ دقيق، لهذه الحياة الدنيا، التي يتخدع بها الكثيرون، فيظنون أنها دار الإقامة، ودار السعادة، وما دروا أنها ممرٌ، وليست بدار مقر.

ولنتصور هذا التمثيل البديع، من خلال هذه الآية الكريمة، لقد مثل لهذه الحياة الدنيا، التي يفتر بها الناس، بمثل بديع، مثل مطر أنزله الله من السماء، فنبتت به أنواع من الأزهار والنباتات، واختلط نبات الأرض ببعضه ببعض، بالوانٍ وأشكالٍ شتى، ممّا يأكله الناس من أنواع الحبوب والبقول، والفواكه والثمار، ومما تأكله البهائم من الكلال والمرعى، والطين والشعير.

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُومَهَا وَازْهَيْتَ﴾ تصويرٌ رائعٌ في غاية

الإبداع والجمال، تمثيل لها بالعروس، إذا تزينت بالحلي والثياب، فلبست أفخر الملابس، ونجملت بأبهى الحُلل، فإنها في هذه الصورة تزيد في الفسنة والإغراء، كذلك الدنيا تخدع، ثم تصرع، فإذا نزل عليها المطر، تزينت الأرض، بالأزهار، والورود، والثمار، ثم جاء أمر الله لها بالهلاك والدمار، فلا ينبغي للعاقل أن يشغل بها، وينسى آخرته وسعادته.

وقوله تعالى: ﴿ تَحَكَّنْتَهَا حَيْبًا كَدَلْتُمْ نَعْمَ بِالْآثَرِ ﴾ أي فجعلناها كالزروع المحصود بالمناجل، الذي يبين واندرس، فصارت خراباً يباباً، بعد أن كانت زاهية ناضرة، كأنها لم تكن عامرة قبل ذلك.

ثم ختم الآية ببيان الغرض من هذا التشبيه والتمثيل، فقال عز شأنه: ﴿ كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْتَكَرُونَ ﴾ أي مثل ما يثنا في هذا المثل الرائع، للحياة الدنيا ونعيمها الفاني، كذلك نوضح الأمثال، ونفضل العبر، لقوم يتفكرون ويتدبرون في نهاية الحياة، وهذا التمثيل الفائق الرائع، صورة من صور الفن البياني البديع، الذي نصوره لنا الآية الكريمة، وهو من نوع (الاستعارة التمثيلية) وما أبدعه وأروعه من تمثيل!!

التمثيل للجنة بالدار السالمة من الأحزان والأكدار

٤ - وبعد الحديث عن دار الفناء، التي صورها القرآن بذلك التصوير البديع الرائع، جاءت السورة تتحدث عن دار البقاء والخلود (الجنة) وما أعد الله فيها لعباده المتقين، من أنواع الخيرات والكرامة، والأنس والنعيم، مما لا يخطر على بال، مع النظر إلى وجه الله الكريم، وهو أمر زائد على النعيم المادي في الجنة، وسميت الجنة (دار السلام) لأن من يدخلها يسلم فيها من الأحزان والأكدار، والأمراض والأسقام، فليس فيها تعب ولا نضيب، ولا هم ولا غم يقول تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَهِيَ دَارُ نِقَاتٍ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥].

أي يدعو عباده إلى دار السلام، دار السعادة والهناء، ولا يستحق التكريم في دار السلام، إلا من أسلم وجهه، وقلبه، وعقله، وجميع جوارحه لله عز وجل، ودخل في دين الإسلام، وللمجانسة اللطيفة بين «الإسلام» و«دار السلام»، سميت الجنة بهذا الاسم الكريم (دار السلام)! وقد جاء التمثيل للدار بالإسلام، في حديث بديع من روائع البيان النبوي، حيث يقول ﷺ: «مَثَلُ مَا جِئْتُ

به، كمثل سيد - يعني ملك - بنى داراً، ثم صنع مأذبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي، دخل الدار، وأكل من المأذبة، ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي، لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأذبة. قاله: هو السيد - يعني الملك - والدار: الإسلام، والمأذبة: الجنة، والداعي: محمد ﷺ.

ثم انظر الجناس اللطيف في قوله سبحانه بعدها: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَسْنَا وَرِيَاةً وَلَا زُفْرَةً وَلَا زُفْرَةً مَرَّةً وَلَا إِلَهَ إِلَّا إِلَهُكَ أَحْسَنَ لَسْنَا مِمَّنْ فِيهَا خَلَّوْنَ﴾ [يونس: ٢٦].
فبين (الحسنى) و(أحسنوا) جناس لطيف يسمى (جناس الاشتقاق) والمراد بالحسنى: الجنة، وأما الزيادة فقد جاء تفسيرها عن رسول الله ﷺ، أن المراد بها: النظر إلى وجه الله الكريم، في حديث رواه مسلم والترمذي، ولفظه: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزه لكم!! فيقولون وما هو؟ ألم يُبَيِّنْ وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجبرنا من النار؟ فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى وجهه الكريم، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً، أحب إليهم من النظر إليه) (١) ثم تلا الآية الكريمة: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَسْنَا... وَرِيَاةً﴾ الآية.

التعتيل لوجوه الكفار بظلام الليل الدامس

• - وبمقابلة الحديث عن السعداء أهل الجنة، يأتي الحديث عن الأشقياء أهل النار، فيصورهم القرآن الكريم، بهذه الصورة الفظيعة الشنيعة، من اسوداد الوجوه، وما يعلوها من القفرة والغبرة، والذل والهوان فيقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا الشُّبُهَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَسْتَلِفُهَا وَرَهْمُهُمْ ذُلٌّ مَّا لَمْ يَنْفَكُوا مِنْهَا﴾ [يونس: ٢٧].

أي تغشاهم الذلة والمهانة، وليس لهم من يعصمهم من عذاب الله، ثم انظر وتمعن هذا التشبيه الرائع ﴿كَأَنَّمَا أَفْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧] أي كأنما ألبست وجوههم، قطعاً من ظلام الليل الدامس، من شدة الخزي والهوان، ومن قرط السواد والظلمة، شبه وجوههم في ظلامها، وبؤسها، وحسرتها، بالليل المظلم، الذي تكاثفت فيه الظلمات من كل جانب، ثم هم بعد ذلك مخلدون في نار الجحيم، وهو تشبيه رائع جميل، مناسب لجرائم هؤلاء الأشقياء المعجremen.

(١) رواه البيهقي، وابن جرير الطبري، والسيوطي في الدر المنثور.

(٢) رواه مسلم رقم (٨١) والترمذي رقم (٢٥٥٥).

إذا نزل العذاب، فسوف تكون النجاة للرسول والمؤمنين، وذلك حق لازم علينا، من غير شك ولا ارتياب، فمدار النجاة من العذاب، هو الإيمان بالله ورسوله، فقد نَصَرَ اللَّهُ إبراهيمَ على (النمرود) ونَصَرَ موسى على (فرعون) الطاغية الجبار، ونَصَرَ عيسى على أعدائه (اليهود) ونَصَرَ خاتم المرسلين على (كفار مكة) العتاة الضالين، وهكذا لم يتخلف وغد الله أبداً عن عباده، لأنها (سنة كونية) مستمرة، والله لا يخلف الميعاد.



الإبداع البياني في سورة هود

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ نَجْمَةً مِّنْ عِبَادِهِمُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٢٨] أي خفيث عليكم، من العمى ضد البصر، وفي الآية (استعارة تمثيلية) شبه الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه، بمن سلك مفازة لا يعرف طرقها ومسالكها، وكان دليله رجلاً أعمى، كيف يهتدي إلى طريقه؟ يقال: (حجة عمياء) لمن خفي عليه وجهها، و(حجة مبصرة) للواضحة الجلية، وهي من بدیع (الاستعارة التمثيلية). ١

٢ - قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ اتَّبَعْتُمْ مَقْلِي يَجْرِمِ إِلَّآ نَارَهُ يَسْأَلُ عَذَابِيُون﴾ [هود: ٢٥] في الآية (مجاز بالحذف) أي فعلني عقوبة إجرامي، وجاءت الآية بـ(إن) الدالة على الشك، لبيان أن الأمر على سبيل القرض والتقدير ﴿قُلْ إِنِ اتَّبَعْتُمْ﴾ أي لو افترضنا أنني افتريت هذا القرآن، فعلني عقوبة جرمي وبوزري، بخلاف إجرامهم، فإنه ثابت ومحقق، ولهذا قال: ﴿وَأَنذِرْ نَجْمَةً مِّنْ عِبَادِهِمُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فنسب الإجرام إليهم، دون نفسه.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ أَفْئِدَةً يَأْمُرُهَا وَوَحْيًا﴾ [هود: ٣٧] الأعين (كناية لطيفة) عن الحفظ والرعاية، وفي الآية (استعارة بديعة) أي اصنع السفينة بحفظنا ورعايتنا، وبتعليمنا لك، يقال للمسافر: ضجبتك عين الله، أي رعاية الله وحفظه، ومثلها قوله تعالى: ﴿غَرِبَ يَأْنِي﴾ أي تسير بحفظنا ورعايتنا، ولا يمكن لعامل أن يفهم أن السفينة تسير في عين الله، فالآية واردة بطريق (الاستعارة التمثيلية) البديعة. ١

٤ - قوله تعالى: ﴿أَسْقِمْ وَأَرِيكُمْ نُمُودًا إِنَّهُ يُرْسِلُ السَّكَّةَ عَلَيْكُمْ يَذَرَارًا﴾ [هود: ٥٢] أطلق ﴿السَّكَّةَ﴾ وأراد ماء المطر، ففي الآية (مجاز مرسل) علاقته المحلية، لأن المطر ينزل من السماء، ولفظ ﴿يَذَرَارًا﴾ للمبالغة، أي كثير الذر والقطر، يُقال: سحب مدرار، ومطر يذرار، إذا تتابع منه المطر، وهو إغراء لهم بالتوبة، والإنابة إلى الله، كقوله تعالى: ﴿فَلَنَنْصِفَنَّكُمْ وَأَرِيكُمْ نُمُودًا﴾ [نوح: ١٠، ١١].

٥ - قوله تعالى: ﴿ثَمَّ يَتَأْتِيَ إِلَّا هُوَ إِنْ يَأْصِيصُوا بِإِنِّ يَرْبِي عَلَى صَرْبٍ مُّتَنَبِّئِينَ﴾ [هود: ٥٦] (استعارة تمثيلية) بديعة، شية الخلق وهم في قبضته سبحانه ومُلْكِهِ، وتحت قهره وسلطانه، بالمالك الذي يملك العبد ويأخذ بناصيته، وهي منبت الشعر من مقدم الرأس، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذل والخضوع لآخر، قالوا: ناصية فلان في يد فلان، أي إنه مطيع له، منقاد إليه، كالعبد الذليل، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا عَلَى صَرْبٍ مُّتَنَبِّئِينَ﴾ تمثيل آخر بديع، كمن وقف على الجادة، فحفظها، ودفع عنها قطاع الطريق، ففي الآية (استعارة تمثيلية بديعة) عن كمال العدل عنده سبحانه.

والمعنى: إنه سبحانه على الحق والعدل، لا يقوته ظالم، ولا يضيع عنده من اعتصم به.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ قُودُوا وَلَوْ يَرَى الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَهْلًا لَكُمُ الضَّرَصُ الْعَاتِيَةُ﴾ [هود: ٥٨]

والمعنى: لما جاء أمرنا بهلاكهم، نجينا هوداً، ومن معه من المؤمنين، كثي عن العذاب بـ (أمرنا) لأنه لا ينزل إلا بأمره تعالى، وللتنبية على أن العذاب نازل من الكبير المتعال، وليس من إنسان عاجز قاصر.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لِيَكْذِبْنَ عَنْهُمْ وَأَعْرَضُوا عَنْ رُسُلِهِمْ﴾ [هود: ٥٩] فيه (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الكل وإرادة البعض) أي عصوا نبئهم (هوداً) وفي الآية تفضيغ لحالهم، ويبان أن من عصى رسولاً، فكانما عصى جميع المرسلين، لأنهم اتفقوا على التوحيد.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لِيَكْذِبْنَ عَنْهُمْ وَأَعْرَضُوا عَنْ رُسُلِهِمْ﴾ [هود: ٧٧] التعبير بقوله: ﴿وَأَعْرَضُوا عَنْ رُسُلِهِمْ﴾ كناية لطيفة عن شدة الانقباض، أي ضاقت صدورهم بمجيئهم، خوفاً على ضيوفه، لعجزه عن مدافعة الأشرار عنهم، ولهذا صرح بقوله: ﴿فَمَدَّ يَدَهُمْ غِيَبَاتٍ﴾ [هود: ٧٧] أي شديد الكرب والبلاء.

قال علماء اللغة: الدَّرْع بمعنى الطاقة، وقد جعل ضيق الدرع كناية عن قلة الوسع والطاقة، وشدة الأمر، اهـ تفسير الشوكاني ٥٢٤/٢.

٩ - قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي بَيْنَ يَدَيْكُمْ قَدَرٌ مِّمَّا يَدْعُونَ لَآتَىٰ إِلَهُي شَدِيدَ الْعِقَابِ﴾ [هود: ٨٠] في الآية (استعارة بديعة) قصذ بالركن الشديد: قومه وعشيرته. جعلهم كالركن له،

لأن الإنسان يلجأ عند اشتداد الخطب، إلى قبيلته وعشيرته، كما يعتمد على ركن البناء الرصين، وجواب (لَوْ) محذوف تقديره: لفعلتُ بكم ما فعلتُ، وتكَلَّفْتُ بكم تنكيلاً.

قال علماء البيان: حُذِفَ الجوابُ هنا أبلغ، لأنه يؤهم بعظيم العقوبة، وغليظ الثكال، ويَدْعُ النَّفْسَ نَذْهَبَ إلى تَخِيلِ أضخم أنواع العقاب، وفي الحديث الشريف: «رَحِمَ اللَّهُ أَخِي لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد» رواه البخاري، يقصد الرسولُ جانبَ اللَّهِ عِزُّ وجَلُّ، فاللَّهُ أعظم ركن، لمن لجأ إليه واعتمد عليه.

١٠ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ عَنَّا مَذَاجَ يَوْمٍ نُحْمِلُ﴾ [هود: ٨٤] أسند الإحاطة إلى (اليوم) واليوم ليس بجسم حتى يحيط بالإنسان، فهو إسناد للزمان، باعتبار أن العذاب يكون فيه، ففي الآية (مجاز مرسل) أي أخاف عليكم عذاب يوم هائل، لا يُفَلَّتُ منه أحد، وهو (يوم القيامة) الذي لا ينجو منه كافراً، ولا فاجر.

١١ - قوله تعالى: ﴿الْقَطْرِ أَمْرٌ عَلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِ الْخَلْقِ وَرَأَى كَمْ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ٩٢] في الآية (استعارة تمثيلية) مثل لإعراضهم عن أمر الله، بالشيء الذي يُلْقَى وراء الظهر، ولا يُبَالِي به الإنسان، تقول العرب: جعل الأمر وراء ظهره، إذا لم يكثر به، ولم يهتم بشأنه، والمعنى: جعلتم ريعكم خلف أظهركم، كالشيء المنبذ، لا تعظمونه ولا تطيعونه!!

١٢ - قوله تعالى: ﴿بَدَأَ تَزْمُومَ يَوْمَ الْمَيْمَةِ فَأَرْسَلْنَا زُلْفًا وَيَسَّرَ الْوَرْدَ﴾ [هود: ٩٨] في الآية (استعارة مكثية) شبه تعالى فرعوناً بالوارد، الذي يتقدم قومه، ليدلهم على الماء، وشبه الزلْفَ بالنار بالماء، الذي يطلبه الإنسان ليدفع عنه حرَّ العطش، وحذف المشبه به، وهو (الماء) ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورود (أَرْسَلْنَا) لأن الورود لا يكون إلا للماء، ولكنه هنا (نار الجحيم) ولهذا قال: ﴿وَيَسَّرَ الْوَرْدَ الْمَرْبُودَ﴾ وفيه إهانة لهم وتحقير، فالماء لإذهاب العطش، والنار لتقطع الأكباد، وإلهاب العطش.

١٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَنصَبُوا فِي هَذِهِ نَسْأَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَّرَ الْوَرْدَ﴾ [هود: ٩٩] الزَّفْدُ: العون والمُدَدُ، وفي الآية (استعارة تهكمية) حيث شبه اللعنة التي تلحقهم يوم القيامة، بالعون والمُدَدِ، ويسر هذا العون لعتهم في الدارين، واللعنة في الدنيا هي رَفْدُ للعذاب ومدد له.

قال الزجاج: كلُّ شيءٍ جعلته غَوْناً لشيءٍ ومُذْداً له، فقد زُفِّدته، ومعنى الآية: لحقَّتْهم لعنة الدنيا العاجلة، وأُزِفِدُوا بِلَعْنَةٍ أُخْرَى يوم القيامة، ويشن العون والعطاء لعنة الدارين.

١٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا مِنْ أُمَّةٍ أَلْقَيْنَا نَفْسَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِدٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠] المراد بالقرى: أهل القرى المهلكة، فهو على (حذف مضاف) كما في الآية بعدها ﴿وَكُنْتُمْ أَكْذَرُ مِنْ أَهْلِ الْاَلَمِ الْأَقْرَبِ﴾ [هود: ١٠٢] يعني أهلَك أهلها، ففيهما (مجاز مرسل) أطلق (المحل وأراد الحال).

والمعنى: ذلك من أخبار البلاد، التي أهلكتنا أهلها، منها ما هو عامرٌ قد هلك أهلُه، وبقي بنيانُه، ومنها ما هو خراب يَبْتَاب، قد انْدَثَر فصار كالزرع المحصود.

١٥ - قوله تعالى: ﴿حَلِيلُكُمْ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ إِنَّهَا لَشَأْنٌ يُرْتَكَبُ﴾ [هود: ١٠٧] خلود أهل النار مقطوعٌ به، بالنصوص الثابتة في الكتاب والسنة، وقوله سبحانه: ﴿دَامَتِ السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ﴾ معناه أنهم ماكثون في النار أبداً على الدوام والاستمرار، ما دامت السموات والأرض، والآية إخبار عن التأييد والمبالغة.

قال الطبري: إن العرب إذا أرادت أن تصف شيئاً بالدوام أبداً، قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، بمعنى أنه دائم أبداً، فحاطبهم الله جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم. اهـ.

وأما الاستثناء ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ فهو في العصاة من المؤمنين، فإنهم يخرجون من النار، بشفاعة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.



الإبداع التمثيلي في سورة هود

تمثيل العداوة الشديدة من الكفار للنبي ﷺ

١ - التمثيل الأول: مثل تعالى لمبلغ العداوة، التي يحملها الكفار في صدورهم، للنبي ﷺ ودعوته ورسالته، بهذا التمثيل الفائق الرائع، بقوله سبحانه: ﴿أَلَا يَنْتَظِرُونَ سَاءَ وَرَثَةٍ يَنْتَظِرُونَ أَنْهُمْ يُنْزَلُونَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ ذَاتِ الْأُذُنِ ﴿٥﴾ [هود: ٥] (ألا) أداة للتنبيه، أي اتبهوا أيها المؤمنون، فإن المشركين يَظْهَرُونَ صدورهم، على عداوتكم الشديدة، وعداوة نبيكم محمد ﷺ! صُورَهم تعالى بصورة من يبالغ في ثني صدره، ليخفي ما في قلبه، من الحقد والضغينة الشديدة للنبي ﷺ والمؤمنين، يظنون أن هذا يخفي على الله، وهو سبحانه العالم بما يخفون وما يعلنون.

لقد كشفت هذه الآية عن سرائر المشركين، وما انطوت عليه صدورهم من الحقد والعداوة، بتمثيل بديع، وتصوير رائع، شَبَّهت حالتهم بحالة إنسان، يحمل في يديه خنجرًا مسمومًا، أراد أن يخفيه عن عدوه، فأحس ظهره على صدره، إحناة بالغ الشدة، حتى لا يراه أحد، ولكن الله لهم بالمرصاد، يرقبهم ليلاً ونهاراً، ويعلم أحوالهم سرّاً وجهاراً، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿يُنْزَلُونَ﴾ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ذَاتِ الْأُذُنِ ﴿٥﴾.

فالآية الكريمة واردة على (صورة التمثيل) للحقد الدفين، الذي يحمله أعداء الإسلام، لحاتم النبيين والمؤمنين، وهو تمثيل ظاهر الروعة والبيان.

التمثيل بالأعمى والبصير، والاصم والسميع

٢ - التمثيل الثاني: ضرب تعالى في هذه السورة، مثلاً للمؤمن والكافر، والبصير والفاجر، فالمؤمنون الصادقون، جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فهم متممون في جنات الخلد، لا يخرجون منها أبداً، والأشقياء الفُجَّار، منحهم الله السمع والبصر، ولكنهم كانوا ضماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، هم في

دركات الجحيم، لا يُخرجون منها أبداً، فقد استعاضوا عن النعيم، بلظى الجحيم، وآثروا الفانية على الباقية، فما أُنعمهم وأشقاهم!! وقد جاء المثلُ لهم بصورةٍ بديعة، شملت بإيجازها كلاً من أهل الجنة، وأهل السعير، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْوَدِ وَالْبَیْرِ وَالشَّيْخِ قَدْ بَرَّيَانِ مَثَلًا فَلَا تُدْكِرُونَ﴾ [هود: ٢٤] أي مثلُ الفريقين: (الضالين) و(المهتدين) كمثل من جَمَعَ بين العمى والضُمَم، وهذا مثلُ الكافر، ومن جمع بين السمع والبصر، وهذا مثلُ المؤمن، هل يستويان في الوصف والبيان؟ لا يستويان أبداً، فليس حالُ من يتخبط في ظلمات الجهالة والضلالة، كحال من يبصر الحق، ويسمعه، ويقبله، ويستضيء بضياءه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿فَلَا تُدْكِرُونَ﴾ أي أفلا تتأملون في هذا المثل البديع؟ وتفرقون بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال؟

شبه تعالى الكافر بالجامع بين (العمى والضُمَم) وشبه المؤمن بالجامع بين (السمع والبصر) ثم فيه من المحسنات البديعية، ما يُسمى باللفظ والنشر المرئب، حيث أعاد لفظ (الأعمى والأصم) على الكافر، ولفظ (البصير والسميع) على المؤمن، ثم فيه (الطباق) بين الأعمى، والبصير، وكلاهما من المحسنات البديعية، ومعنى (الطباق) أن يأتي بالشيء وضده، فالعمى ضد البصر، والضُمَم ضد السمع، نسأله تعالى أن لا يُعمي بصائرنا.

التمثيل للأمواج العاتية بالجبال

٣ - التمثيل الثالث: تحدثت السورة الكريمة عن سفينة نوح، وصَفها تعالى بوصف بالغ الشدة والهول، في قوله سبحانه: ﴿رَبِّهِمْ يَهْمُرُ فِي مَوَاجِ كَأَجْكَالٍ وَنَادَى نُوحٌ نَحْمُ وَكَفَّارَاتٍ لِّمَنَافِعِهِمْ يَنْقُذُكَ مِمَّا وُلَا تُفَكِّرُ فَعَالِ الْكَيْدِ﴾ [هود: ٤٢] الكاف للتمثيل والتشبيه (كالجبال) وهذا الوصف يصور لنا مبلغ الهول الشديد، الذي كاد يُغرق السفينة، بأمرجه العاتية، كأن كل موجة كالجبل، في تراكمها وارتفاعها، والأمواج العظيمة تحدث عند حصول الرياح الشديدة، ولتصور مبلغ الهول الذي بلغ في الطبيعة، فالمركب - السفينة - صغير، والأمواج هائلة عاتية، والرياح شديدة، وكأن السفينة ريشة في مهب الهواء، فكيف يكون حال رُكَّابها؟ ونوح الأب الرحيم، يبعث بالتداء بلو النداء: ﴿يَسْمَعْ أَكْثَرُ مِمَّا وُلَا تُفَكِّرُ﴾ وابنه المغرور يأبى إجابة الدعاء ﴿قَالَ سَتَدِينُ إِنِّي خَشِيتُ يَمِينَهُ﴾ [هود: ٤٣] أي سأصعد إلى أعلى جبل، يحفظني من الغرق ﴿قَالَ لَا غَايَةَ لَّيَوْمٍ مِنْ أَمْرِ

أَفَمِنْ إِلَّا مَنِ تَبِعَ ﴿٤٣﴾ أي لا تاجي اليوم من عذاب الله، إلا من رحمه الله، فتجاه من الطوفان... وما هي إلا لحظات خاطفة ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْنَا الْفَوْزَ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرِبِينَ﴾ [هود: ٤٣] أي حال بين نوح وابنه أمواج البحر، فكان ابنه الكافر (كتمان) غارقاً بالطوفان. ! وهكذا يُجسم الموقف في سرعة خاطفة، وتمثيل رهيب يأخذ بالأنفاس، ويتم أمر الله بإغراق المكذبين.

التمثيل في التعبير القرآني المعجز

وفي قصة سفينة نوح، وحادثة الطوفان، الذي عم أنحاء الأرض، جاء التعبير القرآني المعجز، بأسلوب بلاغي يعجز عنه جميع البشر، في قوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ اتْلِي مَا فِيكَ وَالَسَحَابُ أَقْبِلِي وَانْصُرِي الْأُمَمَ وَأَنْصُرِي الْغُرَبَىٰ وَقِيلَ لِلْمُؤْمِنِينَ اتْلُوا﴾ [هود: ٤٤].

هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايته، ففيها (الاستعارة)، والمجاز، والتمثيل، والإيجاز، وأنواع من علم البديع)، وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها صاحب تفسير البحر المحيط، فقال رحمه الله: (وفي هذه الآية أكثر من عشرين نوعاً من البديع، منها المناسبة بين قوله ﴿اتْلِي﴾ و ﴿اتْلِي﴾ ويسمى بالجناس غير التام، والطباق بين ﴿اتْلِي﴾ و ﴿اتْلِي﴾ والمجاز في قوله: ﴿وَنَصْرِي﴾ المراد به مطر السماء، والاستعارة في قوله: ﴿اتْلِي مَا فِيكَ﴾ فإن البلع حقيقة إدخال الطعام في الحلق، وهذا خاص بالإنسان والحيوان، وهو هنا (استعارة) أي انشقي وابتلمي ماءك ﴿وَنَصْرِي أَقْبِلِي﴾ يعني كفي عن المطر، وهي أيضاً (استعارة)، و(الكناية) في قوله: ﴿وَنَصْرِي الْمَاءَ﴾ كنى به عن ذهاب الماء في أغوار الأرض، و(التمثيل) في قوله: ﴿وَنَصْرِي الْأُمَمَ﴾ عبر به عن إهلاك الهالكين، ونجاة الناجين، و(الإرداف) في قوله: ﴿وَنَصْرِي عَلَى الْغُرَبَىٰ﴾ قصداً للمبالغة في (التمكين)، و(الإيجاز) وهو ذكر القصة باللفظ القصير، مستوعباً للمعاني الكثيرة، وذكر رحمه الله وجوهاً أخرى، فارجع إليها في تفسير البحر المحيط ٥/٢٤٧).

وقد قال ابن المقفع - وهو من أساطين الأدباء والفصحاء -: أشهد أن مثل هذا الكلام لا يستطيعه أحد من البشر، ولا أن يأتي بمثله^١.

وقال ابن أبي الإصبع: وما رأيث ولا زوئث في الكلام المنثور، والشعر

(١) انظر حقوة التناسير ١٨/٢ والتفسير الواضح الميسر صفحة (٥٤٨).

الموزون، كآية من كتاب الله تعالى، استخرجت منها واحداً وعشرين ضرباً من البديع، وعدد هذه الآية سبع عشرة لفظة، وتفصيل ما جاء فيها من البديع: (المناسبة الثامنة) في ابلعي، وأقلعي، و(المطابقة اللفظية) في ذكر السماء والأرض، و(الاستعارة) في ابلعي ماءك، و(المجاز) في قوله يا سماء، فإن المراد بها مطر السماء، و(الإشارة) في قوله ﴿وَمِمَّا آتَانَا﴾ فإنه تعالى عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة، لأن الماء لا يتغيض حتى يُقْلِع مطر السماء... وذكر بقية الأنواع مع شواهدنا^(١).

التمثيل بالأخذ بناصية الخلائق

٤ - التمثيل الرابع: ورد في السورة الكريمة التمثيل الرائع للملك العظيم لجميع الخلائق، فالله جلّ جلاله مالك الكون، وهو سبحانه خالقها، ومالكها، وهو المتصرف فيها كيفما شاء، ولستمع إلى قول نبي الله (هود) عليه السلام، وقد هدده وتوعده قومه الكفرة، عبدة الأوثان، فقال لهم في ثبات وإيمان: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ عَلَى اللَّهِ رَحِيماً وَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَبُذِّرْتُ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٥٦] الأخذ بالناصية: عبارة عن القهر والغلبة، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع، قالوا: ناصيته بيد فلان، أي إنه مطيع له، خاضع له كالعبد الذليل، وأخذ الله بناصية الخلائق (استعارة تمثيلية) وهي من بدائع أنواع الاستعارة.

والمعنى: ما من أحد من الخلق، إلا هو في قبضته تعالى، وتحت قهره وسلطانه، يصرفه على ما يريد، والغرض من هذا الكلام: الدلالة على عظمته تعالى وجلاله، وكبريائه، وسلطانه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ عَلَى اللَّهِ رَحِيماً وَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَبُذِّرْتُ إِلَيْهِ﴾ تكملة للتمثيل، كمن وقف على الجادة، فحفظ المازين، ودفع قطاع الطريق عنهم، أي إنه سبحانه عادل في حكمه، حافظ لعباده، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده من التجا إليه.

التمثيل للمسارعة نحو الفجور

٥ - التمثيل الخامس: وفي قصة قوم لوط عليه السلام، يستوقفنا هذا التعبير المعجز البليغ، في تصوير هؤلاء السفهاء من قومه، وهم يسهون لطلب الفاحشة

(١) انظر تنمة هذا الإبداع في الآية الكريمة في كتاب (معجم البلاغة العربية) الدكتور بدوي طيانة ص ٦٤.

بالضيوف؛ كأنهم في ميدان سباق، يدفع بعضهم بعضاً، وكأن هذه القذارة (اللوامة) غنيمة، يريد كل واحد اقتناصها، ولنتصور هذا التمثيل الذي مثل به القرآن سفاهتهم وفجورهم ﴿وَمَا تَنْهَوْنَهُمْ عَنْ يَتْرَعُونَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ قَالَ يُتَقَوَّرُ هَؤُلَاءِ بِأَنْ هُوَ أَطْعَمَهُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْشَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُ يَكُونُ رَحِيمًا رَهِيمًا﴾ [هود: ٧٨].

الإنسان الفاضل السوي، يسرع نحو الخير والفضيلة، ولكن هؤلاء الأشقياء، لسفاهتهم وفجورهم، يسرعون لطلب القذارة والتجاسة، رغبة نيل الفاحشة بضيوف لوط عليه السلام.

والتمييز بقوله سبحانه: ﴿يَتْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يتركنا أمام هذا المشهد المخزي، مشهد الإنسان الذي يسرع في طلب حاجة تهمة، فهو مندفع نحوها اندفاعاً، يريد أن يصل إلى مطلوبه، وما هو مطلوبه؟ الفجور والاستمتاع (بالشذوذ الجنسي) الذي يأنفه حتى الحيوان، وهو أن يأتي الذكر الذكر، وهذا منتهى القبح والشناعة، فالبغل مثلاً لا يتزو على بغل مثله، إنما يتزو على الأنثى «الأتان» فكيف وصلت بهم القذارة والدناءة، إلى هذه الدرجة من الانحدار البهيمي؟.

وهنا يُلطف بهم نبههم، ويخاطب فيهم مروءتهم وشهائتهم، ولكن دون فائدة ولا جدوى ﴿قَالَ يُتَقَوَّرُ هَؤُلَاءِ بِأَنْ هُوَ أَطْعَمَهُ لَكُمْ﴾ أي هؤلاء بنات البلد، تزوجوا بهن، فذلك أشرف لكم وأطهر، ولم يقصد بقوله (بناتي) أن يقدي ضيوفه ببناته من صلبه، كما قد يفهم البعض، وإنما أرشدهم إلى نساء البلد، أن يتزوجوا بهن، لأن كل نبي كالوالد لأمه، كما يقول الحافظ ابن كثير: (يرشدهم إلى نسايتهم، فإن النبي للامة بمنزلة الوالد، فأرشدتهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة) تفسير ابن كثير.

وماذا كان جواب هؤلاء السفهاء؟ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا تَأْتِي تَأْتِيكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقُولَ مَا نُبَدِّلُ﴾ [هود: ٧٩] أي لقد عرفت غرضنا وهذنا الذي جئنا من أجله - وهو الاستمتاع بالذكر - وليس لنا رغبة ولا حاجة في النساء، فلا تعرض علينا بنات البلدة، وإنك لتعلم مرادنا، وهو هؤلاء الضيوف الجسان!!

صرخوا بغرضهم الخبيث، وهو الفجور بالذكر - قبحهم الله - دون خجل ولا حياء، وهذا منتهى الانحطاط الجنسي الذي وصل إليه القوم!!

ومن المؤسف حقاً، أن تعود البشرية أدراجها، إلى التردّي في (بزرة الرذيلة) والشذوذ الجنسي، فتتخذ بعض البلاد الأوروبية قانوناً يسمح بمقارفة الفذارة الجنسية (اللواط) تحت شعار حقّ الإنسان في ممارسة حريته الشخصية، وكأنّ البشر انقلبوا إلى مجموعة من الكلاب والحمير، يمارسون ما يشتهون، دون التقيد بالضوابط الدينية والأخلاقية. ١

التمثيل بعدم الاكتراث بالشيء

٦ - التمثيل السادس: العرب إذا أرادوا وصف أمر من الأمور بعدم الاهتمام به، يقولون: جعله خلف ظهره، وهو مثل يضرب لمن لم يعبا بشيء، ولم يهتم به، وقد جاء هذا التمثيل في قصة شعيب عليه السلام مع قومه، حين هذّدهم بالقتل ﴿وَلَوْلَا رِفْطُكَ لَرَجَلْتُمْ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرِحَ فَرْثِي أَفَرِحْتُمْ مِنْ أَنِّي وَأُنْعِمْتُمْ ذُنُوبَكُمْ فَأَعْنَتُوا عَلَيْهِمْ فَكَذَّبْتُمْ عَنْ أَصْحَابِ الرَّحْمَنِ فَلَقِيتُمُ اللَّهَ خَلْفَ ظَهْرِكُمْ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٩١، ٩٢] رهط الرجل: قبيلته وعشيرته التي ينتمي إليها، يقول الأشقياء لنبيهم شعيب عليه السلام: لولا عشيرتك وجماعتك لقتلناك رمياً بالحجارة، ولست عندنا بمحترم ولا مكرم!! فيقول لهم شعيب عليه السلام مونخاً ومنكراً عليهم سفاهاتهم: هل عشيرتي وجماعتي، أعزّ عندكم من الله وأكرم؟ أنتركون قتلي من أجل قومي؟ ولا تتركونه إعظاماً لجانب الربّ تبارك وتعالى، الذي أنا نبيّه؟ وجعلتم ربكم خلف ظهوركم كالشيء المنبوذ، لا نعظمونه ولا نطيعونه!! إن ربي قد أحاط علماً بأعمالكم الشريرة، وسيجازيكم عليها أسوأ الجزاء.

قالآية وردت على (التشبيه والتمثيل) لكل أمر مهمل، لا يعتني الإنسان بشأنه، ولا يقيم له وزناً، على طريقة العرب، في قولهم لكل ما لا يُعابأ بأمره: جعل فلان هذا الأمر وراء ظهره، فجاء الحديث عنهم بما يفهمونه ويدركونه.

٧ - التمثيل السابع: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنشَاءِ الْفَرَى نَقَشْتُمْ عَلَيْكُمْ رِثَابَكُمْ بِأَوْتَارٍ وَإِنَّمَا يَأْتِي السُّرْتُ فِي الْغَدَاةِ بِاتِّفَاقٍ﴾ [هود: ١٠٠].

قوله سبحانه: ﴿بِأَوْتَارٍ وَحَصِيدٍ﴾ تشبيه وتمثيلٌ بديع، أي من هذه المدن، ما هو عامرٌ، قد هلك أهله وبقي عمرائه، ومنها ما هو خرابٌ، قد اندثر بأهله، فلم يبق له أثرٌ، كالزراع المحصود... شبه تعالى ما بقي من آثار القرى وجدرانها، بالزراع القائم على ساقه، وشبه ما هلك مع أهله، ولم يبق له أثرٌ، بالزراع المحصود بالمناجل، على طريقة (الاستعارة التمثيلية).

والاستعارة - كما يُعرّفها علماء البلاغة - هي من المجاز اللغوي، وهي في الأصل تشبيه حذف أحد طرفيه، فعلاقتها المشابهة دائماً، كقول الشاعر:

مَتَى يَبْلُغِ الْبُشَيَّانُ يَوْماً تَمَامَهُ إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَنْهِيهِ
شَبِهَتْ حَالُ مَنْ يَرِيدُ لِلْأَمَةِ خَيْراً وَاصِلَهاً، بِحَالِ شَخْصٍ يَبْنِي بِنَاءَ شَامِخاً، وَكُلَّمَا أَوْشَكَ أَنْ يَنْتَهِيَ مِنْهُ، جَاءَ مِنْ يُخْرِجُهُ وَيَنْقُضُهُ حَجَراً حَجَراً، فَمتى يكمل البناء، ويرتفع هذا القصرُ الفخمُ المشيد؟

التمثيل لأصوات أهل جهنم بأصوات الحمير

٨ - التمثيل الثامن: ورد في القرآن الكريم، هذا التمثيل المرعبُ المفزع، لأهل جهنم وهم يشهبون ويزفرون بأصوات منكورة، تشبه أصوات البغال والحمير، يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ يَأْتِي لَا تَنْفَعُكُمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنٍ تَبْهَتُ شَيْئاً وَاسْمِيَّةً تَأْتِي الْيَتِيمَ عُتْقاً مِمَّنْ يَنْتَهِزُ بِهَا زَيْفٌ وَشَيْئاً خَلِيلِيكَ يَهَامُ ذَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّنَا إِذْ يَنْفَعُ مَتَى يَأْتِيهِ﴾ [هود: ١٠٥ - ١٠٧] الزفير: إخراج النفس من الصدر بقوة وشدة، والشهيق: رده، والمراد بهما: الدلالة على شدة الكرب والغم، وتشبيه أصوات أهل النار بأصوات الحمير، فكما أن الحمير لها أصوات منكورة ﴿إِنَّ كَرِ الْأَثْوَبَ لَصَوْتُ لَحِيرٍ﴾ [لقمان: ١٩] كذلك الأشقياء الفجار، لهم أصوات منكورة في جهنم، يحصل منها الزفيرُ والشهيقُ، الذي يشبه أصوات البغال والحمير.

قال قتادة: صرث الكافر في النار كصوت الحمار، أوّله زفير، وآخره شهيق.

وقوله سبحانه: ﴿خَلِيلِيكَ يَهَامُ ذَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا وارذ على معنى (الخلود والتأبید) أي ماكثين في جهنم، على وجه الدوام والاستمرار.

قال الطبري: (من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام على التأبید، قالت: هذا دائم دوام السموات والأرض، وكذلك يقولون: هو باقي ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك التأبید، فخطابهم الله جلّ ثناؤه بما يتعارفونه بينهم) جامع البيان للطبري ١١٧/١٢.



الإبداع البياني في سورة يوسف

- ١ - قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ وَغُلَّ قَبِيضٌ بِدِرْكَابٍ...﴾ [يوسف: ١٨] الدُّم لا يوصف بالصدق أو الكذب، وإنما أطلق (المُضَدَّر) على اسم (الفاعل) للمبالغة، كأنه نفسُ الكذب، وعيَّته، أي بدم كاذب، كما تقول عن الخمر: هذا الرجل، وتقول عن المتمكن في المعرفة: هذا العِلْمُ، على طريق المبالغة.
- ٢ - قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا لَكَ وَفْدًا قَبِيضًا مِنْ ذُرِّيِّ﴾ [يوسف: ٢٥] قوله: ﴿وَأَنشَأْنَا لَكَ﴾ هذا من اختصار القرآن المعجز، الذي يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة.

وتقدير الكلام: تسابقا إلى الباب الخارجي، هي للطلب، وهو للهرب، فأسرعت وراءه لتمنعه عن الخروج، فتعلقت بقميصه - يعني ثوبه - من خلفه، وعزمت أن تجبره على مضاجعتها بالقشر والإكراه، فهزبت منها، وشقت قميصه من الخلف، فاختصر القرآن ذلك كله، بتلك العبارة البليغة ﴿وَأَنشَأْنَا لَكَ﴾.

- ٣ - قوله تعالى: ﴿مَكَامِكَ مَكْرَهُنَّ لِئَتَاكَ إِلَهُهُنَّ فَتَمَثَّلَ لَكُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] في الآية (استعارة تبعية) بديعة، سمى حديثهن (مكرأ) لأنه كان في خفية عنها، كما يخفي الماكر مكره عن عدوه، والمراد سمعت ما يتحدث به نسوة المدينة، طلبتهن وهيات لهن ما يتكشرن عليه، من الوسائد والشمارق، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ وَجْهِنَّ بَكِيَّةٌ﴾ [يوسف: ٣١] في الكلام (إيجاز بالحذف) تقديره: قدمت لهن الطعام، وأنواع الفاكهة، ثم أعطت كل واحدة سكيناً.

- ٤ - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ أُنْفِثَتْ فَمِنْهُمْ جُرْجَنٌ﴾ [يوسف: ٣١] يعني جرحن أيديهن بالسكاكين، لفرط الدهشة المفاجئة، استعار لفظ (القطع) للجراحة، وهي (استعارة لطيفة) والتعبير عن الجرح بالقطع، مما يشير إلى كثرة جراحهن، ومع ذلك لم يشعرن به، لاستغراقهن في الاستمتاع بجمال يوسف الفائق.

- ٥ - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرَهُمَا أَنْفِثُوا نُفُسَهُمَا فَمِنْهُمْ حَزِينٌ﴾ [يوسف: ٣٦]

الخمير لا تُغضَرُ إنما يُغضَرُ العنبُ، ففي الآية (مجاز مرسل) باعتبار ما يكون، أي أعصر عنباً يؤول إلى خمير، وأنقي منه الملك، فالخمير لا تُغضَرُ، إنما يُغضَرُ العنبُ.

٦ - قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَضَلَّتْ سُبُلُنَا لِقَاءَ أُولَئِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ يُخَوِّلُهُمُ الْقِيَمَةَ﴾ [يوسف: ٤٤] هذا من أبلغ أنواع (الاستعارة البديعة) والطفها، فإن الأضغاث جمع ضِفْثٍ، وهو القبضة من الحشيش، المختلط فيها الرطب باليابس، شبه اختلاط الأحلام، وما فيها من المكروه والمحبوب، والشر والخير، باختلاط الحشيش، الذي اختلط فيه أنواع النباتات، ثم أصبح يُضرب مثلاً للرويا الكاذبة، التي يكون فيها أنواع من المراني العجيبة الغريبة، ولهذا يقال: رؤياك أضغاث أحلام.

٧ - قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَتَيْنَا بِسَبْعٍ مَنَاقِبٍ لِّكَ...﴾ [يوسف: ٤٦] هذا الأسلوب يسمى عند علماء البيان (براعة استيهلال) فقد قدم الشاء عليه، قبل السؤال والاستفتاء ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أتى عليه ثناء جميلاً، فوصفه بالصديقية وهي المبالغة في الصدق، ثم قال له: ﴿أَتَيْنَا بِسَبْعٍ مَنَاقِبٍ لِّكَ﴾ طمعاً في إجابة مطلبه الهام، الذي شغل بال ملك مصر.

٨ - قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَأْتِ بِمِثْلِ ذَلِكَ سَعْيًا يَنْفَعُ لَنَا فَنَدْفَعَهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٤٨] في الآية (مجاز عقلي) لأن السنين والأعوام لا تأكل شيئاً، إنما يأكل الناس ما اذخروه فيها، فهو من باب (الإستاد إلى الزمان) كقول الفصحاء: نهار الزاهد صائم، وليلة قائم، أي يصوم النهار، ويقوم الليل.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كُنَّا بِهَا بِالْعِيرِ الَّتِي أَفْلَحْنَا بِهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢] في الآية (مجاز مرسل) علاقته المحلية، أي أسأل أهل القرية، وأهل الإبل، فالآية على (حذف مضاف) أي أهل القرية، لأن القرية لا تُسال عما جرى فيها، والإبل لا تتكلم، وهذا من أظهر البراهين، على الاعتداد بالمجاز، وأنه أصل لفهم أساليب العرب.

١٠ - قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَأْتِيهِ نَفْتًا نَدْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَقًا...﴾ [يوسف: ٨٥] في الآية (إيجاز بالحذف) أصله لا تفتأ بسعنى لا تزال تذكر يوسف تفجعاً عليه، خذفت (لا) لعدم الالتباس، وهو معروف في أساليب العرب.

١١ - قوله تعالى: ﴿يَنْبَغِي أَذْهَبُوا نَحْتُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَجِبِهِ وَلَا تَأْتُوا مِنْ رُوحِ

اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧] في الآية (استعارة لطيفة) استعير (الروح) من نسمات الهواء العليل، للفرج الذي يأتي بعد الكرب، واليسر الذي يأتي بعد العسر، أي لا تقنطوا من رحمة الله، وتنفس الكربة، قال الشاعر:

غَسَى الْكَرْبُ الْيَدِي أَمْسَيْتُ فِيهِ يَكُونُ وَزْءُهُ فَرَجٌ قَرِيبُ

١٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْتَهِ عَنْهُ مِنْ أَجْرٍ﴾ [يوسف: ١٠٤] هو على

«حذف مضاف» أي ما تسألهم على تبليغ القرآن أجراً، ويسمى (الحذف بالإيجاز).

الإبداع التمثيلي في سورة يوسف

تسمية كلام النساء بالمكر تمثيلٌ عجيب

١ - في قصة يوسف عليه السلام مع النسوة، تصويرٌ رائع، وتمثيلٌ عجيب، فقد سُمي تعالى الحديث الذي جرى بينهن في الخفاء بالمكر ﴿فَلَمَّا جَاءَ بِكَرَّهِنَّ إِلَيْنَا أَلْقَيْنَا لَهَا لُكْلاً، وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ يَوْسُفَ بِكِتَابٍ وَأَتَتْهُنَّ أَهْلُهَا﴾ [يوسف: ٣١] لقد انتشر في البلد عشقُ امرأة العزيز ليوسف عليه السلام، وشاع الخير وذاع في أرجاء المدينة، وأخذت ألسنة النساء من الطبقة الراقية - نساء الوزراء والكبراء - تلوک في امرأة العزيز - كبير الوزراء - استهجاناً لها، ولوماً على أمرها العجيب، كيف تعشق سيدة عبداً المملوك؟ أيليق بامرأة من سيدات القصور، من ذوات البزم والجاء والسلطان، أن يتعلق قلبها بعبيد مملوك، هو خادم لها؟ وأن يصل بها الحال من العشق له، أن تُزاوده عن نفسه، وتطلب منه أن يضاجعها؟ وتتوشل إليه لقضاء وطرها؟ وكأنها فقدت عقلها، بتعلقها بهذا العبد المملوك، وهنا موطن اللوم والذم.

لم سُمي الحديث مكرًا؟

ولما كان هذا الحديث بينهن يجري في الخفاء سرًا، دون مجابهة لها، سُمي (مكرًا) كما يخفي الماكز مكره عن عدوه، على طريقة (الاستعارة التمثيلية) والأصل في المعنى: فلما سمعت بحديثهن، وما يتحدثن به في غيبتها - وهذا يشبه المكر - سناه تعالى مكرًا ﴿فَلَمَّا جَاءَ بِكَرَّهِنَّ﴾ أرادت أن تدبر لهن مكيده، فدعتهن إلى قصرها، وأعدت لهن مائدة، فيها أنواع الفواكه والشمار، وهبات لهن مكاناً يجلسن فيه، على الأرائك الوثيرة، والوسائد الناعمة، كعادة النساء المترفات، وأعطت كل واحدةٍ منهن سكيناً لتقشير الفواكه، وكانت قد خبأت يوسف في إحدى غرف القصر، ثم أمرته أن يخرج، فيمرّ بينهن، فلما رأيته بهن لطلعته وذهفن، وجرحن أيديهن بالسكاكين، لفرط الدهشة المفاجئة، وقلن: تنزه الله عن صفات العجز والتقص، فليس هذا من البشر،

وما هو إلا مَلَكٌ من الملائكة، فإن هذا الجمال الفائق، والحُسن الرائع، لا يكاد يوجد في البشر.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَقَلَّمْنَا يُوْسُفَ﴾ [يوسف: ٣١] أي جرحن أيديهن بالسكاكين، فيها (استعارة) لطيفة بديعة، للدلالة على كثرة جراحهن، ومع ذلك لم يشعرن بذلك، لاستغراقهن في الاستمتاع بجماله الفائق، عبر عن الجرح بالقطع، بطريق (الاستعارة) للتنبيه على كثرة الجراح، حيث سألت الدماء على ملابسهن الفاخرة، دون شعور منهن بذلك!

وهنا شعرت امرأة العزيز، أنها انتصرت عليهن، بعد أن أوقعتن في شباك حبه وغرامه، فصرحت بما في نفسها، من لوعة العشق له ﴿قَالَ مَذِلُّكَ الَّذِي أُتِيتُ بِهِ وَقَدْ زُوِّنَ لِي بِهِ وَأَخِي﴾ [يوسف: ٣٢] هنا تعلن بتجحجج، أنها طلبت منه مضاجعتها، وأن يقضي لها شهوتها، ولكنه استعصم يعني أبى إباء شديداً، وامتنع عن ذلك، تقول منتصرة عليهن: هذا هو العبدُ الذي لمتني في محبته، فانظرون ماذا فعل بكن، من نظرة واحدة، حتى سألت دماؤكن من الجراحة، فكيف أنا وهو يعيش معي في القصر؟ وهذا كله من كيد النساء، وصدق الله العظيم، حيث يقول عن الشيطان: ﴿إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] ويقول عن النساء: ﴿إِنْ كَيْدُهُنَّ أَزْوَاجُهُ﴾ [يوسف: ٢٨] ومن هنا ندرك سر تكرار لفظ (الكيد) و(المكر) في هذه السورة مرات عديدة ﴿إِنْ كَيْدُهُنَّ أَزْوَاجُهُ﴾ [يوسف: ٢٨] ﴿وَالْأَنبِيَاءُ عَلَى كَيْدِهِمْ﴾ [يوسف: ٣٣] ﴿إِنْ رِيقُ الْكَافِرِينَ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: ٥٠] ليتبها القرآن الكريم إلى خطر فتنة النساء، فهن - على ضعفهن - أخطر ما يجابهه الرجال من فتنة، في هذه الحياة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجال من النساء».

وإنما جاء الجمالُ الفائق في الآية، من (الاستعارة التمثيلية) حيث عبر عن الحديث الذي جرى بين النساء (بالمكر) تشبيهاً له بمكر الماكر، وخداع المخادع ﴿وَمَا تَحْتَسَرُّهُنَّ﴾ أي حديثهن، وشتان ما بين اللفظين من تعبير وإبداع!

التمثيل للرؤيا باليقرات السمان، واليقرات الهزيلة

٢ - ومما ورد في هذه السورة - سورة يوسف - التمثيل لرؤيا الملك

بالبقرات السمان والعجاف، فقد جاء التمثيل لها بسنوات الرخاء والجذب، وهي رؤيا منامية، ولكنها منظوية على حقيقة واقعية، ستصيب البلاد والعباد، فقد رأى ملك مصر في منامه رؤيا عجيبة غريبة أفرغته، فجنى السحرة والكهنة والمنجمين، وسألهم عن تأويلها ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سَابِغَاتٍ بِخَضِرٍ قَلْبُهُنَّ سَيْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُطُلُتْ خُضِرَ وَأُخْرَى بَابِئِنَّ يَأْتِيَنَّ أَلْفًا أَفْتَوَى فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِرُؤْيَايَ مُتَمَرِّدًا﴾ [يوسف: ٤٣].

تفصيل الرؤيا المنامية

لقد رأى الملك في منامه، سبع بقرات سمان جميلات، قد خرجت من النهر، وأخذت ترعى في أرض خصبة، كثيرة العشب والنبات، وخرج في أثرهن سبع بقرات هزيلات، في غاية الهزال والضعف، قبيحة الشكل والمنظر، خرجت من ذلك النهر، فابتلعت البقرات العجاف البقرات السمان، كما رأى سبع سنابل خضراء زاهية، قد انعقد حُبها، وسبع سنابل أخرى يابسة، ليس فيها حُب، وإذا بالسنابل اليابسة، تلتف على السنابل الخضراء فتبتلعها، ولا تُبقي لها أثرًا... وكان تأويل يوسف الصديق لها، في غاية الدقة والصحة، فسر لهم البقرات السمان، والسنابل الخضراء، بسبع سنين مخصبات، والبقرات العجاف والسنابل اليابسة، بسبع سنين مجذبات، ونبأهم أن البلاد ستمرُّ بها سنوات سبع مخصبة، فيها تجود الأرض بالخيرات، والغلات الوفرة، ثم تعقبها سبع سنين مجذبة، تاكل الأخضر واليابس، وأن عليهم أن يقتصدوا من سنوات الرخاء، إلى سنوات القحط والجذب، وحدث ذلك كما ذكره لهم، مما كان سبباً في تفريج كربته، وخروجه من السجن.

التمثيل للحيلة التي ألهم الله بها يوسف بالكيد

٣ - ورد هذا النص القرآني، في الحيلة التي ألهم الله بها يوسف، لإبقاء أخيه (بنيامين) عنده، والاحتفاظ به، وسماها (كيداً) بطريق الاستعارة اللطيفة ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الْيُوسُفُ مَا كَانَ لِأَخِي أَنْ يَأْتِيَهُ بِكَيْدٍ إِلَّا أَنِ يَكْسِبَهُ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦] فالكيد في الآية مستعار عن الحيلة، أي كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف هذه الحيلة، وألهمناه إياها ليستبقي أخاه عنده، ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر، وفي قانونه ونظامه، لأن القانون عنده، ضرب السارق، وتغريمه ضعف ما أخذ، وأما في شريعة يعقوب عليه السلام، فهو استرقاقه سنة، ولما سألهم

عن حكم السارق عندهم ﴿قَالَ لَا يَخَذُّ مِنْ يَدِي رَحِيماً. فَهُوَ حَزُونٌ﴾ [يوسف: ٧٥] أي عقوبة السارق في شريعتنا، أن يُسرق ويصبح مملوكاً لمن سرق منه سنة كاملة، فهذه هي (الحيلة) التي ألهمها الله ليوسف، سماًها باسم (الكيد) بطريق الاستعارة، فلو قبلوا بتحكيم شريعة الملك، ما كان يوسف لينمكّن من أخذ أخيه، ولكنهم رضوا بتحكيم شريعة يعقوب، وهذا هو تدبير الله البديع.

فإن قيل: إن لفظ الكيد مشعرٌ بالحيلة والخديعة، فكيف يليق بالعليم الحكيم أن يقول: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ يُوسُفَ﴾؟ [يوسف: ٧٦].

فالجواب: أن الكيد يُطلق على التدبير في الخفاء، وقد يكون للخير، أو للشر، فالكيد من الخلق: الحيلة والمكر وهو قبيح، والكيد من الله: هو التدبير المحكم، لدفع سوء والمكروه، وهو خير. قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِكَيْدِهِ كَيْدُ﴾. [الطارق: ١٥، ١٦] فالكيد من الكفار: شرٌ وخُبث، والكيد من الله هو إبطال ما دبروه وهو خير، فتدبر هذا والله يرعاك!!

من لطائف بدائع التعبير القرآني

١ - في قصة يوسف مع إخوته، عجائب وبدائع ولطائف، تناولها القرآن بأسلوبه البياني البديع، فإن إخوة يوسف لما رأوا الضاع بين متاع أخيه (بنيامين) دهلوا، وسقط في أيديهم، وسارعوا إلى اتهامه بالسرقة، واتهام أخيه يوسف ﴿فَاتَّوَلَّاهُ بِسَفَاهَةٍ مِمَّا يَفْعَلُ الْغَائِبُونَ﴾ [يوسف: ٧٧] يقولون: ليس هذا الأمر غريباً عنه، فإن أخاه الشقيق الذي هلك كان أيضاً سارقاً، يعنون به (يوسف) وهم لا يعلمون أنه هو العزيز الذي يخاطبونه، ثم أخذوا يتوسلون إليه، بأن يأخذ أحدهم مكانه، رحمةً بأبيه الذي لا يكاد يصبر على فراقه، بعد فقد يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَثِمًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ. إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْعَابِدِينَ﴾. قال معاذ الله أن تأخذ أحداً من وجده متعاضداً، [يوسف: ٧٨، ٧٩] ولنقف ملياً عند هذا النص البديع ﴿قَالَ مَكَانَهُ أَتَمَّ أَنْ تَأْخُذَ بِهِ مِنْ دُونِ أَخِيكُمْ؟ فَدَمَغَ عَلَيْهِمْ. لَمْ يَقُلْ: معاذ الله أن تأخذ بريئاً بجريمة شخص سارق، وإنما كان دقيقاً في لفظه، صادقاً في تعبيره، لأنه يعلم أن أخاه ليس بسارق، فعبر أدق تعبير حكاه عنه القرآن، احترازاً منه عن الكذب، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ سَرَقَ﴾. وهذا من بدائع لطائف القرآن، أن يحكي اللفظ مبرئاً عن الكذب، حتى في قصصه وأخباره، وهو أدب من آداب القرآن، ينهنا الله عليه في قصة يوسف الصديق.!

التعبير القرآني المعجز

٥ - ومن بدائع ولطائف التعبير القرآني، ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَمَّا أَتَيْنَا بِهِ مَكَانًا رَحِيمًا﴾ [يوسف: ٨٠] أي لما يسوا من إجابة طلبهم ياساً تاماً، والسين والتاء في (استياسوا) للمبالغة، أي يسوا ياساً كاملاً، وأيقنوا أن أخاهم لا يزد إلا بهم، لما شاهدوه من استعاذته بالله، ومن تسميته ظلماً، انفردوا واعتزلوا جانباً عن الناس، يتناجون ويتشاورون بينهم سرّاً: ماذا يفعلون؟

ولننعم النظر في هذا (التعبير الإلهي) المعجز في بيانه، وروعة إيجازه ﴿لَمَّا أَتَيْنَا بِهِ مَكَانًا رَحِيمًا﴾ فقد صورت الآية اجتماعهم، وتشاورهم، وما دار بينهم من أحاديث، وكيف يرجعون إلى أبيهم، وقد أعطوه العهد والميثاق أن يردوا أخاهم (بنيامين) إليه، صوّرت كل ما دار بينهم من أحاديث، بهذه الألفاظ الموجزة البسيطة.

ذكر القاضي عياض في كتابه الشفا، أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿لَمَّا أَتَيْنَا بِهِ مَكَانًا رَحِيمًا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقاً، لا يقدر على مثل هذا الكلام، وذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس، وانفرادهم عن غيرهم، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في الاتفاق على ما يلقون به أباهم، عند عودتهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، الذي أصابهم جميعاً بالخيرة والذهول، فتضمنت تلك الآية القصيرة، جميع معاني القصة الطويلة^(١).

هذه بعض اللطائف، ذكرناها للتنبيه على (إعجاز القرآن) في أسلوبه المبدع، وما أكثر هذه الأسرار واللطائف، في الكتاب العزيز!!



(١) من كتاب (كشف الخفا في سيرة المصطفى ﷺ) للعلامة القاضي عياض رحمه الله.

الإبداع البياني في سورة الرعد

١ - قوله تعالى: ﴿يُغْشِي النَّهَارُ أَظْلُمًا لَّكَ لَا تَبْصِرُ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] شبه إزالة نور النهار، بواسطة ظلمة الليل، بالغطاء الكثيف الذي يستر الأشياء، واستعار لفظ (يُغْشِي) بمعنى يُغْطِي للأمور المعنوية، بطريق (الاستعارة التبعية) أي يغطي نور النهار ويستره بظلمة الليل، حتى يصبح مظلماً، بعد أن كان مضيئاً، وهذا من لطيف الاستعارة.

٢ - قوله تعالى: ﴿قَدْ مَرَّ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدَانِ...﴾ [الرعد: ١٦] في الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: الله خالق السموات والأرض، حُذف خبر المبتدأ (خالق السموات والأرض) لدلالة السياق عليه، وهو من الإيجاز البديع، والبلاغة عند العرب في الإيجاز.

٣ - قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا تَشَاءُ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ مِمَّنْ سَوَّىٰ الْأَعْمَىٰ وَتَكُونُ؟﴾ [الرعد: ١٦] في الآية (استعارة بديعة) استعار لفظ (الأعمى) للكافر، ولفظ (البصير) للمؤمن، كما استعار (الظلمات) للكفر والضلال، و(النور) للهداية والإيمان.

والمعنى: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر نور الحق، والمشرك الذي غمي عن رؤية ذلك النور، فالفارق بين الحق والباطل واضح، وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر، ظهور الفارق بين النور والظلام، فالباطل وإن علا، فإن الله سيمحقه ويبيطله، والعاقبة للحق وأهله، كما يقال: للباطل جولة ثم يضمحل.

٤ - قوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَتْ السَّمَاءُ فَاتَتْ زُبُرًا بِقَدَرِهِ...﴾ [الرعد: ١٧] شبه سبحانه الحق والباطل، بتشبيه بديع رائع، يسمى (التشبيه التمثيلي) مثل الحق بالماء الصافي، الذي يستقر في الأرض، وبالجوهر الصافي من المعادن، الذي ينتفع به العباد، ومثل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على سطح الماء، وبالحَبث من الجوهر والمعدن، الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل، وهو تمثيل بديع، في منتهى الروعة والجمال.

قال العلامة ابن القيم: شبه الله الوحي الذي أنزله لحياة القلوب، والاسماع، والأبصار، بالماء الذي أنزله، لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يستوعب علماً عظيماً، كوادٍ كبير يستوعب ماء كثيراً، وقلب صغير كوادٍ صغير، يستوعب بحسبه ﴿تَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ واحتملت قلوب من العلم والهدى بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومز عليها، احتمل غشاء وزبداء، فكذلك الهدى والعلم، إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشبهات والشهوات، ليقلعها ويذهبها، وهكذا يضرب الله المثل للحق والباطل. اهـ تفسير ابن القيم ص ٣٢٢.

٥- قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالنَّاطِقَ فَأَمَّا الرَّثَمَةُ بِذَقَّتْ حَقَّتْ وَأَمَّا بِنَعْمِ الْأَنْزَارِ فَيَقْتَضِي كَذَلِكَ يَقْرَأُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] في قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالنَّاطِقَ﴾ إيجاز بالحذف تقديره: كذلك يضرب الله مثل الحق، ومثل الباطل، دل عليه قوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ والأمثال تضرب للتفريق بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

٦- قوله تعالى: ﴿أَمْسِنَ بَنَاتُ الْأَرْثِ إِذْ لَمْ يَلِدْنَ وَلَيْسَ لَكُنَّ عِلْفٌ لِّأَخِيهِ﴾ [الرعد: ١٩] المراد بالأعمى هنا: الكافر، شبه تعالى الجهل والكفر بالعمى، على طريق الاستعارة التيمية) وهو تشبيه بديع، فالأعمى إذا مشى بدون قائد، إما أن يقع في مهلكة، وإما أن يُقصد ما في طريقه، أما البصير فيكون آمناً من الهلاك والإهلاك، وهنا يكون الإبداع بالتمثيل للكافر (بالأعمى) وهو في غاية الحسن.

٧- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْخَرَّةِ الَّتِي رُعِدَ السَّمْعُونَ تَحَرَّىٰ مِنْ غَمِّهَا الْأَنْهَارُ أَكْثَلُهَا دَائِرٌ وَيُظْلَمُ﴾ [الرعد: ٣٥] في الآية (إيجاز بالحذف) حذف الخبر من قوله: ﴿وَيُظْلَمُ﴾ أي وظلها دائم لا ينسخ، كما تُنسخ ظلال الدنيا بالشمس.

٨- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا أَوْ الْأَرْضِ نَضْمًا بِطَرَفَيْهَا...﴾ [الرعد: ٤١] في الآية (مجاز) أي بآتيها أمرنا وقضاؤنا بالهلاك، ونقصانها باستيلاء المسلمين على ديار المشركين، وقيل: بموت أشرافها، وعلمائها، وكبرائها، وأنشدوا:

الْأَرْضُ نَحْبًا إِذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا
مَشَى بِمَثَ عَالِمٍ مِثْلَهَا يَمُوتُ طَرَفُ

٩- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا...﴾ [الرعد: ٤٢] المكر لا يُنسب إلى الله تعالى، إلا على سبيل (المقابلة) لمكر أعداء الله بالرسول والمؤمنين، فالكفار يَمَكُرُونَ برسول الله، والله تعالى يجازيهم بتدبير

آخر، يُبطل مكرهم، ويرد كيدهم في نحورهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يُجِزِي الْمَكْرَ الشَّيْءَ إِلَّا يَهْدِيهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

والمعنى: إن مكرهم لا وجود له أصلاً، أمام مكر الله بهم، إذ مكرهم بالأنبياء، هو بعينه مكر من الله عز وجل بهم، من حيث لا يشعرون ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

١٠ - قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا تَبَىٰ وَتَيْبَسَتْ﴾ وقد عذم العلم الكتابي [الرعد: ٤٣] في الآية (كناية لطيفة) كفى بقوله: ﴿يَعْلَمُ الْكُتُبُ﴾ عن (عبد الله بن سلام) رئيس أحبار اليهود، الذي شهد لرسول الله ﷺ يصدق الرسالة، وآمن به.

والمعنى: حسبي شهادة الله بصدقني، بما أئدني به من المعجزات، وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب، وعلى رأسهم (عبد الله بن سلام) كما وضح سبب النزول.



الإبداع التمثيلي في سورة الرعد

مثل بديع لعباد الأوثان

١ - يقول الله جل ثناؤه في سورة الرعد: ﴿إِنَّ أَقْوَمَ الْقَرَارِ وَالْيَوْمَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ هَيَّاهُ إِلَّا تُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ إِلَى الْمَاءِ يُنْشَقُّ مَاءٌ فَرَّطِيحٌ وَدَاعَةٌ لُكْهُورٌ إِذَا لِي صَبْرٌ﴾ [الرعد: ١٤] أخبر تعالى عن عبدة الأوثان، أنهم يعبدون حجارة صماء بكفاءة، لا تنفع ولا تضر، ولا تستجيب لعبادها وداعيها، وضربت لهم مثلاً في منتهى الإبداع والإقناع، مثل تعالى حال هؤلاء المشركين، في عبادتهم للأصنام، ودعائهم لها، بحال إنسان اشتد به العطش، فهام على وجهه، يبحث عن الماء، فلما رأى الماء من بعيد، أخذ يبسط يديه إليه، ويناديه صارخاً مستغيثاً، طالباً من الماء أن يحضر إليه لينقذه، والماء جماد، لا يشعر، ولا يحس بعطشه، ولا يسمع نداءه ﴿كَبِيرٌ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ يَمْلَأُ يَدَيْهِ وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي ينادي الماء ليصل إلى فمه، ليذهب عنه العطش، والماء لا يستجيب لندائه، فكذلك حال هؤلاء المشركين مع الأصنام والأوثان، يدعونها وهي لا تستجيب لهم، وبأله من تمثيل بديع رائع، يأخذ بالألباب!!

السخرية بالآلهة المزعومة

٢ - وبعد أن ضرب تعالى المثل بالأحمق، الذي اشتد عطشه، وهو ينادي الماء ليصل إلى فمه، جاء التشبيه للسفهاء الحمقى، من عبدة الأوثان والأصنام، الذين نحوا حجارة بأيديهم، ثم عكفوا عليها يعبدونها من دون الله، وقد شبههم تعالى بتشبيه بديع، بأسلوب رفيع من البيان، فيه سخرية وتهكم بعقولهم، فكيف لا يفرق العاقل، بين القادر والعاجز، والحي والميت، والخالق والمخلوق؟ ﴿قُلْ أَتَأْتَدُّونَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَتْلُوْنَ أَلْفَامًا وَلَا يَخْلُقُونَ﴾ [الرعد: ١٦] أي قل لهم يا أيها الرسول: أ جعلتم لله شركاء من الأوثان، عبدتموهم من دون الرحمن؟ لا يقدرّون على نفع أنفسهم، ولا دفع الضرر عنها، فكيف يستطيعون

نفعكم ودفع الضر عنكم؟ ﴿قُلْ مَنِ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦] أسلوب آخر تهكمي، مثل للكافر بالأعمى، وللمؤمن بالبصير، ومثل الجهل بالظلمة، والعلم بالنور، أي هل يتساوى الكافر الأعمى، الذي لا يرى ما أمامه، فيخبط في الحياة خبط عشواء، بالمؤمن المستنير بنور الله، الذي يعبد ربه على بصيرة ويقين؟ فكما لا يتساوى الكافر مع المؤمن، كذلك لا يتساوى الحق مع الباطل، ولا الإيمان مع الضلال، فالفارق بين الحق والباطل، واضح ووضوح الفارق بين (الأعمى) و(البصير) والفارق بين الإيمان والضلال، كالفارق بين النور والظلام. ولهذا عقبه بقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ قَلْبٌ وَلَا نَورٌ﴾ [الرعد: ١٦] إن الضلال ظلمة، والهدى نور، والجهل ظلمة، والعلم نور، فكيف يتساويان؟ ثم أردف تعالى المثل، بما هو أظهر وأوضح فقال: ﴿إِنْ شَرَكَا عَنْتُ رَبُّكَ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ فَاقْرَأْ لَهُمْ فِي الْبُحُرِ مِثْلَ نَثَارٍ﴾ [الرعد: ١٦] أي هل غيب المشركون آلهة، خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله؟ حتى التيس الأمر عليهم، فلا يدرون أهي من خلق الله، أم من خلق آلهتهم؟ وهو أسلوب (سخريه وتهكم) لاذع يعقول الكفار، فإنهم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون أصنامهم لم تخلق شيئاً، ثم يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف وأحط ما انحدرت إليه عقول المشركين.

وتختم الآية الكريمة بالحجة الدامغة، التي لا يستطيع أن يجادل فيها أحد، وهي أن الخالق لجميع المخلوقات، هو الله وحده، المستفرد بالالوهية والربوبية، والخلق والتدبير لشؤون العباد لا خالق سواه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ ظِلَّ غُورٍ وَهُوَ الْوُجُوهُ الْقَهْرُ﴾ [الرعد: ١٦] وكفى بهذه حجة دامغة.

مثالان بديعان للحق والباطل

٣- وبعد ذلك التمثيل الرائع للمؤمن والكافر، والجاهل والعالم، ذكر تعالى مثلين من روائع الأمثلة، ضربتهما تعالى للحق وأهله، والباطل وجزبه، ليتضح الفرق بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، فقال جل ثناؤه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَتْ آيُودُهُ نَجْمًا مَحْتَجَلًّا أَسْتَوِيًّا رِيًّا رَائِبًا...﴾ [الرعد: ١٧].

هذا هو المثل الأول، مثل تعالى للحق في قوته وثباته، وللباطل في ذهابه وفنائه، بالماء النازل من السماء، تسيل به الأودية، كل على حسب سعته وضيقه، وهذا الماء يجرف في طريقه الغثاء، يطفو على وجهه في صورة الزبد، وهو يزهر ويتنفخ، والماء من تحته ساكن هادي، يحمل الخير والنفع للبشر،

التمثيل البديع لمعجزة القرآن العظيم

٥ - لقد اقترح المشركون أن يأتيهم رسول الله ﷺ بمعجزة حسية، خارقة للعادة، كتسير الجبال عن مكة، وجعلها مروجاً تجري من تحتها الأنهار، وأن يحيي لهم بعض أمواتهم، ليسألوهم عن أمور الآخرة، حتى يؤمنوا برسالة لذلك نزلت هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّا نُنزِّلُ الْغَيْثَ مِنَّا لُغُلِّتْ بِهِ الْأَرْضُ وَكُنَّا لَنَزْلِفُنَّ لَهَا الْأَمْثِلَ حِينَمَا أَقَمْنَا لِلْيَتِيمِ الْيَلِيَّتَ ۖ آمَنُوا لَوْ بَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ حِينَمَا هُمْ﴾ [الرعد: ٣١].

والمعنى: لو أن كتاباً من الكتب المنزلة، يصنع العجائب، تسيّر بثلاونه الجبال، وتزعزع عن أماكنها، أو شققت به الأرض، حتى تنصدع، فتخرج منها العيون والأنهار، أو يخاطب به الأموات حتى يتكلموا في قبورهم، وجواب (لو) محذوف تقديره: لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، لكونه غاية في الإيجاز والإعجاز، ونهاية في التذكير والإنذار.

والغرض تعظيم شأن القرآن، والرد على السفهاء الحمقى، الذين طلبوا من رسول الله ﷺ معجزة أخرى، غير القرآن، فنبههم تعالى أنه آية الآيات، ومعجزة المعجزات ﴿أَوَلَمْ يَنْهَهِ أَنَّا لَوْلَاكَ لَكَ الْكِتَابُ يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]؟ فما هي قدر المعجزات الحسية، أمام القرآن معجزة المعجزات؟

ووي أن نفرأ من المشركين، جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا له: يا محمد إن سرّك أن ننبئك، ونعلم أنك رسول الله، فسيّر لنا الجبال عن مكة، فإنها ضيقة، حتى تشع لنا الأرض، فنشخذ فيها البساتين والمزارع، وشقق لنا الأرض، وفجر لنا فيها الأنهار والعيون، وأخي لنا رجلين ممن مات من آبائنا، ليكلمونا ونسألهم عن أمرك، أحق هو أم باطل؟ فلما اقترحوا عليه هذه المقترحات، نزل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نُنزِّلُ الْغَيْثَ مِنَّا لُغُلِّتْ بِهِ الْأَرْضُ ۖ﴾ الآية.

يا عجباً لهؤلاء المشركين المعاندين! هذا الكتاب المعجز، جاءهم به نبي أمي، لا يعرف قراءة ولا كتابة، تنطق حروفه وكلماته، وآياته، بصدقه، وفصاحة بيانه، وسطوع برهانه، على أنه تنزيل رب العزة والجلال، ألم يكفهم هذا القرآن، شاهداً على صدق خاتم الأنبياء، حتى طلبوا معجزة غير القرآن.

الإبداع البياني في سورة إبراهيم

١ - قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْمَعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] الأمر هنا (تمتعوا) أمر تهديد ووعد، أي استمتعوا بديناكم الفانية، وكلوا واشربوا كما تأكل البهائم والأنعام، فإن مرجعكم إلى نار الجحيم، وهذا كقول الطبيب للمريض، يأمره بالاحتماء عن الطعام، فلا يحتمى: كُلْ ما تريد، فإن مصيرك إلى الموت، فإن مقصوده التهديد، ليرتدع ويقبل مشورة الطبيب.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُونَ عَنْكُمْ بِشَيْءٍ مَا كُنَّا نَسْأَلُهُ...﴾ [إبراهيم: ٣٤] كنى بقوله: ﴿بِشَيْءٍ مَا تَسْأَلُونَ﴾ عن جميع ما يحتاج الناس إليه في حياتهم، من أنواع الطعام، والشراب، والدواء، ومما يُبقي عليهم الحياة، من الهواء، والشمس، والليل، والنهار، سواء طلبوه من الله أم لم يطلبوه، وهي (كناية بديعة) عن خلق الله عز وجل لهم كل ما يحتاجون إليه في حياتهم الدنيا.

٣ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] هذه من (صيغ المبالغة) أي كثير الظلم، وكثير الكفر لنعم الله، ظلوم في الشدة، يشكو ويجزع، كفار في النعمة، يجمع ويمنع.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا...﴾ [إبراهيم: ٣٥] كنى بقوله: ﴿الْبَلَدَ﴾ عن مكة المكرمة شرفها الله، لأنها أم البلاد، وفيها بيت الله الحرام، الذي بناه أبو الأنبياء (إبراهيم) عليه السلام.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتُنِي زَيْنًا أَوْ كَرِيمًا﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] في الآية (مجاز مرسل) علاقته (السببية) أسند الإضلال إلى الأصنام، مع أنها جمادات لا تعقل، ولا تأمر ولا تنهى، ولكن لأن الناس ضلوا بسببها، فكان الأصنام أضلتهم، كما نقول: فتننتهم الدنيا وغرَّتهم، أي اقتنوا واغترؤا بسببها، فهو من إسناد الشيء إلى سببه.

٦ - قوله تعالى: ﴿فَأَنصَلْ أَقْدَمَ عَلَى النَّارِ فَهِيَ لَيْسَ بِهَا سَبِيلٌ﴾ [إبراهيم: ٣٧] هذه من محاسن أنواع الاستعارة، لأن حقيقة الهوى: النزول من علو إلى

انخفاض، كما نقول: هوى النجم، استعير لفظ ﴿تهوى﴾ للإسراع للمجيء، أي تُسرِع إليهم سرفاً، وتطيّر لهم حياً، ولو قال: «تحنُّ إليهم» لما كان له هذا التصوير الرائع، باللفظ الذي ورد به القرآن، لأن الحنين قد يكون من المقيم بالمكان، ثم في قوله: ﴿يَنَالُ النَّاسَ﴾ ولم يقل أفئدة الناس، لأن «من» للتبعيض، أي قلوب بعض الناس، وهم المؤمنون خاصة.

قال ابن عباس: لو قال: «أفئدة الناس» لآزدحت عليه فارس، والروم، وجميع الخلق.

٧- قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ سِنَةِ الْجِبَالِ﴾ [إبراهيم: ٤٦] الآية على حذف مضاف ففيه (مجاز مرسل) أي وعند الله جزاء مكرهم، وعقوبة مكرهم، وتسميته (مكراً) لكونه بمقابلة مكرهم.

والمعنى: مكر المشركون مكرهم الخبيث، حين أرادوا قتل النبي ﷺ وإطفاء نور الله، وعند الله جزاء هذا المكر، وقد كان مكرهم في العظم والشدة، بحيث يكادون يقتلعون به الجبال، وهو تصويرٌ بديعٌ لضخامة مكر الكفار بالرسول الأبرار.

٨- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ...﴾ [إبراهيم: ٤٨] في الآية (إيجازٌ بالحذف) تقديره: والسماواتُ تُبدَّلُ غير السماوات، والتبديلُ للسماوات والأرض، قد يكون في الذات، وقد يكون في الصفات، بأن تُزال من الأرض الجبال، والوديان، والبحار، وتصبح أرضاً مستويةً ملساءً، كما في الحديث الشريف: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ غَفْرَاءٍ - يعني شديدة البياض - كَقُرْصَةِ النَّقْيِ، لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لِأَحَدٍ» رواه البخاري أي مثل الخبز النقي الصافي، ليس فيها علامةٌ من الأبنية، والزراعة، والمساكن.



روائع التمثيل في سورة إبراهيم

التمثيل البديع لضياح أعمال الكفار

١ - ضرب الله مثلاً لأعمال الكفار، بالريح الشديدة العاصفة، تأتي على الرماد فتطيره، وذلك في قوله جل ثناؤه في سورة إبراهيم: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ مَّوْءٍ عَصِيفٍ لَا يَذَرُونَهَا فِي يَمِينِهِمْ وَلَا شِمَالِهِمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ﴾ [إبراهيم: ١٨] شبه تعالى أعمال الكفار، وهي الأعمال الحسنة التي عملوها في الدنيا، يطلبون بها الأجر، من صلة الأرحام، ورعاية الأيتام، وإطعام الضعفاء والفقراء، وأمثالها من أعمال البر والإحسان، شبهها في ضياعها وخبوطها، برماد - يعني تراب ناعم - طيرته الرياح في يوم عاصف، شديد العواصف والزوايع، فهل يبقى للتراب أثر مع هذه الرياح العاتية؟ ولهذا قال: ﴿لَا يَذَرُونَهَا فِي يَمِينِهِمْ وَلَا شِمَالِهِمْ﴾ أي لا يقدرون على تحصيل ثواب ما عملوه من أعمال البر، وذلك هو الخسران الكبير.

تصوّر هذا التمثيل الرائع البديع: صورة الرياح العاتية العاصفة، لا تأتي على الجبال الراسية، بل تأتي على التراب الناعم، فتطيره وتنسفه، حتى لا تُبقي له ذكراً ولا أثراً، وهو مثل في منتهى الوضوح والإبداع.

التمثيل لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة

٢ - كما ضرب الله تعالى في هذه السورة مثلين: مثلاً لكلمة الإيمان، بالشجرة الطيبة المثمرة، في الأرض الطيبة المنبثة، طاب أصلها، وطابت ثمرتها وذلك مثل كلمة التوحيد، تنبعث من قلب المؤمن، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَبِهَتُوا أُولَٰئِكَ يَسْمَنُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

هذا مثل بديع رائع، مثل تعالى به للمؤمن، وهو ينطق بكلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) عن إيمانٍ و يقين، فيسمو عن الله ويرتفع، أي

مثل كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) في قلب المؤمن، كمثل شجرة طيبة مثمرة، فالمؤمن طيب، كمثل الشجرة الطيبة، طابت تربتها، فطاب ثمرها وفاكهتها، ورسخت أصولها في الأرض، وامتدت أغصانها في الهواء، فأعطت ثمارها وافية، زاهية، ناضجة، كذلك عمله الصالح ينمو ويزداد، كما تزداد ثمار الشجرة الطيبة.

قال ابن عباس: الكلمة الطيبة: (لا إله إلا الله) كلمة التوحيد، والشجرة الطيبة: (قلب المؤمن) فيه الخير والنور. وهذا مثل ضربه الله تعالى، للمؤمن الذي يعبد الرحمن، بدليل قوله: ﴿وَيَقَرِّبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

التمثيل لكلمة الكفر بالشجرة الخبيثة

٣ - أما المثل الثاني: الذي ضربته القرآن، فهو لكلمة (الكفر والإشراك) وللكافر وعمله الخبيث، مثل له بشجرة الحنظل، إنها مرة خبيثة، ليس لها جذور في الأرض، ولا فروغ في السماء، وليس فيها نفع أصلاً، ولا يرجى منها خير، فهي بالغة الخبيث، ولا يصلح للخبيث إلا اقتلاعه من الجذور ﴿وَسَلَّ كَلِمَةً حَبِثَةً كَسَحَرَةٍ خَبِيثَةٍ أَخَذَتْ مِنْ ذِي الْأُذُنِ مَا نَهَاها مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

والمعنى: ومثل كلمة الكفر، كمثل شجرة خبيثة (شجرة الحنظل) التي يعرفها العرب، استوصلت من جذورها، واقتلعت من الأرض، فلا خير فيها ولا نفع، ولا نفع ولا ثمر، إلا طعمها المرّ الملقم، وذلك مثل الكافر، وعمله الخبيث، لا يقبل منه عمل، ولا يضعده له فعل صالح، لأنه ليس له أصل في الأرض ثابت، ولا فرع في السماء صاعد، وهذا مثل الكافر، وكيف تثمر أعماله وقد كفر بالله؟ فمثل كمثل الشجرة الخبيثة، التي لا ثبات لها ولا قرار، تربتها خبيثة، وثمرها خبيث، غاز ماؤها، وكثر شوكها، واقتلعت أصولها من جذور الأرض، وبهذين المثلين يتضح الفارق بين الإيمان والكفر، والمؤمن والكافر. ١

روى أن النبي ﷺ كان جالساً ذات يوم مع أصحابه، فقال لهم: أخبروني بشجرة تشبه الرجل المسلم، لا يتخاث - أي لا يسقط - ورقها، تؤتي أكلها كل حين - أي تغطي ثمرها في جميع الأوقات - قال ابن عمر: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبي أنها (النخلة) فاستحييت أن أقول - لصغر بيته - ورأيت أبا بكر، وعمر لا يتكلمان، فلما لم يعرف أحداً ما هي تلك الشجرة، قال النبي ﷺ لأصحابه: هي النخلة، قال: قلما خرجنا من عند رسول الله ﷺ قلت لأبي

عمر: يا أبتاه، والله لقد وقع في نفسي أنها النحلة، فقال: ما منك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلّم أو أقول شيئاً!! فقال لي أبي: لأن نكون قلنّها أحبّ إليّ من كذا، وكذا) رواه البخاري في كتاب التفسير ٣٧٧/٨.

التمثيل للموقف المخزي للظالمين

٤ - ومن التمثيل إلى التشبيه الرفيع البديع، يقول القرآن الكريم عن الظلمة والظالمين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفلاً عَمَّا يَتَّبِعُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ نَبْطِئُ بِقُلُوبِهِمْ وَنُحَسِّدُهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنزِلُ إِلَيْهِمُ مَنَاسِكَمَ فَالْآفَافُ فِي سَبِيلِهِ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

أي لا تظنّ أن الله غافل عن أعمال الظلمة، إنما يؤخر عقوبتهم ليوم عصيب رهيب، نطيش فيه العقول، وتشخص فيه الأبصار، من شدة الهول والفرع، كحال المجرم الذي يساق إلى جبل المشنقة، لا يفكر في شيء ممّا حوله، ﴿وَأَنزِلُ إِلَيْهِمُ مَنَاسِكَمَ﴾ فيه تشبيه بليغ، حذفت منه أداة التشبيه، ووجه التشبيه، فأصبح بليغاً، أي قلوبهم كالهواء، خالية من العقل لا تدري ما تفعل، لفرط الخيرة والدهشة، كقولنا: عليّ أسد أي كالأسد في الشجاعة.

ومعنى ﴿نُفَيِّرُ رُءُوسَهُمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم مع إدامة النظر، ولنتصور هذه الصورة المفزعة، صورة الإنسان الخائف الفرع، الذي رفع رأسه مبهوتاً، لا يحركه يمنة ولا يسرة، وقد جمّد في مكانه، فلم يعد يستطيع الحركة ولا المشي، وعيناه مفتوحتان لا تتحرك أجفانهما، من فرط الحيرة والدهشة!! كيف يكون حاله في ذلك الموقف الرهيب العصيب؟ ويا له من موقف مخزٍ مخيف، لأولئك الظلمة المتجبرين.

والفرض تشبيه حال الظالمين يوم القيامة، بحال من فقد عقله ورشده، وطار صوابه، لكارثة فادحة، حلت به، فلم يعد يبصر ما حوله، فأصبح مبهوتاً مدهوشاً، لا يدري ما يصنع.



الإبداع البياني في سورة الحج

١ - قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَوِّذْ لَنَا لِقَاءَ كَثِيرٍ أَلَمْ كُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٢] ﴿رَبَّنَا﴾ ربّ للتقليل، و(ما) تكرة موصوفة اتصلت بها، أي ربّ شيء يتمناه الكفار يوم القيامة، وذهب بعض المفسرين إلى أن (ربّ) هنا للتكثير، أي كثيراً ما يتمنى الكفار لو كانوا مسلمين، حينما يرون عذاب الجحيم، وأنكر الزجّاج والنحاس أن تجيء (ربّ) للتكثير، وقالوا: هذا ضدّ ما تعرفه العرب، وهي على أصلها للتقليل، والآية خارجة مخرج الوعيد.

قال النحاس: فأما معنى (ربّ) ههنا فإنما هي في كلام العرب للتقليل، وأن فيها معنى التهديد، وهذا نستعمله العرب كثيراً لمن تنوعه وتهذّه، يقول الرجل للآخر: ربّما ندمت على ما تفعل، ولا يشكّون في ندمه، ولا يقصدون تقيّله، بل حقيقة المعنى أنه يقول: لو كان هذا مرة واحدة، أو مثا يقل، لكان ينبغي أن لا تفعله!! وأما من قال إن (ربّ) تقع للتكثير، فلا يعرف في كلام العرب، قال: والدليل على أنه وعيد وتهديد، قوله سبحانه بعده: ﴿ذَرْنُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا وَيَلْعَبُوا فِي مَوَاقِعِ الْبُحُورِ﴾ [الحج: ٣] اهـ معاني القرآن للنحاس ٨/٤ وهو كلام نفيس.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفْلَحْنَا مِنْ قُرْبَىٰ إِلَّا وَلَمَّا كُنَّا فِي مَقْلُوبٍ﴾ [الحج: ٤] في الآية (مجاز مرسل) لأن المراد من القرية أهلها، لا أسوارها وبيوتها، وهو من باب (إطلاق المحل وإرادة الحال فيه) أي وما أهلكنا أهل بلدة من البلاد، الظالم أهلها، إلا ولها أجل محدّد لهلاكها، لا يتقدّم ولا يتأخر.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيَانَا الَّذِي يَدْعُنَا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الحج: ٦] قالوه للرسول ﷺ على جهة (الاستهزاء والتهكم) لأنهم لا يؤمنون بالقرآن، ولا بمن أنزل عليه، ومرادهم: يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك، إنك حقاً لمجنون، تتكلّم بكلام المجانين، خاطبوه لا تسليماً بنبوته، بل سخرية واستهزاء، من غاية فجورهم وطغيانهم.

٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ مَرَدُّهُ أَذْكَرَ لِمَن لَّا يَحِيطُونَ﴾ [الحجر: ٩] حفظ الله لكتابه: يُراد به صيانته عن التحريف والتبديل، وعن الزيادة والنقصان، ذلك لأنه آخر الكتب السماوية، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء، وآخر الرسل، فلو حُرف القرآن، كما حُرِّفت التوراة والإنجيل فعلاً، كما قال سبحانه: ﴿يَحْرِفُونَ إِلَيْكُمْ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤٦] فاي كتاب ينزل ليبين لنا ما حُرف فيه؟ وأي رسول سيأتي ليخبرنا عما حُرف وبُذِل فيه؟ لذلك تكفل الله عز وجل بحفظه بقوله: ﴿وَأَنَّا لَمَحِيطُونَ﴾ وأما الكتب السابقة فلم يتكفل الله بحفظها، وإنما وكل حفظها إلى القس والرهبان ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤] أي طلب منهم حمايتها وحفظها عن التلاعب والتبديل والتغيير، فافهم هذا السر الإلهي، والحكمة الربانية، لحفظ الله للقرآن العظيم، والله يحفظك ويرعاك.

٥ - قوله تعالى: ﴿رَبِّدِينَ شُجْرًا وَأَنحَرُوا نَخْلًا هَا يُدْرِكُهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي رَمَوْهُمُ فِيهِ لَا يَدْخُلُونَ فِيهِمْ أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢١] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، شبه تعالى أرزاق الخلائق والعباد، بخزائن تحفظ فيها نفائس الأموال، واستعار لفظ (الخزائن) لهذا الشيء المودع فيها، ثم إخراج كل شيء يريده جل وعلا، حسب ما اقتضته حكمته بطريق (الاستعارة التمثيلية) للأرزاق، والأعمال، والآجال، والأقدار.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَرَكَ الْجِبَالَ خَرَابًا﴾ [الحجر: ٢٤] في الآية (كناية لطيفة) كنى عن (الأموات) بالمستقدمين، وكنى عن (الأحياء) بالمستأخرين، وهي كناية بديعة.

قال ابن عباس: الأموات منهم والأحياء، من تقدم منهم ومن تأخر. اهـ.
مختصر ابن كثير ٢/ ٣١٠.

٧ - قوله تعالى: ﴿تَسْجُدَ لِلشَّيْءِ كَسَلَتْهُمْ أَفْعُورًا ۖ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أُنْحَرُونَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] أي سجد جميع الملائكة، لم يتأخر واحد منهم، بدل عليه كلمة ﴿أَفْعُورًا ۖ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أُنْحَرُونَ﴾ استثناء منقطع، لأنه كان جنيًا، ولم يكن من الملائكة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أُنْحَرُونَ ۖ قَسْرًا ۚ أَمْ يَرَبُّهُ﴾ [الكهف: ٥٠] ولو كان من الملائكة لما عصى الأمر، والسجود لأدم كان سجود تحية وتعظيم، لا سجود طاعة وعبادة، فافهم معاني كتاب الله الجليل!

٨ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْءَ يَدْعُو وَغُيُوبًا ۖ أَشْهَرُهَا بَشَرًا ۖ مَلَكًا﴾ [الحجر: ٤٥، ٤٦] في الآية (إيجاز بالحذف) على إرادة القول، أي يُقال لهم

ادخلوا هذه الجنات، وهذا الحذف من الأساليب البيانية، وهو كثير في القرآن الكريم.

٩ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُرَاقِبُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ﴾ [الجنجر: ٦٠] هذا من كلام الملائكة، وفي الآية (مجاز مرسل) لأن المقدر هو الله عز وجل، وإسناد الملائكة التقدير إليهم، ورذ بطريق المجاز، لما لهم من المكانة عند الله تعالى، ولأنهم أرسلوا بأمره تعالى، كما يقول خاضع الملك: دبرنا كذا، وفعلنا كذا، والمدبرُ والفاعل هو الملك.

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الجنجر: ٦٦] في الآية (كناية بديعة) عن الإهلاك بعذاب الاستئصال، أي أوحينا إليه أن هؤلاء المجرمين من قومه، سيستأصلون عن آخرهم، فقطع الدابر هنا: كناية عن الإفناء الكلي والهلاك الشامل.

١١ - قوله تعالى: ﴿تَمُوتُ لَيْلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الجنجر: ٧٢] ﴿تَمُوتُ لَيْلَةً﴾ القمُر: اليقظة والحياة، واللأم لام القسم، أي لعمرك قسمي، أقسم الله عز وجل بقمُر نبينا ﷺ وحياته، قال ابن عباس: (ما خلق الله، ولا ذرأ، ولا نورا، نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله عز وجل أقسم بحياة أحدٍ غيره) أخرجه البيهقي، تفسير ابن كثير ٥٧٥/٢.

وفي قوله سبحانه: ﴿يُرْسِلُ السَّحَابَ﴾ أي في ضلالهم وغوايتهم يتخبطون خياري، كالسكران الذي فقد عقله، والتعبير بالشكوة ومعناها: الغواية والضلالة، وردت (بطريق الاستعارة) استعار لفظ (الشكوة) لما هم عليه من الغواية والضلالة، تشبيهاً لهم بالسكارى، الذين فقدوا العقل والرشد.

١٢ - قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجنجر: ٧٤] في الآية (استعارة بديعة) استعار (الإمطار) عن الإنزال فقال ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالقطر، من طين منحجر، طبخ بالنار، شبه تعالى الحجارة التي قذفوا بها، بالمطر الهائل بشدة وكثرة، بطريق (الاستعارة التبعية) والتعبير بالمطر يوحي بالشدة والكثرة، كأنه غيث ماطر، وبركان نائر.

١٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الجنجر: ٨٧] في الآية (كناية بديعة) كنى عن الفاتحة (بالسبع المثاني) لأنها سبع آيات، تلى وتكرر آياتها، في كل ركعة من ركعات الصلاة.

روى البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿الْعَهْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي: السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته.

والمعنى: آيتنا الفاتحة أم الكتاب، وآيتنا القرآن العظيم، فهو من باب (عطف العام على الخاص) اعتناء بشأن الخاص.

١٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْزَنَ عَلَيْهِمُ وَخُفَصَ جَانِبُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجحر: ٨٨] في الآية (استعارة تبعية) بديعة، شبه إلانة الجانب، والتواضع والرفق بالمؤمنين، بخفض الجناح من الطائر، بجامع العطف والرفقة في كل، واستعير اسم المشبه به وهو (الطائر) للمشبه وهو الرسول ﴿وَأَخْفَضَ جَانِبُهُ﴾ تشبيهاً بالطائر إذا كف عن الطيران، خفض جناحيه، وهذا من اللفظ الاستعارة، وأبلغ التعبير.

١٥ - قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُتَقِيمِينَ الَّذِينَ خَلَقْنَا الْقُرْآنَ عِيسَى﴾ [الجحر: ٩٠، ٩١] المقسمون: هم أهل الكتاب، ومعنى ﴿عِيسَى﴾ أي أجزاء متفرقة.

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: (هم أهل الكتاب - اليهود والنصارى - جزأوه أجزاء، فأمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه)، فتح الباري ٨/٣٨٢.

١٦ - قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الجحر: ٩٤] في الآية (استعارة بديعة) عبر عن الجهر والتبليغ لدعوة الله (بالصدع) من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، ولما نزلت هذه الآية، خرج رسول الله ﷺ مع أصحابه، وجهر بالدعوة في وجه المشركين، بعد أن كان مستخفياً بدعوته، تنفيذاً لأمر الله تعالى، تفسير ابن كثير ٥٧٩/٢.



الإبداع البياني في سورة النحل

١ - قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ فَأَنَّ اللَّهَ بَنَسَهُمْ فِي الْفَوَاصِدِ﴾ [النحل: ٢٦] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) بديعة، شبه حال أولئك الكفرة، الماكرين برسلهم وأنبيائهم، بحال قوم بنوا بناءً عالياً، شديد الدعائم، فخرّب الله عليهم أصوله وأساسه، فهدمت القواعد، وسقط عليهم البنيان، فهلكوا وبادوا، وهو تمثيلٌ بادي الروعة، فائق الجمال، ووجه العبرة أن ما خبوه سبباً لبقائهم، عاد سبباً لزلوالهم وفنائهم، كقولهم في الأمثال: «من حفر حفرة لأخيه سقط فيها».

٢ - قوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ أُنْفِقُوا مَاذَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ قَالَوا خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠] في الآية أيضاً (حذف بالإيجاز) في قوله سبحانه: ﴿قَالَوا خَيْرٌ﴾ حذف منه الفعل (أُنْزِلَ) أي قالوا أنزل الله خيراً، دل عليه ما سبق ﴿مَاذَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾؟ فهو جوابٌ موجز، لكنه بديع الشك، محكم البيان.

٣ - قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ أُنْجُلٌ إِلَيْكَ فِي كُتُبٍ لَاتُحْصَوْنَ بِالْيَمِينِ وَالْيُسْرَى﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤] في الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: أرسلناهم (بالبينات) أي بالمعجزات الواضحة، والحجج الساطعة (والزُّبر) أي وبالكتب المقدسة، ويسمى هذا النوع (حذف الإيجاز) لدلالة السياق عليه، وهو من إيجاز البيان بمكان!!

٤ - قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُونَ ثِقَلَهُ حَثَثَةً وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] في الآية جملة اعتراضية، فلنقل: ﴿شَبَّهَتْهُ﴾ معترضة بين الفعل وجوابه، وذلك لتعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح، ومعناها: تنزه الله وتقدس عما يقوله السفهاء، وأصل الكلام: ويجعلون لله البنايات ولهم ما يشتهون.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُونَ ثِقَلَهُ مَا يَكُونُ لَهُمْ رَيْفٌ أَلَيْسَتْهُمُ الْكُتُبُ أَمْ لَهُمْ نَذِيرٌ﴾ [النحل: ٦٢] قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُونَ ثِقَلَهُ﴾ هذا من بليغ الكلام وبديع - كما يقول الشهاب الخفاجي - استعار لفظ (تصف) للقول، أي

تقول السنثهم الكذب بأن لهم الجنة، ولكن التعبير جاء في أسمى درجات البيان، وأبلغ منازل الإبداع، على حد قولهم في المرأة الجميلة: (عَيْنُهَا تُصِفُ السَّحَر) ساحرة، أي من شدة الجمال، ولو قال: تقول السنثهم الكذب، أو السنثهم كاذبة، لضاع هذا الجمال الأخاذ، فانظر روعة البيان، في تصوير القرآن.

٦- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَأَ بِهِ الْأَرْضَ بِحُسْنِ مَرْحَبَةٍ﴾ [النحل: ٦٥] في الآية (استعارة بديعة) استعار لفظ الموت للنبس والجذب، أي أحيا بالمطر الأرض بعد أن كانت جرداء يابسة، تشبه الميت، فكما أحيا الأرض بالمطر، كذلك يحيي الله البشر، وفي الآية الكريمة تشبيه القلوب الميتة، بالأرض الجرداء الميتة، فالقرآن حياة للقلوب، والكفر موت لها. تفسير ابن كثير ٥٩٥/٢.

٧- قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ سُرُرًا وَفِيهَا تَقِفُونَ بِالْأَنْحَامِ...﴾ [النحل: ٨١] في الآية (إيجاز بالحذف) أي والبرق، حذف الثاني استغناء بذكر الأول، والمعنى: جعل لكم ثياباً من الصوف والقطن، تتحصنون بها من الحر والبرد، والسرير، الثوب الذي يلبسه الإنسان.

٨- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُشِيدُوا بُيُوتَكُمْ بِمَا يَصْلَحُكُمْ بِهِ قُلُوبُكُمْ...﴾ [النحل: ٩٤] في الآية (استعارة بديعة) استعار القدم للرسوخ في الدين، والتمكن فيه، لأن أصل الثبات يكوّن بالقدم، ولما كان الزلزل عن محبة الحق، يشبه زلزل القدم، عبّر به عن الانزلاق الحسي، بطريق (الاستعارة التمثيلية)، أي لا تجعلوا أيمانكم خديعةً ومكرًا، فتخرجوا من طريق الاستقامة، إلى طريق الخيانة.

٩- قوله تعالى: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] هذا من باب إطلاق (اسم المسبب على السبب) فيه (مجاز مرسل) عبّر عن الإرادة بالقراءة، أي إذا أردت قراءة القرآن، فاستعذ بالله، لأن الاستعاذة لا تكون بعد القراءة، بل قبلها، وهذه مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا قُتِلْتُمْ فَاقْتُلُوا قَاتِلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] أي إذا أردتم الصلاة.

١٠- قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّبِيُّ يَلْمِزُهُمْ فِي الْأَعْيَانِ وَكَانَ اللَّهُ مُخَيَّرًا لِّمَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ١٠٣] في الآية (استعارة بديعة) استعار لفظ (اللسان) للغة والكلام، والعرب تستعمل اللسان بمعنى اللغة قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [النحل: ١٠٤]

إِلَّا رِيسَانِ قَوْمِهِ. ﴿٤﴾ [إبراهيم: ٤] أي بلغة قومه، قال الشاعر:

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إِلَيْنَا وَحُكَّتْ وَمَا خَبِبْتُكَ أَنْ تَخُونَا
والمعنى: لغة الرجل الذي يزعمون أنه علّمه القرآن أعجمية غير بيّنة،
وهذا القرآن الكريم لغته عربية فصحة، فمن أين للأعجمي أن يتذوق بلاغة هذا
الكتاب المعجز، في فصاحته وبيانه؟

١١ - قوله تعالى: ﴿فَأَذَقْنَا اللَّهُ لِأَسْرِ الْجُوعِ وَالْحَبْرِ بِمَا كَانُوا يَقْتَتُونَ﴾
[النحل: ١١٢] اللباس لا يُذاق بل يلبس، وجاء هنا بأصاليب العرب البليغة،
بطريق (الاستعارة التمثيلية) شبه أذى الجوع والخوف، باللباس المحيط باللبس،
واستعير له لفظ الإذاقة عن طريق الاستعارة، وهذا من أبلغ الكلام وأفصحها،
كما في قول الشاعر:

قَطَعُمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ خَجِيرٍ كَطَعُمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ



بالبيان، الذي يتهدم على أصحابه الذين بنوه، فعاد الدمار عليهم، قال الله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَمِيزُ بَيْنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] مشهد رائع، ووصف بديع، للهلاك والدمار الذي أصاب المجرمين، الذين أرادوا إطفاء نور الله، بالفتك بالرسول الذين بعثوا لهدايتهم... مثل تعالى لما دبره أولئك الأشقياء، بحال قوم بنوا بنياناً، شدد الدعائم، قوي الأساس، فدمر الله بنيانهم من أساسه، فذهب الأساس، وهدمت القواعد، وسقط عليهم السقف، فبادوا وهلكوا، وجاءهم الدمار من حيث لا يخطر على البال، وهو تمثيل بادي الروعة، فائق الجمال، فالبناء الذي بنوه لبقائهم، عاد سبباً لفنائهم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأُنْفُسِهِمْ﴾ [فاطر: ٤٣] وفي الأمثال: (من حفر حفرة لأخيه وقع فيها).

مثالان في بطلان عبادة الأصنام والأوثان

٣- ومن روائع وبدائع الأمثال، في بطلان عبادة الأصنام والأوثان، ما ضربه الله عز وجل للآلهة التي عبدها المشركون، فقد ضرب مثلين، كل منهما في منتهى الروعة والإبداع.

أما المثل الأول: فهو قول الله عز وجل: ﴿مَنْ رَبَّ اللَّهِ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ إِثَارَ فَقَا حَسَنًا فَهُوَ يُحْيِي مِنْهُ يَرَىٰ وَجْهَهُمْ هَلْ يَسْتُرُونَ الْمُسَدُّ يَنْفِرُ أَصْحَابُهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ١٧٥].

توضيح المثل: عبد رقيق مملوك، لا يملك الكسب والمال، ضعيف القدرة، ضعيف الحيلة، عاجز عن التصرف، وسيد حر مالك لهذا العبد، يفعل ما يشاء، ثم هو غني موسر، وافر المال، يُنفق من هذا المال، على نفسه وعلى عبده، ينفق ببذل وسخاء، ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فهل يتساوى السيد المالك، مع العبد المملوك؟

هذا المثل ضربه الله عز وجل لنفسه، وللأوثان التي يعبدونها من دون الله، فالله هو المالك لكل شيء، وهو الرازق لكل المخلوقات، يُنفق كيف يشاء على عباده، والأصنام والأوثان مملوكة عاجزة، لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لله، ويعبدونها من دون الله؟ مع التفاوت العظيم بين الإله القادر، والوثن العاجز؟

وهذا المثل مأخوذة من واقع حياة الناس، فقد كان لهم عبيد مملوكون، لا يملكون شيئاً، ولا يقدرون على شيء، وإذا كان هؤلاء الحمقى الجاهلون، لا يسوون بين السيد المالك، والعبد المملوك، فكيف يسوون بين سيد العباد، رب العزة والجلال، وبين هذه الآلهة المزعومة؟ وإذا كان في منطق البشر، عدم التسوية بين السيد المالك، والعبد المملوك، مع أنهما متساويان في البشرية، فما الظن برب العالمين، حيث يشركون به أعجز المخلوقات وهي الأصنام؟ فكيف يتساوى الخالق مع المخلوق؟

أما المثل الثاني: فقد ضربه للإله المعبود بحق، وللوثن الذي يُعبد من دون الله ﴿وَمَرْبُؤُا اللَّهِ مَثَلُ الْإِلهَةِ لَنَكْفِيَنَّهُمْ لَا تُفْلِحُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَرِيمٌ﴾ [النحل: ١٧٦] شبه تعالى الأصنام التي يعبدونها، برجل أخرس أبكم، لا يتكلم ولا ينطق بخير، ولا يقدر على شيء بالكلية، أينما أرسلته لا يأتيك بخير، ولا يفضي لك حاجة ﴿وَهُوَ كَرِيمٌ عَلَى نَفْسِهِ﴾ وهو ثقيل، عالة على سيده ووليه، وحشما أرسله سيده لا ينجح في مسعاه، لأنه أخرس، بليد الذهن والجس، أبكم القلب واللسان، هل يستوي هذا الأخرس الأبكم، مع الرجل الفصيح البليغ، المتكلم بأفصح لسان، وأحسن بيان؟ وهو يسير على هدى من نور القرآن؟

إذا كان العاقل لا يسوي بين هذين الرجلين، فكيف يمكن التسوية بين الإله الحق القدير، وبين الصنم العاجز الحقير؟ وكلا المثلين بالغ الإبداع والجمال.

القمطيل لناقض العهد بالمرأة الحمقاء

١ - وهناك مثل رائع يتجسد في هذه الصورة، صورة امرأة حمقاء، تغزل غزلاً ثم تنقضه، ولا تجني من ورائه، إلا التعب والعناء، ضربه القرآن الكريم لمن نقض العهد، ونكث في العهد ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَقَتْ أَعْقَابُهُمْ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِمْ فَأَنْتُمْ شَرُّ الْبَشَرِ إِلَّا لَمَنْ يَتُوبْ﴾ [النحل: ٩٢].

هذا مثلٌ بديع لناقض للعهد، إنه صورة لامرأة جاهلة حمقاء معتوهة، تغزل غزلاً وتفتله محكماً، حتى إذا أوشكت على الانتهاء منه، نقضته فجعلته أنكاثاً أي قطعاً محلولة مبثرة، تنقض حياتها فيما لا يعود عليها بشيء من النفع

ولنقف قليلاً أمام هذا التعبير القرآني البديع ﴿فَادْفَقَهَا اللَّهُ لِبَاسِ الْحُجُوجِ وَالْحَوَافِ﴾ فإن اللباس ما يلبسه الإنسان، ولكنه في الآية الكريمة، جاء بشكل بديع، وتعبير رائع، شبه الخوف والجوع، بلباس خشن، كمرية الشكل، والرائحة، والملبس، يحيط بالإنسان من جميع أطرافه، على طريقة (الاستعارة التمثيلية) وهذا من أبلغ الكلام وأفصحها، قال الشاعر:

فَطَنَمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ خَفِيرٍ كَطَنَمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ
والموت ليس طعاماً يذاق، حتى يشعر الإنسان بطعمه، ولكنه الإبداع في التعبير، بطريق (الاستعارة) التي تمنح الكلام رونقاً وبهاءً، وحُسنًا وجمالاً. ١



الإبداع البياني في سورة الإسراء

١ - قوله تعالى: ﴿وَحَوًّا نَابَةَ اللَّيْلِ وَخَفًّا نَابَةَ النَّهَارِ مُبِيرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] عبر عن الظلمة (بالنحو) يعني الطمس، أي جعلنا الليل مظلماً، والنهار مضيئاً، تشبيهاً لليل بالظلمة ثم الإشراق، والنهار لا يُبصر بنفسه، إنما تُبصر فيه الأشياء، فهو من باب (إسناد الشيء إلى زمانه) لأنه الوقت الذي يميز به الناس أمور معاشهم، وفيه (مجازٌ عقلي) يدرك بالعقل.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِسْرٍ أَرْتَهُ مُعِشَةٍ فِي عُمْقٍ﴾ [الإسراء: ١٣] في الآية (استعارة لطيفة) بديعة، استعار الطائر لعمل الإنسان، خيراً كان العمل أو شراً، كأنه طار إليه من خزائنه الغيب، وعُش القدر، وزيادة في التصوير لشدة الملازمة، بين الإنسان وعمله، ذكر العُثْق ﴿وَالْعُثْقُ﴾ أي الزمنا عمله، بحيث لا يفارقه أبداً، بل يلزمه لزوم القلادة، أو الغُلُّ للعُثْق، فإن كان عمله خيراً، كان كالجَلِيَّة له يزيئها، وإن كان شراً، كان كالغُلُّ يسيئها، وكلُّ هذا الإبداع البياني، جاء عن طريق التصوير بالطائر الميعون أو المشنوم، وكان العرب يتفاءلون أو يتشاءمون بالطير.

٣ - قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَقْرَبًا﴾ [الإسراء: ١٤] في الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: يُقال للإنسان يوم القيامة: اقرأ كتاب عملك، كفى بك اليوم أن تكون شاهداً على نفسك.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادْنَا أَنْ تُنِيلَ قَرْنُهُ أَزِيدَ أَزْرًا تُتْرِكُهَا فَنَقُصِّهَا﴾ [الإسراء: ١٦] في الآية الكريمة (مجاز بالحذف) في موضعين:

الأول: ﴿تُنِيلَ قَرْنُهُ﴾ المراد أهل القرية، فهو على حذف مضاف.

الثاني: ﴿أَزِيدَ أَزْرًا تُتْرِكُهَا﴾ فيه محذوف تقديره: أمرناهم بطاعة الله، وطاعة رسوله، فخالفوا وفسقوا فيها، وبدلوا على ذلك أن الله تنزه عن القبيح، لا يأمر بالفسق والفجور، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] فكيف يأمرهم بالفسق، ثم يعاقبهم ويدمرهم؟ وهذا النوع من

الحذف معروف في أساليب العرب، يقول أحدهم عن خادمه: أمرته ففَضَّاني، فهو لم يأمره بالعصيان، وإنما تمرد عليه وعصى أمره، وهنا أمرهم الله بطاعته فعَصَوْا أمر الله، فاستحقوا العذاب، فأهلكهم الله إهلاكاً قاطعاً.

قال الحافظ ابن كثير: أمرهم بالطاعات، ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة، فدمرهم الله تدميراً. اهـ تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبْنَا كَافِرِينَ كَذِبًا وَأَكْبَارًا﴾ [الإسراء: ١٧] القرون لا تهلك، إنما الهلاك لأصحابها، ففي الآية (مجاز مرسل) والمعنى: لقد أهلكنا يا معشر قريش، كثيراً من الأمم الطاغية، المكذبة لرسولها، وفي الآية تهديد لكفار مكة الذين كذبوا خاتم المرسلين.

قال الحافظ ابن كثير: والمعنى: إنكم أيها المكذبون، لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتكم أشرف الرسل، وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦.

٦ - قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] كثرى بالعاجلة عن (الدنيا) أي من كان يريد نعيم الدنيا فقط، لا هم له غيرها، عجلنا له من نعيمها ما نشاء تعجيله نحن، لا كما يحب هو ويهوى، قاتل بين العاجلة - الدنيا - وبين ما أعدّه الله للمؤمنين يوم القيامة بقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩] فتحقق أن المراد بالعاجلة هي الدنيا، وشهواتها الفانية.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّيُوبِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] في الآية (استعارة مكنتية) بديعة، وقد تقدم بيانها في سورة الحجر ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] خفض الجناح مستعار من خفض الطائر جناحه، إذا أراد أن ينحط على الأرض، أي تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين، وهي (استعارة بديعة) من روائع أنواع الاستعارة.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِثْرَ الْفُتُورِ إِلَّا ظَهْرَكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) في غاية الإبداع البياني، وقد تقدم الحديث عنها في هذا الكتاب بإسهاب ص ٨٠.

٩ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَزَّلْنَا الذُّرُوقَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ وَالْمِيزَانَ﴾ [الإسراء: ٣٠] بسط الرزق: كناية عن التوسعة ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ كناية عن التضييق في الرزق، أي يوسع

الرزق على من يشاء من عباده، ويضيق على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة، وهو القابض الباسط، المعطي المانع، كما قال سبحانه: ﴿وَنُزِّلَ إِلَيْهِ الرِّزْقُ لِيُنْزِلَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ﴾ [الشورى: ٢٧] ففي الآية كناية لطيفة.

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُنْ لَهُ رُكُودٌ يَأْتِيكِ الرُّكُودُ بِالْأَمْرِ كَذَبَتْ بِهَا الْأُولُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] المنع محال في حقه تعالى، لأنه لا يمنعه عن إرادته شيء، فهو هنا (مجاز) عن الترك، أي ما كان سبب ترك إرسال المعجزات، إلا تكذيب الأولين، وما تركنا إجابة المعاندين إلى ما طلبوا واقترحوا، من (إحياء الموتى، وإزالة الجبال، وإجراء الأنهار) إلا لعلنا بعدم إيمانهم، فلو أخطوها لكذبوا، وعند ذلك يستحقون الهلاك، والله يعلم أن من أبانهم من يؤمن بالله، فلذلك لم يُجِبْهم إلى ما طلبوا، لئلا يهلكوا كما هلك السابقون، وانظر تفسير ابن كثير ٥١/٣.

١١ - قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأْنَا ثَمْرَةَ النَّاقَةِ تَمِيمَةً فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَزَقْنَاهُ يَاقْتِزِبًا﴾ [الإسراء: ٥٩] في الآية (مجاز عقلي) نسب الإبصار إلى الناقة (مبصرة) ولا يراد به أن الناقة تُبْصِرُ، إنما لما كانت معجزة باهرة، وسبباً لإبصار الحق، ومعرفة صدق رسالة (صالح) عليه السلام، نسب الإبصار إليها (بطريق المجاز)، والعلاقة هي (السيئة).

والمعنى: أعطينا قوم صالح الناقة، علامة بينة، ومعجزة ساطعة، يبصرون بها الحق، ويعرفون صدق رسالة نبي الله (صالح) فكفروا بها وجحدوا، بعد أن سألوها، فأهلكهم الله، وما نرسل بالخوارق الكونية كالزلازل، والصواعق، والفيضانات، إلا تخويفاً للعباد، ليرتدعوا ويتزجروا.

١٢ - قوله تعالى: ﴿وَأَنبَأْنَا عَلَيْهِمْ خَبْرَ قَوْمِهِمْ وَنَادَيْنَاهُمْ فِي الْأَمْثَلِ وَالْأَوَّلِ﴾ [الإسراء: ٦٤] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، مثلت حال الشيطان في تسلطه على من يُفْويهم، من أتباعه الضالين، بفارس مغوار، يصبح بجنوده للهجوم على الأعداء لاستئصالهم، والآية تمثّل لجمع قوى الشر على بني آدم.

قال ابن عباس: صوته كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى. ابن كثير ٥٣/٣.

١٣ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنثَى بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الإسراء: ٧١] أصل الإمام هو الذي يتقدم الناس للصلاة بهم، واستعير هنا (لكتاب الأعمال) أي ندعو كل إنسان بكتاب عمله، ليُسَلَّم له يده، وينال جزاءه، ففي الآية (استعارة

تبعية) تشبيهاً للكتاب بالإمام، الذي يتقدم المصلين، والدليل على أن المراد بالإمام (كتاب العمل) قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاهُ نَحْنُ نُخَبِّرُكَ وَإِمَامُ الْمُبِينِ﴾ [يس: ١٢] أي جمعناه وسجلناه في كتاب واضح، ليكون شاهداً على عمل كل إنسان.

١٤ - قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ بِإِذْنِ رَبِّكَ يَقْرُءُونَ حِكْمَتَهُ وَلَا يَخْتَلِفُ فِيهَا شَيْءٌ﴾ [الإسراء: ٧١] الفخيل: مثل يضرب للقلّة والحقارة، أي ولا ينقص من أعمالهم شيء ولو بمقدار الخيط الذي يكون في شق النواة.

١٥ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فِي هَذِهِ مَقْصِدًا لِمُنَازَعَةٍ أَوْ مَثَلًا خَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٢] في الآية (استعارة بديعة) المراد بالعمى هنا (عمى البصيرة) لا عمى البصر، تشبيهاً لمن ضل الطريق، بالأعمى الذي لا يرى ما أمامه. والمعنى: من كان في الدنيا أعمى القلب، لا يهتدي إلى رشده، ولا يرى طريق النجاة، فهو في الآخرة أشدّ عمى وضلالة، من الأعمى فاقد البصر.

١٦ - قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتِ وَالَّتِيسَ إِذَا غُشِيَ اللَّيْلُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ﴾ [الإسراء: ٧٨] المراد بقوله: ﴿وَقَرَأَ الْقُرْآنَ﴾: صلاة الفجر، أطلق على الصلاة بعض أركانها، وهي القراءة بطريق (المجاز المرسل) لأن القراءة جزء من الصلاة، وركن من أركانها، فهو من باب (إطلاق الجزء، وإرادة الكل) ومعنى ﴿إِذَا غُشِيَ اللَّيْلُ﴾ زوالها عن كبد السماء وقت الظهيرة ﴿وَعِشَى اللَّيْلِ﴾ ظهور ظلمته الحالكة، والآية أشارت إلى الصلوات الخمس، التي فرضها الله تعالى على عباده المؤمنين.

١٧ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَسَاءَلَ الَّذِينَ آمَنُوا فَمَا عَابِدُوا رَبَّهُمْ إِلَّا شَرًّا﴾ [الإسراء: ٨٣] أسند الخير إلى الله تعالى ﴿وَإِذَا آمَنَّا﴾ فنسب الخير إليه، وعند ذكر الشر لم يصفه لنفسه ﴿وَإِذَا آمَنَّا شَرًّا﴾ وذلك لتعليمنا الأدب مع الله تعالى، وهذا كقول إبراهيم ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهْوَ يَهْدِينِ﴾ نسب الهداية إلى الله، ولما ذكر المَرَضَ، لم ينسبه إلى الله تعالى، وإنما قال: ﴿وَلَا مَرِضْتُ فَهْوَ تَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فتدبر روائع البيان الحكيم في تعابير القرآن.



روائع التمثيل في سورة الإسراء

التمثيل لعمل الإنسان بالطائر

١ - يقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتُهُ طَائِرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الإسراء: ١٣] الطائر هنا: استعارة عن عمل الإنسان الذي فعله في الدنيا، من خير أو شر، فعمله ملازم له كالطوق في العنق، لا ينفك عنه، وقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ تصوير لشدة لزوم، وكمال الارتباط، بحيث لا يفارقه أبداً، بل يلزمه لزوم القلادة للعنق، أو العُل لليد، فإن كان عمله خيراً، كان حليّة له يزيّنه، وإن كان شراً كان كالْعُل يقبّحه، ويثبّته، وقد خاطب الله العرب بما يعرفون، إذ كانوا يتفاهلون ويتشاءمون بالطير، سارحةً وبارحة، فأخبرهم تعالى بأوجز لفظ، وأبلغ إشارة، إلى أن جميع ما يفعل الإنسان، من خير وشر، ملازم له لا ينفك عنه، حتى يلقي جزاءه في الآخرة، على طريق (الاستعارة المكنية) وهي استعارة بديعة، شبه تعالى العمل بطائر، يطير إليه من عُش الغيب، فيلازمه ملازمة الطوق للعنق، والسوار للمعصم، فيرى فيه حسناته وسيئاته.

قال الحسن البصري: (يا ابن آدم، لقد انصفتك ربك، عدلَ والله من جعلك حسيب نفسك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثِر، فإذا بيث طويث ضحيقتك، فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً منشوراً)، وهذا من أحسن الكلام وأبدعه^(١).

التمثيل للتواضع للوالدين بخفض الجناح

٢ - يقول الله تعالى أمراً بالتواضع للوالدين: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] ما أسمى هذا الأسلوب البياني، الذي عرضه القرآن، في تصوير تواضع الإنسان لوالديه ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا

خَاجَ الدُّرِّمِ الْإِخْصِ ﴿ فقد شَبَّهَ الذَّلَّ، بطائرٍ له جناح، إذا طار فتح جناحيه ونشَرهما، وإذا توقَّف عن الطيران، قَبَضَ جناحيه إليه، فشَبَّهَ شَدَّةَ التَّواضُعِ لهما بقبضِ الجناح، ولم يكتفِ بذكر الجناح، بل أضافه إلى الذَّلَّ ﴿ سَاحَ الذَّلَّ ﴾ ليشعره بالانكسار والخضوع والتذلل لهما، كأنه لَذُلُّه جناح مكسور، وأنه لتصوير بالغ الروعة والجمال، بطريقة (الاستعارة المكنية).

ومعنى الآية الكريمة: تواضع لهما بتذلل وخضوع، من فرط رحمتك وعطفك عليهما، وقل: يا رب ارحم والدي، وأكرمهما برحمتك الواسعة، كما أحسن تربيته في صغري.

التمثيل للبخل بقبض اليد وبسطها

٣ - قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْمَلْ يَدًا مَغْلُوبَةً إِلَىٰ سَبِيلِكَ وَلَا تَسْفِرْ يَدَكَ إِلَىٰ السَّخِيمِ فَنَفَعُ مَنُومًا غَسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩].

مثل تعالى للبخل بتمثيل رائع بديع، شَبَّهَ البَخِيلَ بإنسان شَدَّتْ يده إلى غنقه، فلا يستطيع أن يخرج من جيبه شيئاً من المال، ليثبِّق منه، ولا يقدر على مَذْهَاهُ، لأنها مغلولَةٌ أي مربوطة بالعُنُق، وشَبَّهَ المَسْرِفَ المَبْذِرَ، بإنسانٍ يلقي كُلَّ ما في يده من المال، حتى لا يبقى معه شيء منه، وذلك بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهما تمثيلان بديعان، لمنع شُحِّ الشحيح، وإسراف المَبْذِر.

ومعنى الآية الكريمة: لا تكن أيها الإنسان العاقل بخيلاً، متوَعاً عن الإنفاق، كمن خَبِثَ يده، وشَدَّتْ إلى غنقه، ولا تكن مسرفاً مبذراً، تتوَشَّع في الإنفاق توسعاً مفرطاً، بحيث لا تترك شيئاً في يدك، فتصير مذموماً عند الله وعند الناس، يلومك الناس ويذمُّونك، وتصبح محسوراً منقطعاً عن الإنفاق والتصرف.

والحسِيرُ في اللغة: الدابة تعجز عن السير، فتقف ضعفاً وعجزاً، كذلك من أسرف ماله وبذره، انقطع عن توفير حاجاته، كمن ينقطع في سفره بانقطاع مطيته، والآية على وجازتها أرست قواعد الاقتصاد المالي، فلا بُخْل ولا شُح، ولا سرف ولا تبذير.

التمثيل للمتكبر بالمتطاول على الجبال

٤ - وفي تصوير المتكبر المختال، بالمتطاول على الأرض والجبال، تمثيل بديع، يسمو إلى دُزَى الفصاحة والجمال، يقول سبحانه: ﴿ لَا تَسِرُّوهُ ﴾

الْأَرْضَ مَرَّاتًا إِنَّكَ لَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَمَنْ خَلَقَ الْجِبَالَ الْأُولَى ﴿[الإسراء: ٣٧]﴾ أَي لَا تَمْشِ فِي
الْأَرْضِ مِشْيَةَ الْمَتَكَبِّرِ الْمُخْتَالِ، الْمَعْجَبِ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ضَعِيفٌ
هَزِيلٌ، لَا يَلِيقُ بِكَ الْكِبَرِيَاءُ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ بِمِشْيَتِكَ، مَهْمَا كُنْتَ ضَخْمًا أَوْ تَخَرَّقَ
الْأَرْضَ، فَتَقْهَرَهَا وَتُسْخَرَهَا بِعَظَمَتِكَ، وَلَا أَنْ تَتَطَاوَلَ عَلَى الْجِبَالِ، فَتَصِلَ إِلَى
قِمَمِهَا وَدُرَاهَا... وَفِي الْآيَةِ (تَهَكُّمٌ لاذِعٌ) وَسُخْرِيَةٌ بِالْمَتَكَبِّرِينَ الشَّامِخِينَ
بَأَنْفُسِهِمْ، فَمَا هِيَ عَظَمَةُ الرِّجَالِ أَمَامَ شُمُوحِ الْجِبَالِ؟ وَمَا هُوَ ثِقَلُ الْإِنْسَانِ أَمَامَ
ثِقَلِ الْأَرْضِ وَالْجِبَلِ؟ وَمَا أَبْدَعَ قَوْلَ الْقَائِلِ:

وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ إِلَّا تَوَاضَعًا فُكِمَ ثَخَثُهَا قَوْمٌ فَضَوِ بِثَنِكَ أَرْغُ
رَأَى رَجُلٌ مِنَ الصَّالِحِينَ، شَخْصًا يَمْشِي مُتَبَخَّرًا، فَقَالَ: قَفْ، أَتَدْرِي مَنْ
أَنْتَ؟ أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مُذْرَاةٌ - مِهْنَةٌ - وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَأَنْتَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ تَحْمِلُ
الْعَذْرَةَ!! يَعْنِي النِّجَاسَةَ، فَكَانَتْ لَهُ دَرْسًا بَلِيغًا.

التمثيل لإضلال إبليس للبشر

٥ - لَمَّا طَرَدَ اللَّهُ إِبْلِيسَ مِنَ الْجَنَّةِ، لِمَعْصِيَتِهِ أَمَرَ اللَّهُ، وَاسْتِكْبَارِهِ عَنِ
السُّجُودِ لِآدَمَ، أَقْسَمَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ يَهْلِكَ ذُرِّيَّةُ آدَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَبِئْسَ الْأَعْرَافُ إِنَّ يَوْمَ
الْفِتْنَةِ أَكْحَلَ عُيُونَهُمْ أَتَى قَالَ﴾ [الإسراء: ٦٢] أَي لَأَسْتَأْصِلَنَّ ذُرِّيَّتَهُ بِالْإِغْوَاءِ
وَالْإِضْلَالِ. ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ جَعَلْتُ جِبَالَ الْجَزَّةِ مِثْرًا لَكُمْ﴾ [الإسراء: ٦٣]
أَي مِنْ أَطَاعَكَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، فَجَزَاؤُكُمْ جَمِيعًا نَارَ جَهَنَّمَ، جَزَاءً وَافِيًا كَافِيًا،
ثُمَّ جَاءَ التَّمَثِيلُ لِإِضْلَالِ إِبْلِيسَ لِلْبَشَرِ، بِقَوْلِهِ مَسْجَانُهُ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ
مُسْرِفُونَ وَأَتْلَفَ عَلَيْهِمْ خِيَلًا وَجِبَالًا وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَعَذَّبَهُمْ وَمَا يَعْلَمُهُمُ الشَّيْطَانُ
لَا عَرُونَ﴾ [الإسراء: ٦٤] أَي حَرَّكَ مِنْ أَرَدَتْ أَنْ تَسْتَفْرِزَهُ، بِدَعَائِكَ لَهُ إِلَى الشَّرِّ
وَالْفَسَادِ، وَاجْمَعْ لَهُمْ أَعْوَانَكَ وَجُنُودَكَ، مِنْ جَمِيعِ الرُّكْبَانِ وَالْمُشَاةِ، وَعَذِّبْهُمْ
بِالْوَعْدِ الْكَاذِبِ، فَلَنْ تَغْوِي مِنْهُمْ إِلَّا أَتْبَاعَكَ الْمَجْرِمِينَ.

وَالْآيَةُ تَعْنِي لِيَجْمَعَ قَوَى الشَّرِّ عَلَى بَنِي آدَمَ، مِثْلَ حَالِ إِبْلِيسَ فِي تَسَلُّطِهِ
عَلَى مَنْ يُغْوِيهِ، بِفَارِسٍ مَغْوَارٍ، أَغَارَ عَلَى قَوْمٍ، فَصَوَّرَتْ بِهِمْ صَوْنًا، يَسْتَفْرِزُهُمْ
عَنْ أَمَاكِنِهِمْ، وَيَقْلِقُهُمْ عَنْ مَرَائِزِهِمْ، وَصَاحَ عَلَيْهِمْ بِجُنُودِهِ مِنْ خِيَالِهِ، وَرَجَالِهِ
حَتَّى اسْتَأْصَلَهُمْ^(١).

ففي الآية (استعارة تمثيلية) شُبِّهَتْ حَالُ الشَّيْطَانِ فِي تَسْلُطِهِ عَلَى مَنْ يُغْوِيهِ، بِالْفَارَسِ الَّذِي يَصْبِيحُ بِجُنُودِهِ، مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ عَلَى الْخَيْلِ، أَوْ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ، لِلْمُهْجُومِ عَلَى الْأَعْدَاءِ لِاسْتِثْصَالِهِمْ، وَالْإِجْلَابُ: الصِّيَاحُ بِالصَّوْتِ الْمُرْتَفِعِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: صَوْتُهُ: كُلُّ دَاغٍ يَدْعُو إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: صَوْتُهُ: الْغَنَاءُ، وَالْمَزَامِيرُ، وَاللَّهُوُ، وَالطَّرْبُ.

التعميل بمعنى القلب

٦ - يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانِ فِيهِ ذِيْقُ الْأَجْرِ أَعْمَى وَآمَدٌ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] لَا يَرَادُ بِالْآيَةِ عَمَى الْبَصَرِ، إِنَّمَا يَرَادُ بِهِ (عَمَى الْقَلْبِ) شُبُّهُ الضَّالِّ الَّذِي لَا يَهْتَدِي إِلَى الْحَقِّ، بِالْأَعْمَى الَّذِي فَقَدَ بَصَرَهُ، فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى الطَّرِيقِ، حَيْثُ رَأَى الضَّلَالِ هَدًى، وَالْهَدًى ضَلَالًا، وَالْبَاطِلُ حَقًّا، وَالْحَقُّ بَاطِلًا، فِهَذَا الْعَمَى أَخْطَرُ مِنْ عَمَى الْبَصَرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْبَا لَأَنْفُسِ الْأَنْفُسِ وَبَلْ كُنْ تَعْمَى الْقُلُوبِ الَّتِي فِي السُّجُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فَعَمَى الْبَصَرِ هُوَ الْحَقِيقَةُ، وَعَمَى الْقَلْبِ مُجَازٌ.

يُحْكِي أَنَّ رَجُلًا أَعْمَى يَزْعُمُ الْعِلْمَ، كَانَ جَالِسًا فِي حَلْقَةِ دَرَسٍ، وَكَانَ هُنَاكَ شَيْخٌ عَالِمٌ فَاضِلٌ، يَفْشِرُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَشْرِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُتِّفَتْهَا وَالْقَبِيلَ الَّتِي أَقْبَلَتْ بِهَا وَإِنَّ لَسَدِيقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢]. فَقَالَ الشَّيْخُ: هَذِهِ الْآيَةُ مُجَازٌ، لِأَنَّ الْقَرْيَةَ سَقَفٌ وَجُدْرَانٌ لَا تُسَالُ، وَالْعِيرُ - أَيْ الْإِبِلُ - لَا تُجِيبُ، فَالْمَسْؤُولُ أَهْلُ الْقَرْيَةِ، وَأَهْلُ الْإِبِلِ، فَالْآيَةُ (مُجَازٌ مُرْسَلٌ) عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، فَانْكَرَ عَلَيْهِ الْأَعْمَى هَذَا الْقَوْلَ، وَقَالَ غَاضِبًا مُنْكَرًا عَلَيْهِ: أَتَيْتُ اللَّهَ فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَلَيْسَ فِيهِ مُجَازٌ، فَأَجَابَهُ الْعَالِمُ عَلَى الْبِدِيهَةِ، مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانِ فِيهِ ذِيْقُ الْأَجْرِ أَعْمَى وَآمَدٌ سَبِيلًا﴾؟ فَإِذَا كَانَتْ الْآيَةُ مَحْمُولَةً عَلَى الْحَقِيقَةِ (عَمَى الْبَصَرِ) فَالْعَمِيَّانِ جَمِيعًا فِي جَهَنَّمَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ يُرَادُ بِهَا (عَمَى الْقَلْبِ) فَهِيَ مُجَازٌ، فَبُهِتَ الْأَعْمَى الْمَعْتَرِضُ، وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ، وَانْعَقَدَ لِسَانُهُ، وَكَانَتْ دَرْسًا بَلِيغًا لَهُ.

التعميل لطغيان الإنسان

٧ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَسْمَاعُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَبَتْ وَتَقَا حَبَابُهُ وَإِذَا شَاءَ الشَّرُّ نَزَحَ يَنْوُتُ﴾ [الإسراء: ٨٣].

هذه الآية تمثيل لطفيان الإنسان الكافر، فإن أصابته النعمة يَطْرُ وتكبر، وإن أصابته النعمة والشدة، أيس وقَيْط، مثل له بمن يأتيه إنسانٌ يطبق من الطعام الشهى، فيه أنواع اللحوم الحلوى، فيغْرِض عنه، ويُدير له ظهره، كثيراً وعناداً، وهو تمثيلٌ بديع لطفيان الإنسان الكافر، الجاحِد لنعم الله.

التعثيل للرزق بخزائن العلك

٨- قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تِلْكَؤُنَ حَزَائِرَ رَحْمَةٍ رَّبِّ إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خُبْرَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسُ قَتْرًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] في هذه الآية تمثيلٌ لرزق الله لعباده، بخزائن مفاتيحها بيد الله جل جلاله لا يملكها أحد من البشر، والمعنى: قل يا أيها الرسول لهؤلاء المقترحين للخوارق والمعجزات: لو أنكم كنتم تملكون مفاتيح خزائن رزق الله، وأوكل الله إليكم أمر الإنفاق على البشر، لبخلتم وأمسكنم عن الإنفاق، لأنكم أشحاء بخلاء، فكيف وأنتم لا تملكون شيئاً من ذلك؟

ففي الآية تمثيل بديع للرزق، بخزائن مفاتيحها بيد الرحمن جل جلاله. قال الزجاج: أعلمهم الله تعالى أنهم لو ملَكوا خزائن الأرزاق، لأمسكوا شحاً وبخلاً، خشية أن ينفقوا فيفتقروا، وإيراد الكلام بلفظ: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّهُ تِلْكَؤُنَ حَزَائِرَ رَحْمَةٍ رَّبِّ﴾ بصيغة المبتدأ والخبر، دلالة على أنهم هم المختصون بالشح، ﴿وَكَانَ الْإِنْسُ قَتْرًا﴾ أي بخيلاً ممسكاً لا ينفق خشية الفقر. اهـ فتح القدير للشوكاني ٢٦٧/٣.



الإبداع البياني في سورة الكهف

١ - قوله تعالى: ﴿فَمَلَكَ بِخُفٍّ نَفْسَكَ عَلَىٰ ذَاتِهِمْ إِذْ لَمْ يَقُولُوا بِهَذَا الْخَبِيرِ أَسَافًا﴾ [الكهف: ٦] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، شبه حاله عليه السلام مع المشركين، بحال من قارقه الأحباب، فكاد يهلك نفسه حزناً وغماً عليهم، وذلك من شدة حرصه على إيمان قومه.

والغرض من الآية: تسليّة النبي ﷺ وتخفيف الأحزان التي كانت تنتابه، لعدم إيمان أولئك المشركين، وكأن الآية تقول له: لا تهلك نفسك فإنهم أشقياء، لا يستحقون أن يتحسّر أو أن يحزن عليهم أحد.

يقال في اللغة: بخع نفسه: أي ألقاها وقتلها غماً، وفي الآية (كناية بديعة) فقد كُتِبَ عن القرآن العظيم بلفظ (الحديث) في قوله تعالى: ﴿إِذْ لَمْ يَقُولُوا بِهَذَا الْخَبِيرِ﴾ أي بهذا القرآن، سُمِّيَ القرآن حديثاً، لأن فيه أنبا الأمم وأخبارهم، وفيه المواعظ والنصائح والتذكير للبشر بما فيه خيرهم وسعادتهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَآلِهِمُ يَوْمَئِذٍ بُرْهَانٌ﴾ [الجاثية: ٦].

٢ - قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبْنَا عَلَىٰ ذَاتِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِتْرًا عَدَدًا ثُمَّ مَثَلْنَاهُمْ لَعَمْرُكَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الكهف: ١١، ١٢].

في الآية (استعارة لطيفة) عبّر عن النوم الذي أصابهم وهم في الغار، بالضرب على الآذان، تشبيهاً للنوم الثقيل الذي تغشاهم، ومنع وصول الأصوات إليهم، بضرب الحجاب عليها بطريق (الاستعارة التمثيلية) أي ألقينا عليهم النوم الثقيل، الذي كان يداعب أجفانهم، حتى لم يشعروا بمن دخل عليهم، وسدنا أسمعهم بالنوم الغالب عن سماع الأصوات، سنين عديدة، ثم أيقظناهم من تلك الثومة الثقيلة التي تشبه الموت بعد ثلاثمائة وتسع سنوات، لبيان قدرتنا العظيمة.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فِي قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

والشر ليس إليك) وإن كان الخير والشر، بتقدير من الله عز وجل.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَأْدُكُمْ إِلَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ عَاقِبَةً﴾ [الكهف: ٧٩] في الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: ياخذ كل سفينة مصلحة لا عيب فيها غصباً، دل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَرْوَدُكُمْ فِيهَا﴾ [الكهف: ٧٩] ولو كان الملك الظالم، يصادر كل سفينة صالحة أو غير صالحة، لما كان هناك وجبة لقطع أحد الواحها، وتعرض ركبها للخطر، وهذا الحذف من إيجاز البيان، ومعنى ﴿وَرَأْدُكُمْ﴾ أي أمامهم.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي مَقْعٍ﴾ [الكهف: ٩٩] في الآية (استعارة تبعية) لطيفة، شبه الناس لكثرتهم، وتداخل بعضهم في بعض، عند قيام الساعة، بموج البحر المتلاطم، واستعار لفظ (موج) المأخوذ من موج البحر، لشدة الهول والفرع، على طريق (الاستعارة التبعية) أي يضطرب بعضهم ببعض كأموج البحار المتلاطمة.

١٠ - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١] في الآية (تمثيل رائع بديع) لحال أولئك الأشقياء المجرمين، فقد كانوا ينظرون إلى الآيات الكونية، المنبئة في الآفاق فلا يعتبرون، وتعرض عليهم الآيات والمواعظ، فلا يؤمنون ولا يتعظون، وفي الحقيقة لم تكن أعينهم مغمية، أو عليها غطاء، ولم تكن أسماعهم صماء أو عليها حجاب، وإنما جاء هذا الوصف لهم بطريق (الاستعارة التمثيلية) وبإله من تمثيل بديع!!



الأمثال في سورة الكهف

الكناية اللطيفة في قصة أصحاب الكهف

١ - قال الله تعالى: ﴿فَضَرَبَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِتْرًا﴾ [الكهف: ١١] الضربُ على الآذان: كناية عن الإنامة الثقيلة، أي: ألقينا على الفتية، الذين دخلوا الكهف، النوم الثقيل، الذي يشبه الموت، سنين عديدة ٣٠٩/ ثلاثمائة وتسع سنوات، دون أن يموتوا، ثم أيقظناهم من نومهم، لنُدلِّ الخلق على قدرتنا على بعث الخلائق بعد موتهم، للحساب والجزاء، ولهذا قال بعده: ﴿ثُمَّ بَنَيْنَاهُمْ...﴾ [الكهف: ١٢] فهذه من الكنايات البديعة، كنى عن النوم بالضرب على الآذان، وهي من الكنايات اللطيفة.

التمثيل لرضوان الله بذكر الوجه

٢ - قال الله تعالى: ﴿وَأَنبَرُ نَسْلِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [الكهف: ٢٨].

مثل تعالى عن رضوان الله بإرادة الوجه بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي يريدون بعملهم رضوان الله تعالى... (روى أن أشراف قريش، اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقالوا له: نَحْ هَؤُلَاءِ الْعَبِيدُ الصَّعَالِيكُ عَنْ مَجْلِسِكَ، حَتَّى نَوْمُنْ بِكَ، وَنَسْمَعُ كَلَامَكَ، فَإِنَّا أَشْرَافُ قَرِيْشٍ وَسَادَتُهَا، إِنْ أَسْلَمْنَا أَسْلَمَ النَّاسُ، وَنَحْنُ نَأْتِفُ أَنْ نَجْلِسَ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ مَعَ هَؤُلَاءِ الصَّعَالِيكِ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَلْتَمِسُ الْفُقَرَاءَ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ جَلَسَ مَعَهُمْ، وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِنِي رَبِّي أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ» رواه مسلم، وكثيراً ما يعبر القرآن عن رضوان الله، بإرادة الوجه، كقوله سبحانه: ﴿يَرْبُّهُمْ لَوْ تَبَوَّأُوا لَكَ مِنَ الْإِنْسَانِ﴾ [٢٨] أي يريدون رضاه، وهو من الكنايات البديعة.

التمثيل لمن يشكر النعمة ومن يكفرها

٣ - ضرب الله مثلاً لمن يشكر نعمة ربه، ولمن يكفرها، برجلين صديقين في الأمم السابقة.

أحدهما: وشع الله عليه في الرزق والمال، فكان له بستانان عظيمان،
 فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار، من كل ما يخطر على البال، من العنب،
 والرطب، والرمان، وشجر التخليل والتفاح. وجميع أنواع الفواكه والثمار، وفي
 وسط هذين البستانين، يجري نهر يتدفق بالماء العذب السلسيل، يحمل معه
 روح الحياة للبستانين، يسقي النبات، والأشجار، والثمار، فيزداد الثمر، وتكثر
 الخيرات، وتزداد الغلة، وقد تضخم ثروته، حتى أصبحت فوق الحد والغد،
 وأخذته العزة بالإثم، فطنى وبغى، وجحد نعمة الله، وأخذ يتباهى بما هو عليه
 من سعة الرزق، وكثرة المال، وبما هو فيه من الرفاهية والسعادة، وانتهى به
 المطاف أن يكفر بالله، وينكر لقاءه، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ لَّهُمْ ثَلَاثَ زَلِيلٍ خَلَقْنَا
 لِيُذِخَهُنَّ كُنُوزَهُمْ إِلَىٰ نَهَايَةِ قَوْلِهِ﴾ [النجم: ٣٢، ٣٣].

أما الثاني: فرجل مؤمن صالح، أنفق ماله في مرضاة الله، وفي وجوه
 الخير والإحسان، حتى أوشك أن ينفد ماله، وجمعهما اللقاء بعد طول الفراق،
 وجرى بينهما الحديث الآتي: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَرَّ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزَّ نَفْسًا﴾
 [الكهف: ٣٤] أخذ هذا الغني بيد صديقه، ودخل به الحديقة يطوف فيها،
 ويريه ما فيها من الأشجار والثمار، وهو معجب بما فيها، يقول له متبجحاً: أنا
 أكثر مالا منك، وأكثر خدماً وأنصاراً، أما أنت فقد ضيعت مالك، واشقيت نفسك
 بما لا يعود عليك نفعه!! ﴿وَوَاحٍ مِّنْهُمُ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ أَمَا أَظُنُّ أَن يَدْعُوا مِنِّي﴾
 ﴿وَمَا أَظُنُّ أَن تَكُونَ مِنِّي قَائِمًا وَلَوْ أَنِّي دُرْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ حِزْبًا مِّنْهَا مُقِلًّا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦]
 أي دخل هذا الجاحد لفضل ربه بستانه، وهو معجب بنفسه وبغناه وثرانه،
 ويقول مزهواً متبجحاً: ما أظن أن تفنى هذه البساتين أبداً، وما أعتقد أن هناك
 داراً أخرى، ولئن كانت هناك حياة بعد الموت، كما تزعم أنت، فسوف
 يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل، فكما أكرمني في الدنيا، سيكرمني في
 الآخرة، بما هو أعظم وأبدع!! ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَرَّ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزَّ نَفْسًا
 ثُمَّ نَبَأَهُ بِمَا جَاءَهُ مِنْ نَّبَأِهِ لِيُذِخَهُ﴾ [الكهف: ٣٧] أي قال له صاحبه المؤمن، وهو يراجع
 الحديث ويكلّمه: يا هذا أجدت نعمة ربك، وأنكرت فضله عليك، وكفرت
 بالله الذي خلقك من تراب، ثم من مني دافق، ثم سؤاك إنساناً سويّاً؟ في
 أحسن شكل، وأجمل صورة؟ ﴿لَيْكُمُ الْوَنَاءُ لِيُذِخَهُ رَبِّي أَخَذَ﴾ [الكهف: ٣٨]
 لكن أصلها «لكن» أنا، أدغمت بها فصارت (لكننا).

والمعنى: لكن أنا أصدق بوجود الله، وأعترف بفضلته وإنعامه، فهو ربي وخالفني، لا أعبد غيره. ﴿وَنُؤَلِّفُ لِمَن شَاءَ اللَّهُ لَاقِيًا﴾ [الكهف: ٣٩] أي فهلاً حين دخلت حديقتك، وأعجبت بما فيها من الأشجار، والثمار، والأنهار، قلت: ما شاء الله، لا قوة ولا قدرة لنا على طاعة الله، إلا بتوفيقه ومعونته. ﴿إِنْ شِئْتَ لَتِزِيلَنَّ اللَّهُ مَا يَفُوقَ خُدُوكَ﴾ [الكهف: ٤٠] فمضى ربي أن يؤتيك خيراً من خديك وتزيل عليه خُصاً من السماء ففتح مبيداً لثداً. ﴿الْكُفْرُ: ٣٩، ٤٠﴾ يقول له المؤمن: إن كنت ترى أنني أفقر منك، وتعتز علي بكثرة مالك وأولادك، فإني أتوقع أن يقلب الله حالي وحالك، فيرزقني لإيماني، ويسلب عنك نعمته لكفرتك، أو يرسل على حديقتك صواعق من السماء تدمرها، فتصبح أرضاً جرداء ملساء، لا نبات فيها، ولا شجر ولا ثمر!!

وينتهي الجدل والحوار، وننتقل من مشهد النعيم والازدهار، إلى مشهد الخراب والدمار. ﴿وَأَمَّا بَشْرٌ مِّثْلُكَ فَتَبَّ عَلَى مَا أَقْبَرَهُ وَهُوَ خَائِبٌ إِلَىٰ عَرْشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢] وفي قوله: ﴿تَبَّ عَلَىٰ كُفَيْهِ﴾ كناية لطيفة عن الحسرة والندم، وهذه القصة مثل بديع رائع، لمن يشكر نعمة ربه، ولمن يكفر النعمة ويجهدها، والفرص منها توضيح الفارق الكبير، بين العبد المؤمن الشاكر لنعم الله، والكافر الجاحد لفضل الله وإحسانه، وفيها عظة وعبرة لكل إنسان!!

مثل بديع للحياة الدنيا وفنائها

١ - يقول الله تعالى: ﴿وَأَنبَأَتْ مَن دُونَهَا أَنَّهَا جَاءَتْ بِآيَاتِنَا وَمَا يُظَاهَرُ﴾ [الكهف: ٤٥] هذا مثلٌ للدنيا وزينتها، وبهرجها الخادع، مثلُ تعالى لها بماؤ تزل من السماء، فخرج به النبات وافيًا غزيرًا، ونما به الشجرُ والثمرُ، وخالط النبات بعضه بعضاً من كثرة وتكاثره، وخرج الحبُ قشْبُ ونما، ثم بعد ذلك ذبل وزوى، فأصبح يابساً متحطماً متكسراً، تنسفه الرياح ذات اليمين، وذات الشمال.

هكذا حال الدنيا: نعيم يزول، وسرور غير دائم، ومتعة تنقضي، ثم موت وفناء، لا يغتر بها إلا الأحمق الجهول، ولا يدوم إلا الحي القيوم، والعاقل من أثر ما يبقى على ما يفنى. ﴿وَمَا الْآلِئَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْمُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وهو مثل رائع بديع، يكشف لنا روعة الأمثال في الكتاب العزيز.

الحكمة والغاية من ضرب الأمثال

٥ - من حكمة الله عز وجل، ورحمته بالعباد، أن يضرب لهم الأمثال، ويوضح لهم الحجج، حتى لا يضيئوا في مناهات الحياة، وليتذكروا ويتدبروا ما في هذه الأمثال، من العبر والبطاقات، ومع كل هذه الأمثال، التي ضربها لهم القرآن، لم يتعظ البشر ولم يعتبروا، بل ظلوا في جهالتهم يجادلون، وفي غيهم يعمهون ﴿وَلَقَدْ مَرْفُؤًا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ ثَغْرًا وَخَذَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

والمعنى: لقد بينا في هذا القرآن الأمثال، وكررنا ورؤدنا الحجج والمواعظ لجميع البشر، بوجوه كثيرة، وأساليب متنوعة، ليتعظوا ويعتبروا، ويكفوا عما هم عليه من الضلال، ولكن طبيعة الإنسان الجدل والخصومة، لا يُنِيب إلى حق ولا ينزجر عن الغي والضلال، يجادل ويكابِر، وكل هذا من تعاسته وشقائه.

إن العاقل يعتبر بما يرى أمامه من وقائع وأحداث، ومعظم البشر لا يتعظون ولا يتبهون، وماذا تُفني الآيات والتدبر عن قوم لا يؤمنون!!

التمثيل لإعراض الكفار عن الذكر الحكيم

٦ - يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا فَأَنْذَرُهُمْ إِلَى الْهَدْيِ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا أَلِيلًا﴾ [الكهف: ٥٧] في الآية تمثيل بديع، لإعراض الكفرة والفجار، عن آيات الله البينات، شبههم تعالى بمن أحيط قلبه بأغطية، وحُجب كفيفه، فلم يعد يفقه شيئاً، وأصابه الصمم، فلم يعد يسمع شيئاً، فكيف يتتبع ويتعظ بآيات القرآن؟

والمعنى: لا أحد أشقى وأظلم، ممن وعظ بآيات الله البينة، وحججه الساطعة، فتعاسى عنها وتناساها، ولم يُلْق لها بالاً، ونسي ما اقترفته يده من الجرائم الشنيعة، ولم يتفكر في عاقبتها، ولإجرامهم جعلنا على قلوبهم أغطية، تحول بينهم وبين فهم القرآن المنير، وإدراك أحكامه وأسراره، وهذا تمثيل بديع لإعراضهم عن الهدى، شبههم بمن غُلف قلبه بحجب كفيف، فما عاد يرى قلبه النور الإلهي الوضاء، كما جعلنا في آذانهم صمماً، يمنعهم من سماع القرآن،

الإبداع البياني في سورة مريم

١ - قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي...﴾ [مريم: ٤] وَهَنَ بمعنى ضَعُفَ، أي ضعف عظمي، وذهبت قوتي من الشيخوخة، وكَبُرَ السِّنُّ، ففي الآية (كناية لطيفة) عن ذهاب القوة، وضعف الجسم، والوصول لسن الشيخوخة الذي يصبح فيه الإنسان كالطفل الصغير.

٢ - قوله تعالى: ﴿رَأْسُهَا أَلْأَمْسُ مَكِثٌ وَلَوْ أَكُنَّ بِدَعْفِكَ رَبِّ شَقِيحًا﴾ [مريم: ٤] في الآية (استعارة تبعية) بديعة، شبه انتشار الشيب وكثرتة، باشتعال النار بالحطب، واستعار لفظ الاشتعال للانتشار، واشتق منه (اشتعل) بمعنى انتشر، بطريق (الاستعارة التبعية) وما أجملها من استعارة! وما أبدعه من تمثيل! ولو قال: «شاب رأسي» لما كان له ذلك الإبداع البياني الرائع.

ومعنى الآية الكريمة: لقد انتشر الشيب في رأسي، انتشار النار في الهشيم، ولم تخيب يا رب دعائي في وقت من الأوقات، بل عودتني الإحسان والجميل، فاستجب دعائي الآن.

٣ - قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بِيِّنًا﴾ [مريم: ٢٠] الْمَسُّ هنا (كناية لطيفة) عن الجماع، وهذه من الآداب التي نهى عنها القرآن الكريم، أن لا نتحدث في كلامنا باللفظ الصريح الفاحش، بل نستعمل الكناية في كلامنا، ولهذا قال ابن عباس: (الْمَسُّ، وَالْمَسُّ: بمعنى الجماع، ولكن الله تعالى حَيِّ، كَرِيمٌ يَكْنِي) ومثل هذه قوله سبحانه: ﴿أَوْ لَسْتُمْ أَنْسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣] كنى بها عن الجماع.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَا ظَهَرَ لِسَانٍ مِثْقَى خَيْلٍ﴾ [مريم: ٥٠] ﴿لِسَانٍ مِثْقَى﴾ الضدق ليس له لسان، وإنما كثر عن الذكر الحسن، والثناء الجميل باللسان، لأن الثناء يكون باللسان، وهي (كناية لطيفة) كما يُكْنَى عن العطاء باليد، فيقال: له علي يد لا أنساها.

والمعنى: جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس، لأن جميع أهل الملل والأديان، يشنون عليهم.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٤ - ٥٧].

في الآية (استمارةً بديعةً) شبه المكانة العظيمة، والم منزلة السامية الرفيعة، بالمكان العالي الذي يرتفع إليه الإنسان.

والمعنى: رفعنا لنبي الله (إدريس) ذكره، وأعلينا قدره، بشرف النبوة، والقرب من الله عز وجل.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَنُفِثَ الْوَيْسُ أَوْسًا مِمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَخْرَجَ الْوَيْسَ الْكَافِرَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْبَيْتِ الَّذِي بُنِيَ لِلَّهِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ نَبِيًّا وَفُتِنَ الْوَيْسُ بِالْجَنَّةِ فَخَلَا مِنْهَا وَكَانَ مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ [مريم: ٦٦] المراد بالإنسان هنا: الكافر الذي لا يؤمن بالبعث، بدليل قوله بعده: ﴿فَخَلَا مِنْهَا نَفْسًا﴾ [مريم: ٦٧] فهو المنكر للبعث والشور، والآية من باب (إطلاق العام وإرادة الخاص) ففيها (مجاز مرسل) ولا يراد به عموم البشر.

٧ - قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَازِجُنَا أَعْيُنَكَ لِإِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْنِي أَيْمَانًا وَعِندَ ذَلِكَ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الْمَلَائِكَةُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [مريم: ٧٩] أي تأمر الملائكة بكتابة أعماله وجرائمه، ونضاعف له العذاب، أسند الكتابة إليه، وهي من وظيفة الملائكة، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا كُتُبًا مَّا تَكْتُمُونَ﴾ [يونس: ٢١]. فهو من باب إسناد الشيء إلى سببه بطريق (المجاز المرسل).

٨ - قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ يَسَافِرُ فِي النَّفْتِ﴾ [مريم: ٩٧] كنى باللسان عن اللغة، أي إنما أنزلنا عليك هذا القرآن بلغة قومك (اللغة العربية) لتبشر به أهل التقوى والإيمان، وتخوف به أهل الكفر والعصيان، ففي الآية (كناية لطيفة) من بديع أنواع الكناية.



الإبداع البياني في سورة طه

١ - قوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَنْتَ حَدِيثٌ مُوسَى • إِذْ رَا نَارًا فَقَالَ لِأَقْرَبٍ أَنْتُمْ كَوْنًا﴾ [طه: ٩، ١٠] الاستفهام هنا ﴿وَقُلْ أَنْتَ﴾ ليس على حقيقته للاستفسار عن القصة والخبر، إنما هو أسلوب تشويق وترغيب لذكر القصة، أي هل بلغ إلى سمعك أيها الرسول أو أيها السامع خبر موسى وقضته الغريبة العجيبة؟ فهو أسلوب حث وتشويق للإصغاء إلى القصة والخبر.

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَنْكَأَ خَيْفًا...﴾ [طه: ١٥] الساعة لا يعلم وقتها إلا الله عز وجل، وهي مخفية عن جميع الخلق، فما معنى ﴿أَنْكَأَ خَيْفًا﴾ و(كَأَذًا) للمقاربة، وهي مخفية فعلاً؟

والجواب: إن هذا جاء على سبيل المبالغة، في كتم السر، والمعنى: أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف أطلعكم عليها؟

قال المبرد: هذا على عادة العرب، فإنهم يقولون في كتمان الشيء: كتمته عن نفسي، على طريقة المبالغة في كتم السر.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَنْسَمَ بِذَلِكَ إِلَى خَلِيكَ فَخَرَّجَ تَجَنُّأً بَيْنَ عَيْنَيْ سَوْءٍ﴾ [طه: ٢٢] أصل الجناح للطائر، ثم استعير لجنب الإنسان، فإن جناحي الإنسان جنتاه: الأيمن، والأيسر، تشبيهاً له بجناحي الطائر، ففي الآية (استعارة تصريحية) بديعة.

والمعنى: أدخل يدك تحت عضدك - إبطك - ثم أخرجها تخرج ساطعة مضية، من غير عيب ولا قبح!! كثر بقوله: ﴿مَرْقَرٌ سَوْءٍ﴾ عن البرص.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي عَلَيْكَ تَحَبُّةٌ مِّنِّي وَلَوْ صَنَعَ عَلَيَّ خَيْفًا﴾ [طه: ٣٩] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، مثل لشدة الرعاية، وفُرط الحفظ والعناية، بمن يصنع شيئاً بمرأى من المحبوب الناظر له، وكأنه يرعاه بعينه، ويرقبه بنظره، لأن الحافظ للشيء يديم النظر إليه، فمثّل له بصورة من يُصنع على عين الآخر.

والمعنى: زرعتُ محبتك في القلوب، بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك، حتى أحبك فرعون، ولتكون في حظي وكلاي ورعايتي.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُكَ الْبَقِيَّةَ﴾ [طه: ٤١] في الآية (استعارة تبعية) بديعة، شبه ما منحه به من القرب والمحبة، بحال فليكن يرى شخصاً، أهلاً للكرامة، وقرب المنزلة، فيختاره وينتقيه لنفسه، دون غيره من الأشخاص، وهذا على سبيل (الاستعارة التبعية).

والمعنى: اخترتك من بين سائر بني إسرائيل لرسالتي ووحبي، فأنت اليوم قريبٌ وحبيب، ولا ينالك أدنى من أعدائك، بمعجزاتي التي أيدتك بها.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهَا بَطْرِيْقُكُمُ النَّارُ﴾ [طه: ٦٣] المثلث: تاليف الأمثل، بمعنى: الأفضل، وهي كناية عن (الدين) والمذهب، أي غرضهما إفساد دينكم الذي أنتم عليه، الذي هو أفضل الأديان، ومرادهم ما عليه فرعون وقومه، سموة (وينا) لقول فرعون عن موسى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

٧ - قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّبَعُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَمْلَأَ﴾ [طه: ٦٤] في الآية (كناية لطيفة) كنى عن الأمر (بالكيد) لأن تشاورهم كان بالخفاء، عن موسى وأتباعه، وهو يشبه كيد الكائدين.

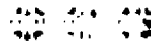
والمعنى: أحكموا أمركم ولا تتنازعوا فيه، وكونوا اليوم صفًا واحداً في وجه موسى، وقد فاز اليوم من غلب وخلف خصمه.

٨ - قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الْغَاثِ إِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيْتُهُمْ بِحَبْلٍ آتَىٰ مِنْ سَيِّدِهِمْ أَنَّهُمْ﴾ [طه: ٦٦] في الآية حذف بسمي (حذف الإيجاز) تقديره: قال بل أتوا أنتم، وأبدأوا بالإلقاء، فأتوا ما في أيديهم، فإذا جأهم وعصيتهم، تتحرك وتسعى على بطونها، كأنها حيوات، حذف لدلالة المعنى عليه، ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿فَالَّذِي نَنْسِفُ الْكَافَّةَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالْوَمَا يَشِيْبُ ثَقَفًا مَا صُنِعُوا﴾ [طه: ٦٩] حذف منه كلام طويل (للإيجاز) والاختصار، وهو من البلاغة بمكان، وأصل الكلام: فأتى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا من السحر، فألقى السحرة سجداً، وإنما حسن الحذف لدلالة الكلام عليه، والبلاغة: الإيجاز كما يقول علماء البيان.

٩ - قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فَرَعُونُ يَمْشُونَ فِي الْأَرْضِ مَعَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] الأسلوب ﴿مَعَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَعَهُمْ﴾ أسلوب يدل على التهويل والتفطيع لما

[طه : ١٢١] أي أخذًا يُلصقان الورق على سواتهما للتستر، وفي وصفه آدم بالعصيان - مع صغر الزلة - تعظيم للمخالفة لأمر الله، وزجر لأولاده عن أمثالها، كأنه يقول: اعتبروا بأبيكم آدم، فقد أخرجته زلته من الجنة، ولا يخدعنكم الشيطان بوساوسه الخبيثة.

قال ابن قشيرة: يجوز أن يقال: عصى آدم، ولا يجوز أن نقول: آدم عاص، لأنه إنما يقال: لمن اعتاد فعل المعصية، كالرجل يخطئ ثوبه يقال: خاطئ ثوبه، ولا يقال: هو خاطئ حتى يعتاد ذلك، ويعاوده مراراً، وهو كلام بديع^١



الأمثال في سورة طه

التمثيل للجرائم بالحمل الثقيل

١ - قال الله تعالى: ﴿مَنْ أَذْيَبَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا • خَلِيلِينَ بِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ جَمَلًا﴾ [طه: ١٠٠، ١٠١] مثل تعالى للجرائم والأعمال القبيحة، التي يفعلها الكفرة، المكذوبون بالقرآن العظيم، بالحمل الثقيل الذي يحمله الإنسان على ظهره، ويهوي بسببه في نار الجحيم، جزاء كفره وتكذيبه لآيات الله، بطريق (الاستعارة التصريحية).

والمعنى: من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤمن به، ولم يتبع هداه، فإنه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً، وذنباً عظيماً جسيماً، يُثقله في نار جهنم، مع الشقاء الدائم، والخلود في نار الجحيم، كما يحمل المسافر أحماله الثقيلة، وبألها من أحمال، ترهق كامل الجاحد الكافر!!

التمثيل لنعيم الدنيا بالزهر الفواح

٢ - قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُدْرِكُهُ الْيَدَانِ وَلَا تَحْصَاهُ أَرْوَاحُهُمْ ذُرَّةً ذُرَّةً وَالْغَيْبِ لَيْقِنَهُمْ بِهِ وَرَبِّكَ سَخِرَ وَتَقَرَّقَ﴾ [طه: ١٣١] أي لا تنظر إلى هؤلاء المترفين، وما هم عليه من نعيم الدنيا وبهجتها، وإلى ما منحنا به أصنافاً من الكفار، لنبتليهم فيه، فإنما هي زهرة زائلة، ونعمة سريعة الزوال، لا ينبغي أن يُخدع بها العاقل، ولننعم النظر في قوله سبحانه: ﴿ذُرَّةَ الْحَبَّةِ لُذَّةً﴾ فإن المال والجاه والسلطان، كل ذلك من المتاع الزائل، كالأزهار تخرج من الأرض، برائحة، لماعة، جذابة، تشبهها النفوس، ولكنها سرعان ما تذبل، فتذهب نضارتها وبهاؤها، بعد ما كان فيها من رواء وبهجة، وهكذا نعيم الدنيا إلى زوال وفناء، وهذا من (التشبيه التمثيلي) البديع، الفائق في الجمال.



الإبداع البياني في سورة الأنبياء

١ - قوله تعالى: ﴿يَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ رَاقِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] في الآية (استعارة تمثيلية) القذف هو الرمي الشديد بالجُرم الصُّلب، شبه الحق بقذيفة نارئة، يرمى بها رأس الباطل، فتشذخه وتكسر دماغه، وتُرديه قتيلًا، وهو تمثيل رائع بديع، لغلبة الحق على الباطل، وإزهاقه بالكلية.

٢ - قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، شبه الكفار بالضم الذين لا يسمعون الكلام، لأنهم كالبهائم، التي لا تسمع الدعاء، ولا تفقه النداء، وقد تكرّر في القرآن الكريم، التشبيه للكفار بالضم، والبكم، والعمي، بطريق (الاستعارة التمثيلية) البديعة.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ شَرَابٌ نَقْعَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَقَوْلُكَ بَيِّنَاتًا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦] النقعة، والشمة، والهيئة، ألفاظ متقاربة في المعنى، كلها تمثيل لأخف وأدنى أنواع العذاب، فكيف لمن يحرق بنار الجحيم؟ والمعنى: لمن أصابهم أقل شيء من العذاب، ولو كان يسيراً خفيفاً، ليعترفوا بجرائمهم، ويدعّون على أنفسهم بالهلاك والدمار.

٤ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُكْوِلَنَّهُمْ أَغْلًا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءَ يَسِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، شبه تعالى رجوعهم عن الحق إلى الباطل، بانقلاب شخص في هيته وصورته، بحيث يصبح أسفلّه أعلاه، رجلاه إلى الأعلى، ورأسه إلى الأسفل، فكيف يستقيم فهمه وتفكيره؟ وكيف يفكر بعقله؟ وإنه لتصوير بطريق (الاستعارة التمثيلية) بادي الحُسن والجمال.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكَ كَيْفَ يَنْفَعَالِ الْخِرْدَلِ بِأَنْ يُسَاقَىٰ مِنْهُ خَمْرٌ﴾ [الأنبياء: ٧٤] كنى عن (القلّة والحقارة) بحبة الخردل، وهي كناية ترمز إلى حقارة الشيء، فإن (حبة الخردل) مثل في الصغر.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ وَرَحِيمَةً إِنَّهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٥]
الرحمة صفة من الصفات، لا يمكن أن يحل بها الإنسان، والمراد أدخلناه في
(الجنة) التي هي مكان رحمتنا، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الصفة
وإرادة الموصوف) أو بتقدير حذف مضاف أي أهل رحمتنا، الذين يستحقون
فضل الله وإنعامه، فيكون في الآية (مجاز بالحذف).

٧ - قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتُ لَكُمْ رُوحَهَا فَهِيَ كَبَرَةٌ أَصْبَحَ بِهَا رُوحُكَ وَرُوحُكَ
[الأنبياء: ٩١] المراد بالروح: (جبريل) عليه السلام، نفخ في فتحة ثوب
مريم، فحملت بعمسى عليه السلام، وأضاف الروح إليه تعالى ﴿وَرُوحُكَ
رُوحَهَا﴾ على جهة التشريف والتعظيم، لأنها كانت بأمره سبحانه، كقوله
سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأعراف: ٧٣] أضاف الناقة إليه تشريفاً، لأنها كانت
معجزة باهرة، بخلق الله عز وجل لها من صخر أصم، فالإضافة في كل
للتشريف والتعظيم.

٨ - قوله تعالى: ﴿إِذْ هَدَيْنَاكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾
[الأنبياء: ٩٢] المراد بالامة في الآية: الدين والجملة، كفى بالامة عن
الدين، أي دينكم أيها الناس دين واحد، هو الإسلام دين جميع الأنبياء
 والمرسلين، كلهم بعثوا برسالة التوحيد (لا إله إلا الله) وليس الاختلاف
بينهم في أصول الشريعة، لأنها لا تتبدل بتبدل العصور والأزمان ﴿يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الْوَاحِدَ﴾ [آل عمران: ١٩] وأما الشرائع وهي الأحكام،
والمناهج التي شرعها الله للخلق، فتختلف من أمة إلى أمة ﴿لَكُمْ حُدُودُ مَا يَرْجُو
وَمِنْهَا مَا﴾ [المائدة: ٤٨] فالدين عند الله واحد، والشرائع مختلفة، فتدبر الفارق
بين الشريعة والدين، والله يهدي إلى صراط مستقيم.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَنَقُطِعْ أَعْيُنَهُمْ وَنُقَبِّعْ أَصْفَادَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٩٣]
مثل اختلافهم في الدين، ونفروهم فيه إلى شيع وأحزاب،
بجماعة ورثوا ثوباً، كل واحد ينتزع منه قطعة، فتمزق الثوب، وتقطع قطعاً
قطعاً، ولم يحصل أحد منهم بغائدة ترجع عليه، وهذا من (لطيف أنواع
الاستعارة).

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَى ذُرِّيَةِ آدَمَ أَنْ يَدْخُلَا الْجَنَّةَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]
في الآية (استعارة لطيفة) استعار لفظ حرام للشئ الذي يمتنع

حدوثه، بطريق التمثيل له بالشيء الحرام، الذي لا يجوز فعله، وفي الآية أيضاً: (حذف بالإيجاز) فقد نُسب الهلاك للقرية وهو لأهلها.

والمعنى: مستنق على أهل قرية من القرى أهلكناهم، أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية، بمعنى أنه مستحيل عودتهم إلى الدنيا بعد الهلاك، حتى تقوم الساعة، فيحييهم الله، فيرجعون للحساب والجزاء، فالتعبير واردة بأسلوب الاستعارة البديعة.

١١ - قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ فِي عَمَلِهِ مِنْ مَّا دَلَّ كُفَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧] في الآية (إيجاز بالحذف) حذفت كلمة (يقولون) قبل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وأصل الكلام: يقولون: يا حسرتنا ويا هلاكنا، فقد كنا في الدنيا غافلين، عن هذا المصير المشوم، وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَنَسِيتُمْ آيَاتِهِ الَّتِي كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فيه حذف للإيجاز، تقول لهم الملائكة: هذا يومكم.

١٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَٰثُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] في الآية (تمثيل رائع) شبه المشركين ومعبوداتهم، بالخطب الذي يلقي في النار لإضرارها، يُخَضَّبُونَ في جهنم فيكونون وقودها، على طريق (التشبيه البليغ) أي كالخطب للإحراق، وفي هذا التمثيل تصغير وتحقير للمعبد والمعبودين، كأنهم مع آلهتهم المزعومة، حجارة من حصباء، تُقَذَّفُ في جهنم قذفاً، من دون رفي ولا أناة، كما يقذف الإنسان بالنوى!!

رُوي أن الآية لما نزلت، جاء أخذ المشركين إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد: أتزعم أن كل من عبد من بدون الله سيكون في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود يعبدون عُزيراً، والنصارى يعبدون المسيح، فنحن نرضى أن نكون معهم في الجحيم - وظن الأحمق أنه أقام الحجة على الرسول ﷺ - والآية وردت بلفظ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ وهما لما لا بعقل، فلم يدخل فيها (عيسى، وعزير، والملائكة) وإنما هي في الأوثان والأصنام.

الأمثال في سورة الأنبياء

تشبيه الحق بقذيفة ضخمة تشدخ رأس الباطل

١ - قال الله تعالى: ﴿يَلْ تَقِفْ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْنِفْهُ فَإِنَّهُ خُورٌ رَاقِعٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ بِمَا نَصَبْتُمْ﴾ [الأنبياء: ١٨] في الآية تشبيه رائع بديع، شبه الحق بقذيفة نارية ضخمة، تشبه (قذائف الهاون) التي ابتكرها البشر، تُقذف على رأس الفجور والباطل، فتشدخه وترديه صريعاً قتيلاً، تُزهق روحه.

والغرض من هذا التشبيه، أن الحق الساطع المبين، يرمى به في وجه الباطل المتزعزع، فيمحقه ويُزهقه، ولكم العذاب والدمار يا معشر الكفار، وهو معنى رائع صوره القرآن بهذا التصوير البديع، وفيه (استعارة تمثيلية) في غاية الإبداع والجمال، تصوّر رصاصة تنطلق على رأس إنسان فتُرديه قتيلاً، فكأن الحق قذيفة يُقذف بها على رأس الباطل، تُزهق روحه.

التمثيل بانعكاس الإنسان رأساً على عقب

٢ - قال الله تعالى: ﴿فَرِجْهُمْ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْظِلْتُمُونَا مِنْكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأنبياء: ٦٤، ٦٥] التعبير القرآني هنا بالغ الروعة في (التمثيل والتصوير) فقد شبههم تعالى في غرورهم إلى الباطل، ورجوعهم إلى الحماقة والسُخف، بإنسان انقلب على رأسه، فلم يبق له عقل ولا فهم. تصور شخصاً تكسناه وقلبناه، فجعلنا رأسه إلى الأسفل، وقدماه إلى الأعلى، كيف يكون سليم العقل والتفكير؟ وقد اختل عقله، وضاع رشده؟

وتوضيح الآية: أنهم رجعوا إلى عقولهم، وتفكروا في أمرهم، فعرفوا خطأ عبادتهم، لحجارة صماء بكما، لا تنفع ولا تضر، فقالوا: نحن الظالمون لأنفسنا، في عبادة ما لا يسمع ولا ينطق، وكانت هذه الكلمة متهم بادرة نور وخير، أعقبها الظلام والضلال، فعادوا إلى الباطل، وقالوا: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟

لقد أقاموا الحجّة على أنفسهم، دون فهم ولا تبصّر، وإيئة حجة لإبراهيم عليه السلام على هؤلاء الحمقى، أقوى من أن يقولوا بأنفسهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمَا مُؤَلَّاهُ بِمَشُورَةٍ﴾ فكانوا كمن انقلب رأساً على عقب، ففي الآية (استعارة تمثيلية).

التمثيل لاختلاف الناس في الأديان

٣ - قال الله تعالى: ﴿وَنَقُطِعْ رَأْسَهُمْ يَتَتْخَرُ عَنْهُمْ كُوْدٌ إِنَّا نَزَعُمُوكَ﴾ [الأنبياء: ٩٣] مثل تعالى اختلاف الأمم، وتفرقهم في الدين، إلى شيع وأحزاب، بجماعة جاءوا إلى ثوب جديد، فاختطفوه بينهم، فأخذ كل واحد منهم قطعة، فأصبح الثوب مبرقاً بالية، لم يبق الثوب على حاله يُنتفع منه، ولا هم استفادوا ممّا في أيديهم من القطع الممزقة، فما أروع من تمثيل؟ وما أبدعه من تصوير!!

لقد تفرّق البشر في أمر الدين، فمنهم من هو مسلم، ومنهم من هو يهودي، أو نصراني، أو مجوسي، أو عابد وثن وصنم، كل واحد يعبد ربه على هواه، بينما الرسل الكرام، جاءوا بدين واحد، هو الإسلام، فليعتبر الإنسان كيف أضلهم الشيطان!؟



الإبداع البياني في سورة الحج

١ - قوله تعالى: ﴿رَبِّهِ الثَّانِي﴾ من يُجَدِّلُ فِي اللَّهِ بِحَيْرِ بَلَمٍ يَمْتَنِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ ﴿[الحج: ٣] استعار لفظ الشيطان؛ لكل طاغية عاتٍ متمردٍ على الله، والمراد بهم رؤساء الكفر والضلالة، ففي الآية (استعارة تصريرية) تشبيهاً للمفسدين بالشياطين، نزلت الآية في (النضر بن الحارث) كان كثير الجدَل، يخاصم بالباطل، وكان يقول: لا بعث بعد الموت، والقرآن أساطير الأولين، والملائكة بنات الله، إلى آخر تلك الأباطيل، فيه نزلت الآية الكريمة.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَنَهْيِهِ إِلَىٰ تَذَابِ النَّعِيمِ﴾ [الحج: ٤] وردت الآية على (طريقة التهكم) لأن الهداية تكون للخير والسعادة، ولا تكون إلى عذاب الجحيم، ففي لفظ (يهديه) سخرية وتهكم بالزناغ عن هداية الله.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَنَزَحْنِي الْأَرْضَ فَبِيدًا فَإِذَا أُوتِيتُ عَلَيْهَا تِلْكَ آفَاقُ زُرَّتْ وَالتَّنْجُتُ مِنَ الْجِدَارِ الْمُزَاجِجِ﴾ [الحج: ٥] في الآية (استعارة تبعية) لطيفة، شبه الأرض بإنسان نائم، لا حس له ولا حركة، ثم دب فيه الشعور، فتحرك وانتعش، واستيقظ من سباته، كذلك الأرض تدب فيها الحياة بنزول المطر، فتتفتح وتزداد، ويظهر فيها النبات والشم، استعار لفظ (اهتزت) بطريق (الاستعارة التبعية) بذل قوله: ظهر فيها النبات وأورق فيها الشجر.

٤ - قوله تعالى: ﴿رَبِّ عَظِيمٍ﴾ [الحج: ٩] فلي العِظْف: كناية عن التكبر والغطرسة، لأن العِظْف معناه الجانب، ويسمى (المِنْطَف) معطفاً لأنه يوضع على الجانبين، أي يمشي لاوياً حُثِّفَ متكبراً، معرضاً عن الحق، إذا ما دُعي إليه، وهذا نهاية الاستعلاء والاستكبار.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ يَدْعُونَ إِلَهًا أَوَّلًا اللَّهُ يُضِلُّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الحج: ١٠] كنى باليد على ما يقتضيه الإنسان من أعمال ﴿لَهُ تَدْعُ يَدَاكَ﴾ لأن اليد آلة الكسب، ففي الآية (كناية) أي ذلك الخزي والعذاب، بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصي، وسائر الأعمال القبيحة.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُخَذِّعُهَا اللَّهُ عَلَىٰ خَدِّهَا...﴾ [الحج: ١٦] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) بديعة، مثل للمنافقين وما هم عليه من قلبي واضطراب في أمر الدين، برجل وقف على طرف هاوية سحيقة، يريد العبادة والصلاة، واستعار لفظ (حرف) لطرف المكان، وحافته الخطيرة، فإن أصابه عاصفة أو أقل ربح، فوى إلى ذلك الوادي السحيق، وباله من تمثيل رائع بديع!!

٧ - قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَحْفَظُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الحج: ١٩] في الآية (إيجاز بالحذف) والمراد بالخصمين: الفريقان: فريق المؤمنين، وفريق الكافرين، بدليل الجمع (اختصموا) حذف من قوله: ﴿يَحْفَظُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي اختصموا في أمر دينه، الذي بعث به رسوله محمداً ﷺ، فهو كما يقولون: على حذف مضاف.

٨ - قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هُمْ يُحْضَرُونَ أَشِدَّ نَارِ النَّارِ﴾ [الحج: ١٩] هذا التعبير جاء بطريق (الاستعارة التمثيلية) يعني: فُضِّلَتْ لهم نيران من نار، على قدر أجسادهم، شدة النار التي تحيط بهم من كل جانب، بالثياب التي تُفَضَّل على قدر كل لابس، وليس في جهنم ثياب لأولئك الأشرار الفجار، إنما هو تشبيه وتمثيل للنار الهائلة، التي تحيط بهم من كل جانب، فلا يستطيعون الخلاص منها، بطريق التمثيل الرائع.

قال الأزهري: شُبِّهَت النار بالثياب، لأنها مشتملة عليهم كاشتغال الثياب، وعبر بالماضي عن المستقبل، تشبيهاً على تحقق وقوعه. اهـ تفسير الشوكاني ٤٤٢/٣.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُخَذِّعُهَا اللَّهُ عَلَىٰ خَدِّهَا...﴾ [الحج: ٣١] في الآية (تشبيه تمثيلي) بديع، شبه من أشرك بالله، بمن سقط من السماء، من علو ساق، فتخطفته الطير فمزقته كل ممزق، أو بمن فوى من شاطئ جبل، فقلفته الريح إلى هوة سحيقة، ليس لها قرا، فتحطمت وتكشرت، وهو مثل لمن سقط من أوج الإيمان، إلى حضيض الكفر والضلال، وهو تشبيه رائع بديع.

١٠ - قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ غَيْرَ ذَاتِ فَعِيلَةٍ﴾ [الحج: ٣٩] في الآية (مجاز بالحذف) فالماذون فيه لم يذكر في الآية، لدلالة

السياق عليه، والتقدير: أذن لهم بالقتال، دفاعاً عن أنفسهم، بسبب أنهم ظلموا، وهذه أول آية نزلت في مشروعية القتال، بعد أن كانوا ممنوعين عن حمل السلاح، وقتال المشركين، ولما صار للمسلمين في المدينة المنورة، قوة ودولة، أذن لهم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم.

١١ - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤١] في الآية الكريمة (تأكيد المدح بما يشبه الذم) أي لا ذنب لهم إلا أنهم عبدوا الله وحده، وهجروا عبادة الأصنام والأوثان، وهذا ليس بذنب، يوجب إخراجهم من الأوطان، فهو مدح في صورة ذم، لأن الإيمان ليس بذنب، يوجب تهجيرهم من الوطن.

١٢ - قوله تعالى: ﴿حَقَّ تَائِبُهُ أَلَسَاءُ نَفْسَةٍ أَوْ يَأْتِيَهُ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥] هذا من أحسن وأبدع (أنواع الاستعارة) لأن العقيم هي المرأة التي لا تلد، شبه اليوم الأخير من أيام الدنيا (بالمرأة العقيم) لأنه لا يوم بعده، فالأيام كأنها حبالى، يلدن الأيام التي تأتي بعدها، وآخر أيام الدنيا، لن يأتي يوم بعده، فكانه يوم عقيم، لأن الزمان قد مضى، والتكليف قد انقضى، ومن هنا صار التشبيه له باليوم العقيم، بطريق (الاستعارة التصريحية) البديعة.

١٣ - قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَارًا كَذِبَوا أَلَسَكَ بِطُورٍ﴾ [الحج: ٧٢] المعرفة تدرك بالعقل والقلب، ولا ترى بالبصر، وقد استعار لفظ (تعرف) للرؤية والمشاهدة أي ترى ونشهد في وجوه الكفار، الكراهية والإنكار حين تقرأ عليهم آيات الذكر الحكيم، وهذا مثل قولهم: عرفت في وجه فلان الشر، وتحكي غيناء الغدر، فهذا كله بطريق (الاستعارة الثبعية) البديعة.

وقد جاء في هذه السورة الكريمة مثل رائع بديع، وهو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ حَرِبَ مِنْهُمْ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّكَ الْذِّبُكَ تَقُولُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَوْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ لَرَأَوْا بِسْمِهِ أَلَسَكَ شَيْئًا لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ مِنْهُ مِثْرُ الْكَذِبِ وَالطَّوْثِ﴾ [الحج: ٧٣] خطاب عام شامل للبشر، يراد منه عبدة الأوثان والأصنام خاصة، يقول لهم: تفكروا في هذا المثل البديع: إن هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الرحمن، لن تقدر على خلق ذبابة، ولو تعاونت على ذلك، ولو اختطفت الذبابة شيئاً من الطيب أو الطعام، لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه، ضعف

العايد والمعبود، فكلٌّ منهما حقيرٌ وضعيفٌ.

قال ابن القيم رحمه الله: حقيقٌ على كل عبد أن يستمع بقلبه لهذا المثل، ويتدبره حتى تدبره، فإنه يقطع موادَّ الشرك من قلبه.

وذلك أن المعبود أقلُّ درجاته، أن يقدر على إيجاد ما ينفع، ودفع ما يضرُّ، والآلهة التي يعبدها المشركون، لن تقدر على خلق الذباب، ولو اجتمعوا كلُّهم لخلقه، فكيف بما هو أكبر منه؟! بل لا يقدرُونَ على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً من الطعام أو الطيب، فيستفدونه منه، فلا هم قادرون على خلق الذباب، الذي هو من أضعف الحيوانات، ولا على الانتصار منه، فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله؟

وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله في بطلان الشرك، وتجهيل أهله، وتقيح عقولهم، حيث أعطوا الآلهة القدرة على جميع المقدورات، ويختار هنا ذكر (الذباب) بالذات، لمهانتها، وضعفه، واستفذاره، وهو ضعيف حقير، ليزر حقايرة معبوداتهم التي جعلوها آلهة، وهي في هذه المهانة!! اهـ التفسير القيم ص ٣٦٨.

١٢ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧] في الآية (مجاز مرسل) من باب إطلاق الجزء على الكل، أي صلُّوا لربكم، ولا يراد به أن يركع المؤمن ويسجد فقط، عبَّر عن الصلاة بالركوع والسجود، لأنهما أعظم أركان الصلاة.



الأمثال في سورة الحج

١ - قول الله تعالى: ﴿وَسَرَى الْأَرْضَ كَمِيزَةً فَلَبِثَ فِيهَا أَرْبَعًا أَلْفًا أَمْوَاتًا وَزَيَّنَّا لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ زِينَةً رَاجِحَةً﴾ [الحج: ٥].

في الآية تشبيه رائع بديع، شبه الأرض بنائم، استغرق في نومه، فلا حركة له ولا سمع ولا بصر، ثم تدب فيه الحياة، فيستيقظ ويتحرك وينتعش، كذلك الأرض تحيا بنزول المطر، فتتفتح وتزداد، ويظهر فيها النبات والشجر، وتدب فيها الحياة، فتخرج من كل صنف عجيب، ما يسر الناظر ببهائه، وحسن منظره، مع اختلاف الأشكال، والألوان، والطعوم والروائح، فمن الذي أحيها بعد الموت؟ ففي الآية (استعارة تمثيلية) من لطيف أنواع الاستعارة.

التعميل للمنافق في قلبه واضطرابه

٢ - قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ الْيَاسِرُ مِنَ الْعَرَبِ عَلَى حَرْفٍ يَرِ اسْمَهُمْ حَرْفَ طَسَاتٍ يَوْمَ تَأْتِيهِمْ سِفَةٌ مَقْلَبَةٍ يَوْمَ يُخَالِفُونَ بِآيَاتِهِمْ مَنْ أُخَالِفَ إِلَى الْأَعْرَابِ فَأُولَئِكَ يَرْجُونَ الْفَيْصُ﴾ [الحج: ١١].

مثل تعالى حال المنافقين، وما هم عليه من قلق واضطراب في أمر الدين، يمثل رجل وقف على شفاهاوية سحيقة، فليس هو على أرض صلبة راسخة، ولا على ركيزة ثابتة، إن أصابه أدنى عاصفة من الريح، هوى إلى ذلك الوادي السحيق، ويا له من تمثيل رائع بديع.!

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْعُدْ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ تصوير دقيق للمنافق، الذي يعبد الله على جانب وطرف من الدين، لا يعبد عن إيمان ويقين، وهو كالذي يقف في آخر الجيش، ينتظر النتيجة، إن أحسن بظفر قر، وإن أحسن بهزيمة فر! ففي الآية (استعارة تمثيلية) في غاية الوضوح والجمال.

التمثيل لمن أشرك بمن هوى من السماء

٣ - ضرب تعالى مثلاً للمشرك، في ضلاله وهلاكه، وضياع عمله، في غاية الوضوح والإبداع، فقال جل ثناؤه: ﴿أَمْ شَرَكُ اللَّهِ مَا كَانَ خَلْقًا مَكَّانًا﴾

فَتَخَطَفَهُ الشَّيْطَانُ وَاتَّبَعَتْهُ إِلَى جَنَّةٍ مَخْرُوجَةٍ [الحج : ٣١] مثل تعالى للمشارك بمثل من سقط من السماء، فاختطفته الطيور، ومزقته كل ممزق، أو هوى من شاطئ جبل عال، فقدفته الرياح في هوة سحيقة، بعيداً عن الأنظار، في حفرة ليس لها قرار، وهو تشبيه بديع، لمن سقط من أوج الإيمان، إلى حضبض الكفر والهوان، ويا لها من شقاوة قاذحة!! ففي الآية (تشبيه تمثيلي) من بديع أنواع التشبيه، لأن وجه التشبيه متزعم من متعدد.

مثل لمن عبد الأصنام والأوثان

٤ - قال الله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ مِنَ الْبَشَرِ لَكُمُ الْأَوْثَانُ وَالْحَدَثُ ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ يَتَفَلَسُوفُونَ يُلَاقُوا رَبَّهُمْ وَالْوَاسِعَةُ أَلَمَ...﴾ [الحج : ٧٣] سُمِّيَ هذا مثلاً، لأنه في جلالة ووضوحه يشبه المثل، ويا له من مثل رائع، فيه إبداع وجمال، وهو من السهولة والبساطة، بحيث يدركه الذكي والغبي، والعالم والجاهل.

لقد عبد المشركون حجارة وأوثاناً، عمياء بكماء صماء، لا تستطيع مجتمعة أن تخلق ذبابة، فضلاً عن أن تخلق إنساناً سميعاً بصيراً، ويختار القرآن الذباب بالذات، وهو ضعيف حقير، ليبرز حقارة معبوداتهم، التي جعلوها شركاء مع الله، فإذا عجزت عن خلق ذبابة، فكيف تقدر على خلق ما هو أضخم وأعظم كالإنسان؟! ولو اختطف الذباب من هذه الأصنام شيئاً، لا تستطيع ارتجاعه منه.

قال المفسرون: كانوا يلطخون الأصنام بالطيب والعسل، ويخلقون عليها الأبواب، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله.

وخلاصة المثل: أن هذه الأصنام لو اجتمعت جميعها قلن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها، أو استرداد ما سلبته منها، فكيف يليق بالعاقل، أن يجعلها معبوداً من دون الله؟

والذبابة أعدى عدو للبشر، يحمل بين جناياه الموت الزمام، بسبب ما ينقله من أمراض خبيثة فتاكة، كالتيفوئيد، والسل، والزمد، فسبحان من جعل من ضرب المثل بالذباب، أعظم إنذار لما يحمله الذباب من خطر على البشر.

قال الزمخشري: سُمِّيَت القصة الرائقة، المتعلقة بالاستحسان مثلاً، تشبيهاً لها بالأمثال، التي تضرب تنبيهاً وتحذيراً للبشر، فلا عجب أن يضرب القرآن به المثل.

الإبداع البياني في سورة المؤمنون

١ - قوله تعالى: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ الَّذِينَ لَبِئُواْ﴾ [المؤمنون: ١٥] الناس لا ينكرون الموت، ولكن غفلتهم عنه، وعدم استعدادهم له، بالعمل الصالح، يُعدان من علامات الإنكار، ولذلك جاء التأكيد بمؤكدين هما (لَنْ) و(اللام) ويُسمى في المعاني: (إنزال غير المُتكرّر منزلة المُتكرّر).

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] يُراد بالطرائق: السموات السبع، سميت بذلك لأن بعضها فوق بعض، ولأن الملائكة تسلك طُرُقها، ففي الآية (استعارة لطيفة) تشبيهاً لها بالألواح التي يوضع بعضها فوق بعض، وتبقى متطابقة في هيتها وشكلها، ومنه قول الحذاء: طابق الغُل فوق الغُل.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ صَبِّحْ ثَوَابِغَ الذُّبَابِ وَخَبْرَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] في الآية (استعارة بديعة) تسمى (الاستعارة التمثيلية) عُر عن المبالغة في الحفظ والرعاية، بصنع الشيء تحت بَصَر الإنسان وسمعه، لأن الحافظ للشيء، لا بد أن يرهه ببصره، خشية الضياع أو السرقة، وقد تقدم توضيحها في صفحة (١٣٤) من هذا الكتاب.

٤ - قوله تعالى: ﴿فَأَعَدَّتْهُمْ صَبْحَةً فَجَبَّتْهُمْ غَشَاةٌ فَنَقَّبُوا فِي الْفُلْجَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٤١] في الآية (تشبيه بليغ) أي جعلناهم كالغشاء في سرعة زواله، ومهانة حاله، حُدِف منه وجه الشبه، وأداة التشبيه، فأصبح بليغاً، مثل قولهم: عليّ أسد، أي كالأسد في الشجاعة والقوة، والغشاء في اللغة: ما يحمله السيل من الزبد، واليابس من الحشيش على سطحه، ثم يزول سريعاً.

٥ - قوله تعالى: ﴿فَنَنْشُرُهُمْ أُنُفَرًا يَتَّبِعُ يَتَّبِعُ كُلَّ حِزْبٍ مِّنْهُمْ فَيُؤْتِي﴾ [المؤمنون: ٥٣] مثل تعالى اختلافهم في الدين، وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب مختلفة، هذا مجوسي، وهذا يهودي، وهذا نصراني، كل فريق مسرور بدينه، مثل لهم بجماعة مرقوا ثوباً جديداً فضفاضاً، فأخذ كل منه قطعة، فلم يتفزع أحد

بما في يديه، ولم يثق الثوب ملبوساً لأحد، وهذا من بليغ التشبيه، و(اللطيف الاستعارة).

٦ - قوله تعالى: ﴿مَذَرْنَاهُ فِي حَيْثُ يَنْتَقِصُ عَنْهُ الْبَرْقُ﴾ [المؤمنون: ٥٤] أصل الغمرة: الماء الذي يغمرُ قامة الإنسان، استعير للجهالة والغفلة والضلالة، شبه تعالى ما هم فيه من الجهالة والضلالة، بالماء الذي يغمرُ القامة، حتى يحيط بالإنسان من كل جهة ومكان، ففي الآية (استعارة تصريحية) بديعة، أي اتركهم في غفلتهم وجهلهم وضلالهم، إلى حين موتهم، وزفاتي أرواحهم، فإنهم أشياء اليهائم، لا فطنة لهم، ولا شعور.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ كَتَبَ بِطِقَ بِالْمُتَّقِينَ وَمَنْ لَا يُطِيعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢] الكتاب ليس له لسان، والتطيق لا يكون إلا ممن يتكلم بلسانه، ووضف الكتاب هنا بالتطيق ﴿بِطِقَ بِالْمُتَّقِينَ﴾ إنما ورد بطريق (الاستعارة البديعة) مبالغة في وصفه، بإظهار البيان، وإعلان البرهان، تشبيهاً له باللسان الناطق.

والمعنى: عندنا كتاب أعمالهم، يظهر الحق، ويبين كل ما فعلوه من قبائح وجرائم، وكأنه إنسان ينطق عليهم بما اقترفوه، وهذا من (بدیع الاستعارة).

٨ - قوله تعالى: ﴿فَذَكَاتُ آيَاتِنَا لَعْنَةُ الْمُكْفِرِينَ وَنُصْرَةُ الْمُتَّقِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٦] الأعقاب جمع عقب، وهو مؤخر القدم، والتكوص: الرجوع إلى ما كان عليه، شبه تعالى إعراضهم عن الحق، وتكذبهم لخاتم الأنبياء، بالراجع القهقري إلى الخلف، تشبيهاً لإعراضهم عن الإيمان، بالمتكيس الراجع إلى حضيض الكفر والضلال، بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي من لطائف أنواع الاستعارة.

٩ - قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَآئِهِمْ بَرْجٌ إِلَى يَوْمِ يُنْفَخُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] أطلق لفظ ﴿كَلِمَةً﴾ على الجملة، التي يقولها الكافر يوم القيامة وهي: ﴿قَالَ رَبِّ ارْحَمْنِي﴾ ﴿لَعَنَ أَعْمَلُ مَسِيحاً وَمَا أَزْكَا﴾ [المؤمنون: ٩٩]، وهذا (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) كما نقول: (تستمعون إلى كلمة يلقيها على مسامعكم سماحة المفتي) وتكون محاضرة طويلة.



الكناية والاستعارة في سورة المؤمنون

١ - قال الله تعالى: ﴿يَنْقُضُ اللَّهُ لَكُمْ بِرِّكُمْ إِذَا أَنتُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] جاء الرسل الكرام بالمحبة والوفاء، والألفة والاتحاد، ونفُرق أنباغ الرسل، إلى فريقي وجماعات، وأصبحوا أحزاباً شتى، وجماعات متناحرة، هذا يهودي، وذلك نصراني، وآخر مجوسي، إلخ... وقد جاء التعبير عنهم في غاية الإبداع.

ضرب تعالى مثلاً للدين الذي أرسل به الرسل، بالشوب الجميل الفضفاض، اخضم فيه جماعة فتخاطفوه، فأصبح في يد كل واحد قطعة منه، فتمزق الثوب، وذُهب بهاؤه وجماله، ومضى كل إنسان بالقطعة التي اختطفها، فرحاً مغتبطاً بما هو عليه، وهكذا أصبح أمر الأمة الواحدة، منشثاً متمزقاً، وهذا معنى قوله (زُبُرًا) أي قطعاً متناثرة، وهو تمثيل لاختلاف أهل الأديان، بصورة فنية جميلة، من أجمل صور البيان.

٢ - وقوله سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ فِي حَرْبِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المؤمنون: ٥٤] أصل الغمرة: الماء الذي يغمر قامة الإنسان، شبه تعالى ما هم عليه من الجهالة والضلالة، بالماء الذي يغمر الإنسان، من فُرقوا إلى قدمه، على وجه (الاستعارة التصريحية) والمراد هنا: أن الغفلة والضلالة، قد غطت على قلوبهم فأعمتها، قال ابن عطية: والغمرة: ما عثمهم من ضلالهم، وفعل بهم فغل الماء الغمر الكثير. اهـ المحرر الوجيز ٣٦٨/١٠. أي دعهم في غفلتهم وجهلهم إلى انتهاء آجالهم، فالله تعالى لهم بالمرصاد.

الإبداع البياني في سورة النور

١ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُحْسِنِينَ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النور: ٤] أصل الرمي: القذف بالحجارة، أو بشيء ضَلَب، ثم استُعير للقذف باللسان، كما قال الشاعر:

جَزَاخَاتُ السُّنَانِ لَهَا الْجِسَامُ وَلَا يَلْتَمِامُ مَا جَزَخَ اللِّسَانُ
وقد أجمع العلماء على أن المراد بالآية هنا (الرمي بالزنى) ففي الآية (استعارة تصريحية) تشبيهاً للقذف بالزنى بالرمي بالحجارة، لأنه أشدُّ إيلاًماً وأعظم إيجاعاً، من الضرب بالسوط، أو الرمي بالحجر، لأنه هنك لعرض الإنسان.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَالرَّحْمَةُ مِنَّا لَفُلِّتُم مِّنَ الْمَسَاجِدِ وَالشُّعَرَاءُ لَمِيزُوا بَيْنَكُمْ وَأَلْفُ عَشْرَ مِائَةٍ مِّنْهُم مَّن لَّا يَفْقَهُوْنَ دِينَ وَلَا عِلْمَ وَلَا فَخْرًا وَلَئِن لَّمْ يَظْهَرِ عَلَيْكُمْ فَسَنَفْذِ إِلَيْهِمْ أَجْرَهُم بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا مِّنْهُم مَّن لَّا يَفْقَهُوْنَ دِينَ وَلَا عِلْمَ وَلَا فَخْرًا﴾ [النور: ٢٠] جواب (لولا) محذوف لتحويل الأمر، وتغطيعه، ليذهب الوهم في تقديره كل مذهب، فيكون أبلغ في البيان، وأبعد في التحويل والوعيد، والتقدير: لولا فضل الله عليكم بالتوبة لحل يكمن من العذاب، ما لا يتصوره أحد، ولا يخطر على بال.

٣ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حُظُوتَكُمْ﴾ [النور: ٢١] شبه تعالى سلوك طريق الشيطان، والسير في ركابه، بمن تحرى شخصاً في مشيته، فتبع خطواته خطوة خطوة، بطريق (الاستعارة التمثيلية).

والمعنى: لا تسلكوا الطرق التي يدعوكم إليها الشيطان، ويزيئها لأعينكم، ففضلوا، وهي (استعارة لطيفة) بديعة.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنْهُم مَّا يَكُنَّ آيَاتُ اللَّهِ لِقَوْمٍ يُذَوِّعُونَ﴾ [النور: ٢٢] في الآية (إيجاز بالحذف) حذفت من الآية (لا) للدلالة المعنى عليها، وأصلها (أن لا يؤتوا) لأن الآية نزلت في أبي بكر الصديق، خلف أن لا يُنفق على «مسطح» بعد أن خاض مع من خاض في عائشة رضي الله عنها، فنزلت الآية تأمره بالإنفاق.

والمعنى: لا يحلف أهل الفضل في الدين، وأصحاب الغنى واليسار، أن لا يؤثروا أقاربهم من الفقراء والمساكين، وليغفروا عنهم وليصفحوا وليؤدوا إلى ما كانوا ينفقونه عليهم، فلما سمعها أبو بكر قال: بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله لي، فأعاد النفقة إلى مسطح، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. اهـ
تفسير ابن جرير -

٥ - قوله تعالى: ﴿قَدْ لَبِئْسَ لَكُمُ الْمُؤْمِنِينَ خُصُوماً مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَقَتُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] في الآية (إيجاز بالحذف) لأن المراد غَضُ البصر غمًا حرم الله، وليس غَضُ البصرِ عن كل شيء، حُذِفَ ذلك اكتفاءً بفهم أولي الله، وذكر في الآية (من) التي هي للتعبير، في غَضُ البصر ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ولم تذكر في ردفتها ﴿وَتَقَتُوا فُرُوجَهُمْ﴾ لأن حكم النظر أخف من حكم الفرج، إذ يحل النظر إلى بعض أعضاء المحارم، كالذراع، والصدر، والساق، ولا يجوز إلى الفرج مطلقاً، فأمر الفروج أعظم وأخطر من كل العورات.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْبِسْكُمْ زِينَتُهُمْ إِلَّا مَا طَعَنَ مِنْهَا...﴾ [النور: ٣١] المراد بالزينة هنا: مواضع الزينة، كالعُشْق، والأذن، والصدر، والبغضم؛ فإن هذه أماكن الزينة، فالآية على حذف مضاف، وردت بطريق (المجاز المرسل) من باب (إطلاق اسم الحال على المحل).

قال في الكشف: وذكر الزينة دون مواضعها، للمبالغة في الأمر بالتستر والتصون.

٧ - قوله تعالى: ﴿يَقُولُ إِنَّهُ الْبَلُّ وَالنَّهَارُ بِمَا فِي ذَلِكَ لَعِبَرَةٌ لِلَّذِينَ الْأَنْتَبَهُ﴾ [النور: ٤٤] في الآية (استعارة لطيفة) استعار لفظ التقلب (يقلب) لتعاقب الليل والنهار، يعني مجيئيهما بدوام واستمرار، مع نقص في أحدهما، وزيادة في الآخر، وليس المراد التقلب الحسي للأمور الذاتية وإنما هو استعارة بديعة، عن دوامهما، يأتي الليل فيذهب النهار، ويأتي النهار فينمحي الليل، تشبيهاً لتعاقبهما بتقلب الطفل من جنب إلى جنب، أو بتقلب القارئ لصفحات الكتاب.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَكُمْ لَنْزِيلٌ لَكُمْ تَخْرُجُ...﴾ [النور: ٥٣] الجُهد: الطاقة والقوة، شبه تعالى أيمان المنافقين في قوتها وشذتها، بمن يُجهد نفسه في أمر شاق، ويبذل أقصى وسعيه وطاقته فيه، على طريق (الاستعارة) واستعار لفظ الجُهد لها.

والمعنى: أسمعوا بالله بالغين أفضى مراتب اليمين في الشدة، لئن أمرتهم بالخروج للجهاد، ليخرجن معك يا محمد وهم كاذبون.

٩ - قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلَ﴾ [النور: ٥٤] المعنى: على الرسول ما كُلف به من أمر التبليغ، وعليكم ما أمرتم به من أمر الطاعة والتسليم، فالآية من باب (المشاكلة) وهي الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، فما حُمِّلَ به الرسول، غير ما حُمِّلَ به البشر، فاللفظ متفق، والمعنى مختلف، كثر عن التكليف بالجمل الشاق.

الأمثال في سورة النور

التمثيل لطاعة الشيطان باتباع خطواته

١ - قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهِ الَّذِينَ يَسْكُرُونَ وَلَا يَتَّبِعُونَ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ يُمِيزُ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَرَ...﴾ [النور: ٢١] خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ: طرائقه ومساكنه جمع خطوة وهي ما بين القدمين عند السير، شبه تعالى سلوك طريق الشيطان، والسير في ركابه، بمن يتبع خطوات إنسان خُطُوَةً خُطُوَةً، وهو تمثيل بديع، لمن سار في طريق الشيطان، وتحت رايته وقيادته، والمعنى: لا تسلكوا الطرق التي يدعوكم إليها الشيطان، ويزينها لأعينكم، فإنه لا يريد لكم إلا كل فبيح ومنكر، ليوقعكم في المهالك.

قال قتادة: كل معصية من المعاصي فهي من خطوات الشيطان.

التمثيل بالخبيث

والطيب للصالح والفاجر

٢ - قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالْخَبِيثَاتُ لِلْطَّيِّبِينَ وَالْطَّيِّبُونَ لِلْطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُتَرَدِّدُونَ مِمَّا قَلَّوْا...﴾ [النور: ٢٦] مثل تعالى للمرأة الفاجرة والرجل الفاجر: (بالخبيثة، والخبيث) وللمرأة العفيفة الطاهرة والرجل الطاهر: (بالطيبة، والطيب).

والمعنى: الخبيثات من النساء، للخبيثين من الرجال، والطيبات من النساء، للطيبين من الرجال، وحيث كان سيء الخلق محمد ﷺ أطيّب الأَطْيَبِينَ، وأطهر الطاهرين، فلا بد أن تكون زوجته (عائشة) أم المؤمنين، من أطيّب النساء وأطهرهن، كما يُقال في الأمثال: (إن الطيور على أشكالها تقع) وهذا كالدليل على براءة السيدة (عائشة) رضي الله عنها ممّا رماها به المنافقون، لأنها زوجة أكرم مخلوق، وأشرف رسول، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحب عباده، لو لم تكن عفيفة شريفة طاهرة!! فالجنس يألفه الجنس.

كان مسروق إذا حدث حديثاً عن عائشة، أو روى عنها خبراً، كان يقول: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة من السماء، ثم يروي الحديث.

ويحكى أن قسباً أراد أن ينال من السيدة عائشة رضي الله عنها، بحضور بعض المسلمين، فقال: إن الناس رَمَوْها بِالْإِفْكِ - يعني الزنى - ولا تدري أهي بريئة أم متهمة؟ فردَّ عليه بعض المسلمين على الفور بقوله: اسمع يا هذا!! هناك امرأتان اتُهما بالزنى، وقد برَّاهما القرآن الكريم، إحداهما ليس لها زوج وقد جاءت بولد، والأخرى لها زوج ولم تأت بولد، فأيهما أولى بالتهمة؟ هل التي لها زوج، أم التي ليس لها زوج؟ أخبرني إن كنت عاقلاً تُريد المعرفة؟ يريد بذلك السيدة مريم، والسيدة عائشة، فأخرس القبس ولم ينسب ببنت شفة، وردَّ الله كيد الفاجر في نحره.

التمثيل للنور الإلهي في قلب المؤمن

٣ - قوله تعالى: ﴿ هَذَا نُورُ الْقُدُّوسِ الَّذِي يُنِيرُ الْكَافِرِينَ ﴾ [النور: ٣٥] الله جلُّ ثناؤه ليس له نظير ولا مثل، وهذا تمثيلٌ لنور المؤمن، لا لنور الله، وفي الآية ما يسمى (بالتشبيه التمثيلي) شبه نوره الذي وضعه في قلب عبده المؤمن، بالمصباح الوهاج، في فتحة في الحائط، في هذه الفتحة سراجٌ ضخمٌ ثابتٌ، له زجاجةٌ تشبه الكوكب المنير، في الحسن والصفاء، وإنما سُمي تشبيهاً تمثيلاً، لأن وجه الشبه منتزِعٌ من متعدد، وهذا كله واردٌ على وجه التمثيل لقوله تعالى: ﴿ وَنَضَرْتُ اللَّهُ الْأُفُقَ لِيَأْتِيَنِّي وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥].

هذا مثلٌ بديعٌ للنور الإلهي، في قلب العبد المؤمن، شبه تعالى نور الله، الذي وضعه في قلب عبده المؤمن، بالمصباح الوهاج، يكون في فتحة داخل الحائط، يشبه في زماننا (الشرا الكهربائية) الساطعة بالنور الوهاج، كأن الزجاجة في صفاتها وضيائها، كوكبٌ ساطعٌ يضيء بنفسه من صفاته، وحسن ضيائه، تكامل فيه النور من جميع جهاته، فقد اجتمع نور المصباح، مع صفاء الزيت، مع حسن الزجاجة، فاكتمل نور العبد المؤمن بإذن الله، ففي الآية (استعارة تمثيلية) لأن وجه التشبيه منتزِعٌ من متعدد، ولا يراد بالآية تمثيل نور الله بالمصباح، لأن الله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وهو السميع

الإبداع، وإنه تشبيه فائق الخُسن في منتهى الجمال والروعة، فالكافر كلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور!!

والبحرُ اللجِّي: هو البحرُ العميق المظلم، وهو ما يعرف بالمحيطات الكبرى الخمس.

سمع بعض قبطان البحر هذه الآية، فسأل هل ركب محمد البحر؟ قالوا: لا، فقال: أشهد أنه رسولُ الله!! فقالوا: ومن أين عرفت ذلك؟ فأجاب إنَّ هذا الوصفَ للبحر، لا يعرفه إلا من عاش عمره في البحار، ورأى الأهوال والأخطار، إنها فترات تمرُّ علينا ونحن في البحر، وتأتينا هذه الأمواج الدافقة العاتية، فلا نكاد نرى ما حولنا، حتى لا يكاد يرى الإنسان رفاقه، أو حواشيه، فعرفت أنه وحيٌّ من عند ربِّ العزة والجلال، ولا يمكن أن يكون هذا الوصف الدقيق، من إنسان عادي، لم يركب البحر، ولم يعرف أهواله ومخاطره.

٦ - قال جل ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظُنْبِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ . . .﴾ [النور: ٤٥] المراد بالماء: النطفة من الإنسان أو الحيوان، وعبر بالمشي عن الزحف على طريق (الاستعارة اللطيفة) أي منهم من يزحف على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، وقدم ما هو أظهر في القدرة وأعجب، وهو الماشي بغير آلة من أرجل وقوائم، ثم بالماشي على رجله، ثم بالماشي على أربع، وهذا النوع من التمثيل يسمى بد(الاستعارة) استعار عن الزحف لفظ المشي، لأن المشي يكون للإنسان والحيوان، أما الحية والديدان فإنها تزحف زحفاً، وتسميه حركتها مشياً جاء بطريق الاستعارة، مجازة لما بعدها من مشي الإنسان على رجله، ومشى الدابة على أربع.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَأَنصُرُوا لِلَّهِ أُنُسُوبَهُمْ لِيُبْطِلَ الْفَاسِقِينَ أَتَوْا بِمُحْسِنٍ وَاللَّيْمِينَ فِيهَا أَقْصَىٰ مَرَاتِبِ الْيَمِينِ، فِي الشَّدَةِ وَالتَّأْكِيدِ، يَمْنُ يَجْهَدُ نَفْسَهُ فِي أَمْرٍ شَاقٍّ لَا يَسْتَطِيعُهُ، وَيَبْذُلُ فِيهِ أَقْصَى طَاقَتِهِ وَوُسْعَهُ، وَاسْتَعَارَ لَفْظَ الْجَهْدِ، مَكَانَ التَّأْكِيدِ وَالْمَبَالِغَةِ فِي الشَّدَةِ، وَذَلِكَ بِطَرِيقِ (الاستعارة التصريحية).

الإبداع البياني في سورة الفرقان

١ - قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْعَمَ بِالرِّيحِ﴾ [الفرقان: ٢٣] الهباء: الغبار الناعم المتطاير في الجو، شبه تعالى أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا، من إطعام المساكين، وصلة الأرحام، ورعاية الأرامل والأيتام، بالغبار المتثور في الجو، في حقارته وعدم نفعه، وحذف أداة التشبيه، ووجه الشبه منه، فهو (تشبيه بليغ) والمعنى: أن أعمالهم الصالحة ذهبت أدراج الرياح، كالغبار المتثور في الجو.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا نَارًا عَلَى دَابَّةٍ﴾ [الفرقان: ٢٧] عصا اليمين والأنامل (كناية) عن الثد و الحسرة، والمراد بالظالم هنا (عقبة بن أبي معيط) كما وضح أسباب النزول، وانظر تفسير الرازي، وتفسير ابن كثير.

٣ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ سُبُلًا﴾ [الفرقان: ٣٤] الضلال لا ينسب إلى المكان، إنما هو لأهله، ففي الآية (مجاز مرسل) علاقته المكانية، أي أولئك الكفار الفجار، شر متزلاً ومصيراً يوم القيامة، وأضل من الأنعام السارحة، لأنهم ضيعوا عقولهم فصاروا شراً من البهائم.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَأَرْثِيكَ بِآفَاتِنَا أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ [الفرقان: ٤١] الاستفهام هنا (للتعجب والاستهزاء) يقولون: أهذا الذي بعث الله رسولا إلينا؟ أما وجد الله رسولا غير نعيم أبي طالب؟ ويقولون ذلك سخريّة واستهزاء برسول الله ﷺ.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَنُفِثَ لَكُمْ لَيْلٌ رَّاحَةً﴾ [الفرقان: ٤٧] في الآية تشبيه بديع، يسمى (التشبيه البليغ) أي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه، وجعل النوم راحة للأبدان، قاطعاً للأعمال، حذف من الآية أداة

التشبيه، ووجه التشبه، فأصبح بليغاً، على منهج قول البلغاء: العلم نور، والجهل ظلام، ووجهه قمر.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ أَنْزِلَ نَزْلًا يَكُنْ يَدَىٰ رَحْمَةٍ...﴾ [الفرقان: ٤٨] ﴿يَنْزِلُ﴾ أي مبشرة بنزول المطر ﴿يَكُنْ يَدَىٰ رَحْمَةٍ﴾ أراد بالرحمة الغيث والمطر، استعار اليمين لما يكون أمام الشيء وقُدَّامه على طريق (الاستعارة البديعة) كما نقول: بين يدي الموضوع، وبين يدي السورة، وليس للموضوع يدان، ولا للمطر يدان، وفي الآية الكريمة جمال وروعة وبيان، فإن (الرحمة) بمعنى: ماء المطر، (وبين يدي) أي أمامه وقُدَّامه، فالسحاب يحمل الماء، والرياح تسوق السحاب، كالراعي الذي يسوق أغنامه أمامه (ريح، ثم سحاب، ثم مطر) وهذا المطر لمنافع البشر، ينزله الله عَذْباً فَرَاتاً، وقد ذكر تعالى الحكمة من إنزال المطر، بقوله: ﴿يُنْزِلُ بِهِ الْغُثَىٰ وَالثَّغَىٰ وَشَجَرَةً مِّنْ أَخْضَرٍ وَأَلْأَيُّ كَثِيرٍ﴾ [الفرقان: ٤٩] أي أرضاً مجدبة ميتة، لا نبات فيها ولا ثمر، والأناسي هم البشر الكثيرون، أي تسقي بهذا المطر الأنعام والبشر فما أعظم رحمة الله بعباده!!

٧ - قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لِّلْبَشَرِ نَارًا فَجَعَلَ لِّلنَّارِ الْغُثَىٰ وَالثَّغَىٰ وَشَجَرَةً مِّنْ أَخْضَرٍ وَأَلْأَيُّ كَثِيرٍ﴾ [الفرقان: ٦٢] في الآية (إيجاز بالحذف) أصله: جعل الليل خلفه للنهار، وجعل الثَّهَارَ خلفه لليل، يخلف كل منهما الآخر، فجمع في الآية ﴿أَبْلَ الثَّهَارِ﴾ ووصف كلا منهما بأنه (خلفه) على طريق الإيجاز.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ الْأَنفُسُ الْتَمِتْ عَلَىٰ الْأَرْضِ حِينٌ﴾ [الفرقان: ٦٣] ﴿حِينٌ﴾ أي بسكينته وتواضع، من غير تبختر ولا استكبار، ذكر بالمصدر مبالغة، وأضافهم تعالى إليه ﴿وَعَسَىٰ الْأَنفُسُ﴾ للتشريف والتكريم.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا إِلَىٰ ثَابِتٍ رَّبِّهِمْ أَوْ إِلَىٰ مَنَاسِكَ أَعْيُنُهُمْ﴾ [الفرقان: ٧٣] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، فقد شبه تعالى الكفار المعرضين عن تدبر آيات الرحمن، بالصُّمِّ والعُصْفَى، ونفى عن المؤمنين مشابهتهم للكفرة الغافلين، فهو ثناء على المؤمنين، بأسلوب بديع، والمعنى: إذا وعظوا بآيات الذكر الحكيم، لم يكونوا كالْعُصْفَى الصُّمِّ، لا يفهمون معناها، ولا يتأثرون بما فيها من الزواجر والقوارع، بل يسمعونها بأذانٍ واعية، وعيونٍ راعية، وإنما عبر عن ذلك بنفي الصُّمِّ ﴿لَا يَحِزُّوا عَلَيْهَا﴾

سُئِلَ وَعُتِبَ لَهُ ﴿١٠﴾ تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون، حيث يتعامون عن آيات الله النيرة.

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ زَيْنًا بِمَا أَرَدْنَا وَإِنَّا مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَآءٌ﴾ [الفرقان: ٧٤] ﴿فَرَّةٌ أَضْيَبٌ﴾ كناية لطيفة بديعة عن الفرحة والمسرّة، كما أن (الغرفة) كناية عن الدرجات العالية في الجنة، أي اجعل لنا ذرية صالحة تقرأ بهم أعياننا.

الكناية والاستعارة في سورة الفرقان

١ - قوله سبحانه: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ يَرْجِعُونَ بِغَيْرِ تَعْمَلٍ تَتَبَّطَّ وَتَعْبَرُ﴾ [الفرقان: ١٢] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) شبه تعالى صوت غليان النار، وشدة حرارتها بصوت المغتاط الخنق، الذي اشتد غضبه وغبطه على عدوه، على طريق (الاستعارة التمثيلية) أي سمعوا صوت لهيبها وغليانها، كحالة الغضبان إذا غلى صدره من الغيظ، وسمعوا لها صوتاً كصوت الحمار حين يزفر ويشهق إلى الشعر، ومثل له بهذا التمثيل الرهيب، الذي يُفَصِّح عن غيظ جهنم على أعداء الله، وشدة نارها المستمرة، فالغيظ يكون من الإنسان، والزفير من الحيوان، وهو تمثيل لوصف النار بالاهتياج والاضطرام، على عادة المغيظ الغضبان، ويا له من تمثيل مفرع رهيب!!

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلْبَسَ الرَّيْحَ نَشْرَبَكَ يَدَى رَحْمَتِهِ...﴾ [الفرقان: ٤٨] الرحمة يراد بها الغيث والمطر، والمطر ليس له يدان، وإنما هو تعبير بلاغي، بطريق (الاستعارة) استعار اليدين لما يكون أمام الشيء وقُدَّامه، كما تقول: بين يدي السورة، وبين يدي الموضوع، وهذا من لطيف الكلام، ويديع الاستعارة.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَا يَحْسِرُوا عَلَيْهَا أَشْدَّ وَتَعْبَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] المراد أنهم إذا وُعظوا بآيات القرآن، لم يعرضوا عنها، بل سمعوها بأذان صاغية، وقلوب واعية، ولم يجعلوها خلف ظهورهم بمنزلة من لم يسمع ولم يبصر، وهذا التعبير من أحسن الاستعارات والطفها وأبدعها، وإنما عبّر عن ذلك بنفي الضد ﴿لَا يَحْسِرُوا عَلَيْهَا أَشْدَّ وَتَعْبَانًا﴾ تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون، حيث يصمّون الأذان عن سماع القرآن، ويعرضون عن آيات الذكر الحكيم.

الإبداع البياني في سورة الشعراء

١ - قوله تعالى: ﴿إِن تَنَادَوْا ثَرْدًا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ غَايَةً فَلَتَلَتْهُمُ أُغْصَانُهُمْ لَمَّا خَصَّصِينَ﴾ [الشعراء: ٤] في الآية (كناية لطيفة) كنى بقوله: ﴿فَلَتَلَتْهُمُ أُغْصَانُهُمْ لَمَّا خَصَّصِينَ﴾ عن الدَّلَّ والهوان الذي يلحقهم، بعد أن كانوا في العِزِّ والكبرياء، وهي (كناية بديعة) تشبيهاً لهم بالدابة، تخضع وتقاد لقائدها.

٢ - قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرٍ مِّبِينٍ؟﴾ [الشعراء: ١٨] في الآية (إيجاز بالحذف) دلَّ على هذا الحذف سياق القصة، والتقدير: فأتيا فرعون قد خلا عليه، وقالوا له: أرسل معنا بني إسرائيل، فقال فرعون لموسى: ألم نربك فينا وليداً؟ إلخ وكذلك فيما سبق أيضاً (إيجاز بالحذف) في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣].

قال في الكشف: أصل الكلام أرسل جبريل إلى هارون، واجعله نبياً، وأزرنى به، واشدّد به عضدي. . إلخ فأحسن في الاختصار غاية الإحسان. اهـ.
تفسير الكشف ٢٣٥/٣.

٣ - قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] في الآية (إيجاز بالحذف) في قوله: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾ أي فضربه فانفلق وصار فيه اثنا عشر طريقاً، بعدد أسباط بني إسرائيل، وكلُّ فِرْقٍ منه كالجبل الشامخ، الثابت في مكانه لا يتزعزع، وفيه تشبيه يسمى (المرسل المجمل).

٤ - قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَهوَ يُحْيِيهِ • وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُهُ • وَلَئِذَا مَرَسْتَ فَهُوَ يُنْشِئُهُ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠] في الآية الكريمة منتهى (رعاية الأدب) مع الله عز وجل، فقد نسب الهداية إلى الله، والرزق والطعام والشفاء إليه تعالى، ولما تحدّث عن المرض وهو شرٌّ في الظاهر، نسبته إلى نفسه ﴿وَلَئِذَا مَرَسْتَ﴾ ولم يقل: وإذا أمرضني، تأدباً مع الله تعالى، لأن

الشر لا يسب إلى الله أدباً، وإن كان المرضُ والشفاء بيده سبحانه .

٥ - قوله تعالى: ﴿وَأَنْجَزْ لَنَا وَاعْدِ الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] المراد باللسان: الثناء العاطر، والذكرُ الحسنُ، ففي الآية الكريمة (استعارةً لطيفة) استعارَ اللسان للذكر الجميل، والثناء الحسن، وهي من (الطف الاستعارة).

٦ - قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] أراد بالمرسلين (نوحاً) عليه السلام، وإنما ذكره بصيغة الجمع ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ للتنبيه على أن من كذب رسولاً، فقد كذب جميع المرسلين، لاتفاق جميع الرسل على دعوة التوحيد، فهو من باب (إطلاق الكل وإرادة البعض).

٧ - قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي نَذِيٌّ كَذُوبٌ • فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَسَ﴾ [الشعراء: ١١٧، ١١٨] في الآية (استعارةً تبعيةً) لطيفة، استعار الفتح للحكم، والفتاح للحاكم، لأنه يفتح المغلق من الأمر، ويزيل الظلم، والمعنى: احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفْكَارُ قَبِيلِهِ إِلَّا فِي مَكِيدُونٍ﴾ [الشعراء: ٢٠٨] أطلق القرية وأراد أهلها، ففي الآية (مجازاً مرسل) وقد تقدّم أمثالها، في مواطن مواطن كثيرة من هذا الكتاب، في سورة الأنعام، وهود، والجنجر.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ حَنَاجِكُمْ إِلَى الْتَوَاضِعِ﴾ [الشعراء: ٢١٥] في الآية (استعارةً مكنية) شبه التواضع ولين الجانب للمؤمنين، بخفض الطائر جناحه، وذلك عند إرادته الانحطاط، وخَذَفَ المشبه به وهو (الطائر) ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو (خفض الجناح) والمراد بالآية: تواضع لاتباعك المؤمنين، وتقدّم مثلها في ص ١٧٠ من سورة الجنجر.

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْزَنُ • أَلْزَمَهُمْ كُفْلًا وَيَوْمَ يُهْمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤، ٢٢٥] في الآية (استعارةً تمثيليةً بديعة) شبه تعالى الشعراء وهم يخوضون في أشعارهم، بالمديح والثناء، والذم والهجاء، يقوم سلوكوا شغاباً متفرقة، في صحراء شاسعة، فتأهوا في أوديتها، فمنهم من نجا، ومنهم من هلك، وهكذا حال الشعراء، يمدحون بالحق والباطل، حسب الهوى والميزاج، فيذنبهم الكذب، والخوض في أبواب المديح والهجاء، حتى قيل عن الشعراء: (أعذبهُ أكذبهُ) فقوله سبحانه: ﴿وَكُلٌّ زَايٍ يَهْمُونَ﴾ من (الطف الاستعارات) ومن أرشيقها وأبدعها، وهي (استعارة تمثيلية).

١١ - قوله تعالى: ﴿وَسَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّا مَقْبَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]
 هذا وعيد أكيد، وتهديد شديد، عام في كل ظالم، تنفث له القلوب ألمًا،
 وتتصدع له كحمداً، وقد أصبح كالمثل السائر، يقال لكل فاجر ظالم، وقوله:
 (سيعلم) فيه من التهويل ما فيه، وفي قوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من الإطلاق
 والتعميم، وفي قوله: ﴿أَنَّا مُقْبِلُونَ﴾ من الإيهام والتفطيع ما فيه، أي
 وسيعلم الظالمون أي مصير يرجعون إليه! وقد استثنى الله من الشعراء،
 المؤمنين الصالحين، الذين لا يخوضون في الباطل. فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: ٢٧٧].

لطيفة: الشاعر قد يمدح الشيء ويذمه حسب هواه، بحلاوة لسانه وقوة
 بيانه، ومن الطيف ما سمعته عن بعض شيوخنا، ما قاله بعضهم عن العسل:
 نَقُولُ هَذَا مُجَاجُ الشُّخْلِ تَمْدَحُهُ وَإِنْ نَعِبَ قُلْتُ دَاقِيءُ الرُّتَابِيرِ
 مَذْحًا وَقَذْحًا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا (يسخر البنيان يُري الظُّلَمَاءَ كَالسُّورِ)



الكناية والاستعارة في سورة الشعراء

١ - قوله تعالى: ﴿إِن شَأْنُنَا نَزَّلَ عَلَيْنَا مِنْ أَمَّاةٍ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَمَّا خُنْصِينُ﴾ [الشعراء: ٤] هذه كناية لطيفة، كُتِبَ بها عن الذل والهوان الذي يلحقهم، بعد الاعتزاز والكبرياء التي كانوا عليها، أي لو شئنا لأنزلنا آية من السماء تضطرهم إلى الإيمان قهراً، فتظل أعناقهم متقادة خاضعة لأمر الله، ولكن سبق في علمنا شقاؤهم فلا نحزن عليهم.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَأَعْمَلَى لِسَانٍ يَدْعُو الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] في الآية (استعارة لطيفة) الصدق ليس له لسان، فاستعار اللسان للذكر الجميل، والثناء الحسن، يريد أن يقول: يا رب اجعل لي ذكراً حسناً، وثناء عاطراً، فيمن يأتي بعدي إلى يوم القيامة، فعبر باللسان عن هذا، لأن الثناء إنما يكون باللسان، وهذا من أطف الاستعارات.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا سَدًّا مَطَرًا مُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣] في الآية استعارة لطيفة، شبه العذاب الذي نزل عليهم بالمطر (بطريق الاستعارة) لأنه كان غزيراً متتابعاً يشبه المطر، أي قذفناهم بحجارة من السماء، كانت تنزل عليهم كالمطر الدافق، فأهلكناهم عن بكرة أبيهم، استعار لفظ المطر للرمي بالحجارة التي قذفوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارًا مِنْ سِجِّيلٍ﴾ تشبيهاً له بالمطر الدافق، لبيان غاية الشدة والكثرة.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَأَخْمَرْنَا جَنَاحَكَ إِلَى أَعْيُنِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] في الآية (استعارة مكنتية) شبه التواضع ولين الجانب، بخفض الطائر لجناحه عند الهبوط، فإن الطائر له جناحان، يقبضهما إليه عند الانحطاط، فحذف الطائر، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الجناح على سبيل (الاستعارة المكنتية).

٥ - قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلْهَوْا أَنْتُمْ فِي كَيْدٍ وَإِنْ يَهْبِثُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤، ٢٢٥] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) بدیعة، مثل تعالى

لمديح الشعراء وهجائهم، بالحقّ أو الباطل، وإفراطهم في الثناء والمديح، على من لا يستحقّ الثناء، بالرجل الذي دخل الصحراء، فهامَ على وجهه، لا يدري أين يسير، ولا أيّ وادٍ يسلك؟ وأخذ بطرق أنواع الدروب في الوديان، خائباً غير رشيد، وهذا اللون من الاستعارة، من ألطف الاستعارات، وأرشفها وأبدعها. وإنما ذمّ تعالى الشعراء، لمغالاتهم في المدح أو الهجاء، ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يصفوا أجبن الناس بأنه أشجع من عترة، وأبخل الناس بأنه أكرم من حاتم، وربما رفعوا شخصاً إلى أوج الكمال، ثم إذا غضبوا عليه أنزلوه إلى الحضيض.



الإبداع البياني في سورة النمل

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ أَفْئَةً مَّا هُمْ كَانَتْ جَاءَةً﴾ [النمل: ١٠] في الآية (إيجاز بالحذف) حذفت جملة (فالقاهما فانقلبتم إلى حيّة) إلخ وذلك لدلالة سياق الآية على المحذوف، والبلاغة في الإيجاز.

٢ - قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيْسَنَّا نَجِبُهُ فَانْكَبُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣] في الآية (استعارة بديعة) استعار لفظ الإبصار للوضوح والبيان، لأن الإنسان يُبصر الأشياء بالعينين، فكأن هذه المعجزات الخارقة للعادة، في جلالاتها، ووضوحها، كأنها تُبصر نفسها، وتُبصر الأشياء التي حولها.

٣ - قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَيْتُ بِكُمْ عَلِيًّا مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكُمْ بِهِ، قِيلَ إِنَّ رَبَّنَا إِلَهُك مُطَفَّلٌ﴾ [النمل: ٤٠] في الآية (استعارة بديعة) شبه تعالى سرعة مجيئه بالعرش، بـرجوع الطرف للإنسان، أي أنا آتيتك به قبل تحريك جفحك للنظر إلى شيء من الأشياء، وهذا غاية في الإسراع، وتمثيل بديع.

فلان قيل: كيف قدر على الإتيان بالعرش، وهو غير نبي؟

فالجواب: أنه يجوز أن يُخصَّصَ غير النبي بكرامة، كما خُصَّت مريم بأنها كانت تُرزق من عند الله من فاكهة الجنة، وزكريا لم يُرزق منها، ولا يلزم من ذلك فضلها على زكريا!!

٤ - قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا مَعَكُمْ وَاكْرَاهُوا لَكُمْ وَاعْتَصِمُوا بِهِ بِتَضَوِّتٍ﴾ [النمل: ٥٠] سعى تعالى إهلاكهم وتدميرهم (مكرراً) على سبيل المشاكلة، وقد تقدم أمثالها، في سورة آل عمران، وفي سورة الأنفال، فانظرهما هناك، والله يرداك!!

٥ - قوله تعالى: ﴿وَسَمِعَ عَلَى خِثَاؤٍ مِنَ الْبَنَاتِ نُظُنُّهُ أَنَّهَا سُورَةُ﴾ [النمل: ٥٩] في الآية الكريمة ﴿وَسَمِعَ أَنَّهَا سُورَةُ﴾؟ أسلوب عجيب يُسمى (أسلوب السخرية والتهكم) إذ ليس في عبادة الأوثان والأصنام شيء من الخير، حتى يُقارَنَ بينها وبين الخالق الرازق!!

٦ - قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَعْيُنَ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ لِيَنْظُرُوا بِدُونِ رَحْمَةٍ مِنَّا ۚ طَلُوتُ الْأَنْزِلَ وَالْخَيْرِ ۚ وَمَنْ يَزِيدُ الْيَاسِقَ إِسْرَافًا يَنْفَكُ بِدُونِ رَحْمَةٍ ۚ﴾ [النمل: ٦٣] ﴿طَلُوتُ الْأَنْزِلَ وَالْخَيْرِ ۚ﴾ استعمار الظلمات للشدائد والأحوال، ويدخل معها ظلمات الليل الحالكة.

وفي قوله: ﴿يَنْفَكُ بِدُونِ رَحْمَةٍ ۚ﴾ استعمار البدين لما يتقدم نزول الرحمة أي المطر، فاستعمار البدين للشيء الذي يتقدم نزول الغيث، وهي استعارة بديعة.

٧ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السَّاعَةَ ۖ وَهُمْ لَا يُمْنُونَ ۚ وَلَا يَصْذَقُونَ بِالْآخِرَةِ ۚ﴾ [النمل: ٦٦] في الآية (استعارة لطيفة) استعمار العنى للنعامي عن الحق، وعدم التفكير والتدبر لأحوال الآخرة.

ومعنى الآية: أنَّ المشركين لا يصدقون بالآخرة، لأنهم شاككون في وقوعها ومجيئها، ثم أضرب عن ذلك إلى بيان ما هو أشد وأفظع من الشك، وهو تعاميمهم عنها، فلماذا يسألون عن الساعة، وهم لا يؤمنون ولا يصدقون بالآخرة؟

٨ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفَكُ عَلَىٰ نَفْسٍ لَّيِّنَةٍ يَنْفَكُ الْوَدَّ هُمْ بِهِ يَخْتَفُونَ ۚ﴾ [النمل: ٧٦] القصص لا يوصف به إلا الناطق المميز للكلام، وقد استعير لفظ (يقص) للشبّين، أي يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من الدين، لأن القرآن لما تضمن نيا الأولين، كان كالشخص الذي يقص على الناس الأخبار، ففي الآية (استعارة تبعية) بديعة، من روائع أنواع الاستعارة.

٩ - قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْنَ وَلَا تَسْمَعُ الْغَمَّ الدَّاعِيَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۚ﴾ [النمل: ٨٠] التعبير بالموتى، وبالضم، والغمي، كل ذلك جاء بطريق (الاستعارة التمثيلية) فهو تمثيل لأحوال الكفار، في عدم انتفاعهم بالإيمان، بأنهم كالموتى، وكالضم، والغمي، لا حس لهم، ولا فهم، ولا عقل، وتقييده بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۚ﴾ لتكميل التشبيه، فلأنهم مع ضمهم، معرضون عن الداعي إلى الهدى، مولون أديارهم عنه، فكيف يسمعون أو يفهمون!!

١٠ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَآدَ لَيْسَ كُنُوزُهُمْ وَلَا نَهَارُ مُبْصِرًا ۚ﴾ [النمل: ٨٦] في الآية ما يسمى بـ (الاحتباك) حذف من أوله ما أثبت في آخره، وبالعكس، وأصله: ألم يروا أنا جعلنا الليل (مظلماً) ليسكنوا فيه، وجعلنا النهار مبصراً (ليتصرفوا فيه) فحذف (مظلماً) لدلالة مبصراً عليه، وحذف (لتصرفوا فيه) لدلالة قوله: ليسكنوا فيه.

١١- قوله تعالى: ﴿وَرَزَى الْجِبَالِ رَحْمَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] في الآية (تشبيه بليغ) أي وهي تمرُّ كتمرُّ السحاب في السرعة، حذفت الأداة ووجه التشبيه فأصبح بليغاً، مثل: محمدٌ أسدٌ، وفي الآية إشارة رائعة، إلى حركة الأرض ودورانها، وهي سبقٌ علميٌ فريد، وانظر كتابنا (حركة الله ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن الكريم) ففيه روائعٌ وبدائعٌ حول الموضوع.



الكناية والاستعارة في سورة النمل

١ - قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا نَجِيعَةً قَالُوا هَذَا بُرْءٌ شَيْءٌ ﴾ [النمل: ١٣]
استعار لفظ الإبصار ﴿ آيَاتُنَا نَجِيعَةً ﴾ للوضوح والبيان، لأن بالعينين يبصر الإنسان الأشياء، فكانها لوضوحها وجلالتها إنسان يبصر، ولسان ينطق، بأنها حق من عند الله، ويأت الاستعارة باب وسع، استعمله العرب في أساليب مخاطبتهم وأحاديثهم، كقول بعضهم: قال الحائط للمسمار: لم تشقني؟ قال: سئل من يذقني، وبهذا النوع من التعبير، يزداد الكلام حلاوة وجمالاً، وأنساً وبهاء.

التمثيل للمسرعة بارتداد الطرف

٢ - قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَلَيْسَ عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَفَإُنْذِرُكَ بِكَ ﴾ [النمل: ٤٠] هذه كناية لطيفة، عن إحضار العرش بلمح البصر، كنى عن سرعة مجيئه للعرش، برجوع الطرف للإنسان، وارتداد الطرف معناه: انطباق الجفن العلوي على الجفن السفلي، وهو أبلغ ما يمكن أن يوصف به في السرعة، كقوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفٍ انْقِلَابٍ أَزْرَأُ ﴾ [النحل: ٧٧] يقول الرجل المؤمن من خواص (سليمان) عليه السلام: أنا أتيك بالعرش قبل تحريك جفنتك، وهذا غاية في الإسراع، ومثل يضرب للمسرعة الفائقة، يقال: سأحضر لك المتاع بلمح البصر، وأحضر إليك قبل أن يرتد إليك طرفك.

٣ - قوله تعالى: ﴿ لِيَذْكُرُوا عَمَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَمَّا فِي شَرِكٍ يَوْمَ هُمْ شَهَا عَمَلُونَ ﴾ [النمل: ٦٦] استعار العمى للتعامي عن الحق، وعدم التفكير والتدبر في آلاء الله، فصاروا كمن عمي بصره، صيرهم كالبهائم والأنعام، لا يتدبرون ولا يبصرون، ومعنى قوله تعالى: ﴿ لِيَذْكُرُوا عَمَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أي هل تلاحق وتدارك علمهم بالآخرة، حتى يسألوا عن الساعة وقيامها؟ إنهم لا يؤمنون بالآخرة فلماذا يسألون عنها؟ وهذا أسلوب سخرية بهم وتهكم!!

٤ - قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْفُسُ عَلَى رَبِّهِ بِسُوءِ الظَّنِّ الَّذِي فُتِنَ بِهِ. يَنْتَفِلِئُ ﴾

[النمل: ٧٦] القَصَصُ والأَحَادِيثُ لا يوصف بها إلا الناطقُ المميزُ من البشر، ولما كان القرآن العظيم، قد تحدث عن قصص الأمم السابقين، وحوى أخبار الرسل مع أممهم، صار كأنه شخصُ ناطقٌ متحدثٌ، يخبر عن أنباء القرون السابقة، بلسان صريح فصيح، على طريقة (الاستعارة التبعيَّة) البديعة، حيث حذف المشبَّه به وهو الإنسان، وأشار إلى شيء من لوازمه، وهو القصة والحديث.

٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ النَّوْءَ إِلَّا تُسْمِعُ الْقَوْمَ الذَّلَّةَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۚ وَمَا أَتَى بِهَذِهِ الْقَوْمِ مِنْ خَلْقٍ لَهَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا سَمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ﴾ [النمل: ٨٠ - ٨١]. في الآية (استعارة تمثيلية) مثلُ تعالى للكفار، المكذِّبين لخاتم الأنبياء (بالموتى، وبالضَّم، والغنى) فإن الكفار لتركهم التدبر والاعتبار، كالموتى لا حسَّ لهم ولا عقل، والأصمُّ إذا تاديتَه لم يسمع نداءك، مهما رفعت الصوت، لا سيما إذا كان مدبراً عنك، فقد اجتمع عليه بُغْدُ المسافة والضَّمُّ.

والغرض من الآية بيانُ أنَّ هؤلاء الكفار كالموتى، وكالغنى، والضَّم، وإن كانوا سليمي الحواس، فلذلك لا يسمعون ولا يعقلون ولا يبصرون، شبه تعالى من لا يسمع ولا يعقل بالموتى، وإن كانوا أحياء، ثم شبههم ثانياً بالضَّم وبالعَمى لأنهم لا يفقهون، ولا يتدبرون، وذلك بطريق (الاستعارة التمثيلية) وختم الآية بأن الذين يسمعون كلام الرحمن، سماع تدبر وإفهام، هم المؤمنون وحدهم، فهم العقلاء المستبصرون.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَرَوَى الْمَلَأَ نَحْمًا حَابِدَةً وَمِنْ مَرَّ السَّحَابِ مَعَ اللَّهِ الَّذِي أَنْقَرُ كَذَّبُوا ۚ إِنَّهُمْ خَيْرٌ بِنَا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨] في الآية الكريمة تشبيه رائع بديع، يسمى (التشبيه البليغ) حذفت منه أداة التشبيه ووجه التشبيه فأصبح بليغاً، والأصل في الكلام: تمرُّ مروراً سريعاً، كمرَّ السحاب في مشيه وحركته السريعة، وفي هذه الآية إشارة رائعة، إلى حركة الأرض ودورانها، وهو سبقٌ علمي فريد، لم يعرفه البشر إلا في هذا العصر، عصر اختراع (المراكب الفضائية) التي دارت حول الأرض، ووصلت إلى القمر، وصوّرت لنا الأرض وهي تتحرك وتدور، وتشرق وتغرب عنهم، كما تشرق الشمس وتغرب عن سكان الكوكب الأرضي، وانظر كتابنا (حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن) ففيه روائع وبدائع تثبت إعجاز القرآن من الناحية العلمية، وسبقه للعلوم العصرية.

الإبداع البياني في سورة القصص

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَوَّامٍ نَّارًا﴾ [القصص: ١٠] هذه (كناية لطيفة) كُتِبَ بها عن ذهاب الرشد والعقل، لما ذهبتا من الخوف والخيرة على ولدها، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، وهي من (إبداع الكنايات) أي طار عقلها من فرط الجزع والغم.

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنَّا نَشَاءُ لَتَبْدِيَ بِهِ أَتُولَّاهُ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَّمَهَا قُلُوبَنَا لَافْتَحْنَا بَنَاتِنَا فِي الْفُتُونِ﴾ [القصص: ١٠] في الآية (استعارة تمثيلية) شبه تعالى ما قذف في قلبها من الثبات والصبر، بربط الشيء المتفلت خشية الضياع، كمن يربط الفرس بإحدى الأعمدة، واستعار لفظ الربط للصبر، أي ألهمناها الصبر على طريقة (الاستعارة التمثيلية) البديعة.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّعْبِ . . .﴾ [القصص: ٣٢] الرعب: الخوف الشديد، وفي الآية (استعارة لطيفة) استعار الجناح وهو للطائر، للإنسان تشبيهاً له بالطائر، إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمِنَ ضمهما إليه، أي أدخل يده إلى صدرك يذهب عنك الرعب، وهي (استعارة تمثيلية) بديعة.

٤ - قوله تعالى: ﴿فَالْتَمَسْنَا عَصَاكَ يَا آدَمُ فَفَخَرْنَا بَنَاتِنَا مِن نَّحْوِكَ﴾ [القصص: ٣٥] في الآية (استعارة تمثيلية) شبه حال موسى في تقويته بأخيه هارون، بإنسان وضع يده في يد رجلٍ آخر، واستعانا معاً لشد حبل، ربط بسيارة لسحبها، لأن اليد تتقوى بالأخرى، فهي من الكنايات البديعة.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَا أَتْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْقُرُونُ﴾ [القصص: ٤٥] الآية هذه على (حذف مضاف) أي أنشأنا أمماً وأجيالاً هم أهل القرون، فتطاول عليهم الزمن، فغيثوا الشرائع والأحكام، فالمراد بالقرون: الأمم الذين عاشوا في تلك الأزمنة، تُسب إلى القرون بطريق (المجاز العقلي).

٦ - قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَشْكُرْ لَهُمْ خِزْيًا دَائِمًا يَجْعَلُ الْيَدَانِ سَوَينَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧] الأمن لأهل الحرم وسُكَّانِ الحرم، وأضيف الأمن إليه ﴿خِزْيًا دَائِمًا﴾ وهو لأهله، من باب إضافة الشيء إلى مكانه، ففيه (مجاز مرسل) أي خِزْيًا ذا أَمْنٍ، مَنْ دَخَلَهُ أَمِنَ عَلَى أَهْلِهِ، وَنَفْسِهِ، وَمَالِهِ.

٧ - قوله تعالى: ﴿فَقَيِّمْتَ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَلَّلُونَ﴾ [القصص: ٦٦] في الآية (استعارة بديعة) أي صارت الأخبار كالعمى عنهم، لا تهتدي إليهم، وأصله: فَعَمُوا عَنِ الْآيَاتِ، وَقَدْ عَكِيسَ لِلْمَبَالِغَةِ، فَجَعَلَ الْآيَاتِ لَا تَهْتَدِي إِلَيْهِمْ، وَضَمَّنَ مَعْنَى الْخَفَاءِ، فَعُذِّي بِـ(عَلَى) فِي الْآيَةِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْبِلَاغَةِ، الْاسْتِعَارَةُ، وَالْقَلْبُ، وَالتَّضْمِينُ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: خَفِيتْ عَلَيْهِمُ الْحُجُجُ، وَأَظْلَمَتْ عَلَيْهِمُ الْأُمُورُ، فَهُمْ حَيَارَى لَا يَعْرِقُونَ مَا يَقُولُونَ.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] جَمَعَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فَأَعَادَ السُّكْنَ - يَعْنِي الرَّاحَةَ - إِلَى اللَّيْلِ، وَالِابْتِغَاءَ لَطَلَبِ الرِّزْقِ إِلَى النَّهَارِ، وَيُسَمَّى هَذَا عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ بِـ(الْفَرْقِ وَالنَّشْرِ الْمَرْتَّبِ) لِأَنَّ الْأَوَّلَ عَادَ إِلَى الْأَوَّلِ، وَالثَّانِي عَادَ إِلَى الثَّانِي، وَهُوَ مِنَ الْمَحْسَنَاتِ الْبَدِيعَةِ.

٩ - قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ مَالِكٌ لِذِي وَجْهِةٍ لَهُ الشُّكْرُ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] أطلق الجزء وهو (الوجه) وأراد الكل وهو (الذات) أي كل شيء يفتنى ويهلك، إِلَّا ذَاتَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فِي الْآيَةِ (مَجَازٌ مُرْسَلٌ).

قال الحافظ ابن كثير: عبّر بالوجه عن الذات، فهو سبحانه الدائم الباقي، الحي القيوم، الذي تموت جميع الخلائق ولا يموت. اهـ. تفسير ابن كثير ٤١٤/٣.

الكناية والاستعارة في سورة القصص

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَنصَحْ مُؤَادُ أُوْمَيْيَ قَرِيْبًا إِن كُنْتُ لِلتَّوْبَةِ بِرًا ۖ لَّوْلَا أَن رَّبُّكَ عَلَّمَ قَلْبَهُمَا لَفُتُوْا مِنُ الْتَوْبَةِ﴾ [القصص: ١٠] فراغ القلب في قوله: ﴿وَأَنصَحْ مُؤَادُ أُوْمَيْيَ قَرِيْبًا﴾ كناية عن ذهاب العقل، أي طار عقلها من فرط الحزن والغم، حين سمعت بوقوع ولدها في يد فرعون، وكادت تصيح: وإيناه لِمَا دَهَمَهَا من الأمر الشديد، فكانها فقدت رشدها، كثر عن شدة فزعها وخوفها على ولدها (بفراغ القلب) أي ذهاب الرشد والعقل، وهي من اللفظ أنواع الكناية.

وفي قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا أَن رَّبُّكَ عَلَّمَ قَلْبَهُمَا﴾ استعارة لطيفة، شبه ما قذف الله في قلبها من الصبر، بربط الشيء المنفلت خشية الضياع، واستعار لفظ (الربط) للصبر، على طريقة الاستعارة التصريحية، والمعنى: لولا أن تثناها وألهمناها الصبر لصاحنا: ذهب ابني، فأنكشف أمرها أمام فرعون.

٢ - قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَدُعُّ عَصِيْدَكَ بِأَخِيْكَ...﴾ [القصص: ٣٥] في الآية (مجاز مرسل) من باب إطلاق السب وإرادة المسبب، لأن شد العضد يستلزم القوة أي ستفويك بأخيك وتعينك به.

وقال الشهاب الخفاجي: ويمكن أن تكون الآية من باب (الاستعارة التمثيلية) شبه حال موسى في تقويته بأخيه، أمام جبروت فرعون، بحال اليد في تقويتها بيد أخرى شديدة، تتقوى بها، ويد الله مع الجماعة.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا فُرُودًا فَتَوَلَّىٰ عَلَيْهِمُ الْفُؤَادُ...﴾ [القصص: ٤٥] القرون جمع قرن، وهو الزمن الطويل، وكل قرن مائة عام، والمراد به الأمم والأجيال المتعاقبة، ففي الآية (مجاز عقلي) يدرك بالعقل، لأن الأمم تُخلق في تلك الأزمنة، فنسبت إلى القرون بطريق (المجاز العقلي).

والمعنى: لقد خلقنا أمماً وأجيالاً من بعد موسى، فتناول عليهم الزمان، فنسوا ذكر الله، وبدلوا وحرفوا الشرائع، فلذلك أرسلناك رسولاً لتجدد أمر الدين.

٤ - قوله تعالى: ﴿لَوْلَمْ نُكَرِّ لَهُمْ حَرَمًا مَّائِدًا يَنْجِي إِلَيْهِ نُفُسُهُمْ تَكْفِيَ...﴾ [القصص: ٥٧] نسب الأمن للحرم (حرمًا آمنًا) والمراد به أمن أهل الحرم، فهو على حذف مضاف، ففيه (مجاز عقلي) والمعنى: أولم نجعل لهم مكة بلد آمن، يأمن أهلها على أموالهم وأنفسهم، والناس من حولهم يُتَخَفُّون؟! فالأمن حاصل لهم، بحرمة البيت العتيق.

٥ - قوله تعالى: ﴿فَعَبَّ عَنِ الْأَنْفَاءِ يُؤْمِرُ بِهِمْ لَا يُنَادُونَ﴾ [القصص: ٦٦]. الأنباء بمعنى الأخبار والحجج، وفي الآية أنواع من البلاغة: (الاستعارة، والقلب، والتضمين) استعار العمى لعدم الاهتداء، أي فهم لا يهتدون إلى الحجج لفرط الدهشة والحيرة، فهم حيارى واجمون، لا يعرفون ماذا يقولون!! بمعنى أنه صارت الأمور والأنباء كالعمى عنهم، لا تهتدي إليهم، وأصله فعموا عن الأنباء، وقد عكس للمبالغة، وضُمَّت معنى الخفاء أي خفيت عليهم الحجج، وأظلمت عليهم الأمور، فكان منها أنواع من البلاغة كما ذكرنا، القلب، والاستعارة، والتضمين. ١

٦ - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ تَحْتِهِ حَقْلٌ لِّكُلِّ نَبَلٍ وَالنَّهَارَ لِيَتَّكُوا بِهِ وَيَتَنَبَّؤُوا مِنْ فَيٍّ ذُنُوبٌ شَدِيدَةٌ﴾ [القصص: ٧٣] في الآية ما يُسمى عند علماء البيان والبدیع (اللفظ والنشر المرتب) فقد جمع الليل والنهار، ثم قال: ﴿لِيَتَّكُوا بِهِ﴾ أعاد السكَّن إلى الليل، والابتغاء لطلب الرزق إلى النهار مرتبًا، أعاد الأول للآخر، والثاني للثاني، والأصل في الكلام: جعل الليل لتسكنوا فيه، والنهار لتبتغوا من فضله، فجمع بينهما في الآية، ثم فُرِّقَ على الترتيب، وهو من (المحسنات البديعية) كما هو معروف عند علماء البيان.

٧ - قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ بِعَيْنِكَ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ نُفُورٌ وَإِلَيْهِ يُخْشَوْنَ﴾ [القصص: ٨٨] أطلق الوجه وأراد به الذات أي كل شيء هالك، إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) ويسمى هذا (بالمجاز المرسل).

قال الحافظ ابن كثير: هذا إخبار بأنه تعالى الباقي الدائم، الحي القيوم، الذي تموت الخلائق ولا يموت، فعبر بالوجه عن الذات كقوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ غَيْرُهُ لَا يَمُوتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] تفسير ابن كثير ٣/ ٤١٤.

الإبداع البياني في سورة العنكبوت

- ١ - قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ الثَّاقِلَاتِ﴾ [العنكبوت: ١٣] شبه الذنوب بالاثقال، بطريق (الاستعارة التبعية) لأنها تثقل كاهل الإنسان، أي سيعملون ذنوبهم التي ارتكبوها، وذنوب من أضلّوهم.
- ٢ - قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ الْفَيَءُ مِنَ الْحَيْتِ وَيُخْرِجُ الْحَيْتُ مِنَ الْفَيَءِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْنِهَا﴾ [الروم: ١٩] استعار الحي للمؤمن، والكافر للميت، وهي استعارة بدیعة في غاية الحسن والإبداع، وقد تقدّم أمثالها في آل عمران، والأنعام، ويونس.
- ٣ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْشُرُهُمُ السَّمَاءُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَهُمْ لَا يُرْجَوْنَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] أي ذوقوا جزاء أو عقاب ما كنتم تعملونه في الدنيا، جعل الجزاء عين ما كانوا يعملونه، للمبالغة، بطريق إطلاق (اسم المسبب على السبب) ففيه مجاز مرسل.
- ٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْقَهُوا الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوًا وَلَهُمُ الْآخِرَةُ لَهِيمًا﴾ [العنكبوت: ٦٤] في الآية الكريمة (تشبيه بليغ) بديع، شبه الدنيا بلعب الأطفال، وبالأشياء التافهة التي يتسلّى بها الصبيان، فهي حقيرة تافهة، وأصل الكلام: كاللهو واللعب، حذفت أداة التشبيه، ووجه الشبه فأصبح بليغاً، على حدّ قولهم: عليّ أسدّ، أي كالأسد في الشجاعة، وفي الآية (إيجاز بالحذف) حذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه، أي لو كانوا يعلمون، كما أثروا الدنيا على الآخرة!!



الكناية والاستعارة في سورة العنكبوت

١ - قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ فَعَلَّ يَسْتَفْتِنَ النَّاسَ مَكَذِبًا لِلَّهِ...﴾ [العنكبوت: ١٠] التشبيه هنا يسمى (التشبيه المرسل المجمل) حذف منه وجه الشبه، فصار مجملاً، أي جعل فتنة الدنيا، كعذاب الله في الشدة والإيلام، مع أن عذاب الله لا يماثله شيء، وفي الآية بيان شرف المؤمن الصابر، وخساسة الكافر المنافق، المؤمن أؤدي في سبيل الله ليرتك الدين فلم يتركه، وأؤدي المنافق الكافر، فترك الإيمان، وترك الله نفسه، فما أعظم الفارق بينهما!!

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَفْتِنَنَّ يَوْمَ الْفِتْنَةِ عَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣] الأثقال يراد بها الذنوب والأوزار، شبه الذنب بحمل ثقيل، يضعف الإنسان عن حمله، بطريق (الاستعارة التمثيلية) ولأن هذه الذنوب تُثقل كاهل الإنسان سميت (ثِقَلًا)، فالمضطرون يحملون أوزارهم، وأوزار من أضلّوهم، لأنهم كانوا سبباً في انحرافهم عن الهدى، وسلوكهم طريق الشيطان.

٣ - قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الصُّنُوبِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْيُرُوسِ لَيَبْتَغِي السُّنُوبَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] هذا مثل في غاية الروعة والجمال، ضربه الله تعالى لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه، أي مثل هؤلاء الكفار في عبادتهم للأصنام والأحجار، كمثال العنكبوت، صنعت لها بيتاً، لا يغني عنها من حرّ ولا برد، لطافت وحقارتها، يتهاوى من هبة نسيم، أو نفخة فم، ولو كانت لهم عقول سليمة، لعرفوا حقارة هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله.

إنه تصوير عجيب، وتمثيل رائع ياخذ بالآلأباب، يدل على ضعف عقول هؤلاء العابدين، وحقارة هذه المعبودات، من أصنام وأوثان، والعاقلة يدرك

بيداهة، روعة التمثيل ببيت العنكبوت، فإنه لا أضعف ولا أوهى من هذا البناء، الذي تتصوره هذه الحشرة، قصراً مُنيَفاً، يقيها من المخاطر، وعاديات الأزمان، وهو بيت هزيل واهن، يكاد يطير من هبة ريح، ولذلك كان سريع الزوال والاضمحلال، ويا له من تمثيل بدیع رائع!!

٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَئِنْ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْجَوَارِثُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] في الآية تشبيه بدیع يسمى (التشبيه البليغ) وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَئِنْ﴾ أي ليست الدنيا إلا كاللهو وكاللعب، في سرعة الذهاب والاضمحلال حُذِفَتْ أداء التشبيه، ووجه الشبه، فأصبح بليغاً، كقولنا: محمد قمر، أي كالقمر في الحسن والبهاء، وعليّ أسدٌ أي كالأسد، في الشجاعة والبطولة.

ومعنى الآية الكريمة: ليست هذه الدنيا إلا غرورٌ وباطل، يُخدع بها الجاهل، وما هي إلا شهوات وملذات، سرعان ما تنقضي وتزول، وهي تشبه لعب الصبيان يلعبون بها، ثم ينفضون عنها ويتفرقون، وهكذا الدنيا إلى زوال وفناء، والدار الآخرة دار السعادة والنعيم، وهي الحياة الحقيقية الكاملة، التي لا كدر فيها ولا موت ولا مرض، لمن أراد الراحة والهناء.

ومعنى (الحيوان): الحياة السعيدة الهنيئة، دار الخلود، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر» رواه مسلم.



الإبداع البياني في سورة الروم

- ١ - قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ آلَ الْبَرِّ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] أطلق الجزء (الوجه) وأراد الكل (الذات) والمعنى: توجه في طاعتك وعبادتك بكليتك، إلى ربك جلّ وعلا، ولا تلتفت إلى غيره، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) وهذا مشهور عند العرب.
- ٢ - قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْعَرِيضَ يَمَسُّهُ الْآبَاسُ﴾ [الروم: ٤١] أي بسبب ما فعل الناس من المنكرات والقبايح، أطلق الأيدي وأراد بها أعمال الناس ومعاصيهم، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) لأن أكثر الأعمال تكون بالأيدي.
- ٣ - قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُقْصِمُ سَعْدَهُ﴾ [الروم: ٤٤] شبه من قدم الأعمال الصالحة، التي تقربه من الله، بمن يسهّد فراشه للنوم، على طريق (الاستعارة التبعية) وقد تقدم.
- ٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ أَنْبِيَاءَ وَإِنْ قَوْمُهُمْ لَمَّا وَفَّرُوا بِالْأَيْدِي فَاسْتَفْتَيْنَا مِنْ الَّذِينَ لَعَنُوا...﴾ [الروم: ٤٧] في الآية (مجاز بالحذف) حذف من الآية: (فكذبوهم واستهزأوا بهم) فانتقمنا من الذين أجرموا، دلّ عليه سياق الآية.
- ٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ لَا تَسْمَعُ الْخَوَفَ وَلَا تَسْمَعُ الْقَسَمَ الْأَدْعَاءَ﴾ [الروم: ٥٢] أي لا تسمع الكفار لأنهم كالمتوتى، فيها (استعارة تصريحية) تقدم مثلها في الصفحة (١٣٢).

الكناية والاستعارة في سورة الروم

١ - قوله سبحانه: ﴿يَخْرُجُ الْخَاسِ مِنْ الْغَيْبِ وَيُخْرِجُ الْكَاسِ مِنَ الْغَيْبِ...﴾ [الروم: ١٩] استعار الحي للمؤمن، والميت للكافر، أي يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وهي استعارة في غاية الإبداع والجمال، والقرآن الكريم يمثل للمؤمن بالحي، وللکافر بالميت، كقوله سبحانه: ﴿أَوْسَى كَانَتْ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ ثَلُمَ فِي الْغُلُوبِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا...﴾ [الأنعام: ١٢٢] فقد شبه المؤمن بالحي، يسير بنور الله، بينما الكافر يتخبط في ظلمات الكفر والجهل، وهذا التفسير مروى عن ابن عباس، وهو من الطف أنواع الاستعارة.

٢ - قوله تعالى: ﴿فَأَنفِرْ فِرْقَتًا مِّنَ الَّذِينَ هَادَىٰ آلَ فِرْعَوْنَ أَنفِرْ لِحَاجَّتِهِمْ...﴾ [الروم: ٣٠] أطلق الوجة وأراد به كامل الإنسان، فهو (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الجزء، وإرادة الكل) كقولهم: أرسل الأمير عيونه، أي بعث الجواسيس. ومعنى الآية الكريمة: توجه إلى الله بكلينك، واستمسك بالدين الحق - دين الإسلام - الذي بعث الله به رسله وأنبياءه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ وَاحِدٌ...﴾ [آل عمران: ١٩].

٣ - قوله تعالى: ﴿طَهَّرَ الْقَدَأَ فِي الْوَيْلِ وَالْحَرْ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ...﴾ [الروم: ٤١] في قوله سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي بما ارتكبه من جرائم، ومعاصي، وآثام، فعلية أو قولية، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) لأن القبائح والمعاصي لا تكون جميعها باليد، بل إن بعضها يكون بالكلام القبيح، وبعضها بالنظر إلى المحرمات، ومنها ما يكون بأكل المال الحرام، أو بالمشي إلى دور البغاء والفجور، فنُسبت إلى فعل الأيدي مجازاً، كقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ إِلَى اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ...﴾ [آل عمران: ١٨٢].

٤ - قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ مَعِيَ كُفِّرُوا وَبِمَا كُفِّرُوا كُفِّرُوا...﴾ [الروم: ١٨] في قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ مَعِيَ كُفِّرُوا وَبِمَا كُفِّرُوا كُفِّرُوا...﴾

[الروم: ٤٤] في الآية الكريمة ﴿فَلَا تُسَبِّحْهُمْ بِمَهْدُونٍ﴾ استعارة لطيفة، شبه من قدم الأعمال الصالحة، بمن يمهّد فراشه ويوطئه للنوم عليه، لئلا يناله في مضجعه ما يؤذيه، وينغص عليه نومه، والمهاد: الفراش، اشتق منه لفظ (يمهدون) أي يهيئون لهم فراشاً ومنزلاً في الجنة، على طريقة (الاستعارة التبعية) وهذا من الأسلوب البياني البديع!!

٥ - قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكَ لَا تَسْمِعُ النَّوْءَ وَلَا تَسْمِعُ النَّصْرَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّىٰ مَذْبُوحٌ﴾ [الروم: ٥٢] شبه تعالى الكفار بالأموات، أنه لا ينفهمهم نصيح ولا تذكير، فهم صم لا سمع لهم، عمي لا يهتدون إلى طريق الإيمان والسعادة.

وهذا مثل ضربه الله للكفار، على طريقة (الاستعارة التصريحية) شبههم بالموتى، وبالصم، والعمي، فإن الميت لا يسمع الدعاء، ولا يستجيب للدعاء، والأصم لا يسمع الكلام وهو مقبل نحوك، فكيف إذا كان مديراً عنك؟ والأعمى كيف يهتدي لرؤية الطريق؟

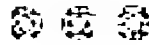
وهو تصوير فني بديع، وزد بطريق (الاستعارة البيانية) فإن من يرى الكون وما فيه من دقائق الصنعة والإبداع، ثم ينكر وجود الله، فإنه ميت الحس، لا خير فيه ولا حياة، إنسا هو كالحيوان، يعيش بلا غاية ولا هدف، بل الحيوان أكرم منه وأفضل، لأنه مهدي بفطرته إلى مصالحه، والذي يسمع آيات الله، ولا يتدبرها ولا يستجيب لها، فإنه أصم وإن كانت له أذنان، والذي لا يبصر آيات الله في هذا الوجود، فإنه أعمى ولو كانت له عينان وكل هذا الجمال الباهر، جاء عن طريق (الاستعارة البيانية) البديعة.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥] المراد بالساعة الأولى: القيامة، وبالثانية: المدة القصيرة من الزمان، ويسمى هذا (الجناس التام) فقد اتفقت اللفظتان بالحروف، واختلف معناهما، وهذا من المحسنات البديعة، كما يقول علماء البديع.

ومعنى الآية: يوم يبعث الناس للحساب، وثاني القيامة بأهوالها وشدائدھا، يحلف المجرمون أنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعة زمنية، يستقصرون حياتهم، من هول ما يرون من الشدائد والأهوال.

٧ - قال العلامة الشوكاني: سُميت القيامة ساعة، لأنها تقوم في آخر ساعة

من ساعات الدنيا، وهؤلاء الكفرة يحلفون أنهم ما لبثوا في الدنيا أو في القبور غير ساعة، وقد كَذَّبوا في هذا الحلف، لأنهم إن أرادوا لبثهم في الدنيا، فقد علموا مقداره، وإن أرادوا لبثهم في القبور، فقد حلفوا على جهالة، لأنهم لا يعرفون الوقت في البرزخ. اهـ فتح القدير ٢٢٤/٤.



الإبداع البياني في سورة لقمان

- ١ - قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ يَشْرِي لِنَفْسِهِ أَفَلَا يَحْكُمُ لِقَوْلِهِ رَبِّ لِي بَخْسٌ مِّنْ رَبِّي فَخَسِرْتُ فَخَصَلَ عَلَيْهِ الْوَجْهُ﴾ [لقمان: ٦] شبه تعالى حال الضالين عن سبيل الهدى، بحال من يشري سلعةً هو خاسرٌ فيها، واستعار لفظ (يشري) لمعنى يستبدل بطريق (الاستعارة البديعة). وانظر توضيح هذه الاستعارة في الصفحة (٢٩) من سورة البقرة.
- ٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا آلَ فِرْعَوْنَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَهُمْ فَوَافُوا بِوَعْدِنَا إِلَى يَوْمِ الْبَاسِ﴾ [لقمان: ٧] في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَعْنَا آلَ فِرْعَوْنَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَهُمْ﴾ أشبه بمن هو أصم لا يسمع الكلام، ذكرت أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه فهو (مرسل مجمل) وقوله سبحانه: ﴿فَوَافُوا بِوَعْدِنَا إِلَى يَوْمِ الْبَاسِ﴾ أسلوب تهكم وسخرية، لأن البشارة لا تكون بالعذاب، وإنما تكون بالخير والمسرّة.
- ٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَنصُرْ مَن سَرَيْتَ إِنَّكَ لَكَلِّ الْأَصْوَابِ صَوْتٌ تَغْيِيرٌ﴾ [لقمان: ١٩] يعني أوحش الأصوات صوت الحمير، شبه الرافعين أصواتهم من غير ضرورة، بالحمير حينما تنهق، ولم يذكر أداة التشبيه، بل أخرجه مخرج (الاستعارة التمثيلية) للمبالغة في الذم، والتغدير من رفع الصوت.
- ٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِبَّهُ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ تُحِثُّ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢] في الآية (مجاز مرسل) أطلق الوجه وأراد الذات، أي من قوّض أمره إلى الله، واستسلم بكلّيته مخلصاً لربه، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) وفي قوله سبحانه: ﴿اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ هذا جارٍ على سبيل التمثيل، يعني كأنه تمسك بحبل متين، لا ينقطع، وقد تقدّم توضيحها في الأمثال في سورة البقرة.

الكناية والاستعارة في سورة لقمان

١ - قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَحْزَنَ﴾ [لقمان: ٦] اللُّهُو: كلُّ باطل ألهى عن الخير، وطاعة الله، ممَّا لا خير فيه ولا فائدة، وفي الآية (استعارة لطيفة)، استعار لفظ يشتري لمعنى (يستبدل) شبه حال أولئك السفهاء، بحال من يشتري سلعة ليربح فيها، فيخسر فيها أشدَّ الخسارة، على طريقة (الاستعارة التصريحية) لأن الشراء إنما يكون للأمور المادِّية الحسِّية، لا للأمور المعنوية، لذلك استعار لفظ الشراء للاستبدال.

سبب النزول: نزلت في (النضر بن الحارث) كان يشتري المغنَّيات، فلا يسمع بأحدٍ يريد الإسلام، إلَّا انطلق إليه بالمغنَّية، يقول لها: أطعميه، واسقيه الخمر، وغنِّيه، ويقول له: هذا خير ممَّا يدعوكَ إليه محمد، من الصلاة، والصيام، وأن تقاتل بين يديه حتى تموت!!

٢ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَىٰ عَلَيْهِ إِلَهُهُ لَمَّا وَكُنَّا وَكُنَّا لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقرًا﴾ [لقمان: ٧] في قوله: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقرًا﴾ تشبيه بديع، يسمى (التشبيه المرسل المجمل) ذكرت فيه أداة التشبيه (كأن) فهو مرسل، وحذف منه وجه الشبه فهو مجمل، أي كأن في أذنيه ثقلاً وصمماً يمنعانه من استماع كلام الله، ثم فيها أسلوب السخرية والتهكم، في قوله: ﴿فَقَسْرُهُ بِمَذَابِ إِلِيمٍ﴾ لأن البشارة تكون في الخير لا في الشر، واستعمالها في الشر وهو العذاب الاليم (سخرية وتهكم).

٣ - قوله سبحانه: ﴿يَبْتَغِي إِلَهُهُ إِنْ تَكُ رِقَابٌ فَتَكُنْ مِنْ خَرْدَلٍ وَسَخَرَهُ﴾ [لقمان: ١٦] في الآية تمثيل لسعة علم الله عزَّ وجلَّ، وإحاطته بجميع ما في الكون من صغير وكبير، وجليل وحقيق، فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء، في أخفى الأمكنة، والمعنى: إن كانت المعصية والخطيئة مهما كانت صغيرة وخفية، فإنَّ الله يأتي بها ويحاسب عليها، ولو كانت وزن حبة الخردل، في

أخفى مكان وأصيقه، لأنه عالم ببواطن الأمور، والغرض من الآية: التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، يعلم السر وأخفى، وإليه مرجع جميع المخلوقات.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَأَقْبِرْهُ نَجْدًا وَاعْمُصْ مِنْ حَتْمِهِ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ النَّعِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] في الآية (استعارة تمثيلية) شبه الرافعين أصواتهم بالحمير، التي تشهق وتهق، ولم يذكر أداة التشبيه كصوت الحمير، وإنما قال: ﴿لَصَوْتُ النَّعِيرِ﴾، لِيُخْرِجَ التشبيه مخرج (الاستعارة) للمبالغة في الذم، والتنفير من رفع الصوت عالياً، فأقبح الأصوات صوت الحمير، أوله زفير، وآخره شهيق، ولذلك ضرب الله المثل به، لقباحته وشناعته.

قال الحسن البصري: كان المشركون يتفاخرون بالصياح، ورفع الأصوات، فرد الله عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم الحمير.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ تَحِيًّا...﴾ [لقمان: ٢٢] أطلق الجزء (الوجه) وأراد الكل يعني الذات والنفس، أي من يستسلم بكلية لله عز وجل، ويقبل على الله بالصدق والإخلاص، وهو مؤمن صادق الإيمان، فقد تمسك بأوثق العرى، ففي الآية (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل).

٦ - قوله تعالى: ﴿مَنْ آتَمَسَكَ بِالْمَرْوَةِ الَّتِي تَلْتَمِسُ وَيَلِي اللَّهُ عِيقَةَ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢] شبه من استمسك بالإسلام من جميع جوانبه، بمن تعلق بأوثق حبال النجاة، وتدلّى من أعلى جبل شاهق، فسلم ونجا، وردت الآية (مورد التمثيل) كأنه تمسك بحبل متين لا ينقطع، وحذفت من الآية أداة التشبيه للمبالغة.

خلاصة التمثيل: رجل واقف على قمة جبل شاهق، يخاف أن تنزلق قدمه، فيهوي إلى الوادي السحيق، فتعلق بحبل وثيق، نزل به إلى الأرض بكل أمان.

٧ - قوله تعالى: ﴿لَنُيَمِّتَنَّهُمْ قَبْلَ أَنْ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤] وصف العذاب بالغليظ (استعارة بدیعة) لأن الغليظ إنما يكون للأجرام، فاستعارة الغليظ للشدة وهي من المعاني، فيه تشبيه لها بالجرم الغليظ، أي نملهم قليلاً، ثم نلجنهم إلى عذاب شديد لا ينقطع، هو عذاب الجحيم.



الإبداع البياني في سورة السجدة

- ١ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] جواب (لو) حذف للتهويل وتفظيع الأمر، أي لرأيت أمراً مهولاً مفرعاً، ترتعد له القلوب، وتطيش من هوله الأحلام.
- ٢ - قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعًا نَّزَقْنَهُمْ يَمِيزُونَ﴾ [السجدة: ١٦] الآية فيها (كناية لطيفة) عن ترك النوم، والانقطاع للعبادة والصلاة.



الكناية والاستعارة في سورة السجدة

١ - قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا نَسْيَانٌ أَوَّلَآءٍ أَوْ نَسْفَةٌ أَوْ كِبَرٌ فِي أَفْئِدَةٍ مِنْهُمْ نَقَسٌ أَوْ سَمْعَةٌ أَوْ بَصِيرَةٌ أَوْ يَدُلُّهُمُ آيَاتُنَا بِمَا عَصَوْا وَالَّذِينَ كَذَّبُوا عَنْهُ﴾ [السجدة: ١٠] في هذه الآية (استفهام إنكاري) غرضه الاستهزاء والتكذيب، يقول المشركون المستهزون بدين الله: هل إذا هلكنا وصرنا تراباً، مختلطاً بتراب الأرض، سترجع إلى الحياة مرة ثانية، بعد أن نغيب في جوفها؟ وهو استبعاد للبحث مع السخرية والاستهزاء، ولذا قال تعالى بعده: ﴿يَرْفَعُ بَيْنَهُمْ كُفْرَهُمْ﴾ أي بل هنالك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء، وهو كفرهم وجحودهم للقاء الله بعد الموت.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَرْجَى إِلَهُكَ وَالْكَافِرُونَ لَكُمْ لِذُوقُوا عَذَابَهُمْ إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ رَسُولَهُ بِالْأَمْرِ وَالْقَدِيرِ﴾ [السجدة: ١٢] هذا خبرٌ حذف جوابه، والتقدير: لو رأيت حالة المجرمين وهم مطرَقو رؤوسهم أمام ربهم، من شدة الندم والخجل، لرأيت أمراً فظيماً هائلاً، ترتعد له الفرائص، وهذا النوع يسمى (الإيجاز بالحذف) حذف جواب (لو) للتهويل وشدة الأمر.

٣ - قوله تعالى: ﴿مَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤] في هذه الآية ما يُسمى بـ (المشاكله) وهو الاتفاق باللفظ، مع الاختلاف في المعنى، فإن النسيان من الله عز وجل مستحيل لا يتصور ﴿لَا يَسِيلُ فِيهِ وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] وهو غير النسيان من الكفار، لأن النسيان منهم: الترك لأوامر الله، وعدم الإيمان بلقاء الله، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤] فالمراد منه: نترككم في العذاب ترك الشيء المنسي، سُمي نسياناً من باب (المشاكله) وهذا على حد قول بعضهم:

قَالُوا اقْتَرَحْ شَيْئاً تُجِذُّكَ طَبَخَةٌ قُلْتُ: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصاً
فإن الجبة والثوب يُخاطان ولا يطبخان، وإنما جاء التعبير بأسلوب (المشاكله) أي المشابهة باللفظ، مع الاختلاف في المعنى.

٤ - الكناية اللطيفة في قوله سبحانه: ﴿تَخَافُ حُوثُهُمْ عَنِ النَّصَاحِ﴾ [السجدة: ١٦] كثرى به عن كثرة الصلاة والعبادة، لأن التجافي معناه ترك النوم للتفرغ للصلاة وذكر الله، وهو من الكنايات البديعة.

٥ - قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخِيفَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾ [السجدة: ١٧] (قرة أعين) كناية عن النعيم الخالد الدائم، الذي أعدّه الله لعباده المتقين، من أنواع المأكّل والمشروب، والاستمتاع بالحواس العيون، كما جاء في الحديث القدسي: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) واقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَقْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخِيفَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ رواه البخاري ومسلم.



الإبداع البياني في سورة الأحزاب

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَزَلُّهُمْ أَنتَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٦].

في الآية (تشبيه بليغ) أي كامهاتهم في واجب التكريم والاحترام، وحرمة النكاح بهن على وجه الدوام.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِبَعْضِ الْوَارِثِ﴾ [الأحزاب: ٦] في الآية حذف يُسَمَّى (مجاز الحذف) أي أولى ببعض في التوارث، وهو نسخ لما كان بين المهاجرين والأنصار، بالتوارث بالأخوة الإيمانية.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مِنْهُمْ بِمَنَافِقٍ فَعِظَا﴾ [الأحزاب: ٧] في الآية (استعارة تمثيلية) تقدّم توضيحها في سورة النساء.

٤ - قوله تعالى: ﴿فَيَنْهَىٰ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَيُؤْتِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَا بَدَلُوا نَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] قضى نَحْبَهُ: أي استشهد وقتل في سبيل الله، فيها (استعارة لطيفة) قال ابن قتيبة: ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾ أي قُتِلَ، وأصل النَحْبِ: النَّذْرُ، كانوا قد نَذَرُوا إن لقوا العدو أن يُقَاتِلُوا حتى يُقْتَلُوا، أو يفتح الله لهم، فقتلوا. اهـ تفسير الشوكاني ٢٦٤/٤.

٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَفْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] في الآية (استعارة تمثيلية) فيعرض العاصي الخائن يتلوث، كما يتلوث بدن الإنسان بالارجاس.

٦ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَكْخِشُ الْمُؤْمِنِينَ فَنُثَبِّتُ لَهُمْ قُلُوبَهُمْ فَلاَ يَضِلُّ رَبُّهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٩] كُشِيَ عن (الجماع) بالمش، وهي من الكنایات البديعة، التي اشتهرت في القرآن الكريم، لتعليم المسلمين الأدب، في التخاطب فيما يتعلق بالنساء.

٧ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] في الآية (استعارة تمثيلية) الآية الكريمة وردت

بأسلوب عجيب، على طريقة التشبيه والتمثيل، والمراد أن تلك الأمانة في عِظَم الشأن والأهمية، بحيث لو تكلّفت بها السموات الضخمة، والجبال الشاهقة، والأرض الواسعة، لأشفقت منها وخافت أن لا تقوم بواجب الوفاء بهذه الشيعة الضخمة، وهو تمثيلٌ ظاهر الروعة والإبداع.



الكناية والاستعارة في سورة الأحزاب

١ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمُدَّةِ الْكَافَّةِ﴾ [الأحزاب: ٤] وردت الآية بصيغة التذكير (الرجل) لإفادة الاستفراق والشمول، حتى ولو كان هذا الرجل رسولاً أو ولياً، وإدخال حرف الجر الزائد (من) لتأكيد الاستفراق، والأصل: ما جعل الله لرجل قلبين، وذكر الجوف ﴿فِي جَوْفٍ﴾ مع أن القلب لا يكون إلا في الجوف، لزيادة البيان في الإنكار، فجاءت الآية على أبلغ الصور البيانية في إنكار الدعوى، للرد على مزاعم العرب، أن الرجل اللبيب الأديب، له قلبان في جوفه، فرد الله سبحانه هذا الزعم الكاذب، أي ما جمع الله قلبين في رجل واحد، وهذا مثل ضربه الله تعالى، لإبطال ما بعده من أحكام كان عليها أهل الجاهلية، وهي أن المرأة التي ظاهر منها زوجها بقوله: (أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي) تصبح أمّاً، وأن الولد من التبني، يصبح ولداً كالولد الصليبي، وكلها مزاعم باطلة.

٢ - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمُؤْمِنِينَ وَارْتَبَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] في الآية الكريمة تشبيه بديع، يسمى (التشبيه البليغ) وهو الذي تُحذف منه أداة التشبيه، ووجه الشبه، فقوله تعالى: ﴿وَارْتَبَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي زواجه الطاهرات كالأمهات للمؤمنين، في وجوب الاحترام والتعظيم، وحرمة النكاح، فهن منزلات منزلة الأمهات، وفي هذا (التشبيه البليغ) تكريم عظيم لأمهات المؤمنين، زوجات الرسول ﷺ الطاهرات، فإذا كن أمهات للمؤمنين، فالرسول بلا شك أب للمؤمنين، بمفهوم الآية الكريمة، ولهذا كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ مِنْ غَيْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٧] في الآية استعارة لطيفة، استعار لفظ (الغَلظ) الذي هو خاص بالأجسام، للشيء المعنوي وهو (الميثاق) لأنه لا يمكن أن يوصف الميثاق بالغلظ، إلا بطريق (الامتعارة) للتبيه على حرمة الميثاق، وعظم شأنه، وثقل حمله.

والمعنى: أخذنا من الأنبياء العهد المؤكد الموثق، على الوفاء بما التزموا به، من تبليغ رسالة الله إلى عباده.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَتَتْهُ الْحَكَايَةُ﴾ [الأحزاب: ١٠] في الآية مبالغة في التصوير والتمثيل، صُوِّرَ القلوب في خفقانها واضطرابها، كأنها خرجت من مكانها، حتى كادت تبلغ الحناجر، ففي الآية تمثيل بليغ، لشدة ما لاقوه من الهول والفرع، وإن لم تبلغ القلوب الحناجر حقيقة.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتِيَ الْفَرَارَ﴾ [الأحزاب: ١٥] تولية الأدبار (كناية لطيفة) عن الفرار من المعركة، والفرار من الزحف بأسلوب لطيف رشيق، فيه تحقير وإهانة لهم.

والمعنى: كان المتأفقون قد عاهدوا ربهم، وأعطوه العهد والمواثيق، قبل (غزوة الأحزاب) ألا يفرّوا من المعركة، ولا ينهزموا أمام الأعداء، ثم نقضوا عهدهم مع الله، وتولية الأدبار هي أن يجعل ظهره في وجوه الأعداء، بمعنى أن ينهزم أمامهم، فيصبح ظهره لهم، وهذه من لطيف أنواع الكناية.

٦ - قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنَبُ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩] في الآية تشبيه عجيب يسمى (التشبيه التمثيلي) لأن وجه التشبيه ليس مفرداً، بل هو صورة متزعة من متعدد، دوران الأعين، وسكرات الموت، وذهاب الوعي والإدراك، وشدة الخوف والفرع، أي رأيتهم في شدة رعب لا مثيل لها، ينظرون إليك نظراً غريباً، كنظر من عُشي عليه من معالجة سكرات الموت، تدور أعينهم في أحداقهم، من شدة الخوف والفرع، وحقاً إنها لصورة عجيبة غريبة لهؤلاء المنافقين وهم في ميدان القتال، يشاهدون بوارق السيوف، فيفرعون ويضعفون!!

٧ - قوله تعالى: ﴿إِذَا دَفَعْتِ الْخَوْفَ مَقُوضٌ بِالسَّيْفِ جَدَاوُ﴾ [الأحزاب: ١٩] في الآية (استعارة مكنية) شبه اللسان بالسيف الحاد المصلت، الذي يقطع الرؤوس، ويبتز الأعضاء، وحذف ذكر المشبه به وهو (السيف) ورمز له بشيء من لوازمه وهو (السُّلْقُ) بمعنى القطع والضرب، على طريقة (الاستعارة المكنية)، ولفظ (جداد) ترشيح للاستعارة.

٨ - قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهُمْ تَرَعٌ مِنْهُمْ فَأَيُّ الْفَرَارِ فِي سَلَابٍ مُطَهَّرٍ﴾ [الأحزاب: ٢٣] (قضى نحيبه): التَّحَبُّ: التَّنْزُّ والعهد، استعير للموت، لأنه كنذر لازم في عُقَى

المسلم، وهو نهاية كل حي، ففي الآية (استعارة لطيفة) والمعنى: منهم وفي نذره فمات أو استشهد في سبيل الله، ومنهم من ينتظر الشهادة، لينضم إلى قافلة الشهداء، نزلت في (أنس بن النضر) الذي قال: لئن أشهدني الله قتالاً، ليرين الله ما أصنع؟ فلما كان يوم أحد، قاتل قتالاً شديداً حتى استشهد، ومثل به الأعداء، حتى لم يعرفه أحد من الصحابة، إلا أخيه عرفته من رؤوس أصابعه، ففيه نزلت الآية.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فِي بُرُوجِكُمْ دَلَالَاتٌ تَرْجُو الْجَنَّةَ الْآخِرَةَ﴾ [الأحزاب: ٢٣] في الآية تشبيه يسمى (التشبيه البليغ) حذفت منه أداة التشبيه، ووجه الشبه فصار بليغاً، أي ولا تتبرجن مثل تبرج نساء الجاهلية، في كشف الصدور، والنحور، وفي التكسر والتفج، وغيرها مما لا يليق فعله، ليفتن يكرن الرجال، وقد زاد التبرج في عصرنا، إلى درجة قاقت تبرج نساء الجاهلية، حتى كاد يصل إلى العُهر والفجور، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٠ - قوله تعالى: ﴿يَسْمَعْ اللَّهُ يَدْعُ عِبَادَهُ الرِّجْسَ أَفَلَا يَنْظُرُكُمْ تَطْهِيرَ﴾ [الأحزاب: ٢٣] في الآية (استعارة لطيفة) استعار لفظ (الرجس) للذنوب الذي يفعله الإنسان، والرجس: القدرُ والنجاسة، شبه الذنوب به، لأن المقترن للقبائح والذنوب، يتلوث بها ويتدنس، كما يتدنس بالنجاسة، كما استعير لفظ التطهير للتقوى، لأن عرضه مصون كالنوب الطاهر.

١١ - قوله تعالى: ﴿وَأَيْضًا لِلَّهِ يَدْعُهُ بِهِمْ وَيَرْجُو شَيْئًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] وصف النبي ﷺ بالسراج المنير، فيه تشبيه رائع بديع، يسمى (التشبيه البليغ) فقد شبهه تعالى بالسراج، وهي الشمس الساطعة اللامعة التي تجلو الظلام، لأن الله جلا به ظلمات الشرك، والجهل، والضلالة، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير، واعتدى به المهتدون كما يهتدي الناس إلى معاشهم، بالشمس المشرقة في وضع النهار، كما قال القائل:

كَأَنَّكَ شَفَسَ وَالْمُلُوكُ كَوَاجِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوَكَبُ

١٢ - قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ مَدَّوْا مُوسَىٰ مِرَّةً ثُمَّ قَالُوا﴾ [الأحزاب: ٦٩] في الآية تشبيه يسمى (التشبيه التمثيلي) أي لا تؤذوا نبيكم محمداً ﷺ كما آذى اليهود نبيهم موسى عليه السلام، حيث قالوا: إن في جلده عيباً، من برص، أو أدرة - انتفاخ الخصية - فبراه الله من ذلك، شبه حال

بعض المؤمنين ، في إيذانهم لخاتم المرسلين ﷺ حين تزوج بالسيدة زينب فقالوا: تزوج بزوجة ابنه من التبني ، بحال اليهود حين آذوا موسى ، واتهموه بأنه منتفخ الخصية ويجلده مرض من بزز وغيره ، فبرأه الله من ذلك ، ولعنهم وأخزاهم ، وانظر التفسير الواضح ص ١٦٠.

١٣ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢] في الآية (استعارة تمثيلية) شبه الأمانة في ضخامتها وعظمتها ، بأنها من الثقل بحيث لو عُرِضت على السموات والأرض ، لامتنتعت عن حملها ، وخافت من ثقلها ، وهو (تمثيل رائع) بديع لضخامة المسؤولية وتهويل شأن الأمانة ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْمِلُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ بَحْجُونَ أُنْثَىٰ كُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] فالأمانة حمل ثقيل ، وأمرها خطير.!



الإبداع البياني في سورة سبا

- ١ - قوله تعالى: ﴿قَامُوا بِرُءُوفِكُمْ مِنَ الشَّوَابِ وَالْأَرْضِ فَرَأَى...﴾ [سبا: ٢٤]
حذف الخبر لدلالة السياق عليه، تقديره: قل الله الخالق الرازق للعباد.
- ٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ أَظْفَارَ غَدِيٍّ أَوْ يَئْسَ ثِيَابٍ﴾ [سبا: ٢٤]
هذا نهاية الإنصاف مع الخصم، فمن المعلوم المتيقن، أن من عبد الله وحده كان مهتدياً، ومن عبد غيره من جماد كان ضالاً، ففي الآية تعريض بضلالهم، وهو أبلغ من الرد باللفظ الصريح، وفي الآية إرشاد إلى (المناظرات العلمية) لأن الإنسان إذا قال للآخر: أنت مخطئ، أو ما تقوله خطأ، فإنه يغضب، وعند الغضب يكون العناد، والتعصب للرأي، أما إذا قال له: أحدنا من غير شك مخطئ، والثمادي في الباطل قبيح، والرجوع إلى الحق أفضل، فإنه لا يغضب، ويجتهد في الأمر، ويترك التعصب، وفي قوله تعالى بعدها: ﴿قَدْ أَتَيْنَاكَ عَنْ أَهْلِكَ لَمْ نُفْلِحْ عَنْهُمْ تَمَتُّونَ﴾ [سبا: ٢٥]
ملاطفة بديعة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، حيث أسند الإجماع إلى نفسه ﴿عَنْ أَهْلِكَ﴾ والعمل إلى المشركين المبطلين ﴿عَنْ أَهْلِكَ﴾ ولله در التزليل!
- ٣ - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبا: ٣١] ليس للقرآن يدان، وإنما ورد التعبير بطريق (الاستعارة البديعة) حيث شبه ما سبقه من الكتب السماوية، المتزلة من عند الله، بشخص يقف أمامك، وقد بسط يديه نحرك يتحدث إليك، وذلك بطريق الاستعارة البديعة.
- ٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَفُّوا أَوْ أَغْلَبُوا تَوَلَّوْهُمْ بِعَذَابِنَا...﴾ [سبا: ٣١]
حذف جواب (لو) للتزهيل والتخويف، أي لو ترى حالهم لرأيت أمراً قبيحاً مهولاً، تنقطع له الأكباد.
- ٥ - قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ الْيَاقِينِ وَالْهَارِ إِذَا تَمُورًا أَلْ تَكْفُرَ بِاللَّهِ...﴾

[سبأ: ٣٣] أسندَ المكرَ إلى الليل، وهو للمشركين بطريق (المجاز العقلي) أي مكرهم بنا في الليل والنهار، فهو من باب إسناد الأمر إلى محله، وهو الليل والنهار.

٦ - قوله تعالى: ﴿قَدْ أَذْرَبْنَاهُ يَنْشُدُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَنْتَهِ مِنْ عِبَادِي وَرَفِيزَ لَمْ﴾ [سبأ: ٣٩] ينشُد الرزق (كناية لطيفة) عن التوسعة والتضييق، وقد تقدم أمثالها في مواطن عديدة من الكتاب العزيز.

٧ - قوله تعالى: ﴿إِنْ عُوذَ لَا يَذِرُ لَكُمْ بَقِيَّةً يَدْعَى عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦] استعازَ اليبدين لما يكون من الأهوال والشدائد أمام الإنسان، لأن العذاب ليس له يدان، وإنما هو تصويرٌ بارع، في منتهى الروعة والجمال، كأن العذاب يوشك أن يقع بهم، وقد تقدمهم النذير بخطواتٍ يحذروهم منه، كالصارخ الذي يصرخ بالناس، من اندلاع حريق فظيع، يوشك أن يلتهم البشر، وما هذا النذير إلا محمدٌ ﷺ الرؤوف الرحيم بالمؤمنين!!

٨ - قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقُولُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكِّمْ عَمِيرٌ﴾ [سبأ: ٥٣] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، شبه من يتكلم بغير علم، بمن يرمي هدفًا من مسافة بعيدة، فيخطئ الهدف، ولا يكون من ورائه إلا الندم.



الكناية والاستعارة في سورة سبا

١ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْنِبْ أَرْزَاقَ أَخِيهِ هَاشِمٍ وَلَا هَاشِمٍ هَاشِمٍ وَلَا هَاشِمٍ هَاشِمٍ...﴾ [سبا: ١٢] في الآية (إيجاز بالحذف) أي تقطع في الصباح مسيرة شهر، وفي المساء مسيرة شهر، فتقطع في يوم واحد مسيرة شهرين، ذاهباً وآية، من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق، فحذف من الآية الكريمة لفظ (مسيرة) وهو بيان لغاية سرعتها، للدلالة السياق على المحذوف، ويسمى (الإيجاز بالحذف).

٢ - قوله تعالى: ﴿يَقْتُلُونَ نَفْسًا يَنْفَكُ عَنْ أَهْلِيهَا وَكَانَ كَقَبُولٍ﴾ [سبا: ١٣] (جفان): جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة التي يوضع فيها الطعام، ﴿كَقَبُولٍ﴾: جمع جابية وهي الحوض الكبير يُجمع فيه الماء، شبه تعالى الأواني التي يوضع فيها الطعام بالأحواض الكبيرة الواسعة، فقد كان يجلس على القصعة الواحدة ألف رجل لكثرة جنده، وفي الآية تشبيه (مرسل مجمل) لذكر أداة التشبيه، وحذف وجه التشبيه.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبا: ٣١] ليس للقرآن يدان، وإنما هو تعبير بياني بديع، يُراد به ما سبقه من الكتب السماوية، أي لن نؤمن بالقرآن ولا بالثورة والإنجيل والزيور التي سبقت القرآن، ففي الآية (استعارة) بديعة من روائع أنواع الاستعارة.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَفْهَمُوا لَكُمْ أَسْتَكْبِرُوا بِالْمَكْرِ الْفِيلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبا: ٣٣] أسند المكر إلى الليل والنهار، والليل والنهار لا يمكن أن يسمي المراد به مكر المشركين بالليل والنهار، ففيه (مجاز) يُدرك بالعقل، يسمى (المجاز العقلي).

٥ - قوله تعالى: ﴿إِنْ مَوْءَاظُهُمْ يَبْعِدُ عَنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦] في الآية (استعارة لطيفة) استعار لفظ البعدين، لما سيكون أمام الإنسان، من أهوال وشدائد عظام، وهو تصوير وتمثيل بارع، في منتهى الروعة والجمال، كأن العذاب

يوشك أن يقع عليهم، وقد تقدّمهم التذير بخطوات يحذّره من، كالصارخ الذي يصرخ بالناس، من اندلاع حريق، يوشك أن يلتهم البيوت والبشر.

٦ - قوله تعالى: ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُبَدِّلُ ﴾ [سبا: ٤٩] في الآية (كناية لطيفة) كنى بقوله: ﴿ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُبَدِّلُ ﴾ عن زهوق الباطل وحققه، بحيث لا يبقى له بدء ولا عودة، أي جاء الإسلام بنوره الوضاء الساطع، وذهب الكفر والباطل إلى غير رجعة.

٧ - قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنًا فَلَا يَكُونُ وَيُحْدِثُ مِنْ شَكَايَ قَرِيبٍ ۖ وَقَالَ لَمَتَّاسِ يَا رَبِّ ۚ وَأَنْتَ لَمْ تَنَالُوا مِنْ شَكَايَ بَعِيدٍ ﴾ [سبا: ٥١، ٥٢] جواب (لو) محذوف للتهويل والتفطيع، أي لو ترى حال الكفار الفجار، حين يخرجون من قبورهم فزعين ﴿ فَلَا يَكُونُ ﴾ أي فلا نجاة لهم، ولا مخلص ولا مهرب من العذاب، وأخذوا من أرض المحشر، إلى نار الجحيم، لرأيت أمراً مهولاً فظيماً، يتقطع له قلب الإنسان ﴿ وَقَالَ لَمَتَّاسِ يَا رَبِّ ۚ ﴾ أي أمّا بالله وبالقرآن ﴿ وَأَنْتَ لَمْ تَنَالُوا مِنْ شَكَايَ بَعِيدٍ ﴾ التناوش: بمعنى التناول، أي من أين لهم تناول الإيمان، وقد ذهبت عنهم الدنيا فصارت بمكان بعيد؟ وهذا تمثيل رائع بديع، شبه حالهم بحال من يريد تناول شيء بعيد، وبينه وبين هذا الشيء، مسافات شاسعة بعيدة، كمن يريد أن يقطف بعض الفواكه والثمار، وبين تلك الأشجار، آلاف الأمتار، هذا مستحيل لا يمكن الوصول إليه، يريد أن الإيمان محلّه الدنيا، وقد ذهبت عنهم الدنيا، فكيف يصلون إليه وهم الآن في الآخرة، على أبواب جهنم التي كانوا يسخرون منها وبهزءون؟!

٨ - قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ شَكَايَ بَعِيدٍ ﴾ [سبا: ٥٣] العرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف: إنه يرحم بالغيب، على جهة (التشيل والتشبيه)!!

شبه الذي يقول بغير علم، ويتكلم بما لا يعلم، بالشخص المغفل الذي يرمي سهماً من مكان بعيد، فلا يصيب الهدف، ولا يصل إلى الغاية، لأنه لم يسدّد الإصابة عن قرب، ولم يكن متقناً للرمي، فيصبح سهمه طائشاً، لا يصيب الهدف، واستعار لفظ القذف ﴿ وَيَقْدِرُونَ ﴾ للرمي بطريق (الاستعارة التصريحية) كأن الذي يتكلم بدون علم، يرسل قذائف طائشة، لا تصيب الهدف، وهو (تمثيل بديع) وتشبيه في غاية الجمال، وما أروع من تشبيه وتمثيل!!

الإبداع البياني في سورة فاطر

- ١ - قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا...﴾ [فاطر: ٢] في الآية (استعارة تمثيلية) شبه تعالى إرسال النعم عليهم، بفتح خزائن الأموال والخيرات الكثيرة، من رزق، وصحة، وأمن، وحكمة، وعلم، وهو تمثيلٌ بديع للخيرات التي يغدقها الله على العباد، فالفتح والإمساك (كناية) عن العطاء والمنع.
- ٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ • وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ • وَلَا الظُّلُّ وَلَا الظُّلُمَاتُ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢١] في الآية (استعارة تصريحية) بديعة، تقدم توضيحها في سورة الرعد.
- ٣ - قوله تعالى: ﴿وَنَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] في الآية (كناية لطيفة) كنى بالندير عن الشيب، لأن الشيب دليل الشيخوخة والهزم، وهذا ما ترجم له الإمام البخاري، وهو مروى عن عكرمة، وابن عباس، قال الشاعر:
فَقُلْتُ الشَّيْبُ نَذِيرُ عُمَرَى وَلَسْتُ مُسَوِّدًا وَجْهَ النَّذِيرِ
- ٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَانُوا مَا تَرَكُوا عَلَى الْأَرْضِ كَثِيرًا بَارِكًا فِيهِمْ وَلَكِن لَعَنَهُمْ عَنِ عَذَابِهِمْ وَأَعْلَى هِمًّا﴾ [فاطر: ٤٥] في الآية (استعارة مكنية) بديعة في غاية الحسن، والجمال، شبه الأرض بدابة يركبها البشر، وسيأتي توضيحها في هذا الكتاب.

الكناية والاستعارة في سورة فاطر

١ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ يَدَيْنِ مِمَّنْ رَزَقَهُ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَلَا يُبْسِكُ وَلَا تَمِيلُ أَلَمْ﴾ [فاطر: ٢] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) شبه إرسال النعم للعباد، من صحة، وأمن، ورزق، بفتح الخزائن للعطاء الإلهي، ومنح العباد لفضل الله، وشبه حبس النعم عنهم بالإمساك، واستعير لفظ (الفتح) للعطاء، ولفظ (الإمساك) للمنع، بطريقة (الاستعارة التمثيلية).

ومعنى الآية: أن ما يمنعه الله للعباد من خير عظيم، وفضل جسيم، فلا يقدر أحد من البشر على إمساكه ومنعه، وما يمنعه ويحبسه عنهم، فلا يقدر أحد على إعطائه، لأنه تعالى هو وحده المتصرف في شؤون العباد، لا تلك الأصنام والأوثان!

٢ - قوله تعالى: ﴿أَنسَىٰ لِلَّهِ سُورَةُ غَيْبِهِ. فَرَاهُ حَسًّا فَإِنَّ اللَّهَ يُبْشِرُ مَنِ بَشَأَ﴾ [فاطر: ٨] في الآية (إيجاز بالحذف) حذف جوابه لدلالة السياق عليه، أي هل من أغواه الشيطان، فزئى له قبيح عمله حتى رآه حسناً، كمن اهتدى إلى طريق الإسلام، واستنار قلبه بنور الإيمان؟ هل يتويان عند الله، ودل على المحذوف قوله: ﴿وَلَهُ اللَّهُ يُبْشِرُ مَنِ بَشَأَ﴾.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَذَقِّبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ خَطْبًا بِذَلِكَ غِيَّةٌ يٰٓأَيُّهَا يٰٓأَيُّهَا﴾ [فاطر: ٨] ذهاب النفس: (كناية) عن الهلاك والموت، أي لا تُهلك يا أيها الرسول نفسك حسرة عليهم، لعدم إيمانهم، وهي من الكنايات اللطيفة، لأن النفس إذا ذهبت، هلك الإنسان ومات، كما نقول: قضى فلان نحبه، أي هلك ومات.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعِ الْآخِثُ وَالْبَاسِرُ • وَلَا تَطْلُكُ وَلَا تَوْرُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠] في الآية استعارة من روائع أنواع الاستعارة، شبه الكافر بالأعمى، في عدم اهتدائه إلى طريق الحق والسعادة، وشبه المؤمن

بالبصير، في استنارة قلبه، واهتدائه إلى طريق الخير والإيمان، بجامع الظلمة على الكافر، ووضوح الرؤية للمؤمن، واستعار المشبه به، وهو لفظ (الأعمى) للكافر، ولفظ (البصير) للمؤمن، بطريق (الاستعارة التصريحية) ومعنى الآية الكريمة: لا يتساوى أبداً الكافر والمؤمن، ولا الباطل والحق، ولا الهدى والضلال، فالباطل ظلمة، والحق نور.

﴿وَلَا يُلْقِدُ وَلَا تُقَرِّبُ﴾ [فاطر: ٢١] أي ولا تتساوى الجنة مع النار، ولا نعيم الأبرار مع عقاب الكفار.

ضرب تعالى (الظل) مثلاً للجنة، وظلها الظليل، وثمارها اليانعة، وضرب (الحروز) وهو شدة حرّ الشمس اللامب، للنار وسعيرها، وشدة لهبها وجحيمها، وكل ذلك بطريق (الاستعارة التصريحية) البديعة، التي تفوق كل وصف وجمال، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي أَهْلُ النَّارِ وَأَهْلُ الْجَنَّةِ أَهْلُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

٥- قوله تعالى: ﴿رَأْسُفًا يَنْزَارُ فَقَتُلَهمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْزَحُوتَ بِحَبْرَةٍ لَّنْ كَتَبُوا﴾ [فاطر: ٢٩] شبه تعالى الأجر والثواب، الذي يناله المؤمنون في الآخرة، بالتجارة الرباحة، التي لا تخسر ولا تكسب أبداً، لأنها تجارة مع الله، بطريق (الاستعارة التمثيلية) أي يرجون بعملهم الصالح تجارةً رابحة، هي رابحة على الدوام، كمن يتاجر بمهارة فيربح دائماً، وفي الآية ترشيح بقوله: ﴿لَّنْ كَتَبُوا﴾ أي لن تكسب ولن تخسر أبداً، زيادةً للبيان والتوضيح، ففيها من لطيف الاستعارة، وشفيف العبارة، ما يرغب في الدخول في هذه التجارة مع الله عز وجل.

٦- قوله تعالى: ﴿قَدْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَادَعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْإِنْسِ﴾ [فاطر: ٤٠] في الآية استفهام للتفريع والتوبيخ، يسمى (الاستفهام الإنكاري) أي أخبروني يا معشر الجهلة الكفار: ماذا خلقت هذه الأصنام والأوثان، من مخلوقات حتى عبدتموها من دون الله؟ والغرض منها التوبيخ والتشنيع عليهم، لعبادتهم من لا يستحق العبادة، وهي جمادات تستحق التحطيم لا التعظيم.

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَوْنَ إِذْ تُفْعَلُ لَنَسُوا إِحْسَانًا وَفُتِنُوا فَعَلُوا مَلَكًا﴾ [فاطر: ٤٥] في الآية (استعارة مكنية) شبه الأرض بدابة، تحمل على

ظهرها أنواع المخلوقات، من البشر وسائر الأنعام، ثم خذف المشبه به وهي (الدابة) ورمز إليها بشيء من لوازمها وهو الظهر (على ظهرها) بطريقة (الاستعارة المكنية).

والمعنى: لو أخذ الله الناس بذنوبهم، لأهلك أهل الأرض جميعاً، ولكنه سبحانه حلیم بالعباد، لا يعجل لهم العقوبة، ليمسح المجال أمامهم للتوبة والإنابة.



الإبداع البياني في سورة يس

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا نَفْسَهُمْ نُفُلاً﴾ [يس: ٨] في الآية تمثيلٌ عجيبٌ وغريب، يسمى (التشبيه التمثيلي) مثل تبارك وتعالى لحال المشركين، بصورتين عجيبتين، تكشفان عما انطورت عليه نفوسهم، من الكفر والضلال، والجحود والإنكار، فقال في المثل الأول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا نَفْسَهُمْ نُفُلاً...﴾ الآية.

هذه هي الصورة الأولى: صورة الإنسان الذي سُدتْ يده إلى عنقه، بالسلاسل والأغلال، فأصبح رأسه مشدوداً، لا يستطيع خفض رأسه ليرى ما أمامه، ولا زلعه ليرى ما فوقه، ولا يستطيع تحريكه يمنة أو يسرة، فأصبح رأسه مرفوعاً، لأن اليدين مفلولتان بقيود من حديد، وقد وصلت الأغلال إلى الأذقان، فظلوا رافعين لرؤوسهم، غاضبين لأبصارهم ﴿فَهُمْ يُفْضَحُونَ﴾ والإقماخ: رفع الرأس، وغضُّ البصر، وفيه تشبيه لهم بالبعير، الذي رفع رأسه عند حوض الماء، وامتنع عن الشرب، وهؤلاء الكفار لا يلتفتون إلى الحق، ولا ينظرون إلى حجج القرآن، بل هم معرضون عنه، كالبعير الذي يُعرض عن شرب الماء.

٢ - أما التشبيه الثاني ففي قوله تعالى: ﴿وَحَفَنَّا مِنْ يَدَيْهِمْ سَكَاوُنَ﴾ [يس: ٩] هذه هي الصورة الثانية من التمثيل، صورة الشخص الذي حُصِرَ بين سدين عظيمين: سدٌ منيع من أمامه، وسدٌ آخر من خلفه، وسُدَّتْ الطرق في وجهه، فكيف يبصر طريق الهدى؟ أو يرى ما أمامه من أشياء، وقد حُصِرَ بين هذين السدين؟ ولهذا قال في ختم الآية: ﴿فَأَعْيَتْنَاهُمْ نَفْثَ الْيَمِينِ﴾ أي غطينا بهذين السدين أبصارهم وأعيناهم، فهم لا يبصرون طريقهم إلى الإيمان!! وحَقٌّ إنه لتصوير رائع، يكشف عن حال أولئك الأشقياء الفجار، لذلك لم يتفجعوا من الإنذار، لغاية غيهم وضلالهم. ﴿وَمَوَّلَاهُمْ مَا دَرَسُوا ثُمَّ لَمَّ لُجُؤُهُمْ لَبِئْسَ لَاقٍ﴾ [يس: ١٠] فالإنذار لا يُحيي القلوب الميتة، إنما يوقظ القلوب الحية، المستعدة لتلقي نور الهداية والإيمان، لذلك

يستوي عندهم تخويفك لهم من عذاب الله، وعدمه، فهم يسبب طغيانهم وجبروتهم لا يؤمنون!

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ لَهُ قَوْمَهُ أَنذَارًا مِّنَ الْقُرْآنِ إِذَآ أَنزَلْنَا إِلَيْهِ الْفُتُورَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ ذَٰلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [يس: ١٣، ١٤] هذا مثل ضربه الله تعالى للأشقياء من أهل مكة، الذين كذبوا خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً ﷺ، والقرية إذا أطلقت في القرآن، يُراد بها المدينة، والمشهور أنها مدينة (إنطاكية) كان أهلها كفاراً، يعبدون الأوثان والأحجار، فبعث الله إليهم رسولين كريمين فكذبوهما، فشذَّ أزرهما برسول ثالث، فهذَّوا الرُّسل الكرام بالقتل، وتنتهي القصة بهلاك الطغاة الظالمين، بصيحة من السماء أزهقت أرواحهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لَا يَأْتِي الْبَاطِلَ﴾ [يس: ٢٨، ٢٩] والآية فيها تصغيرُ شأنهم، وتحقيرُ لهم، أي لم نحتاج في إهلاكهم إلى إنزال ملائكة من السماء، وما كنا منزلين الملائكة من أجلهم، لأنهم كانوا أذل من ذلك علينا وأهون، وما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة، صاح بهم جبريل، فإذا هم هالكون ميّتون، قد أخذت أنفاسهم، حتى صاروا كالنار الخامدة.

وفي هذه القصة يبرز شخص مؤمن، صادق الإيمان، جاء مسرعاً ينصح قومه، يحلّزهم من انتقام الله وعذابه لهم، إن هم تعرّضوا للرسل بالأذى، اسمه (حبيب النجار) قلم يكن من أولئك الأشقياء، إلا أن وثبوا عليه وثبة رجل واحد، ووطنوه بالأقدام حتى فاضت روحه، ولما مات أدخله الله الجنة يشتم فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ لَا يَأْتِي الْبَاطِلَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

قال ابن عباس: نصّح قومه حياً وميتاً، وأهلك الله قومه الظالمين.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ لَهُ قَوْمَهُ أَنذَارًا مِّنَ الْقُرْآنِ إِذَآ أَنزَلْنَا إِلَيْهِ الْفُتُورَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ ذَٰلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [يس: ٢٧] التعبير هنا ﴿أَنذِرْ لَهُ قَوْمَهُ﴾ جاء في غاية الجمال، وغاية الإبداع البياني، الذي لا يستطيع أن يأتي بمثله البشر، فهو بصوّر النهار، وكأنه لباس كثيف سائر، يلفّ جسد الليل، فيغطّي ظلمته، فإذا خلعتنا الثوب عن الجسد، بدت ظلمة الليل الدامس!!

ولتوضّح هذه الصورة الفنية البديعة، التي صوّر بها القرآن الليل والنهار، صورة شاة لها لحم، يستره جلد جميل لطيف، فإذا نزعنا الجلد عن الشاة، بدا

فيها اللحم والجسد العاري، كذلك الليل والنهار، جسد وعورة، ستر بلباس كفيف من النور، فإذا نُزع الثوب وأزيل، بدت ظلمة الليل المحالك ﴿فَإِذَا هُمْ مُقْلَبُونَ﴾ أي داخلون في الظلام الكثيف، هذه هي الصورة البديعة الرائعة، التي صورها القرآن الكريم ببيانه المعجز، فهل باستطاعة البشر، أن يأتوا بمثل هذا الإبداع الفني في كلمات قلائل؟ إن هذا الجمال والإبداع إنما جاء عن طريق (الاستعارة التصريحية) حيث استعار اسم السلخ للإزالة والإخراج، واشتق من السلخ (نسلخ) بمعنى نخرج ونزيل، ويا لها من استعارة بديعة!!

٥ - قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَكَايِدَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس: ٣٩] المرجون: غصن النخل اليابس، إذا يبس انحنى وتقوس، والتعبير هنا ﴿عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ بديع وعجيب، فالقمر في لباله الأولى هلال، وفي لباله الأخيرة هلال، ولكنه في بداية الشهر، يبدو كأنه (فتى) في ريعان الصبا، فيه نضارة وجمال، وفي آخر الشهر يطلع وكأنه (كهل) هرم، فيه شحوب وذبول، ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ أي العتيق، فإذا عتيق وقديم، دق وتقوس واصفر، فما أجمله وأبدعه من تشبيه!! ويسمى هذا (التشبيه المجمل المرسل) وجه الشبه فيه محذوف، مركب من ثلاثة أشياء: الرقة، والانحناء، والصفرة، وكلها غير مذكورة، ولهذا يسمى (مجملاً مرسلًا).

٦ - قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ بِسِوَىٰ مَا أَنزَلْنَاهُ الْقَمَرَ وَلَا تِلْكَ سَائِقُ النَّهَارِ وَفِي ذَٰلِكَ بُشْرُوعٌ﴾ [يس: ٤٠] يعني أن الشمس لا تذهب نور القمر، ولا القمر يطمس نور الشمس، وكل منهما يعيش بائزان وانتظام، في مدار له لا يتعداه، وهذا التعبير المعجز ﴿لَا الشَّمْسُ نَبِّئِي مَا﴾ بضمي عليها وهي جمادات، صفة العقل والحكمة، فلم يقل تعالى عنها: لا تدخل الشمس في مدار القمر، وإنما قال: ﴿لَا الشَّمْسُ نَبِّئِي مَا﴾ وكأنها عاقلة تجري وتسير، بكل حكمة واتزان، ولهذا ختم الآية بصيغة جمع العقلاء: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ولم يقل: تسبح، وهي صورة بديعة، من صور الجمال الفني في القرآن، نُزل غير العاقل منزلة العاقل، لغاية الإبداع البياني، فما أسمى تعبير القرآن!!

٧ - قوله تعالى: ﴿أَنظِرْنَاهُمْ سِنِينَ لَّئِي يَنظُرُوا إِلَٰهَ الْغُفَّارِ﴾ [يس: ٤٧] في الآية (استفهام إنكاري) أي لا نعطي من حزمه الله ولو شاء لأطعمه، وعرضهم من هذا (التهكم والاستهزاء) فإن المشركين كانوا إذا دعوا

إلى إطعام الفقراء والمساكين، قالوا على وجه السخرية والاستهزاء: أيفقره الله ونطعمه نحن؟ وكانوا يهزأون ويقولون: إن كنتم تعتقدون بأن الله هو الرازق، فلم تطلبون مثلاً إطعامهم؟ لو شاء الله لأطعمهم!! نزلت في (العاصي بن وائل) كان إذا سأله مسكين، قال له: اذهب إلى ربك، فهو أولى مني بك، أيفقره الله وأطعمك أنا؟!)

٨ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَسِّيَنَّهُمْ فَانِطَرُوا الَّيْطَرُ﴾ [يس: ٦٦] صور تعالى هؤلاء المشركين السفهاء، بصورتين عجبتين غريبتين، تليق بما هم عليه من السفاهة والاستهزاء، في غاية الإبداع البياني.

الأولى: صورة مجموعة من العميان، يتسابقون الطريق، وهم في ركضهم يتخبطون ويتناقلون، فيصطدم بعضهم ببعض، فكيف يصلون إلى نهاية الطريق، وهم عمي لا يبصرون؟

٩ - الصورة الثانية: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَسِّيَنَّهُمْ عَنْ مَكَاتِبِهِمْ فَمَا اسْتَقْبَلُوا مُبِشِّرًا وَلَا نَذِيرًا﴾ [يس: ٦٧].

هذه هي الصورة الثانية: صورة الإنسان الممسوخ، الذي مسخه الله من صورة (آدمية) إلى صورة (بهيمية) فصار بشراً في صورة قرد، وإنساناً في صورة حمار، وآخر في صورة خنزير، وسلب الله منهم العقل والفهم، ألا تشير مثل هذه المشاهد الضحك والسخرية، وهو يرى جسد إنسان برأس حمار؟ أو جسد إنسان بصورة قرد؟ أو إنساناً يمشي على أربع في صورة بغل؟ حقاً إنها لمناظر بشعة تثير الضحك العميق!!

ومعنى الآية الكريمة: لو نشاء لبذلنا صُورهم الجميلة إلى صُور قبيحة، فمسخناهم إلى قردة وخنازير، وسلبنا منهم الحواس، فجعلناهم كأصنامهم، حجارة صماء بكماء، لا تتحرك ولا تنطق، فلا يستطيعون الحركة، ولا الذهاب أو الإياب، أفلا يتعظون؟! إنهما مشاهدان مثيران للانتباه، فيهما من التشنيع والتقبيح، بقدر ما فيهما من الاستهزاء والسخرية، السخرية بالمكذابين، والاستهزاء بالمستهزئين.

١٠ - قوله تعالى: ﴿يَسْتَدْرِكُ كَافًا حَيًّا وَيَحْيِي الْقُرْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]

في الآية (استعارة لطيفة) من أبدع أنواع الاستعارة، وذلك بتمثيل المؤمن بالحي، والكافر بالميّت، شبه تعالى الكافر بالميّت، من حيث إنه لا ينتفع بما يسمع، من آيات الذكر الحكيم، وشبه المؤمن بالحي، لأنه ينتفع ويستثير عقله وقلبه بالوحي المبين، والمعنى: لينذر بهذا القرآن، من كان مؤمناً حي القلب، مستثير العقل والبصيرة، ويتحشم العذاب على الكافر، لأنه كالميّت، لا يفهم ولا يعقل، واستعار لفظ الحي للمؤمن، بدليل اقترانه بالكافر، في قوله سبحانه: ﴿وَيَحْيِي الْقُلُوبَ عَلَ الْكَثِيرِينَ﴾ وهذه من اللفظ أنواع (الاستعارة التمثيلية)!!

١١ - قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ نَسْأَ عَيْتَ أَنْبِيَا أَنْكَمَا فَهَمْ لَهَا مَنِيكُونَ﴾ [يس: ٧١] الأنعام يُراد بها: الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، ولا يدخل بها البغال والحمير، لأن الله امتنّ على العباد يأكل لحومها، والتعبير بقوله: ﴿نَسْأَ عَيْتَ أَنْبِيَا﴾ عبّر عن (الخلق) بالعمل، بطريق (الاستعارة البديعة) لأن الأنعام تُخلق ولا تُعمل بالأيدي، فشبه اختصاصه تعالى بالخلق والتسخير - أي التذليل - بمن يعمل بنفسه ويديه شيئاً عظيماً، لينبها سبحانه إلى أن هذه الأنعام التي خلقها، كأنه عملها بيده لنا لمنفعتنا، واستعار لفظ (العقل) للخلق، بطريق (الاستعارة التمثيلية).

ثم تسخيرها لنا نعمة أخرى، فإن الجمل مثلاً أضخم جثة من الإنسان، ولولا تسخيرها لنا لما استطعنا أن نركبه، ولا أن نأكل لحمه، فقد جعلها الله مقهورة ذليلة لنا، لا تمتنع عن أحد، حتى لو جاء طفل صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه وساقه، حتى ولو كان القطار مائة بعير، لساّر الجميع بسير الصغير!!

وهنا يحس الإنسان أنه مغمور بفيض من نعم الله، في كل شيء حوله، ويصبح كل مرة يركب دابة، أو يأكل قطعة من لحم، أو يشرب جرعة من لبن، أو يلبس ثوباً من شعر أو صوف، يشمر بوجود الخالق، ورحمته، وتعمته، ونعود حياته كلها تسيحاً لله، وحمداً وتمجيذاً، كما قال سبحانه: ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ﴾ ﴿يَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ ذَكَرُوا مَقْعَهُ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِمْ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ﴾ [الزخرف: ١٣] ﴿مُقْرِبِينَ﴾ يعني قادرين ومطيعين لركوبه.

١٢ - قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَلِيزُونَ سُرْعَتَهُمْ وَمُمْ قَمَّ حَسَّ تُخْشَرُونَ﴾ [يس: ٧٥] في الآية تشبيه بديع، في أبدع صور التشبيه، يسمى (التشبيه البليغ) صور

المشركين كالجنود والخدم لهذه الأصنام، يدبّرون عنها، ويقذّونها بالروح والمال، وهي لا تستطيع نصرتهم، ولا أن تدفع الأذى عنهم، فصار المشركون العبيدة للأصنام، كالجنود والخدم لها، وهذا غاية السُخف والحماقة، خذفت من الآية أداة التشبيه، ووجه التشبه، فأصبح بليغاً، والأصل: هم كالجنود المعدة للدفاع عن الأصنام، وكالخدم لهذه الآلهة المزعومة، في الدفاع عنها، والاستماتة في سبيلها، حتى ولو قذّموا أرواحهم من أجلها، وعادوا رسل الله وقاتلوهم، حفاظاً على كرامتها.

١٣ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ، بِمَا آيَاتُكَ تَعَلَّمَ الْقَوْمُ لَمْ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

في الآية تمثيلٌ بديعٌ للمقدرة الإلهية الفائقة، شبه سرعة تأثير قدرة الله تعالى، ونفاذها في جميع الأمور والمخلوقات، بأمرٍ سلطانٍ مُطاع، ذي عزة ومُنعة، يأمر بالأمر، فينفذ من غير توقف ولا امتناع، وذلك بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهذه من لطائف الاستعارة، فإذا أراد تعالى شيئاً قال له: (كن) فكان، وهذه قدرة الرحمن.



الإبداع البياني في سورة الصافات

١ - قوله تعالى: ﴿لَا يَرْزُقُ الْجَحِيمَ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] الأسلوب هنا: ﴿لَا يَرْزُقُ الْجَحِيمَ﴾ أسلوب (تهكم وسخرية) لأن الهداية إنما تكون لطريق الخير لا الشر، وإلى طريق النعيم، لا إلى طريق الجحيم، والمعنى: عرّفوهم طريق جهنم، ووجهوهم إلى نار السعير، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا اليوم إلى نار الجحيم!! وبإيها من سخرية باهرة، كأنها سيات لاذعة والمراد بالأزواج في الآية ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي أمثالهم وأشباههم في الكفر والإجرام، كل واحد مع نظيره، السارق مع السارق، والزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، وهكذا كل مجرم مع أشباهه ونظرائه.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فالله إنكم كنتم تأتونه من اليسير [الصافات: ٢٧، ٢٨] اليمين هنا: (كناية) عن القوة والشدة، لأن الإنسان يضرب يمينه، ويعمل يمينه، فكثي عن القوة والقهر باليمين، أي كنتم تأتوننا بأقوى الوجوه، بالقوة والإجبار، فتزيتون لنا الباطل، وتحسنون لنا القبيح، وتصدّوننا عن الهدى، لأننا كنا أتباعاً، وكنتم سادة، وكنا ضعفاء، وكنتم قادة، زيتم لنا طريق الضلال، فاتبعناكم، ففي الآية (كناية لطيفة) عن القوة والقهر.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَعَدْنَاهُمْ فَيَنزِلُ الْعَذَابُ بِهِمْ﴾ كَأَنَّهُمْ يَتَلَفَعُونَ [الصافات: ٤٨، ٤٩] كثي بقوله: ﴿تَلَفَعْنَ الْعَذَابَ﴾ عن الحور العين، أي نساء من الحور العين عفيفات، قصرن أعينهن عن النظر لغير أزواجهن، فلا ينظرن إلى غيرهم عفة وحياة، وهنّ مع العفة، واسعات العيون، جميلات الصورة والشكل ﴿كَأَنَّهُمْ يَتَلَفَعْنَ﴾ كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه، وهذا قول ابن عباس، واستشهد عليه بقوله سبحانه: ﴿وَنَزَلْنَا بِهِمُ الْمَائِدَ الْمَكْنُونَةَ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣] والغرض من هذا بيان أنهم مع هذا الجمال الباهر، مصونات كاللؤلؤ في أصدافه، مع رقة، ولطف، ونعومة.

وفي هذا التشبيه البديع ﴿كَانَ﴾ ما يسبي العقول والألباب، لما فيه من التشبيه الفائق الرائع، ويسمى (التشبيه المرسل المجمل).

٤ - قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢] التزل في اللغة: الضيافة والتكرمة التي تقدم للضيف، وأي كرامة وضيافة لمن يكون طعامه الزقوم، وهي شجرة خبيثة مَرَّة، كريهة الرائحة؟ والآية وردت بأسلوب (السخرية والتهكم) وقد وصفها تعالى بـ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾. طعمها قَانَةٌ رَوْسُ الشَّيْطَانِ [الصافات: ٦٤، ٦٥] فهل في هذه خير؟ أو أدنى لذة ومتعة؟

ومعنى الآية الكريمة: هل ذلك التعميم الخالد لأهل الجنة، وما فيها من الأشجار والأنهار، والفواكه والثمار، كرامة وضيافة؟ أم شجرة الزقوم التي هي مَرٌّ علقم، وهي ضيافة أهل الجحيم؟

ولا يمكن لأي عاقل أن يفاضل ويقارن، بين ضيافة أهل الجنة، وضيافة أهل النار، وهو كما ذكرنا أسلوب (السخرية والتهكم)!

فإن قيل: كيف قال: ﴿طَلْعُهَا قَانَةٌ رَوْسُ الشَّيْطَانِ﴾ [الصافات: ٦٥] وهو تشبيه بالمجهول، فإن أحداً لا يعرف رؤوس الشياطين؟ فالجواب أن هذا (تشبيه بالمخيل) كتشبيه الفائق في الحُسن بالملك، وتشبيه القبيح الصورة بالشيطان، لأنه قد استقر في النفوس، أن الشياطين قبيحة المنظر، وأن الملائكة حسنة الصورة والشكل، والعرب إذا رأت منظرًا قبيحاً، قالت: كأنه شيطان، لما استقر في الأذهان، من قبح صورة الشياطين.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ لِيَوْمٍ إِذْ جَاءَ زَنْدٌ يَقْلِبُ الصُّلُوبَ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤] في الآية استعارة لطيفة تسمى (استعارة تبعية) شبه إقباله على ربّه بالصدق والإخلاص، بمن قدم على الملك بتحفة جميلة ثمينة، ففاز بالرضى والقبول، واستعار لفظ ﴿جَاءَ زَنْدٌ﴾ لقبول الله ورضاه عن عمله، لأن الله ليس في مكان في الأرض، حتى يأتيه بنفسه، وإنما هو تعبير عن الصدق والإخلاص.

ومعنى الآية: وإن من أنصار نوح وأعدائه، ومن هو على منهجه وطريقته، إبراهيم خليل الرحمن، حين جاء ربّه بقلب طاهر نقي، خالص من الشك والشرك، سالم من الحقد والحسد، والمكر والخبث، لم تدنس شهوات الحياة.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُوسُفُ أَمْسَأَ الْمَرْسِيَّ • إِذْ أَنْتَوُا إِلَى الْمَلَأِ الْمَتَّحِرِ﴾ [الصافات: ١٣٩، ١٤٠] شبه ذهابه وخروجه بغير إذن ربه، بإيقاع العبد من سيده، بطريق (الاستعارة التصريحية) فاستعار لفظ (أَمْسَأَ) أي هرب مكان لفظ (ذهب) والمعنى: حين ذهب إلى السفينة المملوءة بالرجال والمتاع، وأصله الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه، بغير إذن ربه، حُسِّنَ إطلاق الهرب عليه.

٧ - قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِ فَتَعَاصَىٰ أَصْحَابُ الْمُنَادِرِ﴾ [الصافات: ١٧٧] في الآية (استعارة تمثيلية) بدبعة.

والمعنى: إذا نزل العذاب بفناء المكذبين، فبئس هذا الصباح صباحهم، مثل للعذاب بجيش كثيف، مدجج بالسلاح، هجم عليه وقت الصباح، فأحاط بهم من كل جانب، ونصّحهم بعض الناصحين فلم يلتفتوا له، ولم يأخذوا أعتهم، حتى اجتاحتهم الجيش وقطع دابرهم.

قال صاحب الكشاف: وما فُصِّحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التي يروكك موردها، إلا لمجيئها على طريقة التمثيل. اهـ تفسير الكشاف ٥٢/٤.

وقد استعملها رسول الله ﷺ مع يهود خيبر، حين دخل مدينتهم (خيبر) فقال: «اللَّهُ أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين، قالها ثلاثاً» رواه البخاري^(١).



الإيداع البياني في سورة ص

١ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَهْلَكْنَا مَنِيعَهُمْ فَأَمْسَرَ زُنْفَارَهُ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ فَتْرًا فَاسْجُدُوا لِلَّهِ رَبِّكَ﴾ [ص: ٣] القرن: مائة عام وهو زمان لا يهلك، والمراد إهلاك أهله، ففيه مجاز بالحذف يسمى (المجاز المرسل).

والمعنى: وكثير من الأمم الطاغية قبلهم، أهلكناهم بأنواع العذاب، فاستغاثوا واستجاروا طلباً للنجاة، وليس الحين حين فرارٍ ومهرب ونجاة من العذاب، وأصل (لات): لا بمعنى (ليس) زيدت عليها التاء للتأكيد، فصارت (لات).

٢ - قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهِمْ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَىٰ ۖ وَقَدْ نَدُوْا نَادِيَهُمْ قَوْمَ الْمَدْيَنَ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۚ فَاسْتَمْتَعُوا بِطَغْوَاهُمْ إِذِ انشَقَّتْ رَأْسُهُمْ فِى الْغَابِغَةِ ۚ فَاذْكُرُوا الْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ﴾ [ص: ١٢] الأوتاد: جمع وتد وهو ما يُغرز في الأرض، لشد الخيمة وتثبيتها، وهي هنا (استعارة لطيفة) عن المباني الضخمة، وثبات الملك ورسوخه، ومنه قول الشاعر:

فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

والمعنى: كذب قبل كفار قريش أمم كثيرون، منهم قوم فرعون الجبار، ذو الملك الثابت، والمباني العظيمة الضخمة، ومنها (الأهرامات) شبه الملك بخيمة عظيمة، شُدَّت دعائمها بالأوتاد، لتثبيتها في الأرض، لنلا تقتلعها الرياح، على طريقة (الاستعارة المكنية) وذكر (الأوتاد) تخيل.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَهُ نَادِيَهُ الْأَيْدِيَّ ۚ إِنَّهُ أَوَّلُ الْآيَاتِ ۚ﴾ [ص: ١٧] في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَهُ نَادِيَهُ الْأَيْدِيَّ﴾ كناية لطيفة، فقد كثي عن (القوة) بالأيد، التي أصلها الأيدي، أي ذا القوة في الدين، والقوة في البدن، فقد كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويحيى نصف الليل بالعبادة، مع ما منحه الله من النبوة والملك، فكان (ملكاً نبياً) أتاه الله قلباً ذاكرةً، ولساناً شاكراً، وصوتاً رخيماً يتلو به الزبور، ولهذا قال ﴿إِنَّهُ أَوَّلُ الْآيَاتِ﴾ أي كثير الرجوع والإنابة إلى الله تعالى.

١ - قوله تعالى: ﴿يُرَادُّ عَلَى مَقْبَلِكُمُ الشَّيْطَانُ وَالْأَعْتَقُ﴾ [ص: ٣٣] فيها (كنايةٌ بديعة) فقد كُئِيَ عن العَقْرِ والذَّبْحِ بالمسح، ولا يُراد بالمسح على الأعتاق: مسحها بيده تكرمةً لها كما قال البعض، وإنما هو ذبحها ليورعها على المساكين، كما قاله الحسن البصري، ولهذا عَوَّضَهُ اللَّهُ عن الخيل بما هو خير وأفضل، الريحُ التي كانت تحمله من بلدٍ إلى بلد، أسرع من الخيل العاديات.

٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أُنْفُوسُ النَّاسِ تَصِيرُ﴾ [ص: ٤١] أسند الضرر إلى الشيطان، مراعاةً للأدب، وإن كانت الأشياء كلها، خبرها وشَرُّها من الله تعالى، ولكن لا يُنسب الشرُّ إلى الله أدياً.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِثْلَ بَعْضِ الْبَرِّمِ وَأَنْتَ أَوْلَىٰ الْأَنْفُسِ﴾ [ص: ٤٥] في الآية (استعارة تصريحية) من بديع أنواع الاستعارة، استعار (الأيدي) للقوة في الطاعة والعبادة، و(الأبصار) للقوة في الدين.

والمعنى: اذكر عبادتنا الأخيار (إبراهيم) و(إسحاق) و(يعقوب) إنهم كانوا من أولي القوة في العبادة، والفقهاء في الدين، جمعوا بين الطاعة والعبادة، والبصيرة الشاقية في أمور الدين، فهذه من لطيف الاستعارة. قال قتادة: أعطوا قوةً في العبادة، ونصراً في الدين. تفسير الشوكاني ٤/٤٢٢.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ﴾ [ص: ٥٢] كُئِيَ عن (الحور العين) بقاصرات الطرف، ومعناها أنهن قَصَرْنَ نظرهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، عفةً واحتشاماً، ومعنى (أنراب) أي في سنٍّ واحدٍ، بين الصبا والشباب، ليس فيهن عجائز، بنات ثلاث وثلاثين كما هو سنُّ أزواجهن، وفي الحديث الشريف: «يدخل أهل الجنة الجنة جُزْءاً، مُزْدَأً، مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين سنة، لا يفتن شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، لكل امرئ منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حُلَّةً، يرى مع ساقها من ورائها» رواه الترمذي، ومعنى (مُزْدَأً) أي ليس لهم لحم في وجوههم، على صورة الشباب المُزْد، لأن الجنة دارُ التشريف، والدنيا دارُ التكليف.

الإبداع البياني في سورة الزمر

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ نَبِيَّةً [الزمر: ٦] من المعلوم المقطوع به، أَنَّ الْأَنْعَامَ تُخْلَقُ وَلَا تَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ، وإنما عبرَ عن (الخلق) بالإنزال، بلطف الاستعارة، لأن وجود هذه الحيوانات، إنما هو بسبب نزول المطر، الذي يُخْرِجُ الزرع والكَلأَ، والحيوانات تأكل هذا العشب، فتكبر وتسمن، ولولا العُشْبُ والمَرعى لَمَّا عاشت هذه الأنعام، ففي الآية (استعارة بديعة) حيث استعار لفظ الإنزال للخلق، لأن هطول الأمطار من السماء، سبب لوجودها وبقائها.

قال الشوكاني: لَمَّا كَانَتِ الْأَنْعَامُ لَا تَعِيشُ إِلَّا بِالنِّبَاتِ، وَالنَّبَاتُ إِنَّمَا يَعِيشُ بِالْعَامِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ، كَانَتِ الْأَنْعَامُ كَأَنَّهَا مُنْزَلَةٌ، كَمَا يُطْلَقُ لَفْظُ (السَّمَاءِ) عَلَى الْمَطَرِ مَجَازًا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَغِيضًا وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا^(١)

٢ - قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي قَوْعِهِمْ ظِلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] تسميتها بِالظِّلِّ (للتحكم والسخرية) فَإِنَّ الظِّلَّ مَا يَسْتَظِلُّ بِهِ الْإِنْسَانُ مِنَ الْحَرِّ، فَإِذَا كَانَتْ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، كَانَتْ أَحْرَ وَأَقْطَعُ، فَالنَّارُ تُظَلِّلُهُمْ بِحَرِّهَا وَسَعِيرِهَا، مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ، وَهِيَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، إِحَاطَةُ السَّوَارِ بِالْمِقْصَمِ، وَبِأَنَّهَا مِنْ ظِلَّةٍ تَحْرِقُ الْأَجْسَادَ وَالْأَكْبَادَ، بِحَرِّهَا وَسَعِيرِهَا^(٢) وَالظِّلُّ: عِبَارَةٌ عَنْ إِطْبَاقِ النَّارِ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، سُمِّيَتْ بِالظِّلِّ لِمَزِيدِ السَّخَرَةِ وَالتَّهْكُمِ.

قال علماء البيان: معنى الآية: تَغْشَاهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ نَحْوِهِمْ، وَتَحِيطُ بِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِمْ، فَكَأَنَّهَا تَظَلِّلُهُمْ بِسَعِيرِهَا، وَتَسْمِيَّتُهَا (ظِلًّا) تَهْكُمُ وَسَخَرِيَّةٌ، لِأَنَّ الظِّلَّ تَقِي مِنَ الْحَرِّ، وَهَذِهِ تَحْرِقُ الْأَجْسَادَ وَالْأَكْبَادَ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَهُمْ ظِلَّةً؟

(١) فتح القدير للشوكاني ٤/٤٣٤.

٣ - قوله تعالى: ﴿أَمْ حَقَّ عَلَيْهِ كَذِبُ آلِهَاتٍ تُفِيدُونَ الشَّارِبَ﴾ [الزمر: ١٩] في الآية (مجاز مرسل) أطلق المسبب وأراد السبب، لأن الضلال سبب لدخول النار، والمعنى: هل تستطيع أن تنقذ من هو في الضلال والكفر؟

٤ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَسْخَرِ اللَّهُ مَدْرُؤَ الْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُفُورٍ يَتَجَفَّيْ . . .﴾ [الزمر: ٢٢] في الآية الكريمة (مجاز بالحذف) حُذف جوابه تقديره: كمن هو أعمى القلب، مطموس نور البصيرة، ودلّ على هذا المحذوف ما بعده وهو قوله: ﴿قَوْلِ الْقَائِلَةِ قُلُوبُهُمْ بَيْنَ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

والمعنى: هل من أنار الله بصيرته، وشرح صدره بالإسلام، فاستضاء بنوره واهتدى، كمن هو أعمى القلب، يتخبط في ظلمات الكفر والضلال؟

٥ - قوله تعالى: ﴿أَمْ نَبُئِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ . . .﴾ [الزمر: ٢٤] عبر تعالى هذا التعبير المنفزع ﴿نَبُئِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ لبيان شدة عذاب الكافر وقوله، لأن الكافر في نار جهنم، تكون يده مغلولتان إلى عنقه، فلا يجد ما يدفع به العذاب، إلا بملامسة وجهه لنار الجحيم، وهذا أشنع أنواع العذاب، وجوابه محذوف أيضاً كما في الآية السابقة، والتقدير: هل من يكبّ على وجهه في نار جهنم، فلا يستطيع أن يثقي العذاب إلا بوجهه، هل هو كالمؤمن المنعم في الجنة؟ لا يستويان أبداً، وهذا أيضاً من باب (الإيجاز بالحذف) وهو من البلاغة بمكان. ١

٦ - قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَجَلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّكُونَ وَزَجَلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا لَآ تَقْلُبُونَ﴾ [الزمر: ٢٩] مَثَلٌ من أروع وأبداع الأمثلة، ضربه الله عز وجل للمؤمن الصادق، يعبد إلهاً واحداً، وللمشرك الوثني يعبد آلهة شتى، وهذا المَثَلُ في غاية الوضوح والبيان وهو (تشبيه تمثيلي)، وتوضيح المَثَل: عبد مملوك، يملكه رجال ﴿مُتَشَكِّكُونَ﴾ مختلفون متنازعون، شرمسو الخلق والطباع، هذا يأمره بأمر، وذاك يأمره بضده، وهو متحيز موزع القلب، لا يعرف لمن يرضي (هذا مثلُ المشرك عابد الأوثان، يعبد آلهة شتى) ورجل آخر لا يملكه إلا شخص واحد، حسن الأخلاق، فهو عبدٌ مملوك لسيد واحد، يخدمه بإخلاص، ويتفانى في خدمته، ولا يلقى من سيده إلا كل خير وإحسان (هذا مثلُ للمؤمن، يعبد إلهاً واحداً) هل يستوي هذا مع هذا؟ هل يستويان في حسن الحال، وراحة البال؟ فكذلك لا يتساوى المؤمن

الموحد، مع الوثني المشرك!! وهو مثل ضُرب في غاية الحُسن في تفبيح الشرك، وتحسين التوحيد، وفي غاية الوضوح والبيان.

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمشرك الوثني، يعبد آلهة متعددة، وللمؤمن المخلص، يعبد إلهاً واحداً، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ أَكْثَرُ﴾ أي الحمد لله على وضوح الحجة، ونصاعة الإيمان، بل أكثر المشركين - لفرط جهلهم - لا يعلمون الحق، يشركون بالرحمن، ويعبدون الأوثان!

٧ - قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَقُولْ لِنَحْزِقْ عَلَى مَا فَرَّطْتَ فِي حُبِّ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ لَيْسَ التَّحِيرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] التعبير بقوله سبحانه: ﴿فِي حُبِّ اللَّهِ﴾ أي في جانبه، وحقه، وطاعته، فهي (كناية) لطيفة بديعة، عن التمسك بطاعة الله، وعبادته، وعدم انتهاك محارمه.

قال ابن عطية: قوله تعالى: ﴿بَنَحْنُ﴾ أصلها يا حسرتي، رُدْتُ ياء الإضافة ألفاً، ونداء الحسرة معناه: النداء بالويل على نفسه، أي هذا وقتك وزمانك فاحضري، ومعنى ﴿فَرَّطْتَ﴾ أي قصرت ﴿وَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي في جهة طاعته، وتضييع شريعته، والخشب: يُعْبَرُ به عن الجانب، والقرب، والجهة، تقول: فعلت كذا لجانبك أي لأجلك، وهو من (باب الكناية) قال كثير عزة:

أَمَا تَشْفِينِ اللَّهَ فِي جَنْبِ عَائِشِي لَهْ كَيْدَ حَزَى عَلَيْكَ نَقْطَعُ؟

اهـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥٥٥/١٢ وانظر تفسير الشوكاني ٤/٤٥٤.

٨ - قوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْذَرِيَّةِ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٣] المقاليد: المفاتيح جمع مفلاذ وهو المفتاح، وفي الآية (استعارة بديعة) شبه الخيرات، والبركات، والأرزاق، بخزائن لها مفاتيح، واستعار لفظ (المقاليد) لها بمعنى المفاتيح، على طريقة (الاستعارة المكنية) أي بيده جل وعلا مفاتيح خزائن جميع الأشياء، لا يملك أمرها غيره سبحانه.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرُؤُا اللَّهَ حَتَّى تَقُورُوا وَتَخْرُجُوا مِنْهَا فِي يَوْمٍ الْقِيَمَةِ وَالشَّمْسُ تَغِيثُ فِي يَوْمٍ...﴾ [الزمر: ٦٧] في هذه الآية (استعارة تمثيلية) وهي في غاية الإبداع والجمال، مثل تعالى لعظمته وقدرته، وكمال كبريائه،

يَمْنُ قَبْضِ شَيْئاً عَظِيماً يَكْفُهُ، ويطوي السموات السبع بيده اليمنى، على طريقة (الاستعارة التمثيلية).

ومعنى الآية: ما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق ما يستحق من التعظيم، حيث عبدوا معه ما لا يضُرُّ ولا ينفع، وهو سبحانه الموصوفُ بالقدرة الباهرة، فالأرضُ في قبضته يوم القيامة، والسموات على عظمتهما وسعتهما بيمينه، وهو المالك للملك، لا مالك سواه، وفي الحديث الشريف: «يقبض الله الأرض، ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» رواه البخاري.

قال الزمخشري: والآية الكريمة لتصوير عظمته جلّ وعلا، والتوقيف على كنهه جلّاله، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة من الجهات، لأن الغرض الدلالة على القدرة الباهرة، ولا ترى باباً في (علم البيان) أدق، ولا أرق، ولا ألطف من هذا الباب. اهـ.

١٠ - قوله تعالى: ﴿زَيْبُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّهُمْ زُمَرٌ كَوْنُهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ نُبْحَةٌ أَنْبَأَتْهُمْ بِمَا كَانُوا فَهُمْ بِهَذَا الْيَوْمِ فَتًى﴾ [الزمر: ٧١] زمراً يعني جماعات جماعات، أهل النار يساقون إلى جهنم بالعُنف والإهانة، وأهل الجنة يُساقون على التجانب مساقٍ إعزاز وتشريف، للإسراع بهم إلى دار الكرامة، وشتان شتان بين المساقين، ونلاحظ سرّاً دقيقاً في التعبير القرآني البديع، وهو أن جهنم تُفتح لأصحابها فجأة، بعد أن كانت مغلقة ﴿فُتِحَتْ أَنْبَأَتْ﴾ وأما أهل الجنة فتكون أبوابها مفتحة كما قال سبحانه: ﴿فُتِحَتْ عَنْهُمْ فُتُوحَةٌ لِكُلِّ الْأَبْوَابِ﴾ [ص: ٥٠] ولهذا ذكرت هنا بالواو ﴿فُتِحَتْ﴾ إِذَا جَاءَهُمْ وَفُتِحَتْ أَنْبَأَتْ ﴿فتدبر أسرار القرآن.



الإبداع البياني في سورة غافر

١ - قوله تعالى: ﴿مَنْ أَلَيْسَ لِرَبِّكُمْ إِلَهٌ وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَنْ يَتَذَكَّرُ إِلَّا نُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] في قوله سبحانه: ﴿وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ مجاز لغوي أطلق (الرزق) وأراد به (المطر) لأن الماء سبب في جميع الأرزاق، فهو من باب (إطلاق المسبب، وإرادة السبب)، أي ينزل لكم المطر، ليخرج لكم به الزرع والثمر، فهو (مجاز مرسل) علاقته السببية، ومن الحماقة والغباء، أن نحمل الآية على ظاهرها، فنقول: إن الله ينزل من السماء البطاطس، والباذنجان، والبصل، والكوسا، وأنواع الفواكه والثمار، فهذا لا يقول به عاقل، إنما ينزل الله المطر، الذي يخرج لنا به الثمر، فعبّر عن المطر (بالرزق) لأنه سبب لرزق العباد. ١

٢ - قوله تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ﴾ رتبة الدرجات كناية عن عظمة الشأن والسلطان، ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾ الروح هنا كناية عن الوحي الإلهي، لأنه كالروح للجسد، وإنما سميّ الرحي (روحاً) لأنه يسري في القلوب، سريان الروح في الجسد.

قال ابن عطية: والدرجات: صفاته العُلا، وعبر تعالى بما يُقَرَّبُ لأفهام السامعين، اهـ المحرر الوجيز ١٣/١٧، وقال الشوكاني: معنى رفيع الدرجات: أي رفيع الصفات، أو رفيع درجات الملائكة، أو رفيع درجات الأنبياء في الجنة. اهـ فتح القدير ٤٦٧/٤.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَلْبِذْهُمْ فِي سُنُوفٍ الْأَفْزَقِ أَوْ الْقُلُوبِ لَدَى الْحَنَاجِرِ...﴾ [غافر: ١٨] الأَفْزَقُ: كناية لطيفة عن القيامة، سميت (أَفْزَقَ) لقرب مجيئها بما فيها من أهوال، من أَزَفَ الشيء إذا اقترب، والتمثيل بقوله: ﴿إِلَى الْقُلُوبِ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ تمثيل لهول الموقف، وشدة الكرب، حتى كأن القلوب تبلغ الحناجر، من شدة الخوف والجزع، فلتصق بحلوقهم، ولا تخرج فيستريحوا بالموت، وهو تمثيل لهول الموقف العصيب، في غاية الحُسن والإبداع!!

٤ - قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْبِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] (خائنة الاعين) كناية عن النظرة الخائنة التي يسترها الرجل، فينظر إلى المرأة بشهوة، دون أن يشعر به الناس.

قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع الناس، فتتمر المرأة، فيسارقهم النظر إليها.

٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَنْفَخُ بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾ [غافر: ٢٠] ﴿يَنْفَخُ بِالْحَقِّ﴾ أي يحكم بالعدل بين العباد، عن علم وخبرة، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئاً﴾ أي والأوثان والأصنام التي يعبدونها من دون الله، لا يحكمون بشيء أصلاً، لأنها جمادات لا تدرك ولا تعقل، فلا شأن لها في الحكم والقضاء، وهذا الأسلوب وارد على سبيل (التهكم والسخرية) لأن الجماد لا يقال له: يقضي، أو لا يقضي، لعدم العقل والإحساس، فالغرض (السخرية) بالأصنام وعابديها.

٦ - قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٥٨] في الآية ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ استعارة لطيفة عن المؤمن والكافر، والمهتدي والضال، استعار الأعمى للكافر، والبصير للمؤمن، لأن الكفر عمى، والإيمان نور وبصيرة، وقد تقدم أمثالها في سورة فاطر.

٧ - قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَنْتَارَ لَيْسَ لَكُمْ أَبْصَاراً﴾ [غافر: ٦١] من المعلوم أن النهار ليس له عينان يبصر بهما، لأنه ليس بذي روح يبصر الأشياء، وإنما لإشراقه وضياهه يبصر الناس فيه الأشياء، ففي الآية (مجاز عقلي) وهو من إسناد الشيء إلى زمانه، لأن النهار زمان للإبصار، أي جعل النهار مضيئاً لتبصروا فيه مصالحكم، من باب إطلاق اسم الفاعل، وإرادة اسم المفعول، أي تُبْصَرُ فيه الأشياء، وتُرى فيه جميع الأمور.

٨ - قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بَنَةً وَسَوَّيَكُمْ قَائِمَةً صَوْرَكُمْ...﴾ [غافر: ٦٤] هذا على (التشبيه والتمثيل)، أي جعل لكم الأرض كالفراش، ممهدة صالحة لسكناكم، تبين عليها الدور والقصور، وجعل لكم السماء كالسقف المرفوع فوقكم، فضلاً منه وكرماً، فالأرض كالأساس للبيت، والسماء كالسقف للبيت، الأرض تُقْلُكُم، والسماء تُظْلِكُم، وخلقكم في

أجمل صورة، وأبداع شكل، منتصبي القامة، متناسبي الأعضاء، ولم يجعلكم كالبهائم منكوسي الرؤوس، تمشون على أربع، وليس معنى ﴿قَرَارًا﴾ أنها جامدة ثابتة لا حركة فيها، وإنما المعنى: أن الله جعلها مكان استقرار للبشر.

قال الشوكاني: أي جعلها موضع قرار، فيها تحيون وفيها تموتون. اهـ فتح القدير ٤/ ٤٨٠.

٩ - قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حَسَاءُ أَتَرُ أَتَرُ اللَّهُ فَعِمَى بِالْحَقِّ وَخَيْرٌ عَلَيْكَ الْمُتَغَيِّبُونَ﴾ [غافر: ٧٨] ﴿أَتَرُ اللَّهِ﴾ كناية عن العذاب الذي سيحل بهم، وهو عذاب الهلاك والاستئصال، وكثيراً ما يرد هذا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَتَسْهَأُ أَسْهَاءً لَيَلًا أَتَرُ نَارًا﴾ [يونس: ٢٤] يعبر به عن الهلاك والدمار.

قال الشوكاني: ﴿حَسَاءُ أَتَرُ اللَّهِ﴾ أي جاء الوقت المعين لعذابهم، وخسر في ذلك الوقت المبطلون، الذين يتبعون الباطل ويعملون به. اهـ فتح القدير ٤/ ٤٨٣.



الإبداع البياني في سورة فصلت

١ - قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ثَلُوثًا إِنَّهُ أَنْكَبَتُمْ بَيْنَا ذَنُوبًا إِنَّهُ فِي ذَاتِ لَظْمٍ﴾ [فصلت: ٥] الآية وردت (مورد التمثيل) لطفيانهم وفجورهم، فقد كانت حواشهم سليمة، لم يكن في آذانهم صمم، ولا على قلوبهم حُجُبٌ وأغطية، ولكنهم لطفيانهم وجحودهم، أصبحوا لا يفهمون كلام الله، ولا يتدبرونه، فكأن قلوبهم وأسماعهم قد طُمس عليها، فهي لا تسمع ولا تفقه، وكأن بينهم وبين الرسول حُجُباً وحواجز، وهذه واردةً بطريق (الاستعارة التصريحية) لاستثقال آذانهم ما يسمعون، من جوامع البيان، وقوارع القرآن، وفيها التمثيل لإعراضهم عن اتباع الحق، بمن غطت الحُجُب والحواجز، على قلبه وسمعه.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَنْتَهِ إِلَى الشَّيْءِ وَهُوَ شَاءَ لَهُ وَلَآتِيهِ آتِيًا طَوِيلًا أَوْ كَرِهًا﴾ [فصلت: ١١] لنقف وقفة قصيرة عند هذا التعبير المعجز، فإن فيه سرّاً عجباً، يفوق الخيال في روعة الجمال، يشير إلى انقياد هذا الكون، لأمر خالقه ومبدعه، كانقياد العبد لسيده، والجندى لقائده، وقد عبّر عن هذه الطاعة والاستسلام، بتمثيل رائع بديع، يجعل من الجماد كأنه إنسان عاقل، يؤمر فيلبي، ويكلف بتكليف، فيسمع ويطيع، على حد قول العرب في أساليبهم البيانية: (قال الحائط للمسمار: لم تشقني؟ قال: سل من يدقني) والغرض من الآية هنا: تصوير نفوذ قدرته سبحانه في المخلوقات، بصورة العبد المطيع، الذي لا يقوى على مخالفة أمر سيده، فكل ما في الكون من شمس، وقمر، ونجوم، وجبال، وبحار، وأنهار، مستسلم لأمر الله، متقاد لحكمه وتدبيره، انقياد العبد لسيده، ففي الآية (استعارة تمثيلية) من لطائف أنواع الاستعارة.

قال الشوكاني: الكلام من باب التمثيل، لتأثير قدرته، واستحالة امتناعها، وجمعها جمع من يعقل، لخطابهما بما يخاطب به العقلاء. فتح القدير ٤/ ٤٨٨.

٣ - قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمْسَوْا وَقَدْ فُتِحُوا فَعَلَّ أَجْرُ الْيَوْمِ لَا يَجِدُ كَسَفًا وَهُمْ فِيهِ يَحْزَنُونَ﴾ [فصلت: ١٣] في الآية وعيد وتهديد شديد، يهز القلب هزاً، ويُلقِي في النفس

الهلج والفرع، فقد شبه الإنذار، (بصاعقة مدثرة)، تأتي عليهم فتفتنيهم، كما عاقب (عاداً) بالريح الصرصر العاتية، و(ثمود) بالزلزلة العظيمة الفظيعة.

والغرض: بيان أن هذا العذاب، عذاب هائل شديد الوقع، ولهذا لما سمع (عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ) هذه السورة من رسول الله ﷺ ووصل إلى هذه الآية، وضع عُتْبَةُ يده على فم النبي ﷺ وقال له: أنشدك الله والرحم، وكاد أن يسلم، ورجع إلى قومه متأثراً بما سمع من القرآن^(١).

٤ - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّا نُنَزِّلُ الْمَاءَ غَلِيظًا وَإِنَّا نَزَّلْنَاهُ غَلِيظًا فَأَنبَتْنَا بِهِ الثَّمَرَاتِ وَزَيَّنَّا لَهَا الْأَلْوَانُ ثُمَّ الْجَنَّةَ يُخْرَجُ مِنْهَا نَهْرٌ يَجْرِي فِيهِ سَكْبٌ أَشْجَارُهَا تُسْقَى الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] في الآية (استعارة تمثيلية) من أبدع أنواع الاستعارة، مثل القرآن الكريم للأرض اليابسة الجرداء، بصورة بديعة فائقة، تفوق كل معاني الحُسْن والإبداع: صورة رجل بائس مسكين، جلس على قارعة الطريق، يستجدي إحسان المحسنين ١١ وإن اللسان ليعجز عن تصوير البلاغة الفائقة، في جمال الأسلوب المبدع.

تأمل معي الروعة البيانية، وتصور التناسق الفني في التعبير والأداء ١١ تأمل لفظ (الخشوع) و(الاهتزاز) والتمو والانتفاخ للأرض اليابسة الجرداء، كيف تصبح بعد نزول الماء، وكأنها عروس فاتنة، تزينت بأبهى حلل الزينة، وهي تحبس طرياً، وتختال عُجْباً، فتخرج لنا من أنواع النبات، والزهور، والشمار ما يدهش الأبصار ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ غَلِيظًا فَأَنبَتْنَا بِهِ الثَّمَرَاتِ وَزَيَّنَّا لَهَا الْأَلْوَانُ ثُمَّ الْجَنَّةَ يُخْرَجُ مِنْهَا نَهْرٌ يَجْرِي فِيهِ سَكْبٌ أَشْجَارُهَا تُسْقَى الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي فإذا أنزلنا عليها ماء المطر، دبث فيها الحياة، فازدهرت وأنبتت من كل نوع من أنواع الثمار والنبات، ثم جاء التمثيل لبعث الأموات من القبور، بإخراج النبات من الأرض ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ غَلِيظًا فَأَنبَتْنَا بِهِ الثَّمَرَاتِ وَزَيَّنَّا لَهَا الْأَلْوَانُ ثُمَّ الْجَنَّةَ يُخْرَجُ مِنْهَا نَهْرٌ يَجْرِي فِيهِ سَكْبٌ أَشْجَارُهَا تُسْقَى الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي كما أخرج الثبات من الأرض الجدباء، كذلك يخرج الموتى من القبور، وحفاً إنه منتهى الجمال والإبداع، في تصوير بعث الخلائق والبشر، بإخراج الثمار والنبات بالمطر.

٥ - قوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا مَا يَنْتَظِرُ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] الأمر هنا خرج عن صيغته الأصلية، إلى (الوعيد والتهديد)، كما تقول لإنسان: افعل ما تشاء، لا تريد بذلك تخييره بفعل كل ما يشتهي، إنما هو الوعيد الملقح

(١) انظر كامل القصة في تفسير ابن كثير ٩٨/٤.

بسیاح التہدید، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَقْعُدُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ﴾ أي مطلع على أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

٦ - قوله سبحانه: ﴿إِنْ يَكْفُرْ كُفْرًا فَالْيَوْمَ لَأَنَّا نَحْنُ قَوْمٌ عَسِيفٌ﴾
[فصلت: ٤١] خبرٌ (إنَّ) محذوفٌ لتهويل الأمر، والمعنى: إن الذين كفروا
بالقرآن العظيم أول ما سمعوه، من غير تبصُّر ولا تفكُّر، وسارعوا في تكذيبه
قبل معرفة أسرارهِ وإعجازه، إتهم لن يُفَلِّتُوا من عذابنا، وكأنه يقول: إنَّ فعلتهم
الشنيعة لا تكاد تُوصَف، وعذابهم متروك إلى من بيده السلطان والأمر، حذف
الخبر لتهويل الأمر، وتفظيع الفعل وتشنيعه، فالحذف هنا أبلغ، لأن النفس
تذهب فيه كل مذهب.

٧ - قوله تعالى: ﴿لَا حِجْلَ قُدْرَانٍ أَتُفْبِلُ لِمَالِ الْوَالِدَيْنِ الْبَنِينَ﴾. (اعلموا وعبروا) [قصص: ٤٤] قوله سبحانه: ﴿اعلموا وعبروا﴾؟ في الآية حذف تقديره: أقرآن أعجمي، ونبي عربي؟ كيف يكون هذا؟ ومرادهم التنكير للكتاب العزيز، حتى ولو نزل بلغتهم العربية التي يتحدثون بها.

والمقصود أن القرآن لو نزل بغير اللغة العربية كالأعجمية، لجعلوا ذلك متمسكاً يتمسكون به، وقالوا: هلاً نزل بلغتنا العربية لفهمه؟ فنحن عرب لا نفهم كلام الأعاجم، فكيف ينكرونه وقد نزل بلغتهم العربية، بأفصح لسان، وأوضح بيان؟

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي الْأَبْهَةِ وَقَالُوا لَهُمْ عَسَىٰ﴾
[فصلت: ٤٤] وارذُ مورد (التمثيل والتصوير)، لكفرهم وعنادهم، صورهم
سبحانه بمنزلة من في أدنياه صمم، وعلى عينيه غشاوة، فهم كالصُّمِّ والعمي، لا
يسمعون ولا يفقهون، على طريقة (الاستعارة التصريحية) ويؤيد هذا ختام الآية،
وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَذَّبُكُم مِّنْ ذُكُرِهُمِ﴾ [فصلت: ٤٤] أي هم كمن
يُنَادِي من مكان بعيد، فإنه لا يسمع ولا يفقه ما يُقال له.

قال ابن عباس: يريد أنهم مثل البهيمة، التي تسمع الصوت، ولكن لا تفهم المعنى.

٨ - قوله سبحانه: ﴿مَلَأْنِيهِمُ الدِّينَ كَمَا مَلَأْنَا بِغُلَامٍ الْغَلْظَ﴾ [فصلت: ٥٠] الغلظ يكون للأشياء الحسنية كالجبل، والعمود، والجبل، وأمثال ذلك، واستعماله في العذاب إنما جاء بطريق (الاستعارة المكنية) شبه العذاب

يحبل غليظ، رُبط به المجرم، وخُذِفَ المثبِّة به وهو الحبل، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الغلظ بطريق الاستعارة المكنية.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا آلَهُنَّ آبَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ أَلَتْهُمُ الْقُورَ وَأُمَتَّاهُمْ غَيْرِمْ﴾ [فصلت: ٥١] الآية وردت (موردة التمثيل) لإعراض الكافر عن دين الله، وجحوده لنعمائه، مثل له بمن جاءه فقير يستجديه، فأدار ظهره له، وتكبر عليه وترفع، بطريق (الاستعارة التمثيلية) وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَثَى أَشْرَقُوا فَدُودُ غُلَامٍ﴾ مثل للكثرة واستمرار الدعاء ﴿فَدُودُ غُلَامٍ﴾ ليدل على إلحاحه وكثرة دعائه، عند نزول المصيبة به، بطريق الاستعارة أيضاً، وهي من اللفظ أنواع الاستعارة.

١٠ - قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى﴾ [فصلت: ٥٣] المراد بالآيات هنا: الآيات الكونية، الدالة على جلال الله، وعظمته، وباهر قدرته، في أنحاء الكون المنظور، أي سنظلمهم على عجائب وغرائب مخلوقاتنا في هذا الكون، في أنحاء السموات وأقطارها، وفي أنفسهم وتركيبهم العجيب، ليعلموا حق العلم، أن القرآن كلام رب العزة والجلال، وأن محمداً بحق رسول الله، الموحى إليه من السماء.

وقد رأينا بعض شواهد هذا الوعد الإلهي، في عصرنا الذي نعيش فيه، فعصرنا الحاضر عصر المكتشفات والمخترعات، وعصر الأقمار الصناعية، والمراكب الفضائية.

من كان يخطر بباله، أن البشر سيصلون إلى القمر؟ ويدورون حول الكرة الأرضية؟ ومن كان يصدق أن الإنسان وهو في المشرق، يرى أهل المغرب، ويسمع كلامهم؟ وهل كان يدور بخلد أحد أن يتناول شخص طعام الغداء في الفضاء، وهو ما بين الأرض والسماء؟ وأن ينتقل من قارة إلى قارة، ومن بليد إلى بليد آخر، في سويحات بواسطة (الطائرة النفاثة)؟ وهل كان أحد يعرف عن النجوم، تلك المسافات البعيدة التي تُقاس بالسنوات الضوئية؟

لقد أطلعتنا الله عز وجل على بعض عجائب هذا الكون الفسيح، وعرف البشر أن أرضهم التي كانوا يظنون أنها (مركز الكون) ما هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس، تدور بقدره الله في هذا الفضاء الواسع، وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة، وصغيرة جداً بالنسبة لبعض النجوم، وعرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة!!

وأن الذرة تتحول إلى إشعاع، وكان من وراء ذلك، تفجير (القبلة الذرية) وقد كان الأجدر بالبشر، أن يرجعوا إلى الله، ويؤمنوا به، ويستخدموا هذه المكتشفات الحديثة فيما ينفع الناس، لا في دمار البشرية وإفناء العالم.

لقد أطلعنا الله سبحانه على بعض عجائب هذا الكون، وكلما تقدم الزمن وتطور العلم، ستظهر لنا خوارق وعجائب. مما أخبرنا عنه القرآن الكريم، ويتحقق الوعد الإلهي بظهور معجزة القرآن ﴿سَرِبَتْهُ أَيْ يُتَنَبَّأُ بِالْآلَاءِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ١١

وقد حثم الله الآية بهذا الوعيد الشديد ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت : ٥٣] أي الا يكفيهم برهاناً على صدقك، أن الله تعالى شاهد على كل شيء! لا تخفى عليه خافية؟ والجملة مسوقة لتوبيخهم وتقريرهم، على تكذيبهم لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.



الإبداع البياني في سورة الشورى

١ - قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُبَيِّنَ لَهُ الْقُرْآنَ وَمَنْ حَوَّلَ...﴾ [الشورى: ٧].

في قوله سبحانه: ﴿لِّتُبَيِّنَ لَهُ الْقُرْآنَ﴾ مجاز بالحذف أي لتبذر أهل مكة، لأن الإنذار لا يكون للبلدة (مكة) شرفها الله، إنما يكون لأهلها، سميت (أم القرى) أي أصل البلاد، إجلالاً لها، لأن فيها البيت، وزمزم، ومقام إبراهيم، والعرب تسمي أصل كل شيء أمه، حتى يُقال: هذه القصيدة من أمهات القصائد.

٢ - قوله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الشورى: ٩] الاستفهام إنكاري للتعجيب والتوبيخ.

والمعنى: هل اتَّخَذَ المشركون آلهة من الحجارة والأوثان، يعبدونها من دون الرحمن؟ يطلبون منها الرزق والشفاعة، فالله وحده، هو الولي والناصر، وهو القادر على إحياء الموتى، لا هذه الأوثان، فإنها لا تجلب لهم نفعاً، ولا تدفع عنهم ضرراً.

٣ - قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ. وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

الجميل هنا يُراد به: الذات، أي ليس له تعالى شيء، ولا مثيل، ولا نظير، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، والكاف هنا (كمله) زائدة، لتأكيد النفي من جميع الوجوه، أي ليس مثله، وليس كذاته شيء جلّ وعلا، كما تقول: مثلك لا يفعل هذا، على قصد المبالغة في نفيه عنه.

قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا! أي أنا لا يقال لي هذا، ومعنى الآية: ليس كالله جلّ وعلا شيء.

وقال الشوكاني: المراد بذكر الجبل هنا: المبالغة في النفي، بطريق (الكناية) فإنه إذا نفى الشيء عمن يُناسبه، كان نفيه عنها أولى، كقولهم: بمثلك لا يتخلل، وغيرك لا يجود، والكاف زائدة للتوكيد، أي ليس مثله شيء، قال الشاعر:

عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَإِنْ بَاتَ مِنْ لَيْلَى عَلَى الْيَأْسِ طَوِيًّا
تفسير فتح القدير للشوكاني ٥٠٧/٤.

٤ - قوله سبحانه: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢] المقابليد: المفاتيح، أي بيده جلّ وعلا مفاتيح أرزاق العباد، لا يملكها غيره، يوسع الرزق على من يشاء، ويضيّق على من يشاء، حسب المصلحة والحكمة الإلهية، ففي الآية (استعارة بديعة) بتشبيه الأرزاق بخزائن مفاتيحها بيد الرحمن جلّ وعلا، بطريق (الاستعارة التمثيلية). والبسط: كناية عن التوسعة، والقدر: كناية عن التضييق.

٥ - قوله سبحانه: ﴿مَرَكَاثُ يُبِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَلَ لَهُمْ رَحِيمٌ...﴾ [الشورى: ٢٠] شبه تعالى العمل الصالح، الذي يعمله المؤمن لآخرته، بالزراع الذي يزرع الزرع، ليحني منه الحب والثمر، فمن زرع لدنياء فقط فهو الخاسر، ومن زرع لآخرته فهو الفائز الناجح، وذلك بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي من لطائف أنواع الاستعارة.

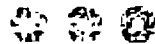
٦ - قوله سبحانه: ﴿رَبِّهِ نَارِيذٍ لِّلْمَوَارِي الْقَتَرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢] (الموار: جمع جارية وهي السفينة، والأعلام: جمع علم، وهو الجبل العظيم، والتشبيه هنا (كالأعلام) تشبيه (مرسل مجمل) أي كالجبال في الضخامة والعظم.

ومعنى الآية: هذه السفن الجارية في البحر، كأنها الجبال الشاهقة، تجري فوق سطح الماء، دون أن تغوص في أعماق البحر، والماء جسم لطيف تغوص فيه الحصاة الصغيرة، فكيف حمل الماء هذه الأجسام الثقيلة، وهذه السفن الضخمة التي هي كالأبراج؟ فيها البشر، والسيارات، وآلاف الأطنان من الحديد، ولم تغص في البحر؟ إنها قدرة الله العجيبة، لو فكّر فيها البشر، لاعتبروا وآمنوا بالله العزيز الحميد.

٧ - قوله سبحانه: ﴿وَحَرِّقَا نَارًا فَلَمَّا فُتِحَتْ أَعْيُنُهُمْ أَفْقَرُوا عَلَى اللَّهِ﴾

[الشورى : ٤٠] سُمِّيت الثانية (سينة) لمشايتها للأولى في الصورة، وهذا من باب (المشاكلة) وهو الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، فإن معاقبة المعتدي لا تسمى سينة إلا من هذا الوجه.

٨ - قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِنشَاءُ﴾ [الشورى : ٥٢] سَمَّى اللَّهُ سبحانه القرآن (روحاً) لأنه للقلوب بمنزلة الروح للأبدان، يُحييها من ظلمات الجهل والضلالة، ففي الآية (استعارة لطيفة) استعار لفظ الروح للقرآن العظيم، بطريق (الاستعارة التصريحية). قال ابن عطية: الروحُ في هذه الآية: القرآن وأنوار الشريعة، سَمَّاهُ اللَّهُ روحاً من حيث يُحيي به البشر، كما يحيي الجسد بالروح، وهذا على جهة التشبيه والتمثيل. اهـ المحرر الوجيز ١٣/١٩٤.



الإبداع البياني في سورة الزخرف

١ - قوله سبحانه: ﴿ أَقْصِرْ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا تُشْرِيقُونَ ﴾ [الزخرف: ٥] في الآية (كناية لطيفة) كُتِبَ (بضرب الذكور) عن الإعراض عنهم، وترك النصيح والتذكير لهم، لأن معنى صفحاً: إعراضاً، يقال: ضرت عنه صفحاً: إذا أعرضت عنه وتركته.

والمعنى: هل تركت تذكيركم إعراضاً عنكم، ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن، لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان؟ لا، لن نترككم بغير نصيح وتذكير، رحمةً منا بكم، وما الطفها من كناية؟! والاستفهام للإنكار والتوبيخ، والصَّفْحُ مصدر صفحت عنه: إذا أعرضت عنه. فتح القدير ٥٢٦/٤.

والغرض من الآية: أن الله عز وجل لا يترك هؤلاء الكفار، على كفرهم وفجورهم وضلالهم، دون أن يبعث إليهم من ينصحهم ويذكرهم، وإن كانوا معرضين عن الإيمان، مسرفين في الكفر والعصيان، لأن لطف الله ورحمته بالعباد، تقتضي التذكير والتبصير، ولو رفع القرآن حين كذبوا الرسول لهلك البشر.

٢ - قوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ﴾ [الزخرف: ١١] شبه الأرض الجرداء، التي لا نبات فيها، بالإنسان الميت الذي لا روح فيه، ثم أحيأها الله بالمطر، واستعار لفظ ﴿ مَيْتًا ﴾ للدلالة على خلوها من النبات والخضرة، بطريق الاستعارة البديعة، وتسمى (الاستعارة التبعية).

٣ - قوله سبحانه: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُ مِنْ عَنَانٍ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ [الزخرف: ١٥] عبر عن الولد بالجزء بطريق (الاستعارة التبعية) لأن الولد بعض أبيه، وجزء منه، فأطلق الجزء على ما نسب إليه المشركون وأهل الكتاب، من الذرية والنسل.

والمعنى: جعل السفهاء المشركون لله جزءاً من عباده، وهو زعمهم أن

الملائكة بنات الله، وقول اليهود: عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ، وقول النصارى: المسيح ابن الله، وهو سبحانه المنزه عن الشبيه والنظير، فكيف يكون له ولد؟ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. ﴿ذُو الْمِيزَانِ﴾؟ [الشورى: ١١] وهو افتراء شنيع على رب العزة والجلال!

٤ - قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ النَّاسَ وَأَمْسَكَ أَعْيُنَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٦] في هذا الاستفهام (إنكار وسخرية) وتهكم مع التعجيب، والمعنى: هل اتخذ الرحمن لنفسه البنات، واختار لكم البنين؟ كأنه يقول: ما أقبح ما تنسبون إلى ربكم!! أما نخجلون أن تجعلوا لله ما تكرهون؟ اليس لكم عقول تحجزكم أن تجعلوا لله الإناث، وأنتم تكرهونهن؟ وتجعلون لأنفسكم البنين الذين تحبونهم؟ فالآية وردت للتشنيع عليهم، والتعجيب من جهلهم بعظمة الله وجلاله، والتنبية على سخافة عقولهم، حيث وصفوا ربهم بما لا يليق به!

٥ - قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَيْنِي﴾ [الزخرف: ٢٨] المراد بالكلمة هنا: كلمة التوحيد، وهي (لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله عز وجل، وتبرؤه من عبادة الأوثان. ففي الآية (مجاز مرسل) أطلق الجزء وهي الكلمة، وأراد الكل وهي كلمة التوحيد الخالص، والبراءة من الشرك، وعبادة الأصنام.

٦ - قوله سبحانه: ﴿لَوْ لَا لَمْ يَكُنْ أَشَاقُّ أُمَّةٍ وَجَدَتْ لَيْسَ بِكَفَرٍ زَكَّرَ بِطُغْيَانِهِمْ نَفْسَهُمْ يَصْطَبِقُ... مَرَجٍ عَلَيْهِمْ جَهَنَّمُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] في الآية الكريمة (مجاز بالحذف) ويسمى (حذف الإيجاز) فقد حُذف (على الكفر) لدلالة السياق على المحذوف.

والمعنى: لولا خشية أن يفتتن الناس، ويصبحوا أمة واحدة (على الكفر والضلال)، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار، فجعلنا لهم القصور العالية، السُفُف، والأبواب، والمصاعد، والسرور، من الذهب والفضة، وهذا النعيم كله ما هو إلا متاع موقت، حقير وتافه، بالنسبة لنعيم الآخرة في جنات الخلد، ولهذا قال بعدها: ﴿وَابْتَغِ الْآخِرَةَ وَلَا تُنْسِ الْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٥].

وفي الحديث الشريف: «لو كانت الدنيا قرناً عند الله جَنَاحَ بَغْوَضَةٍ، ما سَقَى كافيّاً منها جُرْعة ماء» رواه الترمذي.

٧ - قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي سُنْبُلٍ

تُحِبُّ ﴿ [الزخرف : ٤٠] شَبَّهَ تَعَالَى الْكُفَّارَ بِالضُّمِّ الَّذِينَ لَا يَسْمَعُونَ، وَبِالْعُمَى الَّذِينَ لَا يَبْصُرُونَ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّمْثِيلِ لَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ بِالضُّمِّ وَالْعُمَى، بِطَرِيقِ (الاستعارة التمثيلية) وَهِيَ اسْتِعَارَةٌ بَدِيعَةٌ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ وَالْبَيَانِ، فَمَهْمَا يَذَلُّ الْإِنْسَانُ جِهْدَهُ لِإِسْمَاعِ الْأَصْمَى، أَوْ هِدَايَةِ الْأَعْمَى إِلَى الطَّرِيقِ، لَا يَرْجِعُ بِأَيِّ فَائِدَةٍ، لِفَقْدِهِمَا حَاسَةَ السَّمْعِ، وَالبَصَرِ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ، لَيْسَ بِاسْتَطَاعَتِكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْ تُسْمَعَ مِنْ بِهِ صَمٌّ، أَوْ تَهْدَى مِنْ كَانَ أَعْمَى الْقَلْبَ وَالبَصِيرَةَ، وَالآيَةُ فِيهَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ كَانَ يَجْتَهِدُ فِي دَعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَلَا يَزِدَادُونَ إِلَّا تَعَامِيًا عَنِ الْحَقِّ، وَضَلَالًا، وَطُغْيَانًا.

٨ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُرْآنٌ مِّنْ لَّدُنْكَ ذِكْرٌ ۚ وَلَئِنْ كُنَّا إِلَّا لَنَعْلَمَنَّ﴾ [الزخرف : ٨١] هَذَا الْأَسْلُوبُ يُسَمَّى (أَسْلُوبُ الْفَرْضِ وَالتَّقْدِيرِ) وَلَيْسَ عَلَى الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ رَبَّ الْعِزَّةِ وَالجَلالِ، مَنْزَعٌ عَنِ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ.

وَالْمَعْنَى: لَوْ كَانَ لِلَّهِ وَلَدٌ - عَلَى زَعْمِكُمْ وَتَقْدِيرِكُمْ - فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَعْبُدُهُ، لِأَنِّي عَبْدٌ مُطِيعٌ لِأَمْرِهِ، وَلَكِنْ هَذَا مُسْتَحِيلٌ، فَأَنَا لَسْتُ مُعَانِدًا وَلَا مُفْتَرِيًا عَلَى اللَّهِ، فَلَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ، لَكُنْتُ أَوَّلَ الْعَابِدِينَ لَهُ.

وَالْمَقْصُودُ رَفْضُ نَسَبَةِ الْوَلَدِ لِلَّهِ تَعَالَى، بِالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ الدَّامِغَةِ، وَبِالْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ، قَالَ الشُّوْكَانِيُّ: هَذَا الْأَمْرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلٌ يُلْزِمُهُمْ بِهِ الْحُجَّةُ، وَيَقْطَعُ مَا يُوَرِّدُونَهُ مِنَ الشُّبْهَةِ، أَيْ إِنْ كَانَ لِلَّهِ وَلَدٌ - فِي قَوْلِكُمْ وَعَلَى زَعْمِكُمْ - فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، لِأَنَّ مَنْ عَبَدَهُ وَحْدَهُ، دَفَعَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ قُتَيْبَةَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَعْنَى: إِنْ ثَبَّتَ لِلَّهِ وَلَدٌ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَعْبُدُ هَذَا الْوَلَدَ، الَّذِي تَزْعُمُونَ ثُبُوتَهُ، وَلَكِنَّهُ بِمُسْتَحِيلٌ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَفِيهِ نَفْيٌ لِلْوَلَدِ عَلَى أَبْلَغِ وَجْهِ، وَأَتَمُّ عِبَارَةٍ، وَأَحْسَنُ أُسْلُوبٍ، وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنَ النِّظْمِ الْإِلَهِيِّ الْجَلِيلِ. اهـ تَفْسِيرُ الشُّوْكَانِيِّ ٥٤٦/٤.

٩ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا مَرَّ لِلَّهِ الشَّعْرُ أَوْ الْإِزْمِيلُ﴾ [الزخرف : ٨٤] لَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّ هُنَاكَ (إِلَهَيْنِ): إِلَهٌ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَهٌ فِي الْأَرْضِ، إِنَّمَا الْإِلَهُ هُنَا بِمَعْنَى الْمَعْبُودِ بِحَقٍّ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: هُوَ جَلُّ وَعَلَا مَعْبُودٌ فِي السَّمَاءِ، وَمَعْبُودٌ فِي الْأَرْضِ، تَعْبُدُهُ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ، كَمَا يَعْبُدُهُ الْمُؤْمِنُونَ الْأَبْرَارُ فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُ الْإِلَهَ إِلَّا أَنِّي إِلَهُ قَبْلُ مِنِّي﴾ [النحل : ٥١].

الإبداع البياني في سورة الدخان

١ - قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَكُنَّ عَلَيْهِمُ النَّكَاتُ وَالْأَرْحَرُ وَمَا كَانُوا مُطْرِقِينَ﴾ [الدخان: ٢٩] الآية وردت مورد التمثيل، شبه موتهم بإنسان عزيز غالي، فقداه أهله وأصحابه، فبكوا عليه وناحوا، ولكن هؤلاء الأشقياء الفقار، ما تأثر لموتهم أحد، ولا حزن عليهم إنسان، لأنهم فجرة أشقياء، وبكاء السماء والأرض (كناية) عن الحزن والتفجع عليهم، والعرب تقول لموت عزيز، أو شريف: كُشِفَت لموته الشمس، وبكت عليه السماء، يريدون أن المصيبة كانت به فادحة، وفيه تهكم وسخرية بهم وبحالهم، بحيث لم يحزن لفقدهم أحد، لأنهم لا يستحقون البكاء.

٢ - قوله تعالى: ﴿كَالْمُهَيَّيْطِ يَتْلُو السُّورُ﴾ [الدخان: ٤٥، ٤٦] فيه تشبيه يسنى (التشبيه المرسل المفضل) لوجود أداة التشبيه (الكاف) وحذف وجه الشبه، والمعنى: إن هذه الشجرة الخبيثة (شجرة الزقوم) التي تنبت في قعر جهنم، هي في بشاعتها وشناعتها، كالنحاس المذاب إذا انصهر، واشتدت حرارته، يغلي كغليان الماء الشديد الحرارة، وكغليان القدر بالطعام الذي فيه.

٣ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُرُوفًا رَأَيْتُ مِنَ عَذَابِ الْعِيبِ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩] في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُرُوفًا رَأَيْتُ مِنَ عَذَابِ الْعِيبِ﴾ [الدخان: ٤٨، ٤٩] أي ذُق هذا العذاب، فأت عندنا المعزَّر المكرم! وأي عزة وكرامة لمن يلقى هذه الإهانة؟!

نزلت هذه الآيات في (أبي جهل) فقد كان عدو الله، يسخر من كلام الله، ويقول لأصحابه: إن محمداً يعدنا بالزقوم في جهنم، أتدرون ما هو الزقوم؟ ثم يأتي لهم بالزبد والرطب النفيس، ويقول لهم: كلوا فترقموا، فإن هذا هو الزقوم الذي يعدكم به محمد، فأنزل الله هذه الآيات، وأخبر أن شجرة الزقوم هي طعام كل آثم فاجر، وليست كما يقول الشقي الخاسر: الزبد والرطب، ويقال له على سبيل (السخرية والاستهزاء) ذُق هذا العذاب، فأت من المعززين المكرمين عندنا اليوم، وبألها من سخرية لاذعة!!

روى المفسرون عن عكرمة قال: (لقي رسول الله ﷺ أبا جهل، فقال له: إن الله أمرني أن أقول لك: ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ إِذْ أَنْزَلْنَا الذِّكْرَ﴾ [القيامة: ٣٤] فنزع يده من يده وقال: أتوعدني وتهذؤني يا محمد؟ ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعل بي شيئاً، والله إني لأعز أهل الوادي - يعني مكة - فلما كان يوم بدر صرعه الله، وقتله شر قتله، وأنزل الله: ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ﴾ [الدخان: ٤٤] تهكماً وسخرية) اهـ فتح القدير للشوكاني ٥٥٦/٤.

٤ - قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِذَا الْمَوْتُ أَتَى الْأَوَّلَ وَوَقَّتْهُ عَذَابُ الْمُجِيرِ﴾ [الدخان: ٥٦] ليس في الآخرة موت، والاستثناء في الآية منقطع، ومعناه: لا يذوقون في الجنة الموت، لكنهم قد ذاقوا الموت الأولى في الدنيا، فلم يعد ثمة موت، ونجاهم ربهم من عذاب جهنم الأليم.

قال ابن قتيبة: إنما استثنى الموت الأولى، وهي في الدنيا، لأن السعادة حين يموتون، يصيرون بقدرة الله ولطفه إلى أسباب الجنة، يلقون فيها الزوج والريحان، ويرون منازلهم في الجنة، وتفتح لهم أبوابها، فإذا ما توافي الدنيا، انتقلوا فوراً إلى جنات النعيم، فكانهم ماتوا في الجنة. اهـ نقلاً عن فتح القدير ٥٥٥/٤.

وفي الحديث الشريف: «يؤتى يوم القيامة بالموت، على صورة كبش أملح - فيه بياض وسواد - فيذبح على مرأى من أهل الجنة، ومرأى من أهل النار، ثم ينادى: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت» رواه البخاري.

٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَنزِيلُ مِلَإِكَ لَعْنُهُمْ يَنْكَرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨] اللسان هنا: كناية عن اللغة، وهي (كناية لطيفة).

والمعنى: أنزلنا هذا القرآن العظيم، بلغة العرب، وجعلناه سهلاً ميسراً، كي يفهمه قومك، ويتذكروا ويتعظوا بآياته البينات، والكناية في مثل هذا مشهورة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُتَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] أي بلغة قومه، وهي من اللفظ أنواع الكناية.



الإبداع البياني في سورة الجاثية

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ أَلْفٍ مِنْ أَلْفٍ يَرْسِلُ﴾ [الجاثية: ٥] سُمِّيَ تعالى المطر رزقاً، لأنَّ بسببه يحصل الرزق، ففي الآية (مجاز مرسل) علاقته المسيبية، لأنَّ الأرزاق والخيرات لا تنزل من السماء، ولكنَّ ينزل المطر الذي ينشأ عنه النبات، والفواكه، والشمار، وسائر الخيرات، كما قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] أراد بالرزق المطر الذي هو سبب للخيرات.

٢ - قوله تعالى: ﴿فَلْيَبْزُغْ بَآلُ الْأَرْضِ يَغْتَوِيهَا...﴾ [الجاثية: ٥] الموت يُطلق على الإنسان والحيوان، وعلى كل ذي روح على (الحقيقة)، ويُطلق على جذب الأرض ويُسبِّحها على (المجاز).

شبه الأرض حين تكون يابسة، لا نبات فيها ولا زرع، بالميت الذي لا روح فيه، فإذا نزل عليها المطر دبت فيها الحياة، فانتعشت وظهر فيها النبات والشمر، وهذه (استعارة بدعية)، وردت في القرآن بوجود متنوعة، وأساليب عجيبة، كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِي الْأَرْضُ حُشْبَةً يَدْرَأُكَ عَلَيْهَا الْمَاءُ أَفْقَرًا وَزَيْتًا إِذْ أَلْدَى أَحْيَاءُ النَّحْلِ لَمَوْفٍ بِمَعْنَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]

٣ - قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ اللَّهَ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَخْلُقُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٨] التشبيه هنا ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ يسمى (التشبيه المرسل) لوجود أداة التشبيه، أي كأنه لم يسمع آيات الذكر الحكيم، لانطماس نور بصيرته، مع وضوحها وبيانها، وفي البشارة له بالعذاب الأليم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيه سخرية وتهكم به، لأنَّ البشارة تكون بالخير، واستعمالها في الشر للسخرية والاستهزاء.

٤ - قوله تعالى: ﴿فَمَا كُنَّا بِمِلَّةٍ غَلِيٍّ إِلَّا كُنَّا تَشْجَعُ مَا كُنَّا نَقُولُ﴾ [الجاثية: ٢٩] في الآية استعارة بدعية، تسمى (الاستعارة التصريحية) شبه كتاب الأعمال، بشاهد يشهد على الإنسان، ويُذلي بشهادته أمام القاضي، فينطق بما سمعه ورآه منه، بطريق (الاستعارة التصريحية).

الإبداع البياني في سورة الأحقاف

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ الْبَشَرُ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَرَّمَهُ يَدُ وَنَهْدُ شَاهِدٍ قِيَامٍ يُنْزِلُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَلَى رِجْلَيْهِ. فَنَاسٌ وَاسْتَكْبَرُوا...﴾ [الأحقاف: ١٠] في الآية (حذف بالإيجاز) دل السياق عليه

والمعنى: أخبروني يا معشر الكافرين: إن كان هذا القرآن كلام الله حقاً، ولم يكن سحراً، ولا مفترى كما تزعمون، وكذبتكم به وجحدتموه، وقد شهد على صدقه رجلٌ من كبار علماء بني إسرائيل، فأمن به، واستكبرتم عن الإيمان!! كيف تظنون أن الله سيفعل بكم؟ الستم تكونون أفجر الناس، وأشتى الناس؟ حُذف من الآية جواب الشرط كما وضحتنا، بدلالة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠] فبه مجازٌ بالحذف، حُذف منه جواب الشرط، وهو: كيف يكون حالكم؟ وكيف تظنون أن يفعل الله بكم؟ اليس تكونون أخسر الناس؟

أما الشاهد الذي أشارت إليه الآية، فهو (عبدُ الله بن سلام) رئيس أخبار علماء اليهود، أسلم حين هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، بعد أن امتحن النبي ﷺ بثلاثة أسئلة، لا يعلمهن إلا نبيٌ - كما في رواية البخاري - فلما أخبره عنها قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله» وأسلم رضي الله عنه، وكان الرسول ﷺ يقول لأصحابه: «من أحب أن ينظر إلى رجل يمشي على وجه الأرض، من أهل الجنة، فلينظر إلى عبد الله بن سلام»!! انظر صحيح البخاري كتاب التفسير.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا كَانَ خَيْرًا مَّا سَأَلْتُمُونَا إِنَّمَا...﴾ [الأحقاف: ١١] ليس كلام الكفار عن الدين والقرآن، بطريق المواجهة والخطاب للمؤمنين، إنما قالوه فيما بينهم، من أجل إيمان المؤمنين، حكاه القرآن الكريم عنهم، وفي كلامهم إزاء وتحقير للمؤمنين، يقول بعضهم لبعض: لو كان ما جاء به محمد، من الدين الجديد، فيه خيرٌ، ما سبقنا إلى

الدخول فيه، أمثال هؤلاء الفقراء الصعاليك، مثل (عمار، وضهيب، وبلال، وخبّاب) وأمثالهم، انتقاصاً منهم لقدر هؤلاء الفقراء، الذين سارعوا إلى الدخول في الإسلام، ولما لم يهتدوا بالقرآن - مع وضوح إعجازه وبيانه - قالوا عنه: هذا كذب قديم، مأثور عن الناس الأقدمين، أتى به محمد ونسبه إلى الله!! وهذا من فجورهم وطغيانهم، يقولون عن القرآن: إنه أساطير الأولين.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَبَرِّقْ بِهِ كُتُبُ مُوسَىٰ بِأَمْرٍ وَرَحْمَةٍ...﴾ [الأحقاف: ١٢] سُمّي التوراة (إماماً) أي إماماً يُقتدى به في دين الله، بطريق (الاستعارة) كما يفتدي المصلّون بالإمام، تشبيهاً لها بالإمام، لأنها كلام الله، الذي أوحاه إلى موسى عليه السلام ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَبُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] وذلك للرد على المشركين، في زعمهم أن القرآن أساطير الأولين، وأنه إفك قديم، والمعنى: ومن قبل القرآن الذي أنزله الله عليك يا أيها الرسول، أنزلنا التوراة على موسى، قدوة يؤتم بها في شرائع الله، ورحمة لمن آمن بها، واستضاء بضياؤها، فكلاهما من مصدر (الوحي الإلهي) الصادق. ١

٤ - قوله تعالى: ﴿أَمْدَانِ أَنْ تُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي...﴾ [الأحقاف: ١٧] القرون يُراد بها أهلها، أي مضت أجيالٌ وأجيال ماتوا، ولم يُبعث أحدٌ منهم، ولو كان البعث حقاً لعادوا إلى الحياة، ففي الآية (مجازاً) كُتّي عن الخلائق والأجيال بالقرون جمع قرن، وهو مائة سنة، تسمية للشيء باسم من يكون فيه، ويسمى (المجاز المرسل) وعلاقته (المحلية) أي مضت الأمم.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا رِبَاقَتُهُمْ أَجْرٌ وَأَنْتُمْ لَا يُظَاهَرُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩] استعار الدرجات للمراتب الرفيعة التي ينالها المؤمنون الأبرار، وللدرجات التي تكون للأشقياء الفجار.

والمعنى: ولكل فريق من المؤمنين والكفار، مراتبٌ بحسب أعمالهم، فللمتقين جنات النعيم، وللمجرمين درجات الجحيم، وأصلُ الدرجة المرتبة الرفيعة، ونُسْتعمل في الخير كقوله سبحانه: ﴿مَنْ دَرَجَتْ عَنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣] وقوله: ﴿فَأَرْزُقْكَ لَمْ تَدْرِكْهُ النَّارُ﴾ [طه: ٧٥] وهذا هو الغالب، وقد نُستعمل للخير والشر، كما في الآية التي نحن بصددِها، وفي الآية (إضماراً) تقديره: ولكل فريقٍ منهم درجات، أو درجات، حذف الثاني اختصاراً، لدلالة المذكور عليه.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْزِلُ الْيَوْمَ كَفَرًا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ أَذَقْتُمْ سَيْكُرًا وَحَاقَتْهُمُ الْآثَابُ﴾ [الأحقاف: ٢٠] في الآية الكريمة (إيجاز بالحذف) ﴿أَذَقْتُمْ سَيْكُرًا وَحَاقَتْهُمُ الْآثَابُ﴾ تقديره: أي يُقال لهم تقريراً وتوبيخاً: لقد انشغلتم بلذائذ الدنيا وشهواتها الفانية عن آخرتكم، انشغلتم بالمأكل، والمشارب، والمراكب، ونلتهم حظوظكم في الدنيا، ففي هذا اليوم تنالون الذل والهوان، بسبب كفركم وفجوركم، وخروجكم عن طاعة الرحمن.

ففي الآية (إيجاز بالحذف) مع التوبيخ والتفريع، والآية وإن نزلت في الكفار، لكنها تشمل كل من انشغلوا باللذائذ والشهوات عن طاعة الله، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً، وأحسبكم لباساً، ولكني أسبغي طيأتي لحياتي الآخرة.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ قَبْلِهَا قُوَّةٌ وَمَا أَنْفَسُوا فِيهِمْ﴾ [الأحقاف: ٢٦] الآية وردت بأسلوب الإطناب، بتكرار اللفظ لزيادة (التقبيح والتشنيع) عليهم، فقد تكرر ذكر السمع والبصر والفؤاد، ﴿فَمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ قَبْلُ قُوَّةٌ وَمَا أَنْفَسُوا فِيهِمْ﴾ بعد ذكرها في أول الآية، للتشنيع عليهم، ثم هناك إبداع في ذكر (إن) بدل (ما) لثلاث ترادف الحروف، فيثقل النطق بها، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ قَبْلُ قُوَّةٌ وَمَا أَنْفَسُوا فِيهِمْ﴾ (إن) هنا نافية بمعنى (ما).

والمعنى: ولقد مكَّنَّا عَاداً وأقدرناهم على الذي لم نمكِّنكم يا أهل مكة فيه، من القوة، والسَّعة، وطول الأعمار، وقوة الأجسام، بدليل الآية الأخرى، ﴿مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا رَزَقْنَاهُمْ لَكُمْ﴾ [الأنعام: ٦] ولو جاء اللفظ على الأصل، بوضع (ما) لثقل النطق بها، وثبَّت على السمع، حيث تتكرر الميم ثلاث مرات فيصبح وضع الآية مكذاً: ولقد مكَّنَّاهم (فيما ما مكَّنَّاكم فيه)، فما أجمل تناسق الحروف والكلمات، في أسلوب القرآن؟ حتى لا يكون شيء ينبو على الأسماع، في ألفاظه وحروفه البديعة، وهو أبلغ في التعبير، وأظهر في الحث على الاعتبار، وهذا من سحر البيان الذي اختص به القرآن.



الإبداع البياني في سورة محمد

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ لَاحِقَاتٍ مِّنَ الْأَلْجَاءِ فَسُيِّرْتُم بَٰرِئِينَ مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾ [محمد: ٢]
 هذا من باب (ذكر الخاص بعد العام) للثنويه بشأنه، وتفخيم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان به على وجه الخصوص، لأنه أصل في صحة الإيمان، فصار الإيمان بخاتم الأنبياء والمرسلين، كأنه الأصل الأصل لقبول إيمان الإنسان.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ لَاحِقَاتٍ مِّنَ الْأَلْجَاءِ فَسُيِّرْتُم بَٰرِئِينَ مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾ [محمد: ٤]
 الأوزار: الأسلحة والآلات والعتاد، يقال: وضعت الحرب أوزارها أي انقضت وانتهت، وأُستدّ وضعتها إليها، وهي لأهلها (إسناداً مجازياً) بمعنى: حتى يلقي الأعداء أسلحتهم، وتنتهي الحرب بين المسلمين والمشركين، بعزة الإسلام واندحار أهل الكفر، شبه ترك القتال، بوضع الحرب أثقالها، واشتق من الوضع (ثضع) بمعنى تنتهي، بطريق (الاستعارة التبعية).

قال الشوكاني: أسند الوضع إلى الحرب، وهو لأهلها، على طريق المجاز، والمعنى: حتى يضع الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة، أو الصلح، اهـ تفسير الشوكاني ٣٢/٥.

٣ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ يَدْعُواكُم مِّنَ الْبَيْتِ فَسُيِّرْتُم بَٰرِئِينَ مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾ [محمد: ٧]
 في الآية (مجاز مرسل) علاقته الجزئية، أطلق الجزء (الأقدام) وأراد الكل أي يشترك أمام أعدائكم، وعبر بالأقدام لأن الثبات والتزلزل يظهران فيها، وهذا مثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ يَدْعُواكُم مِّنَ الْبَيْتِ فَسُيِّرْتُم بَٰرِئِينَ مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٠] أي بما كسبتم، وهو كناية عن النصر والمعونة في موطن الحرب، كما في فتح القدير للشوكاني ٣٢/٥.

٤ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الَّذِينَ يَدْعُواكُم مِّنَ الْبَيْتِ فَسُيِّرْتُم بَٰرِئِينَ مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَافِرُونَ﴾ [محمد: ٢١]
 هذا المبتدأ حذف خبره، تقديره: طاعة وقول طيب جميل، خير لهم وأفضل وأحسن عند الله، لأن الآية وردت في المنافقين، الذين وصفهم تعالى بالجبن والهلج، وصورهم بصورة الذي أصابته الغشية من

حلول الموت، عندما يسمعون كلمة الجهاد والقتال، وقوله: ﴿لَا تَحْزَمِ الْأَمْرَ﴾ أي جذ الجذ وفرض القتال، فلو أخلصوا النية، وجاهدوا طلباً لمرضاة الله، لكان خيراً لهم من التفاعس والعصيان، تنسب الحزم إلى الأمر، وهو لأهله، ففيه (مجاز عقلي) يدرك بالعقل، مثل قولهم: نهازه صائم، وليله قائم، أي يصوم النهار، ويقوم الليل.

٥ - قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ الْقُرْمَاتِ أَوْ مَنَ قُلُوبِ أَفْقَالِهَآ﴾ [محمد: ٢٤] في الآية (استعارة تصريحية) شبه قلوبهم بالأبواب المقفلة، لا تفتح لوعظ واعظ، ولا لنصح ناصح، وكأنها مكبلة بالأقفال الحديدية، لا يدخل إليها نور، ولا يشرق فيها إيمان، وهذه من لطائف الاستعارات.

قال ابن القيم: ﴿أَوْ مَنَ قُلُوبِ أَفْقَالِهَآ﴾ قال ابن عباس: (يريد على قلوب هؤلاء أقفال) وكان القلب بمنزلة باب مُزْنَج - أي مغلق - ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يُفْتَح القفل لا يمكن فتح الباب، ولا الوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يُرفع الختم والقفل عن القلب، لم يدخل الإيمان ولا نور القرآن. اهـ شفاء العليل ص ٩٥.

قال ابن عطية: في الآية (استعارة) للزُّن - أي الحجاب - الذي منعههم الإيمان، يُروى أن وفدوا من اليمن، وفدوا على النبي ﷺ وفيهم شاب، فقرأ النبي ﷺ هذه الآية، فقال الفتى: عليها أقفالها حتى يفتحها الله ويفرجها!! - وكان عمر جالساً - قال: فعظم في عيني، فلما تولى الخلافة، استعان بذلك الفتى لنباهته. المحرر الوجيز ٤١٠/١٣.

٦ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنْ شَرِّ مَا نَبَّأُوهُمُ الْهُدًى﴾ [محمد: ٢٥] في الآية (كناية لطيفة) كنى عن رجوعهم إلى الكفر، بعد دخولهم في الإيمان، بمن رجع القهقري، مرتداً على أعقابهم، وبذل أن يتقدم أخذ يهرب من المعركة والميدان، نزلت في المنافقين، كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم فارتدوا.

قال الشوكاني: والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق، بحيث لا يدخل في قلوبهم الإيمان، ولا يخرج منها الكفر، لأن الله طبع عليها، قصار الطبع بمنزلة الأقفال للأبواب. فتح القدير ٣٩/٥.

٧ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَلْبِسُوا الدِّينَ لَيْتَ وَتُكْفَرُوا بِهِ وَتَقُولُوا بِؤْسُكُمْ نُحُرِّكُمْ وَلَا

بَنَفَلَكُمْ أَنزَلْنَاهُ ﴿ [محمد: ٣٦] في الآية تشبيه بديع يسمى (التشبيه البليغ) شبه الحياة الدنيا، في بهرجها وزينتها، يلعب الأطفال التي تشغل عقول الصغار، فيقبلون عليها بشوق وشغف، وحذف أداة التشبيه، ووجه التشبه، فأصبح بليغاً، والمعنى: ليست هذه الحياة الدنيا، إلا كاللعب التي يتلهى بها الأطفال، فهي زائلة فانية، لا يخلد فيها أحد، ولا تدوم لإنسان، وهي باطل وغرور، في عدم نفعها ونعيمها، وفي الحديث الشريف: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافراً شربة ماء) رواه الترمذي رقم/٤٧٦/ .



الإبداع البياني في سورة الفتح

١ - قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مَا تُقَدِّمُونَ إِلَيْهِ وَمَا ذَاخِرٌ...﴾ [الفتح: ٢]
 سعى تعالى ما صدر من رسول الله ﷺ عن اجتهاد، كإذنه للمنافقين في التحلف عن الغزو، وأخذه القداء من الأسرى في غزوة بدر، واستغفاره لعمه أبي طالب، وأمثال ذلك، مما هو خلاف الأولى، مما (ذنباً) بالنظر إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار، سيئات المقربين، فالرسول ﷺ لم يخالف أمر الله متعمداً، وإنما اجتهد وكان في اجتهاده نظرٌ، حيث صنع خلاف ما هو الأولى والأحسن، فغفر الله له ذلك، وعفا عنه لأنه كان عن نظر واجتهاد.

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الفتح: ١٠] شبه
 تعالى المعاهدة التي جرت بين الرسول ﷺ وأصحابه في الحديبية، على التضحية بالأنفس في سبيل الله، طلباً لمرضاته، بعقد بيع على صفقة تجارية، فيها أخذ وعطاء، واستعار اسم (المشبه به) للمشبه، واشتق من البيع لفظ (يباعون) بمعنى يعاهدون، على سبيل (الاستعارة التصريحية) وفي هذه البيعة تشریف للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته ﷺ بمنزلة مبايعة الله عز وجل، لأن الرسول سفير مفوض عن الله، وتسمى هذه البيعة (بيعة الرضوان) وإنما سميت المعاهدة مبايعة، تشبيهاً لها (بالمعاوضة المالية) فالصحابة التزموا طاعة النبي ﷺ في قتال المشركين، والنبي ﷺ وعدهم بالشواب، ورضى الرحمن عنهم، فصارت في صورة (بيعة مالية) فيها إيجاب وقبول، حتى قال بعض الأنصار للرسول ﷺ: تكلم يا رسول الله، وخذ لنفسك ولربك ما أحييت!! فقال لهم ﷺ: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم، ونساءكم، وأبناءكم»، فقال ابن راحة رضي الله عنه: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «لكم الجنة»، قالوا: ربح البيع، لا نقيض، ولا نستفيل!! وكان ذلك عند (بيعة العقبة) كما تكررت البيعة في الحديبية في بيعة الرضوان، وفيها نزل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾

[الفتح: ١٨] وكانت بيعة الصحابة، أنهم بايعوه ﷺ على الموت في سبيل الله، كما روي في صحيح البخاري، من رواية سلمة بين الأكوع، وانظر التفسير الواضح المبين ص ١٢٨٩.

٣ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ أَلَمْ يَقُلْ رَبُّكُمْ قَدْ أَنشَأَ لَكُم بَدِيلًا ۚ وَاسْتَعَارُوا الْبَنِيَّانِ وَمَنْ عَلَيْهِمَا أَثْقَالٌ وَاتَّخَذُوا أَبْنَاءَ اللَّهِ عُزُورًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا بَنِيَّانًا وَمَنْ عَلَيْهِمَا أَثْقَالٌ مُّشْرِكِينَ بِرَبِّكُمُ اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ لَعَلَّهُمْ كَانُوا يُبَاعِدُونَ﴾ [الفتح: ١٠] فيها أيضاً استعارة أخرى بديعة، شبه تعالى إطلاعه على مبايعة الصحابة لرسول الله ﷺ، وأخذ الرسول العهد منهم، على السمع والطاعة، والجهاد في سبيل الله، بمليك عظيم، جمع الأمراء والجنود، ووضع يده في أيديهم، مبايعاً لهم وطوى ذكر (المشبه به)، وهم الجنود والأمراء، ورمز لذلك بشيء من لوازمه، وهو (اليد) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ﴾ على طريقة (الاستعارة المكنية)، وهي من لطائف الاستعارات، كأن يد الرسول ﷺ عند المبايعة، يد الله عز وجل تشریفاً لرسول الله ﷺ، قال شيخ المفسرين الطبري رحمه الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ﴾ أي يد الله عز وجل فوق أيديهم وقت المبايعة، لأنهم إنما كانوا يبايعون الله ببيعتهم نيته ﷺ.

٤ - قوله تعالى: ﴿يَرْسُولَ اللَّهِ قَدْ تَلَوْنَا آيَاتِهِ فَاتَّقَ لَعَلَّكُمْ تُفْهَمُونَ﴾ [الفتح: ١٥] في الآية استعارة لطيفة، حيث عبر عن (وعد الله) بأن تكون مغاثم خبير، للذين شهدوا مع رسول الله ﷺ صلح الحديبية، فعبر عن ذلك بالتبديل لكلام الله.

والمعنى: يريد المنافقون الذين تخلفوا عن غزوة الحديبية، أن يغيثوا حكم الله ووعد، بأن تكون غنائم خبير، خاصة بمن كان مع رسول الله ﷺ في الحديبية، دون الذين تخلفوا عنها، فالمراد بكلام الله ما وعده تعالى للمؤمنين، الذين بايعوا رسول الله ﷺ في (صلح الحديبية)، دون أن يشاركهم فيها أحد، فاستعار لفظ (كلام الله) عن الوعد الذي وعده الله للمؤمنين، وكفى عنه بكلام الله أي حكمه ووعد، قال ابن عطية: المراد بكلام الله: يعني وعده لأهل الحديبية بقرينة خبير. المحرر الوجيز ٤٤٧/٥.

٥ - قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ سُبُلَ اللَّهِ أَلَمْ يَقُلْ رَبُّكُمْ قَدْ أَنشَأَ لَكُم بَدِيلًا ۚ وَاسْتَعَارُوا الْبَنِيَّانِ وَمَنْ عَلَيْهِمَا أَثْقَالٌ وَاتَّخَذُوا أَبْنَاءَ اللَّهِ عُزُورًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا بَنِيَّانًا وَمَنْ عَلَيْهِمَا أَثْقَالٌ مُّشْرِكِينَ بِرَبِّكُمُ اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ لَعَلَّهُمْ كَانُوا يُبَاعِدُونَ﴾ [الفتح: ١٨] ورد اللفظ أولاً بصيغة الماضي ﴿اتَّخَذُوا﴾ ثم ورد ثانياً بصيغة المضارع ﴿يَتَّخِذُونَ﴾ لتأخية بلاغية، وهي استحضار الصورة في الذهن، لأن المضارع يفيد الدوام والاستمرار، وكأننا الآن نشاهد الرسول ﷺ وهو يبايع

أصحابه على الجهاد، ومبارزة الأعداء، وقد خلّع ربُّ العزة والجلال عليهم خلعة الرضوان ﴿لَتَذَرِبَنَّهُ أَهْلُ النَّارِ﴾ وحذد المكان الذي بايعوا فيه الرسول، وهي الشجرة ﴿وَنَحْنُ الشَّجَرَةُ﴾ وحضر هذه البيعة روح القدس (جبريل) عليه السلام، وسُطّرت في الكتاب العزيز، بحروف من نور، لتبقى ذكرى خالدة، على مرّ الأزمان والدهور، لأنها كانت بيعةً غالية الثمن، بيعةً على الموت في سبيل الله، فما أكرمها من بيعة!! وما أعظمه من ربح وأجر كبير!!

٦ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا لَكُمُ الدَّيْرَ كَفَرُوا وَلَوْ أَنَّا آتَيْنَاهُمْ نَارَهُمْ لَعَتَدُوا لَهَا﴾ [الفتح: ٢٢] تولية الأديار: (كناية لطيفة) عن الهزيمة من ساحة القتال، لأن المنهزم حينما يفرّ من المعركة، يدير ظهره لعدوه، ليمعن في الهرب، فتولية الأديار: (كناية) عن الانهزام، وذُبر الشيء هو الخلف والظهر الذي يقابل الأمام، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ الدَّيْنَ كَفَرُوا رَحْمَةً لَّا تُؤْخَذُونَ﴾ [الأنفال: ١٥]. أي لا تنهزموا أمامهم، بل اصمدوا واثبتوا في وجوههم ثبوت الرجال الأبطال.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَمَوَ الدِّيْنِ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَلْعِ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] لما كان بطن الإنسان وسط جسده، سُمي بطناً، والمراد ببطن مكة في الآية (الحديبية) التي هي وسط بين مكة، وجدة، فكثي عن الحديبية ببطن مكة، وهي (كناية لطيفة) لقربها من مكة، وقربها من جدة، روي أن ثمانين من جنود المشركين، هبطوا على رسول الله ﷺ من جهة التنعيم، عند صلاة الصبح، حتي وصلوا الحديبية، وهم يريدون الفتك برسول الله ﷺ، فأسروهم المسلمون، وأبى بهم إلى رسول الله ﷺ، فغفا عنهم، وحلّى سبيلهم، ولم يقتلهم، فكان ذلك سبباً للصالح، ولم تقع حرب بين المسلمين والمشركين، وفيهم نزلت الآية الكريمة: ﴿وَمَوَ الدِّيْنِ كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ﴾ رواه مسلم.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ رِسَالَةَ تُوْتَتْ لَآ تَعْلَمُوهُمْ أَلْ تَطَّوْهُمْ قَصِيْبَتَكُمْ فِيْنَهُمْ مَّعْرَةٌ لَّيْنِي يَنْزِلُ إِلَهُ فِي رَحْمَةٍ مِّنْ رَّبَّنَا﴾ [الفتح: ٢٥] جواب الشرط (لولا) محذوف لدلالة الكلام عليه، وتقديره لأذن الله لكم في قتالهم، وفي دخول مكة غنوة عنهم، ولسلطكم عليهم، ودلّ هذا الحذف على شدة غضب الله تعالى على كفار مكة، كأنه قيل: لولا الخشية على وقوع قتلى من المؤمنين، الذين يعيشون في مكة بين أظهر المشركين، لفعل الله بهم، ما لا

يخطر على البال، ولا يحيط بوصفه البيان، ومعنى (المعزة) الإثم والذنب العظيم، والمعنى: لولا أن في مكة رجالاً ونساء، كانوا يُخَفُّونَ إسلامهم، خوفاً من طُغاة مكة، لا تعرفونهم فتقتلونهم، فينالكم إثم وذنب عظيم، لأذن لكم في قتال المشركين، ودل على ذلك قوله سبحانه: ﴿لَوْ شِئْلُوا الْعَسَاكِرَ الَّتِي كَفَرُوا سَهْرَ غَدَاةِ الْيَمِّ﴾ [الفتح: ٢٥] أي لو تميَّز المؤمنون عن المشركين، وانفصلوا عنهم، لعذبنا الكافرين عذاباً أليماً مرجعاً، بتسليطكم عليهم.

٩ - قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سُورَةَ الْفَتْحِ عَلَى رَسُولِهِ. وَقُلِ الْمُؤْمِنَاتُ وَالْمُؤْمِنُونَ كَلِمَةً تَقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦] في الآية كناية لطيفة في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كَلِمَةً تَقْوَى﴾ كنى عن كلمة التوحيد والإخلاص (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بكلمة (التقوى) لأنها أصل الإيمان، وركن الذين الأول، فمن أضاعها فقد انسلخ عن الإيمان بالكلية، ولم يبق له حظ في التقوى.

رُوي أن المسلمين لما مُنِعُوا من دخول مكة، وأداء العمرة، وأراد الرسول ﷺ أن يكتب شروط الصلح، ويرجع إلى المدينة، جاء إليه عمر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله! السنا على الحق، وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، فقال عمر: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال له الرسول ﷺ: «يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً» رواه البخاري. فرضي المسلمون بشروط الصلح طاعة لرسول الله ﷺ، وكان قبيها كل الخير والمصلحة للمسلمين.

١٠ - قوله تعالى: ﴿يَسَامَتُهُمْ فِيْ أَرْبَعَةِ أَسْمَاءٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَ اللَّهُ وَالْعَنَتُ...﴾ [الفتح: ٢٩] السيماء: العلامة، هذا وصف أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، علامتهم التي يُعرفون بها، أن وجوههم تلوح فيها علامات التهجد والسهر، وهي إشراقه الوجه بنور العبادة، وما يظهر عليها من البهاء والوقار، والمراد بالمثل هنا: الوصف، أي هذه صفتهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الركوع والسجود، ثم ضرب لهم مثلاً آخر في الإنجيل فقال سبحانه:

١١ - ﴿وَمَثَلُ الْإِسْحَاقَ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَامَ ظَالِمًا فَنَاجَىٰ إِلَىٰ رَبِّهِ. يُنَجِّبُ الْإِسْحَاقَ لِيُعْطِيَ يَهُودَ الْكُفَّارُ...﴾ [الفتح: ٢٩] في الآية الكريمة تشبيه بديع رائع، يسمى (التشبيه التمثيلي) ضرب لهم مثلاً بزرع مبارك، نما بسرعة في أرض

طيبة، فأخرج (شطاء) أي فراخه وفروعه، واشتد فظهر فيه الحب ﴿فَصَارَ
 مُشْتَبِهاً﴾ فقوي الزرع حتى صار غليظاً، بعدما كان دقيقاً ﴿فَأَشَارُوا بِهِمُ بِ
 وَقْفِ الزَّرْعِ بِنَفْسِهِ، وَاسْتَقَامَ عَلَى أَصُولِهِ، وَنَبْثَ فِيهِ الْحَبِّ وَازْدَهَرَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعجب هذا النبات الفلاحين لقوته وكثرته وحسن نباته، ليفتاز
 بهم أعداء الله الكفار.

مثل تعالى لهم بالزرع ينمو ويقوى، ويشتد بفروعه، حتى يصبح قوياً
 متيناً، واقفاً على ساقه، وقد نضج فيه الحب وازدهر، وهذا مثل ضربه الله عز
 وجل لأصحاب الرسول، كانوا قلة فكثروا، وضعفاء فقواهم الله، حتى عز بهم
 دين الله، وصار الإسلام كالطود الراسخ، وانتشر في آفاق الدنيا، يملأ الأرض
 خيراً وعدلاً، ونوراً وبراً، ولم يزل أمرهم يزداد يوماً فيوماً، حتى دخل الناس
 في دين الله أفواجا، ولما كان وجه التشبيه منتزعا من متعدد، سُمي (التشبيه
 التمثيلي) فالزرع محمد ﷺ، والأفراخ أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين،
 وهو مثل بديع في غاية الحسن والجمال!!

وعمر - رضي الله عنهما، زفعا أصواتهما عند النبي ﷺ، حين قديم عليه رغب بني تميم - أي الوفد - فأشار عمر بالأقرع بن حابس، وأشار أبو بكر برجل آخر، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية، فما كان عمر يسبغ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه أي يطلب منه أن يوضح له مراده، يرفع الصوت. أخرجه البخاري رقم (٤٨٤٥).

٣ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَمُنُونَ أَصْوَاتُهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أَلْوَنُ أَلَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ قُوَّتُهُمْ لِلنَّفَرِ﴾ [الحجرات: ٣] غرض الصوت: خفضه وعدم رفعه عالياً، وأصل الغرض: الانفصال من الطرف، والصوت، والمعنى: هؤلاء الذين يخفصون أصواتهم في مجلس الرسول ﷺ مراعاةً للآداب، وإجلالاً لمقام النبوة، هم الذين أخلص الله قلوبهم لمرضاته، وصفاها من دنس سوء الأخلاق، وجعلها أهلاً ومحلاً لتقوى الله، والإجلال لرسوله، عبر عن شرح قلوبهم بالإيمان، وتخليصها من رجس الشيطان، بقوله: ﴿أَمَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُ لِلنَّفَرِ﴾ بطريق (الاستعارة اللطيفة).

٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْبَحُوا بَرِيًّا أَوْيَكْرًا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] في الآية تشبيه بسمى (التشبيه البليغ) وأصل الكلام: المؤمنون كالأخوة الأشقاء، في وجوب التعاون، والترحام، والتناصر، يقوي بعضهم بعضاً، وينصر بعضهم بعضاً، حذف منه أداة التشبيه، ووجه الشبه، فأصبح بليغاً (المؤمنون إخوة) ومقتضى الأخوة الإيمانية، ردغ الظالم، ونصرة المظلوم.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّكُمْ يَمِينًا يَمِينًا أَلَمْ تَأْكُلْ لَحْمَ أَبِي بَتَّةَ فَكَّرَهُمْ﴾ [الحجرات: ١٢] في الآية تشبيه بليغ، وتمثيل رائع مفزع، ورد بطريق (التشبيه التمثيلي) مثل للفية بصورة قطيعة شنيعة، صورة إنسان تشر قبر شخص ميت، وجلس يأكل من لحمه، واللحم نية، إنه لحم إنسان، وليس لحم شاة أو بقرة، ثم إن هذا الإنسان الذي جلس يأكل لحمه، هو أخ له مسلم، وليس بعدو كافر، ثم هذا اللحم لحم إنسان ميت، ويا له من تمثيل قبيح شنيع، عظيم فظيع، يقطع أعناق المفتابين، فالتمثيل جاء بصور متنوعة، فيها مبالغات عديدة، على أكده وجوه وأشنعته، ينفر منها الطبع السليم.

٦ - قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُكْفَرُونَ بِلَهِ رَبِّكُمْ أَنَّهُ بَدِيعُكُمْ وَآلَهُ يَقْنَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَآلَهُ يَكْفُلُ شَيْءَ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجرات: ١٦].

الاستفهام هنا (استفهام إنكاري) للتوبيخ، أي أتخبرون الله بما في قلوبكم من الإيمان والحب لديه؟ عبّر عن الإخبار بلفظ التعليم، للتنشيع عليهم، مبالغة في التوبيخ، كأنهم في مقام من يُعلم الله بإيمانهم، وهذا منتهى الجهل!! وهؤلاء الأعراب ليسوا منافقين، إنما هم مسلمون، لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، ادّعوا لأنفسهم مقاماً رفيعاً من الإيمان، بقولهم: آمنا، فأذبحهم الله في هذه المقالة، ولو كانوا منافقين لعُتِقُوا وفُضِحُوا، ففي الآية مزيد تجهيل، وتوبيخ لهم، على هذه الجراءة في دعوى الإيمان.



الإبداع البياني في سورة ق

١ - قوله تعالى: ﴿وَالْحَيَاتُ يَوْمَئِذٍ كَالْزُرْحِ﴾ [ق: ١١] شبه تعالى إحياء الموتى وإخراجهم من القبور، بإخراج النبات من الأرض، بعد طول اليبس والجذب، وفيه تشبيه رائع ساطع، يدل على كمال القدرة الإلهية، يُسمى (التشبيه المرسل المفضل) أي كما أحيينا بذلك الماء المبارك (المطر) أرضاً يابسةً مجربةً، فأنبتنا به الكلاً والعُشب، كذلك نخرجكم حياة من قبوركم، بعد موتكم وفنائكم، وهو (تشبيهٌ بديع) ساطع الدلالة.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَ الْإِنْسَانُ أَنَّهُ لَا يُؤْتَى بِهِ غَنَةً وَمَنْ أَوْفَى إِلَيْهِمْ فِي تَوْبِهِ﴾ [ق: ١٦] في الآية الكريمة (استعارة تمثيلية) بديعة، مثل لعلم الله بالإنسان، وما يمرُّ على قلبه، من هواجس وخواطر، وبما تحدّثه به نفسه من وساوس وأفكار، بحل الوريد، القريب من القلب، وهو تمثيل لقرب الله من عبده، حيث لا تخفى عليه خافية من أعماله، ففي الآية (استعارة تمثيلية) واضحة الدلالة، وهذا كقول العرب: هو مَنِّي مُغْفِدُ الإزار، وهو بخاطري كجفن العين، لبيان فرط القرب، والمحَب.

٣ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ لِمَنْ يَشَاءُ خَلْقًا يُضَاعِفُ مِنْ قَوْلِهِ إِلَّا لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [ق: ١٧، ١٨] في الآية الكريمة (إيجازٌ بالحذف) لدلالة الآية عليه، أصله عن اليمين قعيذ، وعن الشمال قعيد، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، أي عن يمين الإنسان مَلَكٌ، وعن شماله كذلك مَلَكٌ، فقد وُكِّلَ بالإنسان مَلَكَانِ، مَلَكٌ عن يمينه، ومَلَكٌ عن شماله، لا يغيبان عنه في سفر ولا حضر، ولا في ليل ولا نهار، يلازماته كما يلازمه ظلُّه، ولا يتلفظ لفظاً، أو يتكلم كلمةً، من خير أو شرٍّ، إلّا والمَلَكُ يُسجِّلُ عليه ما قاله.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْكِتَابُ وَنُفْخُ الْبُوقِ﴾ وصفان للمَلَكِ، أي (رقيب) عليه يكتب عمله، و(عتيد) أي حاضر معه، لا يغيب عنه أبداً.

قال مجاهد: وُكِّلَ الله بالإنسان - مع علمه بأحواله - ملكين، يحفظان

عمله، ويكتبان أثره، إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَرَّجْنَاهُ إِثْرَ بَيْتٍ﴾ تفسير ابن كثير ٣/٣٧٣.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَعَذَابُ شِقَاقِ النَّارِ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ نَجْدٌ﴾ [ق: ١٩] في هذه الآية استعارة لطيفة تسمى (الاستعارة التصريحية) استعار لفظ (السكرة) للشدة والهول، الذي يلقاه المحضر عند وفاته، فسكرة الموت: شدته الذاهبة بالعقل، وقوله: ﴿عَذَابٌ﴾ أي تفر وتهرب منه.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ يَهُودُ مَنْ يَقُولُ الْكُفْرُ كُفْرًا كَبِيرٌ﴾ [ق: ٣٠] هذه الآية واردة على (منهج التمثيل) لتحويل أمر النار، وتفتيح شأنها، ففيها تمثيل لسعة جهنم، وأنها تسع كل مجرم، وكل كافر، بحيث مهما ألقى فيها من الإنس والجن، فإنها لا تضيق عنهم بل تسعهم، وتكون الآية من (باب التمثيل) على حد قول العرب: (قال الحائط للمسمار لم تشقني؟ قال: سل من يدقني؟) وليس للحائط لسان، ولا للمسمار جواب، وإنما هو الإبداع في (التصوير والتمثيل).

ويمكن أن تكون الآية على الحقيقة، فيخلق الله للنار لساناً تنطق به، وتقدر على المراجعة والحوار، لحديث: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟» حتى يضع رب العزة قدمه، فتقول: قط، قط، رواه البخاري. أي خشي، ويكفيني ما خضني به ربي، والله على كل شيء قدير.

يُحكى أن أحد المستشرقين، زار أديب العربية (الرافعي) في مصر، وأراد أن يعرف رأيه في القرآن العظيم، فسأله هل أنت ممن يؤمن بإعجاز القرآن كعامة المسلمين؟ فقال له: إذا أردنا أن نعرف قدر شيء، فعلياً أن نحاكبه في أسلوبه، ثم أعطاه ورقة وقال له: اكتب ما يخطر على بالك، بآق لفظ وأبدعه، معبراً عن جهنم وكبرها، فكتب هذا المستشرق: إن جهنم واسعة جداً، إن جهنم لا وسع مما تظنون، إن جهنم لا يحيط بها خيال إنسان، وأمثال هذه العبارات، ثم قال له: هل جاء القرآن بتعبير أفضل من هذا؟ فضحك أديب العربية، ثم قال له: لقد كنا أطفالاً صغاراً أمام تعبير القرآن، وروعة إبداعه!! فقال: وماذا قال القرآن؟ قال اسمع ﴿وَيَقُولُ يَهُودُ مَنْ يَقُولُ الْكُفْرُ كُفْرًا كَبِيرٌ﴾ بهذا الأسلوب الديدع المعجز، صور القرآن سعة النار وضخامة حجمها، كأنه يقول للبشر: هذه جهنم التي تنتظر زبائنها من الكفرة الفجرة، فأسقط في يد المستشرق، واتضح له سر الإعجاز في الكتاب العزيز

الإبداع البياني في سورة الذاريات

١ - قوله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثٌ شَدِيدٌ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِمْ مَقَالًا ۖ سَلَّمَ قَالُوا سَلَامًا ۖ سَلَّمَ قَالُوا شُكْرًا ۖ ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥] الحديث عن قصة ضيوف إبراهيم عليه السلام، ورد بأسلوب يثير الانتباه، والترغيب لسماع القصة، يسمى أسلوب (التشويق والتفخيم) أي هل بلغك ووصل إلى سمعك، خير ضيوف إبراهيم الأفاضل؟ كما تقول لإنسان: هل تدري ما حدث بالأمس؟ تشوقه لسماع الخبر.

وفي قوله تعالى: ﴿ نَقَالُوا سَلَامًا ۖ سَلَّمَ ۖ ﴾ إيجاز بالحذف أي قالوا له: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليهم السلام، على أكمل الوجوه، فاختصره القرآن بهذا اللفظ، وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوا شُكْرًا ۖ ﴾ لم يقلها إبراهيم عليه السلام مشافهة لهم، إنما قالها في نفسه، لأن خلقه الكريم، لا يسمح له بالجهر بها في وجه مؤانسة الضيوف، وإنما قال في نفسه: هؤلاء قوم غرباء لا نعرفهم، فما الذي قديم بهم؟ ويدل عليه قوله سبحانه في سورة هود: ﴿ قَالُوا لَا نَبِيَّ إِلَّا اللَّهُ نَحْنُ نَحْكُمُ بَيْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَهُمْ لَا يُخْلَعُونَ ۖ ﴾ [هود: ٧٠] وإنما أنكرهم لأنهم دخلوا عليه في صورة شبان حسان، عليهم رونق وجمال فاتق.

٢ - قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّنَا إِلَىٰ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَنُدْعِيهِ رَبَّنَا فَتَوَقَّ ۚ ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩] كنى عن الجنود والجموع (بالركن) لأنه يحصل بهم التقوي، والاعتماد عليهم، كما يعتمد على الأركان في البناء، ويمكن أن تكون من باب (الاستعارة اللطيفة) استعارة لفظ (الركن) للقوة والشدة، كما يطلق على الجيش لفظ (الأركان) فيقال: ثكنة أركان الجيش المصري.

٣ - قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقْنَاهُمْ نَفْسًا وَنُفُوسًا ۖ وَنُفُوسًا ۖ ﴾ [الذاريات: ٤٠] وردت الآية بلفظ اسم الفاعل ﴿ وَنُفُوسًا ۖ ﴾ والمراد اسم المفعول، أي مُلَآم على طغيانه وفجوره، ففيه (مجاز مرسل) من إطلاق اسم الفاعل على اسم المفعول،

والمعنى: أخذنا فرعون مع جنوده وأتباعه وأصحابه، فطرحناهم في البحر لما كذبوا رسولنا موسى، وفرعون أت بما يُلام عليه من الكفر والطغيان.

٤ - قوله تعالى: ﴿رَفِيعَ عَلَاقَةٍ أَتَتْهُمْ الرِّيحُ الْعَقِيمُ﴾ [الذاريات: ٤١] في الآية استعارة لطيفة تسمى (الاستعارة التبعية) شبه تعالى إهلاك قوم عاد، وقطع دابرهم، بالمرأة العقيم التي لا تحمل ولا تلد، ثم أطلق المشبه به على المشبه، واشتق منه لفظ (العقيم) تشبيهاً بغفم النساء. بطريق (الاستعارة التبعية)، والمعنى: أرسلنا على عاد الريح الشديدة المدمرة، التي لا خير فيها، ولا نفع، ولا بركة، وصفت بالعقم لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، فلم يكن فيها خير من إنزال مطر، أو إلقاء شجر.

٥ - قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَنَّةٌ كَالزَّيْتِ﴾ [الذاريات: ٤٢] الزمزم: البالي المتفتت من كل شيء، من عظم، أو نبات، أو جماد، وفي الآية (تشبيه مرسل مجمل) ذكرت أداة التشبيه وهي الكاف، وحذف منها وجه الشبه، والمعنى: ما تترك هذه الريح شيئاً مرث عليه، إلا جعلته كالتراب الناعم، والهشيم البالي المتفتت، في الدمار والضياع.

٦ - قوله تعالى: ﴿رَأْسًا بَيْنَهُ يَأْبَىٰ وَابُنَ آدَمَ وَآلَ نُوحَ ۖ وَالْأَيْمَنُ مَرْثَهَا يُعَمُّ الْمُهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨] الأيد هنا: القوة والقدرة الفائقة، كثر عن القوة بالأيد، وهي (كناية لطيفة).

قال ابن عباس: (بأيد) أي بقوة عظيمة مثلاً، رواه ابن كثير.

تأمل عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق، الكبير المتعال، فيما خلق وأبدع، فإن هذه الأرض التي نعيش على سطحها، ما هي إلا ذرة صغيرة، تسبح في هذا الكون الفسيح، ومع ذلك فيها البحار، والأنهار، والجبال، والوديان، وهي كبيرة وعظيمة بالنسبة للإنسان، ولكنها بالنسبة للنجوم والمجرات، لا تكاد تُذكر، وتمثل وأنت تقرأ هذه الآية: ﴿وَابُنَ آدَمَ وَآلَ نُوحَ ۖ عَظْمَةُ الكون وسعته، وما حواه من غرائب وعجائب، لتسبح الله مع المسبحين، بلسانك وقلبك!!

وفي قوله: ﴿وَالْأَيْمَنُ مَرْثَهَا﴾ تشبيه لها بالفراش الممهّد، لاستقرار الإنسان ونومه عليه، فالله عز وجل جعل الأرض كالفراش والبساط للبشر، فإنها - مع كرويتها - واسعة ممتدة، فيها السهول الفسيحة، والوديان الخصيبة، والطرق

الواسعة، يبني الناس عليها ويسكنون، ويزرعون فيها ويحصدون، وبذلك تمت نعمة الله على البشر، بكنائهم على ظهر هذا الكوكب الأرضي.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا بِعَقْلٍ﴾ [الذاريات: ٥٦] عبر تعالى عن الإيمان بالله، ومعرفة وتوحيده (بالعبادة) ﴿إِلَّا بِعَقْلٍ﴾ لأن معرفة الله وطاعته وتوحيده، أصل جميع العبادات المفروضة على الإنسان، ففي الآية مجازاً، من باب إطلاق (العام وإرادة الخاص).

قال مجاهد: ﴿إِلَّا بِعَقْلٍ﴾ أي ليؤمنوا بي ويؤخذوني، وليعرفوا أنني أنا ربهم، فيطيعوا أمري.

ومعنى الآية: ما خلقت الخلق، إنهم وجئهم، إلا ليعرفوا ربهم، ويؤمنوا به ويؤخذوه، ويقولوا له بالرحمانية والألوهية. تفسير الشوكاني ٩٢/٥.

٨ - قوله تعالى: ﴿أَرِيدُ مِنْهُمْ فِي رِزْقِهِمْ أَنْ يُطِيعُوا﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨] الآية الكريمة بيان لاستغناء الله عز وجل عن الخلق، وأن خلقهم ليس لحاجة الله لهم ولعبادتهم، كما هو شأن السادة مع عبيدهم، يملكونهم ليستعينوا بهم، في تحصيل معاشهم، وتهيئة أرزاقهم، ومعنى الآية: لا أريد منهم أن يرزقوني، أو يرزقوا أنفسهم، بل أنا المتفضل عليهم بالتكفل برزقهم، وبما يعيشهم في هذه الدنيا، ولا أريد منهم أن يطعموني فأنا الغني الحميد!! وفي الآية تعريض بأوثان وأصنام المشركين، حيث كانوا يحضرون لها أنواع المأكول واللذائذ، فربما أكلتها الكلاب، ثم يالت على الأوثان.

٩ - قوله تعالى: ﴿إِنْ لَيْسَ مِنْكُمْ شَيْءٌ فَذُنُوبُكُمْ﴾ [الذاريات: ٥٩] الذنوب: النصيب الوافر من العذاب، سمي ذنباً تشبيهاً له بالدنو العظيم المملوء ماء، وفي الآية تشبيه (مرسل مجمل) ذكرت فيه أداة التشبيه (مثل) فهو مرسل، وحذف منه وجه الشبه فهو مجمل، والمعنى: إن هؤلاء الظالمين نصيباً وافراً من العذاب، مثل نصيب أسلافهم الكفار، في الشدة والغلظة، فلا يتعجلوا عذابي فهو نازل بهم لا محالة.

الإبداع البياني في سورة الطور

١ - للقرآن تأثير عظيم، على من فتح قلبه لهذا النور الإلهي، وأراد الله له الخير والسعادة، فقد روي عن (جبير بن مطعم) أنه قال: (قدمت المدينة المنورة، لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته في صلاة المغرب وهو يقرأ سورة الطور. ﴿وَالْقُرْآنُ مَنظُومٌ • وَرَقٌّ مُشْرِقٌ • وَتِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ...﴾ [الطور: ١ - ٤] فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿إِن مِّنْ أَدْوَانٍ مِّنْ دُونِهِ﴾ [الطور: ٧، ٨] فكأنما صُدِعَ قلبي - أي انشق قلبي من تأثير القرآن - فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، فلما انتهى إلى قوله سبحانه: ﴿إِن مِّنْ خَلْقٍ مِّنْ دُونِهِ يَمُوتُ مِمَّنْ خَلَقْنَا • أَوْ خَلَقْنَا لَشَدِيدَاتِ الْأَرْضِ لَرَأَى لَوِثِمُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦] شعرت أن قلبي كاد يطير) الصفوة ٣/ ٢٧٠.

٢ - قوله تعالى: ﴿يَسْقِيهِم بِهَا الْكَأْسَ لَا تَذَاقُ فِيهَا وَلَا تُبَيِّتُ﴾ [الطور: ٢٣] كثر عن الخمر بالكأس، والمراد يشربون خمرأ يتخاطفون كؤوسها، كما يفعل ذلك الثداسي في الدنيا، لشدة سرورهم، ليس في هذه الخمرة ما يخدش الحياء ويجرح الكرامة، ولهذا قال: ﴿لَا تَذَاقُ فِيهَا وَلَا تُبَيِّتُ﴾.

قال ابن عباس: كل كأس في القرآن، يراد بها الخمر، تفسير ابن كثير.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَيُعَذِّبُنَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ • كَانَتْ لَوْنُهُمْ لَوْنُ مَكْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٤] فيه تشبيه (مرسل مجمل) ذكرت فيه أداة التشبيه فهو مرسل، وحذف منه وجه التشبيه فهو مجمل، أي كأنهم في الحسن، والصفاء، والبهاء، اللؤلؤ المكنون في الضدف.

٤ - قوله تعالى: ﴿إِن مِّنْ نَّجْوَى لِّشَاقِقٍ يُزَيِّنُ لَهُ رِيبَ الشَّكِّ﴾ [الطور: ٣٠] المنون: الموت لأنه يقطع الأعمار، ويفني الخلائق، وفي الآية (استعارة بدیعة)، شبه حوادث الدهر وصروفه بالريب، الذي هو الشك، بجامع التحير وعدم البقاء على حالة واحدة، واستعير لفظ (المنون) وهو الموت، على طريقة (الاستعارة التبعیة) يعنون بذلك أنهم ينتظرون برسول الله ﷺ حوادث الدهر، حتى يموت فيستريحون منه.

٥ - قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلُسُوا دِينَهُمْ قَوْمَ طَاسُوتٍ﴾ [الطور: ٣٢] أحلامهم: عقولهم، وهذا أسلوب (سخرية وتهكم)، أي هل تأمرهم عقولهم الذكية بهذا الزور والبهتان؟ فإن من له عقل وقهم، لا يقول مثل هذا الكذب والبهتان، على سيد ولد عدنان؟!

٦ - قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَائِبٌ﴾ [الطور: ٣٠] وقوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلُسُوا دِينَهُمْ﴾ [الطور: ٣٢] كُزرت (أم) في هذه السورة الكريمة (١٥) خمس عشرة مرة، وهي في جميع المواطن (للاستفهام الإنكاري)، وكلها تحمل طابع الزجر، والتوبيخ، والتقريع، على سفاهاتهم وجهالاتهم، وكأنها سياط لاذعة تلذعهم، أو قذائف نارية تحرقهم، فلا يستطيعون لها رداً ولا جواباً، وما أبدع هذه السخرية والتهكم بالكفرة المشركين!!

٧ - قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِمَا رَزَاكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨] التعبير بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ تعبير غريب عجيب، يشير إلى مقدار رفعة قدر هذا النبي الكريم عند ربه، فيكفيه شرفاً أن يكون ربه هو الذي يرعاه، وأي شرف أسمى من هذا الشرف؟ وهناك يكون أنس الحبيب بالحبيب، والله هو السميع المجيب.

والمعنى: اصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه، فإنك في حفظنا وحمایتنا، بحيث نرقيبك ونرعاك، وجمع العين ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ للمتعظيم والتفخيم، للتنبيه على غاية الرعاية والحماية، والحفظ لرسول الله عليه أفضل الصلاة والتسليم.

قال ابن عطية: المراد بالآية بأعين حفظنا ورعايتنا، كما تقول: فلان يرعاه المليك بعينه، وهذه الآية ينبغي أن يرعاها كل مؤمن في نفسه، فإنها تفسح مضائق الدنيا. المحرر الوجيز ٧٦/١٤.



الإبداع البياني في سورة النجم

١ - قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢] في الآية كناية لطيفة في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ فقد كُتِبَ عن رسول الله ﷺ بقوله: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل: محمد، لينبئهم على سخافة عقولهم، في اتهام الرسول ﷺ بالكذب على الله، ورميهم له - وحاشاه - بالجنون، حين قالوا: ﴿يَتَأْتِيَ آلَهُ الْخُبْرُ عَلَيْهِ الْإِذْكَارُ إِنَّكَ لَصَاحِبُونَ﴾ [الحجر: ٦] كأنه يقول لهم: لقد صاحبكم محمد أربعين سنة، وهو يُشار إليه بالبنان، في صدقه، وأمانته، وكمال عقله، حتى كنتم تسمونه بالصادق الأمين، أفلا تكفي هذه المدة الطويلة، لكي تعرفوا حقيقته، وصدق دعواه؟ كما قال سبحانه في حقه: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ مِنْكُمْ عَشْرَ مِائَاتٍ أَمْ لَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]؟ أي البست لكم عقول تفكرون بها، حول أمر دعوني، فهذا هو السر في ذكر لفظ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾.

٢ - قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۖ ذَرْبُكَ فَتَقَدَّرَ﴾ [النجم: ٥، ٦] أي علم هذا القرآن ملك كريم، ذو قوة عظيمة، شديد قواه، وهو (جبريل) عليه السلام، ومن قوته أنه اقتلع قري قوم لوط، ثم قلبها بهم، وصاح صيحة بشود، فأصبحوا هالكين في ديارهم، ففي الآية كناية لطيفة، كتبت عن (جبريل) بقوله: ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ومعنى ﴿ذَرْبُكَ﴾ أي صاحب خصافة في العقل، ومتانة في الجسم، وذو منظر حسن جميل.

٣ - قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] الضمير في قوله: ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ يعود إلى الله تعالى، أي فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله، ما أوحاه الله إليه في كتابه العزيز، والإيهام في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ للتعظيم والتهويل، ومثله في قوله سبحانه: ﴿فَتَقَدَّرَ مَا عَشَىٰ﴾ [النجم: ٥٤] أي غطأها وغشيها ما غشيها من العجائب والغرائب، مما لا يحيط به الوصف ولا البيان، فالإيهام لتضخيم الأمر وتعظيم شأنه!!

٤ - قوله تعالى: ﴿الْكَوْكَبُ إِذَا تُرِيتَ فِي رَبِّكَ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]

في الآية استفهام توبيخي مع السخرية والتهكم، يقول: عجباً لكم يا معشر قريش! أتجعلون لأنفسكم النوع المحبوب من الأولاد، وهم «الذكور» وتجعلون لله النوع المذموم في نظركم، ومن (الإناث)؟ تلك إذاً قسمة ظالمة جائرة غير عادلة، حيث جعلتم لله ما تكرهونه!!

يقول حجة الأدب العربي (مصطفى الرافعي) رحمه الله: وفي القرآن الكريم لفظة غريبة، هي من أغرب ما فيه، وهي كلمة ﴿بَيِّنٌ﴾ في قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ إِذْ يَنْتَهِى بَيِّنٌ﴾ وما حُسِّنَتْ في كلام قط إلا في موقعها فيه، فإنَّ حُسْنَهَا في نظم الكلام، من أغرب الحُسْن، ومن أعجبه، ولو أدركت اللغة العربية ما ضلَّح لهذا الموضوع غيرها، فإنَّ مفاسل الآيات في هذه السورة على الألف المقصورة، فجاءت الكلمة فاصلةً من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله، مع كراهتهم للبنات ووأدهم لهن، فجاء القرآن ليقول لهن: ﴿الْكُفْرُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى تِلْكَ إِذْ يَنْتَهِى بَيِّنٌ﴾ فكانت غرابة اللفظة، أشدَّ الأشياء ملاءمةً لغرابة هذه القسمة التي أنكرها القرآن، وكانت الجملة كلها كأنها تصوّر في هيئة النطق بها، الإنكار في الأولى، والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصةً في اللفظة الغريبة، التي تمكَّنَتْ في موضعها من الفواصل. (إعجاز القرآن للرافعي . . ص ٢٦١).

هـ - قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَدْعُو وَاعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثًا﴾ [النجم: ٣٣، ٣٤] (أكدى) أي قطع العطاء ومنعه، مأخوذ من الكدية وهي الصخرة التي تمنع الحافز من إتمام الخفر، وفي الآية استغرابٌ وتعجيب من شأن هذا الكاذب الفاجر، رُوي أن (الوليد بن المغيرة) جلس عند النبي ﷺ وسمع وعظّه، فتأثّر قلبه بما سمع، وكاد أن يسلم، فعيرته رجلٌ من المشركين، وقال له: تركت دين آبائك وضللتهم، وزعمت أنهم في النار؟! فقال له الوليد: إني خشيتُ غضبَ الله وعذابه، فضمن له الرجل أن يتحمّل عنه العذاب، إن أعطاه شيئاً من المال، فأعطاه بعض الذي ضمن له، ثم بخل ومنعه الباقي، فارتدَّ الوليد ولم يوفِّ للرجل ما عاهده عليه، فأنزل الله في حقه هذه الآيات.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَدْعُو وَاعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثًا﴾ . . . والمعنى: أخبرني عن حال هذا الشقي الفاجر، الذي أعرض عن الإيمان، وهذى الرحمن، وأعطى لصاحبه -

الذي ضمن له تحمّل العذاب - بعض المال، ثم ضُنَّ وبخل بالباقي! أخبرني كيف يكون حاله؟ هل عنده علم بالغيب حتى يعلم أن صاحبه ينحمل عنه العذاب؟ ففي الآيات سخرية لاذعة، وتهكّم واستهزاء بهذا الشقي الأثيم.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ خَلْقَ الرَّؤُوسِ الذَّكَرِ وَالْأُنثَى • مِن لَّدُنْكَ إِذْ أَتَى • وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخَرَى﴾ [النجم: ٤٥ - ٤٧] تدبّر أسرار الكتاب المعجز، فقد تقدّم في الآيات التعبير بقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ خَلْقَ الرَّؤُوسِ الذَّكَرِ وَالْأُنثَى﴾ بلفظ (أنه) في الكل، ليدلّ على وحدانيته، وعظيم قدرته، ولكن لما كان الكفار ينكرون أشدّ الإنكار، العودة إلى الحياة، بعد الموت والفناء، جاء التعبير بأسلوب معاير، يدلّ على وجوب الإعادة فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخَرَى﴾ كأنه تعالى أوجب على نفسه، إحياء البشر بعد موتهم، فجاء بأسلوب يدلّ على حتمية الإعادة، ولم يقل مثلاً: وأنه ينشئ النشأة الأخرى، وإنما قال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ نُّشْأَةَ الْآخَرَى﴾ فتدبر أسرار الكتاب العزيز!!

ثم انظر إلى القدرة الإلهية الباهرة، فإنه سبحانه خلق البشر من نطفة ثراق من ماء مهين هي (النطفة) هذه النطفة يصبّها الرجل في رحم المرأة، فإذا هي بعد ذلك إنساناً كريماً جسيماً، ذكرٌ أو أنثى، والنطفة واحدة متناسبة الأجزاء، فكيف حدث هذا التنوع في الخلق؟ إنها والله عجيبة المعائب، ومعجزة المعجزات، ولكنّ الناس عنها غافلون!! هل يستطيع أحد أن يتحكّم في نوع الوليد، إلا الله ربّ العزة والجلال؟

٧ - قوله تعالى: ﴿فَمَنَّا مَا غَشِيَ • بِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَسْمَرَى﴾ [النجم: ٥٤، ٥٥] لم يذكر تعالى ما أصاب الأمم الطاغية، من عذاب وبلاء، ولكن جاء بلفظ مبهم (للتهويل والتفظيع)، كأنه يقول: غطاها ونزل بها من قنون العذاب، ما لا يعرف أمره، ولا يدرك هوّله، ففيه من التهويل والتفظيع، ما لا يخطر على بال، ولا يدرك هوّله خيال.



الإبداع البياني في سورة القمر

١ - قوله تعالى: ﴿ أَقْرَبَ النَّاسُ وَأَشَقُّ الْقَمَرِ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ١، ٢] هذه إحدى المعجزات الكونية للرسول ﷺ، أيده الله بها تصديقاً لرسالته، فقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ معجزة جليلة، تدلُّ على صدق نبوته، وخصُّوا بالطلب أن يشقُّ لهم القمر، وأعطوه العهد والميثاق أن يؤمنوا برسالته، ويدخلوا في الإسلام إن أجابهم إلى ما طلبوا.

دعا رسول الله ﷺ ربَّه، فاستجاب الله دعاءه، وانشقَّ القمر فصار فلقين، وكانت الليلة مقمرة ليلة بدر، فجعلوا يعركون أعينهم وينظرون، فيرونه منشقاً إلى نصفين، فقالوا: سحر محمد أعيننا!! فقال لهم أبو جهل: اصبروا حتى يقدم علينا المسافرون، فنسألهم عن ذلك، فإن رأوا ما رأيتم فقد صدق!! وإلا فهو ساحر عظيم الشحرا!! فلما قدم المسافرون سألوهم، فقالوا: رأيناه منشقاً في الليلة الفلانية، وفزعنا من ذلك أشدَّ الفزع، فقال المشركون ومعهم أبو جهل: سحر محمد الناس جميعاً، وهذا سحرٌ بينٌ دائم، فأنزل الله الآيات.

قال ابن الجوزي: إن قوماً شذَّوا فقالوا: لم ينشقَّ القمر، وإنما سينشقُّ يوم القيامة، وهو من علامات الساعة، وهذا القول الشاذُّ، لا يقاوم الإجماع على انشقاقه، لأن قوله تعالى: ﴿ وَأَشَقُّ الْقَمَرِ ۚ ﴾ لفظٌ ماضٍ، وخمَلُهُ على المستقبل يفتقر إلى قرينة، وليس ذلك موجوداً، وفي قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ دلٌّ على أنه قد حدث ذلك فعلاً، وهذا إحدى معجزات الرسول ﷺ. اهـ تفسير زاد المسير ٨٨/٨ لابن الجوزي.

٢ - قوله تعالى: ﴿ فَتَنَّا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا يَوَظُّهُمْ ۖ وَأَوْحَيْنَا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنَّكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ [القمر: ١١، ١٢] في الآية (استعارة تمثيلية) عجبية، من أنواع الاستعارة وأبدعها، شبه تعالى تدفُّق المطر بغزارة من السحاب، بانصباب أنهار متدفقة، انفتحت بها أبواب السماء، وانشقَّ بها أديم الخضراء، وكأنَّ السحب خزائن ضخمة، انفتحت أبوابها من العليا، بالماء الشَّجَّاج الدافق، وكأنَّ

الأرض تفجرت فيها العيون، فالتقى ماء السماء مع ماء الأرض، حتى علا الماء قِمَمَ الجبال، وهذا تمثيلٌ لكثرة الأمطار، وكثرة المياه المتفجرة من الأرض، بطريق (الاستعارة التمثيلية) بطريقة قذرها الله، لإهلاك المكذبين لإغراقهم بالطوفان.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٌ عَلَىٰ أَبْوَابِهَا أُنْجُوتٌ ذُكُرٌ﴾ [القمر: ١٣] الذُّكُر: جمع دَسَار، والمرادُ بها المسامير، وقد كُتِيَ عن السفينة بالأنواح الخشبية التي ترتبط بالمسامير، بقوله: ﴿وَأَبْوَابُهَا أُنْجُوتٌ﴾ أي ذات أخشاب عريضة، ومسامير حديدية لتبقى قوية متماسكة، بطريق (الكتابة اللطيفة) وهي من بدیع أنواع الكناية.

٤ - قوله تعالى: ﴿يَعْمَىٰ الْبَصِيرُ ۚ إِنَّكَ لَآتَىٰ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [القمر: ١٤] في الآية (تشبيه تمثيلي) مثل لحفظ الله ورعايته للسفينة وزكائها، بتمثيل بديع، كمن يلاحظ شخصاً بعينه، ويرعاه ويحفظه من كل مكروه بمقلنيه، بكل عناية ورعاية، وكأنه لا يغيب عن بصره، وهو تمثيلٌ بادي الروعة والجمال، بطريق (التشبيه التمثيلي).

٥ - قوله تعالى: ﴿يُرْجُ الْأُنثَىٰ كَأَنَّهُمْ أَشْجَارٌ تُحْدَقُ نَعْبِرُ﴾ [القمر: ٢٠] في الآية تشبيه رائع، في غاية الإبداع والجمال، يثنى (التشبيه التمثيلي) شبه الريح العاصفة الباردة، شديدة الصوت، وهي تقنلع أجسامهم الضخمة، فترفعها إلى السماء، ثم ترمي بهم، فتدق أعناقهم، ثم تتركها جثثاً هامدة، بأصول النخيل المنقلع من جذوره، وهو تمثيلٌ بديع، وتصوير عجيب، فالريح من قوتها وشذتها، تنتزعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم، فتدق رقابهم، فتبقى أجسامهم بلا رؤوس، وكأنهم أعجاز نخل محطمة مهشمة، مقلوعة من أصولها من الأرض، وهذا معنى (المنقعر) أي المنقلع من جذوره، وبإله من تمثيل وتشبيه مخيف، يأخذ بالقلوب والأنفاس!!

٦ - قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ الْأَكْثَرُ عَلَيْنَا لَئِمًّا ۖ لَئِذَا هُوَ كَذَّابٌ أَثِيرٌ﴾ [القمر: ٢٥] كُتِيَ عن الوحي والرسالة (بالذكر) وهي كناية لطيفة، لأن الوحي الملقى إلى الأنبياء، فيه تذكيرٌ للبشر، منزلٌ من عند الله تعالى.

والمعنى: هل خصي الله صالحاً بالنبوة والرسالة وحده؟ وفيما من هو فوقه في الشرف والذكاء؟ بل هو كذابٌ أثيرٌ، أي بطر متكبر، يريد أن يترفع علينا بهذه الدعوى.

وصف المجرمون نبيهم (صالحاً) عليه السلام بوصفين ذميين، بصيغة المبالغة، وهما ﴿قَاتِلُوا﴾ أي كثير الكذب، ولم يقولوا: كاذب، و﴿أَنذَرُوا﴾ أي بَطَرٌ كثيرُ الغطرسة والكبرياء، لأن صيغة (قَاتِلُوا) و(فَعِلُوا) من صيغ المبالغة، وهذا منتهى الذم والتقييد لنبي الله (صالح) عليه السلام، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

٧ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ فَكَلِمَاتُهُمْ يَنْفَعُ الْكَافِرِينَ﴾ [القمر: ٣١] فيه تشبيه بديع رائع، شبههم تعالى بعد هلاكهم، بورق الشجر وأغصانه المتساقطة، التي يجعل منها الراعي (حظيرةً لغنمه)، ثم تتساقط أجزاؤها وتتلاشى، فتداس بالأقدام، فهو (تشبيه تمثيلي) في غاية الإبداع.

والمراد من الآية: أن الله أهلّكهم بصيحة واحدة فظيعة، صاح بها جبريل فقطعت أنفاسهم، وأخذت أجسادهم، حتى صاروا كالهشيم المتفتت، وكياس الشجر، إذا تهشم وتحطّم.

٨ - قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْتَدَوْا ثُمَّ نَبْدِرْهُمْ فِتْنَتَيْنِ﴾ [القمر: ٤٢] في الآية تشبيه بديع، حذفت منه أداة التشبيه، ووجه التشبيه يُسمى (التشبيه البليغ) أي أخذناهم أخذاً أليماً شديداً، في غاية الهول والشدة، مثل عقاب ملكٍ عظيم منتقم، قادرٍ على البطش بمن عصى أمره.

والمراد أن الله عز وجل، انتقم منهم انتقاماً فظيماً بإغراقهم في البحر، وأخذهم أخذاً شديداً، أخذ إليه عزيز قادر، لا يفلت من عقابه ظالم، يناسب ما كانوا عليه من الجبروت والطغيان.

٩ - قوله تعالى: ﴿لَا تَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وما أمروا إلا لآجدةٍ تخرج بالبصر [القمر: ٤٩، ٥٠] في الآية تمثيلٌ للمقدرة الإلهية، في خلق الأشياء وإيجادها، والمعنى: خلقنا كل شيء بتقدير سابق، بحكمة وتدبير، فلا شيء يحدث صدفة، ولا شيء يدون حكمة، وما شأننا في إيجاد شيء، إلا بكلمة واحدة، نقول له: كُنْ فيكون، لا يحتاج إلى تأكيد ثانية، وهو تمثيلٌ وتصويرٌ لوجود الشيء بلمح البصر، والتشبيه ﴿تَخْرُجُ الْبَصَرُ﴾ يسمى التشبيه (المرسل المجمل) أي كلمح البصر في السرعة والإيجاد، واللمح: النظر بالعجلة والسرعة، قال في الصحاح: لمحه، وألمحه: إذا أبصره بنظرٍ خفيف. اهـ.

الإبداع البياني في سورة الرحمن

١ - قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ • عَلَّمَ الْقُرْآنَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ • عَلَّمَ الْقُرْآنَ •﴾ [الرحمن: ١ - ٤] بدأ تعالى السورة، باسم من أسمائه الحسنی الجليلة ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لينبئه على أن نعمة الخلق، والتطقي، والتعليم، كل هذه النعم من فيوضات آثار اسمه الجليل (الرحمن) فمن رحمته بالعباد: تعليمهم، وهدايتهم، وإنزال القرآن العظيم عليهم. . . وقدم سبحانه تعليم القرآن، على خلق الإنسان، مع أن الإنسان يُخلق أولاً، ثم يبدأ بالتعلم بعد أن يكبر، لينبئه على فضل هذه النعمة الجليلة (نعمة القرآن) التي تفوق في المنزلة نعمة الخلق، ولهذا بدأ بها أولاً فقال: ﴿الرَّحْمَنُ • عَلَّمَ الْقُرْآنَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ •﴾ و(الرحمن) اسم للمذات الإلهية المقدسة، والجميل الثلاث أخبار مترادفة، لم تعطف بالواو لأنها تعيد للنعم، كما تقول: ربك أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثرك بعد قلة، فعا تشكر من إحسانه؟ والمراد بالبيان: النطق، فالإنسان وحده من بين سائر المخلوقات هو الناطق، وبقيّة الأنعام لها أصوات ولكنها لا تنطق، لأنها عجماءات، ولهذا سميت «بهائم» لأنها أبهمت عن النطق والكلام.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ رَعَاهُ وَوَحَّيَ الْقُرْآنَ • الْأَنْعَامَ وَالْمِيزَانَ • أَلْزَمَ الْفِتْرَةَ وَلَا تَحْزَنُوا الْقُرْآنَ •﴾ [الرحمن: ٧ - ٩] ذكر تعالى (الميزان) ثلاث مرات، وفي كل مرة له معنى جديد، فالأول يراد به (العدل) والإنصاف، والثاني يراد به (الآلة) التي يُوزَنُ بها، والثالث يراد به (الموزون) والغرض من ذلك كله، مراعاة العدل في الأحكام، وفي المكيال، والميزان، فهذا ليس من التكرار، وإنما لاستكمال البيان والإيضاح.

٣ - قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْخَرْقَ يُتَبَدَّلُ • يُنْفَخُ الْيَتَابُ •﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] المراد بالبحرين: البحر، والنهر، وهو من باب التغليب، كما يقال: للمشرق والمغرب: المشرقان، وللشمس والقمر: النيران.

والمعنى: أنه سبحانه أرسل البحر، والنهر على سطح الأرض، يتجاوران

ولا يختلطان، بينهما حاجزٌ من اليابسة، حتى لا يطفئ أحدهما على الآخر، ولو طغى البحر المالح على النهر العذب، لأفسد الحياة على سطح الأرض.

ومما يدلُّ على أن المراد بالبحرين: (البحار، والأنهار) قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاقٌ﴾ [فاطر: ١٢] والعذب القرات لا يكون إلا في النهر، تفسير ابن كثير ٢٩١/٤.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْخَازِنَاتُ الثَّلَاثُ وَالْبَحْرُ كَالْعُلَمِ﴾ [الرحمن: ٢٤] في الآية تشبيه بديع، يُسمى (المرسل المجمل) شبه تعالى السفن الضخمة، التي تدير بقوة الله فوق الماء، ولا تغوص فيه بالجبال الشاهقة، والأعلام جمع علم، وهو الجبل الطويل المرتفع، والمعنى: ومن دلائل قدرته ورحمانيته جلّ وعلا، السفن الجارية في البحر. كأنها الجبال الشاهقة، تجري فوق سطح الماء، دون أن تغوص في أعماق البحار، ومن المعلوم أن الماء جسم لطيف شفيف، تغوص فيه الحصة الصغيرة، فكيف حمل هذا الماء هذه البواخر الضخمة، التي هي كالأبراج؟ فيها البئر، والسيارات، وآلاف الأطنان من الحديد والأخشاب ومائر المعدات؟ إنها قدرة الله العجيبة، وهذا الوصف للسفن لا ينطبق إلا على هذه البواخر الضخمة في زماننا، التي تشبه الجبال عظمة وضخامة.

٥ - قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَبَقِيَ وَتَهُ رَيْكَ ذُو الْجَنَّةِ وَالْأَكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] في الآية (مجاز مرسل) من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، أطلق (الوجه) وأراد به (ذات الله) جلّ وعلا.

والمعنى: كل من على وجه الأرض يموت، ويبقى الله جلّ وعلا الحي القيوم، وهذا المجاز مشهور عند العرب يقولون: أرسل الأمير عبونه، يعني أرسل الرجال الذين يأتون له بالأخبار، ولا يمكن أن يقلع العيون ويرسلها لتخبره عن أمور الناس.

قال الحافظ ابن كثير: (عبر بالوجه عن الذات، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ عَالِدٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] أي إلا الله. فهو إخبار بأنه هو الحي الدائم الباقي، الذي تموت الخلائق، ولا يموت)، تفسير ابن كثير ٤١٤/٣.

٦ - قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] أطلق اليوم وأراد به المدة والزمن، ولو كانت قصيرة، يعني في كل لحظة وساعة، هو سبحانه في شأن من شؤون الخلق، يغفر ذنباً، ويُقرج كرباً، ويعزّ

ويذل، ويغني ويقتقر، وفي الآية ردُّ على اليهود المفتريين، حيث قالوا: إن الله لا يقضي شيئاً يوم السبت. لأنه يوم راحة الرب، فكذبهم الله في هذا البهتان، والمعنى: يقتقر إليه ويحتاج له جميع الخلائق، يطلبون منه الرزق، والعمون، والصحة، والأمن، وهو غني عنهم، وفي الحديث: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين» رواه البيهقي والطبراني.

٧ - قوله تعالى: ﴿سَمِعَ لَكُمْ أَنَّهُ اتَّقَلَبَ﴾ [الرحمن: ٣١] الآية وردت بأسلوب مفزع (أسلوب الوعيد والتهديد).

والمعنى: ستتفرغ لحسابكم يا معشر الجن والإنس، قال ابن عباس: ليس بالله تعالى شغل وهو فارغ، وهو وعيد من الله تعالى لعباده.

وقال البخاري: ﴿سَمِعَ لَكُمْ﴾ من حسابكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في اللغة في كلام العرب، يُقال: لا تفرغ لك، وما به شغل. اهـ صحيح البخاري. غير بالفراغ عن (الحساب) بطريق التمثيل، أو هو مستعار من قول المتهدد لصاحبه: سافرغ لك، وقد خاطبهم القرآن بالأسلوب الذي يعرفونه، والثقلان: الإنس والجن لثقلهما على الأرض.

٨ - قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتِي الْغَنَى وَالْأَبْسَ إِذَا اسْتَفْتِمُوهَ أَنْ يُعَذِّبَ مِنْ أَقْطَارِ السَّعِيرِ وَالْأَرْضِ قَاعُذُوا لَا تُعَذِّبُوا إِلَّا بِسُلْطَانِي﴾ [الرحمن: ٣٣] هذا الأمر ﴿قَاعُذُوا﴾ أمرٌ تعجيز، أي يقال لهم يوم القيامة: إن قدرتم أن تخرجوا من ملك الله، هرباً وفراراً من عذابه، فاهربوا وخلصوا أنفسكم من العقاب، لا تقدرُونَ على ذلك، إلا بقوةٍ وقهرٍ وعَلَبَةٍ، وأنتى لكم هذا؟ وأنتم في قبضة الله في أرض المحشر؟ قأين المنجى؟ وأين المهرب؟ قال ابن كثير: هذا في مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلائق، سبعة صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحدٌ على الفرار والذهاب.

٩ - قوله تعالى: ﴿إِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] في الآية ضربٌ من ضروب التشبيه، يسمى التشبيه (المرسل المجمل) لحذف وجه الشبه، ووجود أداة التشبيه، أي صارت وردة حمراء في اللون، كلون الورد الأحمر ﴿كَالدِّهَانِ﴾ أي كدهن الزيت في رفته وسيلانه، من شدة الهول، ورهبة الموقف المخيف.

شبه تعالى السماء بالوردة الحمراء، والأديم الأحمر، وأنها تذوب كذوبان

الدهني وجريانه، فتصبح حمراء من حرارة جهنم، فإذا كانت السماء بهذا الوصف المخيف، فكيف بحال البشر يوم القيامة؟ قال تعالى: ﴿أَشَدُّ النَّارُ نَارَ يُوسُفَ وَإِبْرَ﴾ [الحاقة: ١٦] وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ الْأَشْجَارُ وَأَنْتُمْ فِيهَا كَالْعِزَّةِ كُنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الفرقان: ٢٥].

١٠ - قوله تعالى: ﴿يَهْدِي قَلْبَهُ لِيُظَاهِرَ الْأَقْرَبَ لَهُ يَكْفُلُهَا وَأَنْتَ الْكَافِرُ﴾ [الرحمن: ٥٦] في الآية (كتابة لطيفة)، كثر بقاصرات الطرف عن (الحدود العينية)، والمعنى: في تلك الجنة، نساء عفيفات طاهرات، في غاية الحسن والجمال، من الحور العين، لا تمتد أبصارهن لغير أزواجهن، وهن أبكار عذاري، لم يقربهن ولم يمسهن أحد من الإنس ولا من الجن، قبل أزواجهن، وقوله سبحانه: ﴿كَانَ الْيَاقُوتُ وَالْزَبَدُ﴾ [الرحمن: ٥٨] فيه (تشبيه بديع)، أي كأنهن في الحسن والجمال، في صفاء الياقوت، وبياض المرجان، شبهن تعالى بالياقوت في حمرة الوجنة - يعني الخد - وبالمرجان وهو - صفار الدر - في بياض البشرة وصفائها، وهو تشبيه رائع بديع.

وفي الحديث الشريف: «إن المرأة من نساء أهل الجنة، ليجري بياض ساقها، من وراء سبعين خلة من حرير، حتى يري مخرج ساقها» رواه الترمذي.

١١ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَذَكَّرُوا﴾ [الرحمن: ٧٧] ذكرت هذه الآية (٣١) إحدى وثلاثين مرة في هذه السورة، والحكمة في هذا التكرار: التذكير والتنبية على كثرة نعم الله تعالى على عباده، ليحمدوه ويشكروه عليها، وهذا كما تقول لرجل أحسنت إليه، وهو ينكر الإحسان: ألم تكن فقيراً فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن جاهلاً فعلمتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن غريباً فزوجتك؟ أفتنكر هذا؟ والغرض من كل هذا، التذكير للعباد بعظيم إحسان الله إليهم، ليطيعوه ويعبدوه!!

روى أن النبي ﷺ قرأ على أصحابه سورة الرحمن، من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: ما لي أراكم سكوتاً؟ لقد قرأتها على إخوانكم الجن، فكانوا أحسن منكم رداً، كلما أتيت على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَذَكَّرُوا﴾ إلا قالوا: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب»، فلك الحمد» رواه الترمذي والحاكم.

الإبداع البياني في سورة الواقعة

١ - قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ نَفِثَ يَوْمَئِذٍ بِقَوْمٍ حَاسِمَةٍ ۚ﴾ [الواقعة: ١] - (الواقعة) اسم من أسماء القيامة، سميت (واقعة) لتحقيق وقوعها، وفي قوله: ﴿حَاسِمَةٍ ۚ﴾ مجاز عقلي، لأن القيامة لا تخفض ولا ترفع، إنما الخافض والرافع هو رب العزة والجلال، أي يخفض الله فيها أقواماً إلى أسفل سافلين، ويرفع فيها أقواماً إلى أعلى عليين، فنسبة الخفض إليها (مجاز عقلي) كقول العرب: أثبت الربيع الزرع، والمنبت هو الله تعالى لا الربيع.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَسَبَّ السُّبُّ إِذْ قَالَ اللَّهُ لَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَحْكُمْ لَهُ ۖ وَأَكْثُ الْكَلَامِ كَذِبٌ ۖ﴾ [الواقعة: ٥، ٦] في الآية تشبيه بليغ، خذت أداة التشبيه، ووجه السُّب، فصار (تشبيهاً بليغاً) كقولنا عليّ أسد، ومحمد قمر، أي كالأسد في الشجاعة، وكالقمر في الحسن والجمال، أي قُتئت الجبال وتطايرت، حتى صارت كالغبار المنشور، المتطاير في الجور، في صغرها وتلاشي ذراتها، والهباء: الغبار المتطاير في الفضاء، وذرات الرمل الناعم.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ ۚ﴾ [الواقعة: ٨، ٩] الأسلوب للتفخيم والتعظيم للسعداء (أصحاب اليمين) وللتفضيل والإهانة للأشقياء (أصحاب الشمال) كأنه يقول: أصحاب اليمين في سرور وحبور، في أسعد منزلة، وأحسن حال، وأصحاب المشأمة في أسوأ مكانة، وأقبح حال، وشأن شأن ما بين المنزلتين!

٤ - قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ۚ هُمْ فِي عِلِّيِّينَ ۚ﴾ [الواقعة: ١٥، ١٦] (الموضونة): المنسوجة بالذهب، المشبكة بالذر والياقوت، القويّة اللحمية والسدى، والمعنى: أنهم جالسون على أسرة منسوجة بقضبان الذهب، مرصعة بالذر والياقوت، شأن المتعظيمين المترفين، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وهو وصف لهم بحسن العشرة، ومنتهى الأخلاق والآداب، أي إن أحداً لا يستدبر أحداً، ولا يكون خلفه.

قال ابن كثير: ﴿مُتَقَبِّلِينَ﴾ يعني وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد. ابن كثير ٣٠٧/٤.

٥ - قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّغْلَدُونَ ۖ يَأْكُوبِ وَتَارِيقَ ۚ وَكَأْسٌ مِنْ نَبِيٍّ ۚ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] الولدان: جمع وليد وهو الغلام الذي لم يحتلم بعد، أي يدور عليهم للخدمة، غلمان صغار، في نضارة الضياء، وجمال الصورة، لا يكبرون ولا يهرمون، بأقداح من خمر جارية من العيون، تجري من عيون دافقة في الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْشَرْنَا مِنْ حَرِّ لَدُنِ الشَّارِبِينَ﴾ [محمد: ١٥] كثي عن الخمر بالكأس ﴿وَأَكْثَرُ مِنْ نَبِيٍّ﴾ وهي كناية بديعة لطيفة.

قال ابن عباس: كل كأس في القرآن، إنما يراد بها الخمر، لكنها ليست بخمر تذهب العقول، ولهذا قال: ﴿لَا يَسُدُّونَ فِيهَا وَلَا يَزِيدُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] أي لا يلحقهم بشرابها ضداً في رؤوسهم، ولا يسكرون فتذهب بعقولهم كخمر الدنيا، من أنرف الشارب إذا ذهب عقله.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَعِزُّ عِزِّكَ أَكْثَرُ ۚ أَلْلَؤُكُ الْكَوْنِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣] أي ولهم في الجنة نساء، من الحور الجيلات الفاتنات، الواسعات العيون، كأنهن اللؤلؤ في الصفاء والنقاء ﴿أَلْكَوْنِ﴾ أي المصون الذي لم تمسه الأيدي، ذكر في الآية أداة التشبيه الكاف، وحذف وجه الشبه، فهو تشبيه (مرسل مجمل) وهو من لطيف أنواع التشبيه.

٧ - قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءَ وَلَا نَجْيًا ۚ إِلَّا فِيهَا سَبَّحًا ۚ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] أي لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول، ولا فاحشاً بذيلاً من الكلام، إلا تحية بعضهم بعضاً بالسلام، فحياتهم كلها أنس وسرور، وصفاء وحبور، ولما كان السلام ليس من جنس اللغو، وليس فيه إثم، بل هو محبوب ومشروع، لذا جاء الاستثناء بطريقة بديعة تسمى (تأكيد المدح بما يشبه الذم) وهو من المحسنات البديعية، كقول القائل: لا ذنب لي عندك (لا محبتك، وكقوله سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤] ففيه المدح بصورة الذم، لأن إغناهم ليس بمذموم حتى تقع فيه الثقمة.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَيُظِلُّ فِيهَا تُجُورٌ ۚ لَا مَرِيءَ وَلَا ذَرِيرٌ ۚ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤] الظل: ما يستظل به من الحر، واليحموم: دخان أسود من نار جهنم، شديد

السواد، وتسمية هذا بالظل من باب (التهكم والسخرية) كأنه يقول: ظلهم يوم القيامة، من دخان أسود كثيف، وشرابهم الحميم وهو الماء الحار، الذي بلغ نهاية الحرارة، فما أفضل هذا الظل؟ وما أكرم هذا الشراب؟ إنه ظل حار وضار، ولهذا قال بعده ﴿لَا يَأْوِي وَلَا كَرِيمٌ﴾ أي ليس هذا الظل بارداً يدفع الحر، ولا كريماً نافعاً يقي صاحبه من أذى الحر الشديد، وهو (تهكم) صريح بالكفرة الفجرة، أصحاب السعير.

٩ - قوله تعالى: ﴿هَذَا رُؤُوسُ الَّذِينَ﴾ [الواقعة: ٥٦] (الثرل): أول ما يُهين للضيف وقت قدومه، من الشحف والكرامة، وتسمية الرُّؤُوس والحميم (ضيافة) ونزلاً، تهكم شديد، وسخرية لأذعة، تليق بالمكذبين بآيات الله، فإن الثرل للكرامة، وهذا العذاب للإهانة والتحقير، وقوله تعالى: ﴿غُرَّتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ [الواقعة: ٥٥] أي شاربون من الماء الحار، شرب الإبل العطاش التي لا تروى.

١٠ - قوله تعالى: ﴿فَلَا أَمْسَ بِمَزِفٍ أَلْحُومِهِ وَإِنَّ لَقَسًا لَّو تَقْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] ظاهر اللفظ نفى للقسم، وحقيقته قسم، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَقَسًا لَّو تَقْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ زيدت (لا) مبالغة في التأكيد، كأنه يقول: أقسم لكم قسماً مؤكداً بأبلغ وجوه التأكيد، إن هذا القرآن العظيم، كلام رب العزة والجلال، ليس بسحر ولا كهانة، وجيء بين القسم، والمقسم عليه هذه الجملة الاعتراضية ﴿وَإِنَّ لَقَسًا لَّو تَقْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ فهي اعتراض قصد به المبالغة، والأصل في الآية: فلا أقسم بمواقع النجوم، إنه لقرآن كريم، وجيء (بالجملة الاعتراضية) للتنبيه على عظمة القسم، وفخامة شأن المقسم عليه، وهو القرآن العظيم.

١١ - هذه السورة الكريمة من السور المكية، وقد تحدثت عن أحوال وشذائد القيامة، وقسمت المشر إلى ثلاث طوائف (أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والمقربون) وفي قراءتها فضل عظيم، وأجر جزيل.

روى الحافظ ابن كثير أن (عبد الله بن مسعود) لما مرض، زاره الخليفة الراشد (عثمان بن عفان) رضي الله عنه، فسأله: ماذا تشتهي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا أمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني - يعني رب العالمين - قال: ألا أمر لك

بمطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك!! قال:
 أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرتُ بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة
 - وكان له خمسُ بنات - وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ
 سورة الواقعة كل ليلة، لم تُصِبْ فاقة أبداً» رواه ابن عساكر، تفسير ابن
 كثير ٤/ ٣٠٨.



الإبداع البياني في سورة الحديد

١ - قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمَاتٍ إِلَى نُورٍ﴾ [الحديد: ٤] في الآية تمثيلٌ لإحاطة علمه تعالى بهم، أينما داروا وحيشما ساروا، والمراد بالمعينة هنا ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾ معية العلم، لا معية الذات، كما نبه على ذلك الحافظ ابن كثير، وحكى الإجماع على ذلك، وفي الحديث الشريف: «أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت» رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية.

٢ - قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦] الإيلاج: إدخال الشيء في الشيء، عبّر عن إطالة النهار في الصيف وتقصير الليل، وإطالة الليل في الشتاء وقصر الليل (بالإيلاج) لأن كلا منهما يدخل في الآخر فيُنْقَضُ منه، فكان الليل يأكل من النهار، والنهار يأكل من الليل، وفيه من المحسنات البديعية ما يسمى بـ (ردّ العجز على الصدر، وردّ الصدر على العجز) وهو معروف عند علماء البيان، وهو من الإبداع بمكان.

٣ - قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ الصُّلُوبَ لِمَنْ يُنَاصِرُ وَيَضَعُهَا لِمَنْ يَكْفُرُ﴾ [الحديد: ٩] في الآية استعارة بديعة، استعار لفظ (الظلمات) للكفر والضلal، واستعار لفظ (النور) للإيمان والهداية، ففي الآية (استعارة نصريّة).

٤ - قوله تعالى: ﴿كَذَٰبُوا بِسُورٍ يَكْفُرُونَ مِنْ قَبْلِ السَّجَّةِ وَقَدْ نَلِئُوا فِيهَا كَذِبًا﴾ [الحديد: ١٠] في الآية (حذف بالإيجاز) حذف منه جملة: ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، وذلك لدلالة الكلام عليه، والمراد بالفتح: (فتح مكة) لأن بفتحها عز الإسلام، وكثر أتباعه وأنصاره.

٥ - قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَرْفَعُ أُولَٰئِكَ فَتَنًا فَيُضِلُّهُمْ لَوْ لَهُ كُرْبِيرٌ﴾ [الحديد: ١١] في الآية (استعارة تمثيلية) لطيفة، مثل لمن ينفق ماله ابتغاء وجه الله، مخلصاً في إتفاقه، يتغنى بذلك وضوان الله، بمن يقرض ربه قرضاً واجب الوفاء، فيعطيه الله أجره أضغافاً مضاعفة، ويكرمه بدخول جنات النعيم، وذلك بطريق (الاستعارة التمثيلية) وهي من اللفظ أنواع الاستعارة.

٦ - قوله تعالى: ﴿مَّا مَوْزَنُكُمْ إِلَّا بِنَازِئِكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الحديد: ١٥]
 المأوى: المسكن والمنزل، والمولى: المعين والناصر، والأسلوب هنا (أسلوب
 سخرية وتهكم).

والمعنى: مسكنكم ومصيركم نار جهنم، لا منزل لكم سواها ﴿وَمَنْ
 مَّوَزَنُكُمْ﴾ أي هي عونكم وسندكم، وهي تتولى الدفاع عنكم، لا معين لكم
 غيرها!! وهو تهكم لاذع بالمجرمين المنافقين.

٧ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا
 يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦] ﴿يَا أَيُّهَا
 بِمَعْنَى يَجُنُّ يُقَالُ: أَتَى يَأْنِي مِثْلُ زَمَنِي يَرْمِي، بمعنى حان، والآية عتاب لطيف
 لأصحاب النبي ﷺ، فإنهم حين قدموا المدينة، أصابوا من لين العيش
 ورقاهيته، ففتروا عن بعض ما كانوا يقومون به، من الطاعات والتواقل، فنزلت
 الآية الكريمة. قال ابن مسعود: (ما كان بين إسلامنا، وبين أن عاثبنا الله بهذه
 الآية، إلا أربع سنوات). رواه مسلم.

ومعنى الآية: أما حان للمؤمنين أن ترق قلوبهم وتلين لمواعظ الله؟ ولا
 يكونوا مثل (اليهود والنصارى) الذين طال عليهم الزمن، فنبذوا كتاب الله وراء
 ظهورهم، وحرّفوه وبذلّوه، فأصبحت قلوبهم قاسية مثل الحجارة، لا ترق
 لتصبح ولا موعظة، وأكثرهم فاسقون خارجون عن طاعة الله.

٨ - قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بِقُدْرَتِهِ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ
 تَعْقِلًا﴾ [الحديد: ١٧] الآية وردت (مورد التمثيل) وهي تمثيل لتليين القلوب
 بعد قسوتها، ولتأثير ذكر الله فيها، بالأرض القاحلة المجربة، تعود طيبة مخصبة
 بالسطر، فكما تحيا الأرض بالغيث الممدار، كذلك تحيا القلوب القاسية
 بالحكمة ونور القرآن، ففيها تشبيه القلوب الميتة، بالأرض المجربة، تحيا
 بالمعلم والحكمة.

٩ - قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الدُّنْيَا لُغْلُوبٌ وَمَنْ يُرِيسْهُ فَقَدْ خَسِرَ بِسَخَرِ يَوْمِهِمْ تَكَادَتْ فِي
 الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ كَثِيلٌ يَتِيٌّ أَجْمَعُ الْكُفَّارِ بَيِّنَةٌ...﴾ [الحديد: ٢٠] في الآية تشبيه
 عجيب بديع يُسمى (التشبيه التمثيلي) لأن وجه التشبيه منتزَع من أوصاف
 متعددة. شبه الدنيا في بهجتها ونضرتها، بمثل مطر غزير، أصاب أرضاً
 فأخرجت أنواع النبات الزاهي الخضراء، تعجّب من حسنة الزرع لحسنه وبهائه،

ثم لا يلبث هذا الزرع أن يصبح هنيئاً يابساً، بعدما كان خضيراً نضراً، هكذا مثل الحياة الدنيا متاعاً زائلاً، لا يلبث أن يقضى ويزول، كالقناة الشابة تكتهل، ثم تصبح عجوزاً شوهاء، ولا يفتقر بهذه الدنيا إلا الغافل الجاهل.

١٠ - قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَعْقَرَةٍ مِنْ ذِكْرِكُمْ وَحَيْثُ عَرَبَهَا كَعَرْبِ الْمَنَاءِ وَالْأَنْزِيرِ﴾ [الحديد: ٢١] في الآية تشبيه يديع يسمى التشبيه (المرسل المجمل) لوجود أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه، أي جنة واسعة فيحة.

والتمثيل هنا للتقريب إلى الأذهان، وإلا فالجنة أعظم وأكبر مما يتصوره الحيال، ولهذا لم يقل: عرضها السموات والأرض، وإنما قال: ﴿كَعَرْبِ الْمَنَاءِ وَالْأَنْزِيرِ﴾ على وجه التشبيه والتمثيل، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إن أقل أهل الجنة منزلة يوم القيامة، من له قدر الدنيا وعشرة أمثالها» رواه مسلم.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا﴾ أي سارعوا إلى نيل الخيرات، مسارعة المتسابقين في الميدان، كأن المؤمنين في ميدان سباق، يتسابق فيه الفرسان.

١١ - قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...﴾ [الحديد: ٢٣] ﴿تَأْسَوْا﴾ تحزنوا. والمعنى: أحبرناكم أن كل ما يجري عليكم من مصائب الدنيا، بتقدير من الله تعالى، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا.

وليس المراد بالتهني عن الحزن والفرح، اللذين لا ينفك عنهما الإنسان، فإنه ليس من أحد إلا وهو (يحزن) و(يفرح) ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمة شكرًا، وإنما المراد الحزن المخرج لصاحبه عن الصبر، والتسليم لقضاء الله، والفرح الملهي عن الشكر، فتدبر هذا والله يردك!

١٢ - قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَةً رَضَوْا اللَّهُ﴾ [الحديد: ٢٧] قوله تعالى: ﴿إِلَّا آيَةً رَضَوْا اللَّهُ﴾ الاستثناء منقطع أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تعالى، ومع أنهم اخترعوها من تلقاء أنفسهم، لكنهم لم يراعوها ولم يحافظوا عليها، تظاهروا بالعبادة والدين، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وعاثروا في الأرض فساداً، وأصل الرهبانية: المبالغة في العبادة، ورفض النساء، وترك شهوات الدنيا، واتخاذ الصوامع في قُلل الجبال.

قال ابن كثير: هذا ذم لهم من وجهين:

أحدهما: الابتداء في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: عدم قيامهم بما التزموه، وزعموا أنه قرية لله!!

١٣ - قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَأَعْلَمُونَ نَحْنُ نَعْلَمُ نَفْسَهُمْ مِمَّنْ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ

[الحديد: ٢٩] ظاهر قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَأَعْلَمُونَ﴾ النفى، ومعناه الإثبات أي لعلم أهل الكتاب، و(لا) مزيدة للتأكيد.

والمعنى: إننا بالغنا في هذا البيان عن أهل الكتاب، ليعلموا أنهم لا يقدرون على حصر النبوة فيهم، ولا يملكون منع فضل الله عن أحد من عباده، فالآية الكريمة ردٌ على اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: الرسالة والوحي في (بنى إسرائيل) لا تخرج عنهم، فردُّ الله عليهم ذلك الافتراء الكاذب، وبين أن فضله ليس محصوراً في طائفة، وليس بيد أحد، وإنما أمر النبوة والرسالة بيد الرحمن، يجعلها فيمن يشاء من عباده، كما قال سبحانه: ﴿أَنَّهُ أَعْلَمُ خَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].



الإبداع البياني في سورة المجادلة

١ - قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكَلِمَةَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] في الآية (عطف الخاص على العام) رفعاً لقدره، وتنبيهاً على شرفه، فقد دخل أولو العلم في جملة المؤمنين أولاً، ثم خُصوا بالذكر ثانياً، للدلالة على علو شأنهم، وسمو مكانتهم عند الله تعالى، وكفى بهذا فخراً لأهل العلم.

٢ - قوله تعالى: ﴿إِذَا سَأَلَكَ الرَّسُولُ تَقَدُّمًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْ جُنتِكَ صَدَقَةٌ﴾ [المجادلة: ١٢] في الآية (استعارة تمثيلية) شبه تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ، بتقدم الجنود أمام الملك، أو أمام قائد الجيش، تعظيماً وتفضيلاً له، كعادة السلاطين والعظماء، يتقدمهم الوزراء وقادة الجيوش.

والمعنى: إذا أردتم التحدث مع الرسول سراً، في بعض شؤونكم المهمة، فتصدقوا قبلها على الفقراء والمساكين، والآية نزلت حين أكثر الناس السؤال على رسول الله ﷺ حتى شغلوا وقته وأسأموه، فأمرهم الله بدفع شيء من المال، صدقة على الفقراء قبل مناجاته، ليشعرهم بمكانة الرسول، وبقيمة وقته الثمين، ثم نسخ الله هذا الحكم تخفيفاً عليهم.

٣ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا إِنَّهُمْ آمَنُوا فَأَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ الطَّاغُوتَ فَأَتَوْا بِهَا الْمَالَ وَأَكَلُوا بِهِم مِمَّا كَانُوا بِهِنَّ يَاسِينَ﴾ [المجادلة: ١٤] الأسلوب في الآية، أسلوب استغراب وتعجب من حال المنافقين، يقول: ألا تعجب من هؤلاء المنافقين، الذين يزعمون الإيمان، ثم يتخذون اليهود أولياء، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين، ويحبونهم ويؤدونهم، وهؤلاء ليسوا من المسلمين، ولا من اليهود، إنما هم أناس منافقون مذبذبون، يحلفون الإيمان المغلظة، وهم كفرة فجرة، ألا تعجب لحالهم، وجراتهم على الإقدام على الحلف بالله كاذبين؟

٤ - قوله تعالى: ﴿أَشْحَبَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنزَلْنَا إِلَهُكَ مِنَ الشَّجَرِ﴾ [المجادلة: ١٥] الاستحواذ: الإحاطة بالشئ. من كل جانب، أي استولى الشيطان عليهم وعلى قلوبهم ومشاعرهم، حتى نوا ربيهم، فلم يذكرهم بقلوبهم ولا

بألسنتهم، تشبيهاً بإحاطة جيش الأعداء بكتائب المقاتلين، حتى لم يعد لهم نجاة ولا مخلص، وهذا إبداع في التعبير، يشير إلى تملك الشيطان لهم، من كل جهة ومن كل جانب، حتى كأنهم أصبحوا في قبضته، ورهن إشارته !

٥ - قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] جاء الأسلوب بصيغة النفي ﴿لَا تَجِدُ﴾ ولم يرد بأسلوب النهي، مبالغة في التذكير، والتحذير من محبة أعداء الله، كأنه يقول: هذا لا يحدث ولا يتصور أن يحب مؤمن من عادي الله ورسوله، فلا يمكن أن يجتمع في قلب واحد، حب الله وحب أعدائه، كما لا يمكن أن يجتمع النور مع الظلام، ومجئته بطريق الإخبار، أبلغ من مجئته بطريق النهي.

نزلت هذه الآية في (أبي عبيدة) قتل أباه الجراح في غزوة بدر، وفي (مُضْعَب بن عُمير) قتل أخاه (عُبَيْد بن عمير) في غزوة أحد، وفي (أبي بكر الصديق) هم أن يقتل ابنه عبد الرحمن، ولكنه هرب منه، وفي (عمر بن الخطاب) قتل خاله يوم بدر، وفي أمثالهم من المؤمنين الصادقين.

وروى السيوطي في الدر المنثور، أن (عبد الله) بن عبد الله بن سلول، جلس ذات يوم إلى جانب الرسول ﷺ، فشرب رسول الله الماء، فقال له (عبد الله) رضي الله عنه - وكان من خيرة شباب المسلمين - يا رسول الله: أتبني فضلة من شرابك!! قال: فما تصنع بها؟ قال: أسقيها أبي لعل الله يطهر قلبه! فتعلل ﷺ، فأتى أباه بها، فقال: ما هذا؟ قال: هذا فضلة من شراب رسول الله ﷺ جئتك بها لشربها لعل الله يطهر قلبك!! فقال له أبوه: هلا جئتني بيول أمك؟ فغضب ابنه ورجع إلى النبي ﷺ يستأذنه في قتل أبيه، فقال له ﷺ: بل ترفق به وتحسن إليه) الدر المنثور للسيوطي، وهكذا شأن الإيمان، لا يمكن أن يهادن الكفر، أو يلتقي معه على حال من الأحوال.

٦ - قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَتَدَّبَهُمْ رُوحُ قُدُّسٍ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي ثبت ومكن في قلوبهم الإيمان، حتى صار كالجبل الراسخ، لا يتزلزل ولا يتزعزع، عبّر عن التمكين والشبات بالكتابة. ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ بطريق (الاستعارة التصريحية) كأن الإيمان كتابة كتبت على قلوبهم فلا تمحى، نسأله تعالى أن يفرس في قلوبنا محبة الذين والإيمان.

الإبداع البياني في سورة الحشر

١ - قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ [الحشر: ٢] في الآية (كتابة لطيفة) كُتِبَ عن أول مرة طرد اليهود فيها من المدينة المنورة (بالحشر) لأنهم أخرجوا من مساكنهم، لأول مرة من الجزيرة العربية، شبه إخراجهم بيوم الحشر الأكبر، لأن معنى الحشر: الجسغ، فقد جُيعوا ثم أخرجوا بذلك الذل والهوان، وطهر الله البلاد من رجسهم وفجورهم، فكان لهم ذلك جلاء عاماً.

٢ - قوله تعالى: ﴿ تَأْتِيهِمْ أَفْئِدَةٌ تَحَنُّنًا وَلَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ ارْغَافٌ ﴾ [الحشر: ٢] الآية على (حذف مضاف) أي أناهم عذاب الله، من حيث لم يكن في حسابهم، ولم يخطر على بالهم، عبر عن مجيء العذاب، بإتيان الله بطريق (المجاز المرسل)، كقوله سبحانه ﴿ وَسَيَلَى الْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهل القرية.

٣ - قوله تعالى: ﴿ كُنْ لَا يَكُونُ دُولًا بَيْنَ الْأَخْيَارِ بِكُمْ... ﴾ [الحشر: ٧] (الدولة) بمعنى التداول، أي لكيلا يستأثر الأغنياء بهذا المال دون الفقراء، مع شدة حاجة الفقراء إلى المال، وهذه قاعدة أساسية عظمى من قواعد (النظام الاقتصادي المالي) في الإسلام، يحفظ التوازن بين أفراد المجتمع، ولهذا جاءت فريضة الزكاة سنوية، بنسبة واحد في الأربعين، من جميع ما يملك المسلم من أموال نقدية، أو عروض تجارية، فالذي يملك أربعين ألف درهم، عليه كل عام ألف درهم، والذي يملك أربعين مليوناً، فعليه كل عام مليون، وبذلك فشت الإسلام الثروة، فجعلها بين أيدي عامة الأمة، ولم يجعلها في أيدي فئة محتكرة، نعتصم دماء العاملين، ولو طبقت الزكاة على وجهها الكامل، فلن يبقى فقير من المسلمين على وجه الأرض، يشكو ألم الجوع والحرمان.

٤ - قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَوَلَّوْا الذَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ حَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الحشر: ٩] في الآية (استعارة لطيفة) شبه تعالى الإيمان المتمكن في قلوبهم، بمنزلة كريم نزل فيه القوم، وتمكنوا من الاستقرار فيه، حتى صار لهم مستقراً

ومكاناً، فالإيمان بالله عقيدة ترسخ في القلب، لا يمكن أن يسكن فيها الإنسان، ولكنها جاءت بطريق (الاستعارة البديعة) في أجمل صور التعبير عن الاستقرار، تشبيهاً لها بالمنزل والمسكن.

٥ - قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اصْكُرْ فَقَالَ تَكْفُرُونَ بربِّي فَوَدَّ بَيْنَكَ﴾ [الحشر: ١٦] في الآية تشبيه رائع بديع يسمى (التشبيه التمثيلي) لأن وجه الشبه منتزِع من متعدد، أي مثل المنافقين مع اليهود، كمثل الشيطان مع الإنسان، يُغريه بالكفر، ثم يتنكر له وينخلّي عنه، حتى يوقعه في الهلاك.

ومن غرائب الأخبار (أن راهباً كان يتعبد ربّه في صومعة، وكانت فتاة ترعى الغنم، فاشتكت ذات يوم، فمرّت بصومعة الراهب، فجلست عنده تطلب منه الدعاء، فأعجبه حسنّها، فأغلق عليها الباب وفجّر بها فحملت منه، ولما خشي الفضيحة، وسوس إليه الشيطان أن اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجلٌ مصدّق يُسمع قولك، فقتلها ثم دفنها، وكان لها إخوة، فأتى الشيطان أحدهم في المنام، وقال له: إنّ الراهب صاحب الصومعة، فُجر بأختكم فلما حبّلت منه، قتلها ودفنها في مكان كذا وكذا، فلما استيقظوا أخبرهم أخوهم بما رأى في منامه، فانطلقوا فوجدوا أختهم مدفونة في ذلك المكان، فأخبروا الملك بخبر الراهب، فأمر الناس أن يجتمعوا ليروا مقتل ذلك الراهب الفاجر، ولما أتى به ليقتل، جاءه الشيطان فقال له: أنا الذي أوقعتك في هذه الورطة، ولن ينجيك منها غيري، فاسجد لي سجدة، وأنجيك مما أوقعتك فيه، فسجد له، ولما وصل إلى الميدان، نُفّذ فيه حكمُ القتل، ففسر دنياه وآخرته).

ذكر هذه القصة الحافظ ابن كثير في تفسيره، وقال: اشتهر أن اسم العابد (برصيصاً).

٦ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ مِنْكُمْ شُكْرًا﴾ [الحشر: ١٨] كثر تعالى عن القيامة (بالغد) لقربها، لأن كل آية قريب، فكانها اليوم الذي يتلو يومك.

والمعنى: خافوا الله واحذروا عقابه، ولينظر الإنسان ماذا أذخر ليوم القيامة، والتذكير فيه (للتفخيم والتهويل) لأنه يوم عصيب، وعذابه مخيف.

٧ - قوله تعالى: ﴿لَا تَرْجُوا أَفْرَاقَ الْفُرْقَانِ﴾ [الحشر: ٢١] هذا تصويرٌ وتمثيلٌ لعلو شأن القرآن، وقوة تأثيره على

القلوب الحيّة، بحيث لو خطب به جبل - على صلابته وقسوته - لتصدّع وتفتّت من خشية الله، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَالْجِبَالُ خَشْيَةَ اللَّهِ فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الحشر: ٢١] والغرض تنبيه الغافل والجاهل، على عظمة القرآن المجيد، فإن الجبال الصُّمّ لتصدّع من قوة حجته، وسحر بيانه، فكيف لا يتأثر به قلب الإنسان؟

وفي الآية إشارة بليغة، إلى قسوة قلب الإنسان، وعدم تخشّعه عند تلاوته، وقلة تدبره لمعانيه، فالجبال تلين وتخضع، وقلب الكافر في غلظته وقساوته لا يلين ولا يخضع!!



الإبداع البياني في سورة الممتحنة

١ - قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَنَّا فِي سَبِيلٍ وَآيَةً مِّنَّا...﴾ [الممتحنة: ١] هذا شرطٌ حذف جوابه أي إن كنتم خرجتم من أوطانكم، مجاهدين في سبيل الله، طلباً لرضوان الله تعالى، فلا تتخذوا أعداء الله أنصاراً وأعواناً لكم، وبمعنى أوجز: إن كنتم أوليائي فلا تتولوا أعدائي.

نزلت الآيات في حادثة وقصة عجيبة، وهي أن المشركين لما نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وتجهز الرسول لغزوهم في مكة، أرسل (حاطب بن أبي بلتعة) يخبرهم أن الرسول تجهز لقتالهم، ليأخذوا حذرهم، وأرسل لهم رسالة مع امرأة مسافرة، ونزل الرحي على رسول الله ﷺ يخبره بالأمر، فبعث الرسول بعض أصحابه وقال لهم: انطلقوا إلى (روضة خاخ) فإن فيها ظليمة - مسافرة - معها كتاب فخذوه منها، فانطلقوا مسرعين حتى أتوا الروضة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب!! فقالت: ما معي كتاب، فقال لها علي رضي الله عنه: لنخرجن الكتاب أو لنلقين عنك الثياب، فأخرجته من صفائر شعرها.

فأتوا به النبي ﷺ فقال: «ما هذا يا حاطب؟» فقال يا رسول الله: لا تعجل علي، والله ما فعلته كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولكن أردت أن يكون لي عند المشركين يدٌ أحمي بها قرابتي، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد صدقكم».

فقال عمر يا رسول الله: ذهني أضرب غشيق هذا المنافق!! فقال له ﷺ: «يا عمر إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم!!» ففاضت عينا عمر بالدموع، وأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] أخرجه البخاري في التفسير.

٢ - قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَذَبْتُمْ مَنَازِعًا﴾ [الممتحنة: ٧] (عسى) وعدٌ من الله عز وجل تفيد (التحقيق) على عادة كلام

العظماء، وقد حقق الله هذا الوعد للمؤمنين. فلما يشر الله على رسوله فتح مكة، أسلم قومهم، وتم بينهم التحاب والمودة والصفاء. ودخل الناس في دين الله أفواجا، والمعنى: لعل الله يغير الحال، فيجعل بينكم وبين أقاربكم الكفار مودة ومحبة، بأن يسلموا، فتزول بينكم وبينهم عوامل الشحنة والبغضاء!!

وقد حقق الله لهم ذلك في (فتح مكة) والحمد لله رب العالمين.

٣ - قوله تعالى: ﴿إِذَا حَاكَكُمْ التَّوْبَتُ ثُمَّ جِزِي فَأَتَجَوَّهَهُ اللَّهُ أَكْثَرُ بِإِيتِيهِ﴾ [الممتحنة: ١٠] في الآية جملة اعتراضية وهي قوله ﴿اللَّهُ أَكْثَرُ بِإِيتِيهِ﴾ للتنبيه على أن أمر الإيمان على حقيقته، لا يعلمه إلا الله، فلنا الظاهر والله يتولى السرائر.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنِكَرُ بِصَمِ الْكَوَارِ﴾ [الممتحنة: ١٠] العَصَمُ: جمع عصمة والمراد بها: النكاح. والكوافر جمع كافرة

والمعنى: لا تمشكوا بمعقود نكاح زوجاتكم الكافرات، فمن كانت له امرأة كافرة بمكة، فلا يعتبرها زوجة له، فقد انقطعت بينهما العلاقات الزوجية، بسبب كفرها، كثر عن (النكاح) بالعصمة.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ يَمُوشَ يَغْرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِ وَأَرْجُلَيْهِ﴾ [الممتحنة: ١٢] كثر بذلك عن (اللقيط)، وهذه من (لطائف الكنايات)، كانت المرأة تلتقط اللقيط المولود، فتقول لزوجها: هو ولدي منك، فكثر عنه بالبهتان المقتري بين يديها ورجليها، لأن بطنها بين يديها، ومخرج المولود بين رجليها.

٦ - قوله تعالى: ﴿قَدْ يَسْرَأُ مِنَ الْآخِرَةِ كَذِبُ الْكُفَّارِ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣] في الآية (تشبيه مرسل مجمل) حذف منه وجه التشبيه فصار مجملاً، وفيها (الإيجاز بالحذف) أي يسوا من ثواب الآخرة، كما يش الكفار من موتاهم، أن يعودوا إليهم بعد الموت، فقد كانوا يقولون: هذا آخر العهد به، ولن نراه أبداً بعد اليوم، تفسير ابن كثير، والمحذر الوجيز لابن عطية. ٤٢٠/١٤.



الإبداع البياني في سورة الصف

١ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصف: ٢] في الآية عتابٌ وتوبيخ، على عدم موافقة العمل للقول، كأنه يقول: هذا شيء عجيب جداً، أن يقول الإنسان شيئاً ولا يفعله، والتوبيخ في الحقيقة على (عدم الفعل) وإنما وجهه إلى القول ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ تنبيهاً على تضاعف معصيتهم، ببيان أن المنكر ليس ترك الخير، بل ترك الوعد الذي قطعوه على أنفسهم.

روى أن المؤمنين قالوا - قبل أن يؤمروا بالجهاد: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه، فلما فرض عليهم الجهاد، تباطأ بعضهم، وكرهه بعضهم، فنزلت الآية. (رواه الترمذي).

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ضَعْفًا مَّا أَنَّهُمْ نَبَتْ مُرْسُومٍ﴾ [الصف: ٤] في الآية تشبيه (مرسل مفصل) شبههم تعالى في ثباتهم وصمودهم أمام الأعداء، بالبناء المحكم الوثيق، الذي صُفَّتْ حجارته حتى صار متماسكاً كالسد المنيع، لا يتزعزع ولا يتزعزع، وهو تشبيه فائق الروعة والإبداع، وتكاد الآية تكون صريحة، في أن ما قالوه، كان هو الوعد بالقتال، ولهذا جيء بهذه الآية عقب العتاب لهم في الآية السابقة.

٣ - قوله تعالى: ﴿يُذِيقُوا نَارَ اللَّهِ بِأَنفُسِهِمْ وَلَهُمْ نُورٌ، وَلَوْ كَفَرُوا الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨] ما أروع هذا التمثيل وما أبده! فقد جاء التصوير لحال الكفار، بأبلغ أساليب الروعة والإبداع.

صوّر تعالى حال هؤلاء الأعداء لدين الله، بصورة جماعة حمقى مجانين، أرادوا أن يطفئوا نور الشمس، بأنفوسهم الصغيرة الحقيرة، فنفخوا على الشمس لطمس نورها، فهل يؤثر ذلك شيئاً على الشمس، الساطعة اللمعة؟ إن كيدهم ذاهب، وعملهم خائب، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ نُورٌ، وَلَوْ كَفَرُوا الْكَافِرُونَ﴾ وهذا غاية في الإبداع، والتصوير لموقف الكفرة المشركين من دين الإسلام، دين الله الخالد!!

والتصوير جاء على طريق (الاستعارة التمثيلية)، وهي في غاية الروعة والإبداع.

٤ - قوله تعالى: ﴿مَنْ أُوْثِقَ عَلَىٰ سَبْعَةٍ مِنْ غُلَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠] هذا أسلوب (تشويقي وترغيب) يرغبهم في تجارة رابحة على الدوام، ولفظ (التجارة) يُطمع بالربح، ويرغب في الإقدام على التجارة، شبه تعالى الإيمان والجهاد، بصفقة تجارية مضمونة الربح، لا تبور ولا تخسر.

والمعنى: هل أرشدكم يا معشر المؤمنين، إلى تجارة ثمينة، لا تكمد ولا تخسر؟ ثم بين أنها (الجهاد في سبيل الله) مع الإيمان الصادق، وتسميتها تجارة جاء بطريق التمثيل البديع.

٥ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [الصف: ١٤] نصره الله: يُراد بها نصره دينه ورسوله، فالآية فيها (إيجاز بالحذف) أي كونوا أنصار دينه، وحملة شريعته، وأعوان رسوله، انصروا دين الله كما نصر الحواريون دين الله، واستمسكوا بشريعته الغراء، حتى يكتب الله لكم النصر على الأعداء، والتشبيه هنا وارد بأسلوب (التشبيه المرسل المجمل)، وهو تشبيه بديع، في غاية الحسن والإبداع!!



الإبداع البياني في سورة الجمعة

١ - قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبِلُوا الثَّوَابَةَ ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا كَثِيرًا مِّنَ الْأَعْمَارِ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الجمعة: ٥].

ما أروع وأبداع أمثال القرآن، وتشبيهاته الفائقة العجيبة!! تصوّروا حماراً وضعنا فوق ظهره، خزانة من الكتب العلمية النافعة، ماذا يستفيد منها؟ هل يصبح عبثياً، فيلسوفاً، نابغاً؟ سيظل حماراً، إذا ماذا انتفع من هذه الدرر والجواهر العلمية الثمينة؟ إنه لم يتله منها إلا التعب والعناء.

والتشبيه بالحمار لزيادة التحقير والإهانة، ونهاية (السخرية والتهكم)، لأن الحمار مشهور بالبلادة والغباء.

ومعنى الآية: مثل اليهود الذين أعطوا التوراة، وكُلفوا بتطبيق أحكامها، ثم لم يطبقوها ولم يعملوا بما فيها، كمثل الحمار الذي يحمل الكتب الضخمة النافعة، ولا يتاله منها إلا الشقاء والتعب، والآية تعريض بنا نحن المسلمين، إذا لم نطبق أحكام القرآن الكريم، كما يقال في الأمثال (إياك أعبي واسمعي يا جارة)!!

٢ - قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ احْتَمَمْتُمْ أَنتُمْ أَزْلَمُ عَلَىٰ نَفْسِكُمْ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الجمعة: ٦] الأسلوب يحمل (طابع التحذير) لتكذيب دعوى الخصم، فقد زعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله المختار، المفضلون على سائر البشر، فجاءهم القرآن يقوارع الزجر والإفحام، أي قل لهم: إن كنتم حقاً أحباب الله كما تدعون، فتمنوا الموت، ليُنقلوا من دار البلاء، إلى دار الكرامة والهناء!!

وقد أخبرنا القرآن الكريم خبراً جازماً محققاً أنهم لن يتمنوه بحالٍ من الأحوال، وهذا من معجزات القرآن، حيث تحقق ما أخبر عنه.

وفي الحديث الشريف: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقعدهم من النار» رواه البخاري.

٣ - قوله تعالى: ﴿إِذَا تُدْعَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] أطلق البيع وأراد جميع (أنواع المعاملات) من بيع، وشراء، وإجارة، ورهن، وغير ذلك من معاملات البشر، فكثى بالبيع عن جميع صور العقود والمعاملات، لأن الغالب في أحوال البشر، هو البيع والشراء، فهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) ١.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَلًا فَانْفُشَتْ أَصْحَابُهَا﴾ [الجمعة: ١١] التفنن بتقديم الأهم في الذكر، ذكر التجارة أولاً، لأنها المقصود الأساسي في الغنى والشراء، وآخر اللهو ﴿يَجْتَنُّهُ أَزْوَاجُ﴾ ثم قال: ﴿فَلَمَّا عَزَا نُفْخَرُ مِنَ اللَّهِ وَبِئْسَ الْيَوْمَ الْجَزَاءُ﴾ فقدم اللهو على التجارة، لأن الخسارة بما لا نفع فيه، أعظم وأفدح، فقدم ما هو الأهم في الموضعين، وهذا من الأسلوب الحكيم.

رؤي في سبب نزولها: أن تجارة قدمت من الشام، وكان بالمدينة مجاعة وغلاء سعر، وفيها من أنواع ما يحتاج الناس إليه (من بزر، ودقيق، وزيت) وغير ذلك، والنبي ﷺ يخطب الجمعة، فلما علم أصحاب المسجد بذلك، قاموا يتسابقون نحو التجارة، خشية أن يفوتهم الرزق، لشدة حاجتهم إليه، وما بقي مع النبي ﷺ إلا عدد يسير، فيهم (أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير) فنزلت الآية الكريمة، وفيها عتاب لأصحاب النبي ﷺ الذين انصرفوا عن سماع الخطبة.

قال الحافظ ابن كثير: (وينبغي أن نعلم أن هذه القصة، كانت لما كان النبي ﷺ يُقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة، كما هو الحال في صلاة العبدین، كما رواه أبو داود في المراسيل). اهـ تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٢.

أقول: الظن الجميل بأصحاب رسول الله ﷺ هو هذا، فما حصل منهم، هو ترك سماع الخطبة، لا ترك الصلاة، فإن الصلاة كانت قبل الخطبة، وإلا فمحال على أصحاب رسول الله ﷺ أن يتركوا الصلاة، ويخرجوا من أجل التجارة، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يجعل الخطبة قبل الصلاة بعد هذه الواقعة، وجاء فيها العتاب للمصحابة الكرام، لتركهم سماع الخطبة، وهي من الهفوات التي حدثت منهم، ونزل فيها التشريع الإلهي الحكيم.



الإبداع البياني في سورة المنافقون

١ - قوله تعالى: ﴿إِذَا سَأَلَكَ الْمُبْتَلُونَ قَالُوا أَشْهَدُ بِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَنْصُرُ إِنَّكَ لَإِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ جملة اعتراضية جاءت بين الشرط وجوابه، لدفع توهم تكذيبهم في قولهم: إنك لرسول الله، فهو رسول الله حقاً، ولكن الله كذبهم، لأنهم أظهروا غير ما أبطنوا، وقالوا بالستهم ما لا يمتقدونه في قلوبهم، والأصل في الآية ﴿قَالُوا أَشْهَدُ بِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فجاءت الجملة اعتراضية بينهما لما ذكرنا.

٢ - قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ حُجَّةً لَّعَنَ اللَّهُ مَنْ فَضَّلَ غَيْرَ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢] في الآية (استعارة بديعة) فإن أصل الحُجَّة: ما يُستتر به ويُتقى من المخاطر، كالدرع، والفرس، وسائر أسباب السر والوقاية، شُبِّهت أيمانهم الكاذبة، التي كانوا يحلقون بها بالحُجَّة، بطريق (الاستعارة التصريحية) وهي من لطيف أنواع الاستعارة.

ومعنى الآية: جعلوا أيمانهم الكاذبة، وقايةً لهم وسترًا، يستترون بها من القتل، فما دخلوا في الإسلام عن قناعة وإيمان، وإنما عن مكر وخُبث، فمنعوا الناس عن الإسلام، بالتنفير عنه، وإلقاء الشبهة، وعدم الإنفاق في سبيل الله، فبس هذا الصنيع منهم، وبس ما يفعلون!!

٣ - قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ أَتَيْنَهُمْ تَفْجُكَ أَجْسَامَهُمْ ذِينَ يَقُولُوا نَسْمَعُ بِحَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُنْجَعَةٌ...﴾ [المنافقون: ٤] في الآية تشبيه يديع، من روائع ضروب التشبيه، شبه أجسامهم الضخمة - الخالية من العقل والإيمان - بالخشب المنصوبة على الحيطان، تشبيهاً عليهم وتقييحاً لهم، وحذف المشبه به على طريقة (الاستعارة التمثيلية) وفي هذا التشبيه روعة وجمال، حيث جعلوا كالأصنام التي تسمع ولا تعقل.

٤ - قوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ كُلَّ صَلَاحٍ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَذِّ فَأَعِزَّهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا﴾ [المنافقون: ٤] جملة (قاتلهم الله) جملة دعائية أي لعنهم الله وأهلكهم، كيف يُصرفون عن الهدى إلى الضلال؟ وفيه تعجيب من إغراقهم في النفاق والضلال، والتعمير في قوله سبحانه: ﴿يَخْشَوْنَ كُلَّ صَلَاحٍ عَلَيْهِمْ﴾ تعبير رائع، يرسم صورتهم وكأنهم يخشون من ظِلِّ أنفسهم، فإذا نادى المنادي لأمر من الأمور، ظنوا أنهم المقصودون بالذات، على حد قول المثل: (يكاد المريب يقول خذوني)!

٥ - قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعَثُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْتَضِرُوا﴾ [المنافقون: ٧] قولهم: ﴿لَا تُبْعَثُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إنما قالوا ذلك على سبيل (السخرية والاستهزاء)، إذ لو كانوا مؤمنين بنبوته ورسالته، لم يقولوا مثل ذلك الفجور.

روى الإمام البخاري عن (زيد بن الأرقم) قال: (كنت في غزوة مع عُمي، فسمعتُ ابنَ سلول المنافق يقول: ﴿لَا تُبْعَثُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْتَضِرُوا﴾ ويقول: ﴿لَيْسَ رَحِمًا إِلَى النَّبِيِّ لِحَرْبٍ أَفْعَزَّ بِهَا الْأَدْلُ﴾ [المنافقون: ٨] فذكرتُ ذلك لعُمي، فذكره لرسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى ابن سلول وأصحابه، فحلفوا ما قالوا!! فصدّقهم رسول الله ﷺ وكذّبي، فأصابني هُمٌ لم يصيبني مثله قط، فجلستُ في البيت، فقال لي عُمي: ما أردتُ إلا أن كذّبتك رسول الله ومثقتك!!

فأنزل الله هذه السورة: ﴿إِنَّمَا هَؤُلَاءِ الْفٰسِقُونَ وَأَلَمْ تَشْهَدْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ السورة، فبعث النبي ﷺ إليّ فقال: إن الله صدّقك يا زيد، وقرأ عليّ السورة. اه انظر صحيح البخاري/ ٤٩٠٠/ كتاب التفسير، وصحيح مسلم/ ٢٧٧٢.

٦ - قوله تعالى: ﴿لَا تُهَيِّجُوا أَوْلِيَاءَهُ وَلَا تَوَلُّوهُمْ عَنْ بَيْتِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] المراد بذكر الله: طاعته، وعبادته، والجهاد في سبيله، وجميع العبادات من (صلاة، وصيام، وحج، وزكاة) وسائر القربات والطاعات، وليس المراد بها الذكر باللسان فحسب، ويدل على ذلك، أن الله تعالى سَمَّى صلاة الجمعة ذكراً فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِإِذْنِ اللَّهِ بِتَوَارِثِهِمْ مَّا تَرَكَ إِصْرُهُمْ وَكَانَ يُخَفِّفُهُمْ﴾ فكلّى عن جميع التكاليف الشرعية، والعبادات، والطاعات، (بالذكر) فتبّه والله يحفظك ويرعاك.

الإبداع البياني في سورة التغابن

١ - قوله تعالى: ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَالُوا أَكْثَرَ بَهِتُونَ فَكَذَّبُوا وَقَالُوا لَا تَنْتَفِعُ مِنَّا اللَّهُ وَآلَهُ غَيْرُ نَجِيٍّ ﴿[التغابن: ٦] هذا القول منهم على سبيل الإنكار والاستبعاد، أنكروا أن يكون الرسول من البشر، ولم ينكروا أن يكون إلههم ومعبودهم من الحجر!! والمراد أن كل قوم قالوا في حق رسولهم: أبعث الله بشراً!! ولذلك كذبوهم وسخروا منهم، كما قالت ثمود: ﴿أَشْرَكْنَا مَثَاقِمَ ثَمُودَ إِنَّا بِمَا لَمْ يَنْتَفِعْ مِنَّا وَآلَهُ غَيْرُ نَجِيٍّ ﴿[القمر: ٢٤]؟ أي نكون مجانين إن اتبعناه، وهذا من باب (إطلاق الكل وإرادة البعض) لأن كل أمة قالت عن نبيها هذا القول: كيف نتبع رسولاً من البشر؟

٢ - قوله تعالى: ﴿فَتَأْتِيهِمْ بَاقِعُ مَوْلَاهُمْ وَآلَهُمُ الْآزِلُ الَّذِي أَرْكَنُوا ﴿[التغابن: ٨] استعار لفظ (النور) للقرآن العظيم، وهي (استعارة تصريحية) بديعة، لأن القرآن يزيل الشبهات، كما يزيل النور الظلمات.

٣ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْمَلُكُمْ بِزْمِ الْمَتَاعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴿[التغابن: ٩] الغبن في اللغة: النقص والخسران، وسُمِّي يوم القيامة (يوم التغابن) لأن فيه يظهر غبن الكافر، وخسارته الفادحة، فقد ضاع ما كان يؤمله، بتركه الإيمان، وإعراضه عن دعوة الرحمن، وفي القيامة تظهر الخسارة الحقيقية للإنسان.

٤ - قوله تعالى: ﴿إِنْ تَقْرَؤْا آيَاتِ اللَّهِ فَتَجِدْ أَلْفَ مِثْقَالٍ يُزَنُّ فِي الْمِيزَانِ ﴿[التغابن: ١٧] في الآية (استعارة تمثيلية) بلغت أوج الإبداع، شبه الإنفاق في سبيل الله، والإحسان إلى الفقراء والمساكين، بقرض يُقرضه العبد لربه، واجب الوفاء، بطريق (التمثيل الإبداعي)، فهو سبحانه المعطي الرازق، ثم يطلب من عباده أن يقرضوه بعض المال، ليرده لهم أضعافاً مضاعفة، فما أكرمهم من قرض!! وما أعظمه من عطاء!! وهو من لطيف الاستعارة، وبديع العبارة.



الإبداع البياني في سورة الطلاق

١ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [الطلاق: ١] الخطاب للنبي ﷺ والحكم عام له ولأمته، خُصَّ ﷺ بالخطاب والنداء، تعظيماً له وتشريفاً، وجيء بصيغة الجمع ﴿طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ على سبيل التفعيم والتعظيم، كما يُنادى العظماء والملوك فيقال: فخامتكم أمرتم، وجلالتكم وعدتم بكذا. . إلخ، حُوطب النبي والمقصود بالخطاب أمته، لأنه ﷺ قائد الأمة وإمامها، والأمة تُخاطب بزعيمها، ومعنى ﴿طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي إذا أردتم تطليق النساء، فطلِّقوهن مستقبلاتٍ لعدتهن، على الوجه الشرعي، ولا تطلقوهن في وقت الحيض.

٢ - قوله تعالى: ﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفُجُورٍ مُبِينٍ﴾ [الطلاق: ١] الفاحشة: ما عظم فبُحُّه من الأفعال، والأقوال، والمراد بها هنا: القول القبيح، وبذاءة اللسان، والسُّبُّ والشتم للزوج وأهله، فعينُ السُّبِّ يسقط حقها من السكنى، وتُخرج من بيت الزوج، ومن قال: المراد بالفاحشة (الزنى) فإنه قولٌ ضعيف، لأنها إذا زنت وهي متزوجة، فحدُّها الرجم، فلا يمكن أن يؤمر الزوج بإبقائها في البيت، وهي ترتكب أفحش الجرائم!!

قال ابن عباس: الفاحشة: بداءة اللسان، والاستطالة على أهل الزوج بالسباب والشتم.

والحكمة من بقاء الزوجة في (بيت الزوجية) أن الزوج إذا رآها حزينة، مكسورة الجناح، بعد ثورة الغضب والطلاق، قد يرقُّ قلبه فيراجعها، أو تشعر هي بالخطأ والندم، فتحاول أن تغير سلوكها مع زوجها، وتحاول أن تسترضيه لتعود المياء إلى مجاريها، ولو خرجت من البيت أو أخرجت منه، لعمل الشيطان عمله في توسيع أسباب (التفرد والفراق)، فلا يتحقق الغرض المنشود، فتدبُر حكمة التشريع الإسلامي، الذي يهدف إلى تماسك الأسرة.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَالٌ يَكْفِيهِمْ فَيَكْفِيَهُمْ مِنْ أَصْلَابِهِمْ﴾

أَشْهَرُ وَأَلْتَنِي لَمْ يَجْزُنْ . . . ﴿ [الطلاق: ٤] في الآية (إيجازاً بالحذف) حُذِفَ منه الخبر، تقديره: واللائي لم يحضن لصغرهن، فعدتَهُنَّ ثلاثة أشهر أيضاً، حُذِفَ ثقةً بدلالة أول الآية عليه، والمراد من قوله: ﴿إِنْ أَرْسَلْتُمْ﴾ أي جهلتم قدر عدتهن، ولا يُراد بها الشك في الحكم.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ يَا فَرِيقَهُ غَثٌّ عَنْ أَقْرَبَتِهَا وَرُكُلُورٌ . . .﴾ [الطلاق: ٨] لا يراد بالقرية المدينة نفسها، إنما يراد أهلها، لأن العقاب كان لأهل القرية، حيث أهلكهم الله ودمرهم، ففي الآية (مجاز مرسل) أطلق القرية وأراد به أهلها وسكانها، من باب تسمية (المحل) باسم الحال فيها.

والمعنى: وكثير من الأمم السالفة، التي طغت وتمردت على أوامر الله، عاقبناها على طغيانها وفجورها، بأنواع العذاب والبلاء، وأهلكناها إهلاكاً قظيماً مريعاً، والمراد (بالعذاب التكرار) عذاب الفناء والاستئصال، الذي أهلك الله به الأمم الطاغية.

٥ - قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١١] في الآية (استعارة تمثيلية) بديعة، استعار (الظلمات) للضلال والكفر، واستعار (النور) للهدى والإيمان، وهذا من بديع التشبيه، ولطيف الاستعارة.

٦ - قوله تعالى: ﴿حَسْبِيَ نَعِيمٌ مِّنْ نَّحْنِهِمُ الْأَمْهَرُ خَلِيلِينَ يَبِا أَيْمًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَمْ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١] في قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَمْ رِزْقًا﴾ فيه معنى التعجب والتعظيم، أي ما أكرمه وأعظمه من رزق!! فإن دخول جنات النعيم، مع الخلود الدائم، لا يعادله شيء من نعيم الدنيا الفاني، فهو أسلوب تحبيب وتشويق، لهذا الرزق الدائم الكريم.



الإبداع البياني في سورة التحريم

١ - قوله تعالى: ﴿إِذْ نُنَاجِيكَ إِذْ أَنْتَ نَذِرْتَ قَوْمَكَ عَلَىٰ مَا هُمْ بِبَالِيٍّ﴾ [التحريم: ٤] مَفْعَلٌ: مالت عن الحق وزاغت، والخطاب (لحفصة، وعائشة) رضي الله عنهما، أي وجد منكما ما يوجب التوبة، لإيذاء الرسول ﷺ بإفشاء السر، وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في العتاب، وسبب النزول يوضح القصة، فقد روي أن (حفصة) استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها، فأذن لها، ولما ذهبت دعا جاريتها (مارية القبطية) المملوكة له فعاشرها، ولما رجعت حفصة ووجدتها في بيتها، غارت غيرة شديدة، فقالت: أدخلتها بيتي وعاشتني على فراشي!! ما أراك فعلت هذا إلا لهواني عليك!! فقال لها مسترضياً: إني حرمتها على نفسي ولا تخبري بذلك أحداً، وأبشرك أن أباك (عمر) و(أبا بكر) سيكونان خليفتين من بعدي، واستكثمتها الخبر، وما أن خرج ﷺ من البيت حتى طرقت (حفصة) الباب على صديقتها عائشة وأخبرتها الخبر، ونزل الوحي على الرسول ﷺ يخبره بما أفشته حفصة، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، واعتزل نساءه، ومكث لا يدخل عليهن شهراً، من شدة تأثره مما جرى، ونزلت الآيات وفيها العتاب الشديد لأزواج النبي ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَمُ مَا تَعْلَمُ﴾. رواه النسائي والدارقطني.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَلَّعَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] أي وإن تتعاوننا عليه بما يسوءه ونحزنه، فإن الله ناصرهم، وولي أمرهم، وجبريل أشرف الملائكة، وأبو بكر وعمر، والمؤمنون الأبرار، وجميع الملائكة له أعوان وأنصار، وكفى بهذا البيان رفعا لقدره ﷺ.

وفي الآية (ذكرُ الخاص بعد العام) فقد خصص (جبريل) بالذكر تشریفاً له، لكونه رئيس الملائكة، ثم دخل في عموم الملائكة مرة ثانية ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ ومعنى ﴿ظهيرٌ﴾ عونٌ ونصيرٌ، وكلُّ هذا البيان للاعتناء بشأنه عليه الصلاة والسلام.

٣ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَعْلَوُكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] في الآية (مجاز مرسل) بذكر المسبب وإرادة السبب، أي احموا أنفسكم وصونوها من (نار جهنم) التي وقودها وحطبها الحجر والبشر، وذلك بملازمة الإيمان والطاعة، والبعد عما حرم الله تعالى، فالإيمان سبب لنجاة الإنسان من نار الجحيم.

٤ - قوله تعالى: ﴿مَنْ زَنَىٰ إِنَّهُ مِنَّا يُؤْتَوِيكُمْ كَقَرَوِا أَمْرًا تَرُوحَ وَأَمْرًا لُّوطَ﴾ [التحريم: ١٠] في الآية (تشبيه تمثيلي) مثل لحال الكفرة المجرمين، أنه لا ينفعهم حسب ولا نسب، بزوجة (نوح) وزوجة (لوط) كانتا في عصمة نبيين عظيمين، كريمين، فكفرتا بالله، فلم تنفعهم صلتهن وربطتهن الزوجية أي نفع. وقوله: ﴿فَمَنْ زَنَىٰ﴾ [التحريم: ١٠] الخيانة إنما هي في الدين وذلك بعدم الإيمان، وليست خيانتهمما بارتكاب الفاحشة، قال ابن عباس: (ما بقى امرأة نبي قط، وخيانتهمما كانت في الدين) أي بالكفر وعدم الإيمان، لأن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء، فكانت خيانتهمما أنهما كانتا على غير دين نوح، ولوط، اه تفسير ابن كثير ٤/٤١٩.

وفي الآية مبالغة في التمثيل، لعدم انتفاع الإنسان بصلاح غيره، مهما كان ذلك الغير، في أرفع درجات الإيمان والصلاح.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ زَنَىٰ إِنَّهُ مِنَّا يُؤْتَوِيكُمْ كَقَرَوِا أَمْرًا تَرُوحَ وَأَمْرًا لُّوطَ﴾ [التحريم: ١١] هذا مثل آخر لعدم تضرر المؤمن، بأشد الناس كفراً، وطغياناً وفجوراً، ضربه الله تعالى (لأسية بنت مزاحم) امرأة (فرعون) الطاغية الجبار، فإنها حين آمنت لم يضرها كفر زوجها (فرعون) الشقي، وبهذا وضع القرآن ميزاناً دقيقاً، يصور انقطاع العلاقة الزوجية، وعدم الاعتداد بعلاقة الزواج والنسب، فهو مثل للإيمان في بيت الكفر، كما أن الأول مثل للكفر في حرين الإيمان، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وفي الآية الكريمة لطيفة، حيث طلبت قصراً في الجنة، ولكنها قدمت جوار الله على طلب القصر ﴿أَتَبَىٰ بِنَايَ عِنْدَكَ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] قدمت الرغبة في الجوار، على طلب الدار، وقد جاء في الأمثال (الجار قبل الدار).

٦ - قوله تعالى: ﴿وَمَنْ زَنَىٰ إِنَّهُ مِنَّا يُؤْتَوِيكُمْ كَقَرَوِا أَمْرًا تَرُوحَ وَأَمْرًا لُّوطَ﴾ [التحريم: ١٢] ﴿أَخَذَتْ رَحْمَتُهَا﴾ أي عفت عن الفاحشة، وارتكاب الحرام،

وصانت نفسها عن الفجور والآثام، فننقح رسولنا (جبريل) في فتحة ثوبها، فوصلت النفخة إلى فرجها، فحملت (بميسى عليه السلام)، وأضاف النفخة إلى الله تعالى ﴿فَنَحَّكَ بِهِ﴾ لأنها كانت بأمره سبحانه، والإضافة (روحنا) إضافة تمليك وتشريف، أي الروح التي خلقناها بقدرتنا، ونَفَّخَ جبريلُ فيها بأمرنا. ١
قال ابن عطية: والإضافة ﴿بِئِنَّهُ لَكُلُّهُ﴾ إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك، كما تقول: بيتُ الله، وناقَةُ الله. اهـ المحرر الوجيز ٥٣٠/١٤.

٧- قوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ بِكَلْبِ رَبِّهَا يَكْتُمُ﴾ وَكَانَتْ مِنَ الْقَتِيلِينَ ﴿[التحريم: ١٢] المراد بالكلمات ﴿وَصَدَقَ بِكَلْبِ رَبِّهَا﴾ أي بشرائعه التي شرعها الله لعباده ﴿يَكْتُمُ﴾ يعني الثوراة والإنجيل، أطلق الكتاب بصيغة الجمع، وأراد بها الثوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى، لأن القرآن لم يكن نزل بعد، فهو من باب (إطلاق الكل وإرادة الجزء) وإنما جاء بصيغة الجمع المذكور ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَتِيلِينَ﴾ مراعاة لفواصل الآيات، لأن قبلها ﴿الْقَاتِلِينَ﴾ و﴿الَّذِينَ﴾ وقيل: هو من باب التغليب، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.



الإبداع البياني في سورة الملك

١ - قوله تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ بِإِذْنِ الْمَلِكِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١] اليد ﴿ بِإِذْنِ الْمَلِكِ ﴾ كناية عن القدرة التامة، والتصرف الكامل في المخلوقات، أي هو سبحانه مالك الملك، يعزُّ ويذلُّ، ويُخَيِّبُ ويُعِيبُ، ويُغْنِي ويُفْقِرُ، وله القدرة التامة، والتصرف الكامل، في كلِّ الأمور، وليس معناه أن الله يمسك الملك بيده، وإنما هو ما ذكرناه، كما قاله ابن عباس.

٢ - قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَسْتَوِيكُمْ إِلَهُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] الإبتلاء: الامتحان والاختبار، والله تعالى يعلم المطيع والعاصي، والبرِّ والفاجر، من الأزل، فلا حاجة أن يمتحنه ليعرف حاله، وإنما المراد يعاملكم معاملة المختبر، بالتكليف بالأوامر والنواهي، فيظهر للناس المطيع من العاصي، والمحسن من المسيء، والمؤمن من الكافر.

ولم يقل تعالى (أكثرُ عملاً) وإنما قال: ﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ لأنه لا عبرة بكثرة العمل مع القُبْح، والأحسنُ عملاً هو الأخلص، والأصوب، فالخالص ما كان لوجه الله، والأصوب ما كان موافقاً لهدي النبي ﷺ فهذا هو الأحسن عملاً.

٣ - قوله تعالى: ﴿ فَاتَّبِعِ الْفِتْرَةَ هَذَا تَرَى مِنْ فَطْرِهِ ثُمَّ اتَّبِعِ الْفِتْرَةَ كَتَبَ ﴾ [الملك: ٣، ٤] المراد بالكُفْرَتَيْنِ: التشكيُّرُ يعني مرَّةً بعد مرَّة، ويسمى هذا (أسلوب الإطناب) وذلك بتكرار الجملة، زيادة في التذكير والتبصير..

والمعنى: ودَّدَ النظرَ مرَّاتٍ عديدة، مرَّةً بعد مرَّة، وانظر بعين الاعتبار، في خلق هذه السموات البديعة، يرجع إليك طرفك خاشعاً ذليلاً، لم يز ما تريد من العيب والخلل، ﴿ وَفَرَّخِيَّةٌ ﴾ أي كليل متعب!! والأمر بالنظر إلى هذا الكون العجيب الرائع، يعطي الإنسان صورةً عن عظمة خالقه ومبدعه.

٤ - قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ كُلَّمَا أَتَى بِهَا نَوْجٌ سَالَمَ خُرُوجُهَا ثُمَّ يَأْتِيكُمُ الْيَقِينُ ﴾ [الملك: ٨] ﴿ تَمَيَّزَ ﴾ أي تنقطع وتنفرق من شدة غيظها، على أعداء الله، الكفرة المجرمين، وهو تمثيل بديع، لشدة اشتعالها وشدة حرِّها، على طريق

(الاستعارة المكنية) شبه تعالى جهنم في شدة غليانها ولهبها، بإنسان مغضب، اشتد حنقه وغيظه على عدوه، حتى كادت نفسه تنقطع وتتمزق من شدة الغيظ، وحذف المشبه به وهو (الإنسان) ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (الغيظ) الشديد، بطريق (الاستعارة المكنية) وهي من لطائف أنواع الاستعارة.

٥ - قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَاسْجُدُوا بِمُسْكِنَاتِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥] (ذُلُولًا): أي هيئة لينة سهلة، يسهل عليكم السفر في جوانبها، والبناء فوق سطحها، ففي الآية (استعارة بديعة) فائقة في الحسن، شبه الأرض بدابةً مذللةً ميسرة للركوب، وبداية حلوب كالبقرة تمنحنا اللبن واللبن، وحذف المشبه به وهو (الدابة) ورمز بشيء من لوازمها، وهي التذليل، على طريق (الاستعارة المكنية). وفي هذا التمثيل عظة وعبرة، فماذا يصنع البشر، لو انقلبت الأرض إلى دابة جموح، نثارت فيها البراكين، واشتدت بها الزلازل، واضطربت بمن عليها اضطراباً مفرعاً مخيفاً؟ هل بإمكان البشر أن يوقفوا اضطرابها وهيجانها؟!

٦ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِكُمْ﴾ [الملك: ١٦] في الآية (كناية لطيفة) كنى بقوله: ﴿يَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ﴾ عن ذات الله العلي الكبير، والمعنى: هل أنتم يا معشر الكفار (رئكم) العلي الكبير، أن يخسف بكم الأرض، فيغيثكم في مجاهلها، فإذا هي تضطرب اضطراباً مفرعاً مخيفاً؟ وليس معنى الآية أن الله عز وجل داخل السماء، وأنه محصور فيها، فقد قال ابن تيمية في الفتاوى ١٤٣/٣: (وَيُصَانُ جُلٌّ وَعِلَا عَنْ الظُّنُونِ الكاذبة، مثل أن يُظَنَّ أن ظاهر قوله سبحانه: ﴿يَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ﴾ أن السماء ثقلة - أي هو داخلها محصور فيها - أو تظله، فإن هذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان، فإن الله قد وسع كرسيه السموات والأرض) يريد رحمه الله: أن الكرسي لا تسعه السموات السبع، ولا الأرضون، والكرسي بالنسبة للعرش، كحلقه في صحراء شاسعة، لا يعلم مداها إلا الله؟ فكيف يكون العرش داخل السماء، وكيف يكون الله عز وجل في السماء على العرش؟ كما يقول بعض الغافلين؟ فافهم - رعاك الله - الحقيقة بالفهم الصحيح.

٧ - قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ لِكُلِّ جَبَلٍ فَرْسًا شَدِيدًا﴾ [الملك: ٢٢] هذا تمثيل رائع، وتصوير بديع، جمع بين جمال التمثيل، وروعة

التعبير، مثَل به للمؤمن والكافر، فالمؤمن يمشي سوياً على صراط مستقيم، والكافر يمشي مكباً على وجهه إلى طريق الجحيم.

والمعنى: هل من يمشي كالدابة، منكس الوجه، أعمى القلب، يمشي مثل الأعمى لا يرى طريقه، فهو يَخْبُطُ خَبْطَ عَشْوَاءَ، فيتعثّر بين حينٍ وحينٍ في مشيه، هل هذا أهدى أم من يمشي منتصب القامة، يبصر طريقه، ويرى ما أمامه، فهو آمن من السقوط والعتار، لأنه يمشي في وَضَحِ النهار، يسير على طريق مستقيم، أيهما أهدى سبيلاً، وأحسن دليلاً؟

قال ابن عباس: (هذا مثَل لمن سَلَكَ طريق الضلالة، ولعن سَلَكَ طريق الهدى)!

لقد صوّر القرآن الكافر بالدابة الهائجة على وجهها، تسير بدون هدف، وكالأعمى الذي لا يرى الطريق، فيتعثّر في خطواته، وهو تائه ضالّ حائر، وصوّر المؤمن، وهو يمشي على طريق بين واضح، أيهما أرشد وأهدى؟ الأعمى أم البصير؟ هذا مثلهم في الدنيا، أمّا في الآخرة، فالمؤمن يقوده إيمانه إلى دار النعيم، والكافر يقوده كفره مكباً على وجهه إلى نار الجحيم، ويا له من تمثيل رائع، وتصوير بديع!!



الإبداع البياني في سورة القلم

١- قوله تعالى: ﴿ مَا أَنتَ بِمُعْزِزٍ مَّن يَقُولُ ﴾ [القلم: ٢] في الآية (كناية لطيفة) كُتِبَ عن (النبوّة) التي أكرم الله بها رسوله ﷺ بالنعمة بقوله: ﴿ يَمُنُّ رَبُّكَ ﴾ والمعنى: لست يا محمد بإنعام الله عليك (بالنبوّة) بمجتون، كما يقول السفهاء المجرمون، وجيء بالجملة كالدليل القاطع على صدق دعوى النبوة، لأن النعمة كانت ظاهرة في حقه عليه الصلاة والسلام، من كمال الفصاحة، ورجاحة العقل، والصدق، والأمانة، حتى كان يسمى (الصادق الأمين) وسائر ما اتصف به من مكارم الأخلاق، ممّا يكذب تلك التُّهمة الشنيعة، وهي اتهامهم له ﷺ بالجنون - وحاشاه -!!

٢- قوله تعالى: ﴿ رَدُّوا زُنُوجَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ [القلم: ٩] المداهنة: الملاينة والتلطّف والمداراة، تشبيهاً لها بالذهن السائل من ليونته، وهي (استعارة لطيفة) والمعنى: تمثّلوا لو تلبّن لهم يا محمد، وتتلطّف معهم فلا تذكر ألهتهم بسوء، وهم يلبسون معك ويتلطّفون، سمّي هذا بالإدهان على طريق الاستعارة التصريحية، رُوِيَ أن المشركين طلبوا من الرسول ﷺ أن يكفّ عن سبّ ألهتهم، وتسفيه عقولهم، وعرضوا عليه أن يعبد ألهتهم سنة، ويعبدوا بالمقابل إلهه سنة، فنزلت ﴿ قُلْ بَنَاتُ الْكُفْرَةِ لَا أُقْبِلُ مَا كُنْتُمْ بِهِ ﴾ [الكافرون: ١، ٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ عَثَلٍ لِّذَلِكَ زَيْبٍ ﴾ [القلم: ١٣] ﴿ عَثَلٍ ﴾ جاف غليظ القلب، سريع نحو الشر ﴿ زَيْبٍ ﴾ دعوى لصيق، ليس له نسب صحيح، وهذه أشدّ معايبه وأقبحها، وصف تعالى هذا الشقيّ بتسع صفات، كلها قبائح وشائع، في منتهى السفاهة والقيح، وجاءت منها أربعة أوصاف بصيغة المبالغة (حَلَّافٌ، مُّغَازٍ، مُّشَاءٌ، مُّثَاعٌ للخير) ثم (العُثْلُ) أي الجاف الغليظ ﴿ مُّهَيَّبٍ ﴾ أي الفاجر الحقيّر ﴿ مُّتَنَبِّئٍ ﴾ أي ظالم مجاوز للحد في الظلم والعدوان ﴿ مُّزِيرٍ ﴾ أي كثير الآثام والإجرام ﴿ زَيْبٍ ﴾ أي ابن زنى، ولم يُعرف أنه ابن زنى حتى نزلت فيه الآيات، واسم هذا الشقيّ الفاجر (الوليد بن المغيرة).

روي أن الآيات لما نزلت في حقّه، جاء إلى أمه فقال لها: إن محمداً وصفني بتسع صفات، كلها ظاهرة في أعرفها غير التاسع منها - يريد وصفه بأنه زيم - فإن لم تصدّقيني ضربت عنقك بالسيف!! فقالت له: إن أباك كان (عثياً) أي لا يقدر على معاشره النساء، وكان ذا ثروة كبيرة، فخشيت على ماله أن يذهب، فمكنت راعياً من نفسي، فانت ابن ذلك الراعي، فلم يعرف الشقي أنه (ابن زني) حتى نزلت الآية، فكانت فضيحة له مدى الدهر. اهـ حاشية تفسير الجلالين.

قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا، فالحق به عاراً لا يفارقه أبداً.

١ - قوله سبحانه: ﴿سَنَبِّئُكَ أَخْطَارَهُ﴾ [القلم: ١٦] في الآية (استعارة مكنية) بديعة، فإن أصل الخرطوم للخنزير، واستعارته لأنف الإنسان، تجعله في غاية الإذلال والإهانة، لغرض التوبيخ والتشنيع عليه.

شبه تعالى أنفه بخرطوم الخنزير، أو الفيل، وخذف المشبه به، وهو (الخنزير)، وزمّر إليه شيء من لوازمه وهو (الخرطوم)، أي سنخطم أنفه بالسيف، فنجعل ذلك علامة له مدة حياته، وقد خطم أنفه يوم بدر.

٥ - قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَؤُلَاءِ﴾ [القلم: ١٧] هذا مثل ضرب به الله تعالى لكفار مكة، حيث أرسل الله إليهم الرحمة المهداة، بعثة خير البشر، فقابلوه بالاستهزاء والتكذيب، فضرب لهم مثلاً بأصحاب الجنة - يعني البستان -.

ومعنى الآية: إننا اخترنا أهل مكة بالجوع والقحط، حتى أكلوا الجلود، والحشرات، والدم، كما اخترنا أصحاب البستان، الذي كان قرب (صنعاء) باليمن، حين حلقوا أن يقطفوا ثمار بستانهم وقت الصباح الباكر، قبل أن يحضر الفقراء والمساكين.

وخلاصة القصة: كما يذكرها المفسرون، أن رجلاً صالحاً من أهل صنعاء، كان له بستان كبير، فيه من أنواع الفواكه والشمار والنخيل، وكان إذا حان وقت الحصاد، دعا الفقراء فأعطاهم حقهم ونصيبهم وافراً، وكان يُنفق الثلث على أهله وعياله، ويتصدق بالثلث، ويترك الباقي لمصروف البستان وأجرة العمال، فلما توفي الأب وورثه أبناؤه، قال بعضهم لبعض: إن أبانا كان

مصرفاً أحق، يذّر المال، وينفق على المساكين، ويحرماً من كثير من حقوقنا، فتشاوروا فيما بينهم، وعزموا على أن يقطعوا ثمار البستان في الليل، قبل طلوع الشمس، لئلا يحضر أحد من المحتاجين والمساكين، فيطلبوا ما كانوا ينالونه في زمن أبيهم، وحلقوا على جني ثمارها في ظلمة الليل، فأرسل الله على البستان ليلاً ناراً محرقة، وصواعق مدمرة، أتلفت الشجر، وأحرقت الثمر، فلما رأوا البستان محترقاً، ليس فيه ثمر، قالوا: لقد أخطأنا الطريق، فما هذا بستاننا، ثم تبين لهم أنهم ما كانوا مخطئين الطريق، وعرفوا أن الله تعالى عاقبهم بنيتهم السيئة، فأحرق لهم ثمر البستان، فندموا ونابوا ولكن بعد فوات الأوان، وقد قصر الله علينا قصتهم لتكون عظة وعبرة، لكل إنسان يجحد نعمة الله، وينكر فضله، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر!!

٦ - قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ التَّائِبِينَ كَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَحْبِهِمْ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] في الآية تشبيه عجيب، يسمى (التشبيه المقلوب) حيث جعل المشبه به مشبهاً، والمشبّه مشبهاً به، كقولهم: البحر عطاؤه، والقمز وجهه، وأصله عطاؤه كالبحر، ووجهه كالقمز، وهذا النوغ من التشبيه، أبلغ من (التشبيه البليغ) والأصل في الآية أن يقال: أفنجعل المجرمين كالمسلمين؟ أي في الثواب والجزاء، فقلب التشبيه إلى صورة أبلغ فقال: ﴿أَنتُمْ التَّائِبِينَ كَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَحْبِهِمْ﴾ فتنبه لهذا الترفع من البيان الإبداعي في التصوير والتشثيل.

٧ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْفُ السَّاقُ وَيَذْتَونَ إِلَى الشُّوْبَةِ لَا يَسْأَلُونَ﴾ [القلم: ٤٢] الكشف عن الساق: كناية عن شدة الهول، والبلايا والرزايا التي يلحقها الكفار يوم القيامة، كثر بها عن الشدة والهول، قال ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب، وهول، وشدة، وهو الأمر الفظيع الشديد. (تفسير ابن كثير).

وهذا كما قال الشاعر عن الحرب:

قَدْ شُئِرَتْ مِنْ سَاقِهَا فُشْدُوا وَجَدَتْ الْحَرْبُ بِكُمْ فُجْدُوا
وليس للحرب ساق، وإنما هو تعبير بياني بديع، في اشتداد المعركة، وعظم خطبها.

قال القرطبي: والأصل في هذا الكلام، أن من وقع في أمر، يحتاج فيه إلى الجِدِّ، شُرَّ عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة والهول. اهـ تفسير القرطبي.

٨ - قوله تعالى: ﴿مَنْزِلَ وَمَنْ يَكْذِبْ يَهْدِي اللَّهُ أَلْفًا مِائَةً يَوْمَ الْحِسَابِ﴾

[القلم: ٤٤] هذا أسلوبٌ بديعٌ في التهديد والوعيد، أي دعني ومن يكذب بهذا القرآن، لا كفيك شره، وانتقم لك منه، وليس هناك مانع يمنع الله من عذابهم، ولكنه أسلوب العرب في الوعيد والتهديد، كما يقول الإنسان: دعني وهذا الظالم لا كفيك امرأة.

وقوله تعالى: ﴿سَنَنْتَقِبُ لَهُمُ﴾ الاستدراج: أن يستنزل الخصم درجةً درجةً،

حتى يورطه ويوقعه في شركه، وفي الحديث: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» رواه البخاري.

٩ - قوله تعالى: ﴿مَنْزِلَ يَكْفُرْ رَبُّكَ وَلَا تَكْفُرْ كَصَاحِبِ النَّوْثِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾

[القلم: ٤٨] كثر عن نبي الله (يونس بن متى) بصاحب الحوت، لأن الحوت ابتلعه، فثيب إلى الحوت، وكان ذلك بأمر من الله عز وجل، لتركه قومه بدون إذن من الله تعالى، وليدل على عظيم قدرته، أن الإنسان يبقى حياً ولو ابتلعه الحوت، ففي الآية تحذير وتذكير، التحذير للرسول ﷺ، والتذكير للبشر ليحفظوا، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَلِمَاتُ رَبِّي، لَأَكُنَّ فَتَنَتُهَا إِلَّا قُوَّةَ يُونُسَ لَمَّا دُمِرَ كَفَنًا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَرِي فِي الْبُحْرِ الدُّنْيَا وَنُفِثَ إِلَى جَبِينِ﴾ [يونس: ٩٨].

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَكْفُرَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُؤْمِنُوا بِأَعْيُنِهِمْ لَأَسْمِعُوا وَلَسَوْفَ يَخْتَلِفُونَ﴾

[القلم: ٥١] (يزلقونك): أي يصرعونك بأعينهم، بنظرات مسمومة قاتلة، تكاد تهلك الإنسان، من شدة بغضهم لك، وحقدهم عليك.

وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابته حق، ولكن بإرادة الله

ومشيئته، وفي الحديث الشريف: «العين حق - أي إصابته حق - ولو كان شيء يسبق القدر، سبقت العين» رواه مسلم.



الإبداع البياني في سورة الحاقة

١ - قوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝ وَالْحَاقَّةُ ۝ وَذَا النُّجُومُ نَازِلَةٌ﴾ [الحاقة: ١ - ٣] الأصل فيها أن يقال: الحاقة ما هي؟ أي أي شيء هي القيامة؟ ولكن وضع الظاهر موضع الضمير للتهويل، والتعظيم لشأنها، فإنها من الشدة والهول، بحيث لا يحيط بها خيال، ولهذا أسهب في ذكرها بتكرار اللفظ ثلاث مرات، وفائدة التكرار: التخويف، والتحذير، والتهويل لأمر يوم القيامة.

٢ - قوله تعالى: ﴿تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا سَرْعَىٰ نَازِلِينَ أَعْمَارُهُمْ فِيهَا رَاسٍ﴾ [الحاقة: ٧] شبههم تعالى بأشجار النخيل العالية، التي انقلعت من جذورها، فإن عاداً كانوا طوالاً، ضخام الأجسام، يشبهون في الضخامة شجر النخيل، فأصبحوا جثثاً هامدة، وهلكوا عن بكرة أبيهم، ولهذا قال: ﴿فَهَٰذَا نَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُقَالُونَ﴾ [الحاقة: ٨] أي هل ترى أحداً من بقاياهم؟ ففي الآية (تشبيه تمثيلي) بديع.

٣ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنظُرُنَّ تَحْتَهُ وَنَقَارُهُمْ فِيهَا نَكَبٌ﴾ [الحاقة: ١١] في الآية (استعارة لطيفة) فائقة الإبداع والتصوير، فإن الطغيان من صفات الإنسان، وقد استعار ارتفاع الماء، وزيادته على الحد المعهود بالطغيان، فقال: ﴿نَقَارُهُمْ فِيهَا نَكَبٌ﴾ تشبيهاً له بطغيان الإنسان على الإنسان، وكأن الماء معتد، جاوز حد العدوان لكثرتة، ففيها (استعارة تصريحية) ومعنى (الجارية): السفينة، أي لما ارتفع الماء، وعلا وجه الأرض، وزاد زيادة عظيمة، حملناكم في السفينة التي صنعها نوح عليه السلام.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَلَىٰ أَرْجَائِهِمْ وَيَحْمِلُ عَرَشُ رَبِّكَ ثَوْدَةً يَوْمَ ثُبُوتِهِ﴾ [الحاقة: ١٧] الأرجاء: الجوانب والأطراف، جمع رَجَى بالقصر، والمَلَك: اسم جنس، أي الملائكة على جوانبها، ويحمل عرش الرحمن جلّ وعلا ثمانية من الملائكة العظام الأشداء، الذين لا يعرف ضخامة أجسامهم أحد، إلا الله رب العالمين، وفي الحديث الشريف: «أَدْنَىٰ لِي أَنْ أَحْذِثْكُمْ، عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ تَعَالَى، مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أَذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ، مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ» رواه أبو داود.

والآية بيان لعظمة جلال الله وسلطانه، فإن العرش مظهر من مظاهر عظمته تعالى، وعلو شأنه، لا لاحتياجه سبحانه إليه، لأن الله تعالى كان ولم يكن شيء معه، ثم خلق العرش العظيم، وخلق الكرسي، والكرسي وحده محيط بالسموات والأرض: ﴿وَبِيعْ كُرْسِيِّكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وهو بالنسبة للعرش، كحلقه صغيرة في صحراء شاسعة واسعة، لا يعرف أحد قدر كبرها وسعتها، والله سبحانه خلق لنفسه بيتاً يزوره المؤمنون هو (الكعبة المشرفة) وجعل من ركن البيت حجراً (الحجر الأسود) هو يمينه في الأرض، كما جاء في الحديث الشريف، وليس المعنى أن البيت العتيق مسكنه، وأن الحجر الأسود بيمينه حقيقة، إنما هو (تمثيل) لعظمته جل جلاله، كما يشاهد من أحوال الملوك والسلاطين، ولأفشؤونه سبحانه أجل وأعظم، من كل ما تحيط به الإشارة والمباراة، ولهذا وصف العرش بالمعظم والفخامة فقال: ﴿وَهَوَّيْتُ الْقَرْشَ الْعَظِيمَ﴾ [التوبة: ١٢٩].

٥ - قوله تعالى: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِرُونَ﴾ [العاقاة: ٣٧].

ذكر تعالى أن طعام الكفار هو (الغسلين) وهو صديد أهل النار، الذي يسيل من أجسادهم، ثم قال: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِرُونَ﴾ ولم يقل: المخطئون، لأن الخاطيء الذي يتعمد الإثم والذنب، والمخطئ: الذي يفعل الذنب عن غير قصد، والخطأ مغفور، فتدبر أسرار القرآن في تعبيره الدقيق.

٦ - قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ... نَبِيٍّ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [العاقاة: ٤٠ - ٤٣] أضاف القرآن إلى جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهي إضافة مجازية، لأن جبريل نزل به على رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ... غَلَّ فَمِنْ لَيْتِكُمْ مِنَ الْنَبِيِّينَ... إِلَاسٍ عَرِيفٍ نَبِيٍّ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

٧ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ... لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ... ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [العاقاة: ٤٤ - ٤٦] سمي تعالى الافتراء على الله تقولاً ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ لأنه قول كاذب متكلف.

ومعنى الآية: لو اختلق محمد بعض الأقوال علينا، ونسب إلينا ما لم نقله، لأخذنا بيمينه، ثم لقطنا منه نياط قلبه - وهو عروق القلب الأبهري - الذي إذا قطع مات صاحبه فوراً، لم يقل تعالى: لضربنا عنقه،

أو أهلكناه وأمتناه، وإنما صورّه بأفظم ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه، وهو أن يأخذ الجلادُ بيمينه، ويكبّه على وجهه وهو يرى السيف، ثم يضرب عنقه ويقطع منه الأوداج، وإنه لمنظر مفرع رهيب، ففي تصوير القتل بهذه الصورة الشنيعة.



الإبداع البياني في سورة المعارج

١ - قوله تعالى: ﴿ تَنَادَى الْمَلَأُيُتَةُ وَالرُّوحُ بِالْيَوْمِ يَوْمَ كَانَ مَقْدَرُهُمْ ثَمَنًا أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤] جاء تحديد العدد هنا بخمسين ألف سنة، وذكر تعالى في سورة (الحج) تحديد العدد بألف سنة في قوله سبحانه: ﴿ ذَلِكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧] ولا تعارض بين الآيتين، لأن آية الحج تتحدث عن (اليوم الإلهي) فاليوم عندنا نحن البشر ٢٤/ أربع وعشرون ساعة، واليوم الإلهي عند الله في حسابه، يقارب ألف سنة، ولهذا أدخل كاف التشبيه ﴿ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ والآية في سورة المعارج تتحدث عن يوم القيامة، وعن طول ذلك اليوم المصيب، طوله خمسون ألف سنة، من سنوات الدنيا، ولذلك لم يدخل هنا كاف التشبيه، قال ابن عباس: (هو يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ثم يدخلون النار، للخلود والاستقرار) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٧.

فليس هناك تعارض بين النصوص - كما يزعم بعض المستشرقين - لأن آية المعارج تتحدث عن (يوم القيامة) وآية الحج تتحدث عن (اليوم الإلهي) في حساب الله، بالنسبة إلى أيام الدنيا، فافهم هذا رعاك الله، ثم في الآية الكريمة ما يُسمى بـ (ذكر الخاص بعد العام) فإن (جبريل) عليه الصلاة والسلام، دخل في جملة الملائكة، وتخصيصه بالذكر للعناية بشأنه، وبيان منزلته السامية عند الله عز وجل، فهو رئيس الملائكة وأفضلهم، كما أن محمداً ﷺ أفضل الرسل الكرام، صلوات الله عليهم أجمعين.

٢ - قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيِّمِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْرِ ﴾ [المعارج: ٨، ٩] فيه من التشبيه ما يسمى بالتشبيه (المرسل المجمل) لذكر أداة التشبيه، وحذف وجو الشبه، وهو ضرب من ضروب التشبيه البديع، أي تكون السماء سائلة غير متماسكة، كالنحاس المذاب، من شدة هول ذلك اليوم الرهيب، وتكون الجبال كالصوف المنفوش، المصبوغ ألواناً، لأن الجبال مختلفة الألوان، فيها الأحمر، والأبيض، والأسود، فإذا تفتتحت الجبال وتناثرت، أصبحت

﴿ تَالْآلِهِي ﴾ أي الصوف المصبوغ الواناً، فلذلك شُبِّهت بالعهن، وهو تشبيه بالغ الروعة والتأثير.

٣ - قوله تعالى: ﴿ يُشْرِكُهُمْ نَارُ السُّجُودِ إِذْ يَسْتَدْعِي مِنْ عَذَابٍ لَوْ يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنِ اسْتَكْبَرَ ﴾ [المعارج: ١١ - ١٤] أي يتمنى المجرم، المكذب بآيات الله، لو يقدي نفسه من عذاب الله، يأعز من كان عليه في الدنيا، من (البنين، والزوجة، والإخوة، والعشيرة) التي كانت تحميه، ويفخر بالانتساب إليها، بل إن الأمر يتعدى كل هؤلاء، حتى ليمنى المجرم لو قُذِيَ نفسه بجميع أهل الأرض، ولكن هيهات أن ينجو من العذاب، بدأ تعالى بذكر الأخص فالأخص (الأبناء، الزوجة، الإخوة، الأقارب)، ثم ختم بالأعم، فقال: ﴿ وَنَارُ الْآثِيرِ يُبْعَثُ شَبِيعَ ﴾ للتنبية على شدة الهول، وشدة ما يلقاه كل كافر ومجرم، من أنواع الشدائد والأهوال، ففي الآية (ذكر العام بعد الخاص) للتذكير بهول الموقف الرهيب.

٤ - قوله تعالى: ﴿ تَدْعُوهُمْ نَارُ السُّجُودِ إِذْ يَسْتَدْعِي ﴾ [المعارج: ١٧، ١٨] فيه ما يسمى بالتضمين، أي تنادي جهنم وتهتف باسم كل كافر ومنافق فاجر، تناديه باسمه، ضُمن (تدعو) معنى (تنادي)، قال ابن عباس: (تدعو الكافرين، المنافقين بأسمائهم، بلسان صحيح، فصيح، تقول: إلي يا كافر، إلي يا منافق، ثم تلتخطهم كما يلتقط الطير الحب) اهـ تفسير ابن كثير.

ومعنى الآية الكريمة: أن جهنم تنادي وتهتف بأسماء زبائنها من أعداء الله، وتقتلع أطراف الإنسان، وجلدة رأسه من شدة حرها، وكأنها مغناطيس تجذب إليها كل حواس الإنسان: اليدين، والرجلين، وبقيّة أعضائه، قال البخاري في كتاب التفسير (الشوي): البدان، والرجلان، والأطراف، وجلدة الرأس يقال لها: شواة. اهـ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَنَارُ السُّجُودِ إِذْ يَسْتَدْعِي ﴾ أي جمع المال وكذسه فجعله في وعاء، ولم يؤذ زكاته، واشتغل بجمعه عن عبادة الله تعالى، فقد جمع هذا الشقي بين الكفر، والبخل.

٥ - قوله تعالى: ﴿ أَطْلَعَ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا شَاءَ يَدْخُلُ جَنَّةً يُمْرُ ﴾ [المعارج: ٣٨] هذا (استفهام إنكاري)، للتقريع والتوبيخ، أي هل يطمع كل واحد من هؤلاء المجرمين، أن يدخله الله جنة الخلد والنعيم، وقد كفر بربه، وشجر من رسله؟ فالاستفهام خرج عن حقيقته الأصلية، إلى غرض (التوبيخ والسخرية).

٦ - قوله سبحانه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَشْتُونَ﴾ [الماعج: ٣٩] في الآية (كناية) فائقة راقية، كثر عن (المنى) الذي هو قَدْرٌ وكره، بهذه الكناية البديعة ﴿خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَشْتُونَ﴾ أي خلقناهم من هذه النطفة المهيئة الحقيمة، من ذلك الماء المهيين، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ لَكُمْ لِرَبِّكُمْ مَعَهُدًا﴾ [المرسلات: ٢٠] الذي تستقذره النفس؟ والتعبير المبدع الرائع، يجعلهم يطأطئون الرؤوس خجلاً وحياء، ويُعرفهم بقدرهم ومنزلتهم عند الله تعالى، فهم أهون وأحقر من أن يدخلوا جنة القدس!! وقد مسخ القرآن بهذا التعبير كبرياءهم وغطرستهم سخاً، وأراهم أنفسهم على حقيقتها، دون لفظة نابية، فلم يقل: إنا خلقناهم من قَدْرٍ ونَجَس، وإنما قال: ﴿خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَشْتُونَ﴾ ليفكروا بأنفسهم في أصل نشأتهم، فإذا كانوا مخلوقين من القَدْر، من ماء مهين، فلا يليق بهم الكِبَرُ الذي يسيهون به ويفخرون.!

٧ - قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُ مِنَ الْأَثْنِ يَرَاهُ أَكْثَرُهُمْ إِلَهًا مِّنْ دُونِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الماعج: ٤٣] في الآية تشبيه رائع مبدع، وفي هذا التشبيه (تهكُّم) وسخرية بهم لاذعة، تتناسب مع ما كانوا عليه في الدنيا، فقد كان يسارعون في الأعياد إلى الأوثان ليعبدوها، وهامهم اليوم يسارعون إلى الحميم ليقترحموها، فما أبدعه من تشبيه!! وما أوضحه من بيان!!

والمعنى: يوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين، كأنهم يسمون إلى أصنامهم التي نصبوها في الدنيا ليعبدوها، وهو غاية في السخرية بهم والتحقير!!



الإبداع البياني في سورة نوح

١ - قوله تعالى: ﴿ هَلِّفُوا لِي أَصَابِعُكُمْ بِمَا آتَاهُمْ وَاسْتَقْبَلُوا إِلَهُكُمْ وَاسْتَكْبَرُوا تَكْبَرًا ﴾ [نوح: ٧] تصويرٌ بديع مؤثر، للعناد والطفيان الذي كان عليه قوم نوح، حتى وصل بهم الحال إلى إغلاق آذانهم عن سماع النصيح، ونقض رؤية الناصح، أطلق (الأصابع) وأراد بها (الأنامل) أعني رؤوس الأصابع، لأن الأصبع لا تدخل كلها في الأذن، فهو (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الكل وإرادة الجزء).

٢ - قوله تعالى: ﴿ يُزِيلُ السَّحَابَ مَوَازِيرَ ﴾ [نوح: ١١] المراد بالسحاب المطر، لأن المطر ينزل من جهة السماء، فيه (مجاز مرسل) أطلق المحل على الحال، وعلاقته المحلية، قال الشاعر:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَغِيْنَاءُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا
ومعنى الآية: إذا رجعت إلى الله، أهدق ويحكم عليكم أبواب الرزق، فأنزل عليكم المطر، غزيراً متابعاً، بكثرة ووفرة، فأخرج لكم به الزرع، وأحيا لكم به الضرع، وجعل لكم البساتين النضرة، والحدائق الفسيحة، ذات الأشجار والثمار، والأنهار الجارية.

٣ - قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ شَاقَا ثُمَّ يُبْدِيكُمْ مِنْهَا يُفْرِجُكُمْ بِغَرَابَا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨] في الآية الكريمة (استعارة تبعية) شبه تعالى إنشاء البشر، وخلقهم في أطوار وأدوار، بالنبات الذي يخرج من الأرض، واشتق من النبات، لفظة (أنبتكم) بطريق التمثيل له بالنبات، ففيه (استعارة تبعية) من بديع أنواع الاستعارة.

٤ - قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا • لَتَتَلَكَوا مِنهَا شُكْلًا وَسَلَا • ﴾ [نوح: ١٩، ٢٠] في الآية تشبيه بديع، يُسمى (التشبيه البليغ) حذف أداة التشبيه، ووجه الشبه، فأصبح بليغاً ﴿ الْأَرْضُ بِسَاطًا ﴾ أي جعل الأرض ممهدة واسعة فسيحة، كالسباط، شبهها في امتدادها وسعتها بالسباط، وليس معنى الآية

أن الأرض غير كروية، بل هي فسيحة واسعة مع كرويتها، ليبني عليها البشر ويزرعون، ولو كانت كلها جبلاً وودياناً، ما أمكن العيش عليها، وكرويتها أمر يقيني مقطوع به، والكرة العظيمة، تَرى كل من عليها ما يليه مسطحاً.

قال ابن تيمية: لا أعلم في علماء المسلمين من أنكر كروية الأرض، إلا من لا يؤبه له من الجهال. اهـ الفتاوى ٥٨٨/٦.

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذْ نَادَيْتُمْ بِصَبْحِكَ إِذَا يَلْدُؤُنَا إِلَّا نَمِيرًا حَقَّارًا﴾ [نوح: ٢٧] هذا من (المجاز المرسل) باعتبار ما يكون، أي يلدوا أولاداً يكون مآلهم ومصيرهم أن يصبحوا فجاراً كفاراً عند بلوغهم.

قال الفخر الرازي: فإن قيل: كيف عرف نوح ذلك؟ فالجواب أنه عرف ذلك بالاستقراء، فإنه أَيْت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعرف طباعهم وجربهم، وكان الرجل ينطلق بابنه إلى نوح عليه السلام فيقول له: يا بني احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، فلذلك حَكَم عليهم بالكفر والفجور ﴿وَالْيَدُؤُنَا إِلَّا نَمِيرًا حَقَّارًا﴾ تفسير الفخر الرازي.



الإبداع البياني في سورة الجن

١ - قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا صِفَاءٌ غَنَاءٌ﴾ [الجن: ١] ﴿غَنَاءٌ﴾: مصدرٌ وُصِفَ به القرآن للمبالغة، أي سمعنا قرآنًا عجيبيًا، مؤثرًا في حسن نظمه، ودقة إيجازه، وروعة إعجازه، وما حواه من بديع الجحْم والعظمت، فأطلق المصدر (عجيباً) وأراد به القرآن العجيب، الذي يستهوي القلوب والعقول، بحلاوة نظمه، وحسن بيانه.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا تَدْرِي أَيُّ يَدٍ بِسِ فِي الْأَرْضِ أَمِ أَرْزَادِهِمْ رُتَبُهُمْ رُتَبًا﴾ [الجن: ١٠] هذا أدب رفيع من الجن، حيث نسبوا الخير إلى الله، ولم ينسبوا الشر إليه في قولهم: ﴿أَنَّا لَا تَدْرِي أَيُّ يَدٍ بِسِ فِي الْأَرْضِ﴾ وعند ذكرهم للخير قالوا: ﴿أَرْزَادِهِمْ رُتَبُهُمْ رُتَبًا﴾ وهذه من الآداب الشريفة القرآنية، نطق بها الجن، كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يُعِيدُنِي • وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي • وَإِذَا مَرِئْتُ مِنْهُ لَفَتَنِي غِثًا وَنَقِثًا﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠]. فالخير يُنسب إلى الله خُلُقًا وتقديرًا، والشر لا يُنسب إليه أدبًا وثوقيرًا، وإن كنا نؤمن بأن الخير والشر بتقدير من الله تعالى، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام: «وَأَنْ تُوْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرٌ وَشَرٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى» رواه البخاري.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ الْقِيَحُورِ مِنَّا ذَلِكُمْ كَمَا طَرِيقٌ يَدْرَأُ﴾ [الجن: ١١] الطرائق: جمعُ طريقة، كقصائد جمعُ قصيدة، وهو المذهب الذي يعتنقه الإنسان، والقيَدُ: جمعُ قِدة وهي المتفرق والمختلف، أي كلُّ مذاهب متفرقة ومختلفة، كلٌّ يمشي نحو هواه، فينا التقي والشقي، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلذلك تفرقت بنا الأهواء، استعار (الطرائق) للمذاهب المختلفة، وهو من بديع اللفظ، ولطيف الاستعارة.

٤ - قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَسْأَلُكَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْأَلُكَ عَنْهَا﴾ [الجن: ١٦] في الآية (كناية لطيفة) فقد كثر بالطريقة عن (شريعة الإسلام) التي بعث الله بها خاتم المرسلين ﷺ، أي لو استقام الإنسان والجن على (دين الإسلام)، لو شِعَ الله أرزاقهم، وأغدق عليهم بركات السماء والأرض.

٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيلاً﴾ [الجن: ١٩] تسمية الرسول ﷺ (عبد الله) أعظم شرف لرسول الله ﷺ فالإضافة هنا إضافة (تشريف وتكريم) كقوله سبحانه: ﴿سُبْحَنَ الَّذِينَ أَلْفِتُ يَمْتَدِينِ﴾ [الإسراء: ١] أي بمحمد ﷺ، فأعظم شرف لرسول الله أن يكون عبداً لله تعالى، كما قال القائل:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتَبَهًا وَكَيْدُكَ بِأَخْمَصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا
ذُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ ضَيَّرْتَ أَخْمَدَ لِي نَيْبًا
فَشَرَفُ الشَّيْءِ بِشَرَفِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَأَيُّ شَرَفٍ أَفْخَمُ وَأَضْحَمُ، من إضافة الرسول إلى اسم الله الأعظم؟

ومعنى الآية الكريمة: أنه لما قام عبد الله ورسوله محمد ﷺ يصلّي ويقرأ القرآن في صلاته، كاد الجن يركب بعضهم بعضاً من شدة الزحام، حرصاً على سماع القرآن، ومعنى ﴿لِيلاً﴾ أي متراكماً بعضهم على بعض، تعجباً مما سمعوا من رسول الله ﷺ من قراءته، وشاهدوا من عبادته.



الإبداع البياني في سورة المزمل

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ رِجْسٍ﴾ [المزمل: ١٥] في الآية (الثقات من الغيبة إلى الخطاب) ولو جرى الكلام على الأصل، لقيل: (إنا أرسلنا إليهم) والغرض من هذا الالتفات: التوبيخ لكفار قريش، على عدم الإيمان، مع وضوح الحجة والبرهان!

٢ - قوله تعالى: ﴿عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَتْنًا مِّنَ الْفِتْنَةِ ۚ وَكَانَ تَتْلُو آيًا مِّنْ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠] في الآية (مجاز مرسل) أطلق الجزء وهو القراءة، وأراد الكل وهي (الصلاة) لأن القراءة أحد أركان الصلاة، أي فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، لأن قيام الليل كان مفروضاً على الرسول ﷺ وأصحابه، فنسخ الله ذلك تيسيراً عليهم، والآية تتحدث عن الصلاة. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال الشوكاني: أي صلوا ما تيسر من صلاة الليل، والصلاة تسمى قرآناً، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] وهذه الآيات المذكورة هي النسخة لقيام الليل. تفسير الشوكاني ٣١٩/٥.

وإنما كلّفوا في بدء الدعوة، بقيام الليل، لأن قيام الليل، يقوّي أبدانهم، ويُنزّكي أرواحهم، ويُعوّدهم على تحمل المشاق في تبليغ الدعوة، ونشر الإسلام، ولهذا فتحوا الديار والأمصار، رضوان الله عليهم أجمعين.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ مَرَاتًا ۖ﴾ [المزمل: ٢٠] شبه الإحسان إلى الفقراء والمساكين، بإقراض رب العالمين، فرضاً واجب الوفاء، تفخيماً لشأن الفقراء، لأنّ يمنّ عليهم أحد بهذا العطاء، وهذا من لطيف الاستعارة، ويديع البيان.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا لِأَنفُسِكُمْ فِي حَيْرٍ مِّمَّنْ عَمِلَ اللَّهُ﴾ [المزمل: ٢٠] هذا من باب (ذكر العام بعد الخاص) عمّم فعل الخيرات، بعد ذكر الصلاة، والزكاة، والإنفاق في سبيل الله، ليعمم جميع أعمال الخير والصالحات، للاهتمام بتقديم كلّ ما يرضي الله من أعمال الخير.

الإبداع البياني في سورة المدثر

١ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ۖ فَآمُرْ ۖ﴾ [المدثر: ١، ٢] (المدثر) المتغطي والمتلفف بشيابه من الدثار وهو الثوب الذي يكون فوق القميص الداخلي، وأصله المتدثر، خاطبه وناداه بنداؤه شفيق لطيف، ليشعر به بالمؤانسة والملاطفة له من ربه، فهو خطاب الحبيب للحبيب، إذ ناداه بوصفه، ولم يقل: يا محمد، ليشعر الأنس واللفظ من رب العزة والجلال، فإن العرب إذا أرادت ملاطفة المخاطب سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي ﷺ لعلي: (قم أبا ثراب) لكونه كان نائماً على الأرض وأصابه التراب، وقولوه لحذيفة: (قم يا نومان) حين كان نائماً في المسجد، فالأسلوب إذا أسلوب (تأنيس وملاطفة).

٢ - قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ فَكَّرَ ۖ وَبَنَّاكَ فَطَمَرُ ۖ وَالْأَخْرَاقُ فَغَمَرُ ۖ﴾ [المدثر: ٣ - ٥] فيه تقديم (المفعول على الفعل) لإفادة الاختصاص، أي خصص ربك بالتكبير والتعظيم، وطهر ثيابك من القدر والدنس، وارفق عبادة الأوثان والأحجار، ولا تقربها، وإنما ذكر تكبير وتعظيم الرب، بعد ذكر الإنذار، تنبيهاً للنبي ﷺ على عدم الاكتراث بالكفار، فلا ينبغي أن يرهب من أحد، إلا العزيز الجبار. وقال ابن عباس: الثياب هنا: كناية عن القلب والنفس، أي طهر نفسك وقلبك من الذنوب والمعاصي، وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يبق عهد الله: إنه لذنس الثياب، وإذا وقى وأصلح يقولون: إنه لطاهر الثياب. اهـ ابن كثير ٤/ ٤٧٠.

٣ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكَ فَكَّرُكَ ۖ وَنُقْلُكَ ۖ﴾ [المدثر: ١٩، ٢٠] جملة دعائية بمعنى اللعنة، والدعاء عليه بالهلاك، وكثره لبيان شناعة قوله عن القرآن (إنه سحر) وقوليه عن رسول الله ﷺ (إنه ساحر) والتعجب من حاله في تفكيره وتقديره، يقول: ما أعجب حكمه وتقديره؟ وما أغربه؟ لغاية التهكم به، كأنه يقول: قاتله الله ما أروع تفكيره، وما أبدع رأيه الحصيف؟ حيث قال عن

القرآن: إنه سحر يُؤثر أي ينقله ويرويه السحرة بعضهم عن بعض.

يقول العرب عند استعظام الأمر، والتعجب من قائله أو فاعله: قاتله الله!! ومرادهم أنه بلغ من الشناعة والفظاعة أن يدعى عليه من حساده.

١ - قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ لَوْنَهُ أَزْهَرًا لَا يَذَرُ لَدُنْكَ﴾ [المدثر: ٢٧، ٢٨] (سقر): اسم من أسماء جهنم، والاستفهام للتهويل والتفخيم، لأمر نار الجحيم، لا تبقي عظماً إلا طَحَنَتْه وأذابته، قال الشوكاني: العرب تقول: ما أدراك ما كذا؟ إذا أرادوا المبالغة في أمره، وتعظيم شأنه، كأنه يقول: استعظموا شأن سقر - أي جهنم - إنها لا تُبقي لهم لحماً، ولا تَذَرُ لهم عظماً. اهـ فتح القدير ٣٢٥/٥.

٥ - قوله تعالى: ﴿لَنُزِقَنَّكَ نَزْرًا مِّنْ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ [المدثر: ٣٧] في الآية (كناية لطيفة) فقد كُنِيَ عن فعل الخيرات والصالحات (بالتقدم) وعن فعل القبائح والمنكرات (بالتأخر) أي لمن شاء من العباد، أن يتقدم لربه بفعل الصالحات، أو يتأخر بارتكاب المنكرات والموبقات.

٦ - قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعْنَاهُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١] القصوة: الأسد، وفي الآية تشبيه بديع عجيب، يسمى (التشبيه التمثيلي) لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، شبههم تعالى بالحُمُر الوحشية النافرة، إذا رأت الأسد، فزعث وهربت منه، من شدة الخوف والفرع. وأنه لمشهد مضحك غريب، فإن حمار الوحش، إذا سمع زفير الأسد، يعدو غدواً غريباً، دون هدف ولا اتجاه، في منظر مضحك يدعو إلى الاستغراب، وفي تشبيههم بالحُمُر الوحشية، شهادة عليهم بالبُله والغباء، والحماز إذا نفر لا يَلام، أما البشر حينما ينفرون من المندثر، فإنه حقاً منظر غريب، يدعو إلى الضحك والاستغراب. ا



الإبداع البياني في سورة القيامة

١ - قوله تعالى: ﴿لَا أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ أَيُّهُمُ بِالْأَنفُسِ الَّذِينَ﴾ [القيامة: ١، ٢] ظاهره نفى للقسم، وحقيقته أنه قسم مؤكد، أدخلت عليه (لا) زيادة في التقوية والتأكيد، وقد اشتهر في كلام العرب، زيادة حرف النفي (لا) قبل القسم، قال الشاعر:

فَلَا وَاللَّهِ مَا فِي الْغَيْشِ خَيْرٌ وَلَا الدُّنْبُ إِذَا ذُقَبَ الْخِيَاءُ
والمعنى: أقسم لكم قسماً مؤكداً بيوم القيامة، وأقسم بالنفس الطاهرة التي نلوم صاحبها على التقصير في جنب الله، وجواب القسم محذوف تقديره: لبعثن ولنحاسبن، ففي الآية (حذف بالإيجاز).

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْبَنَاتِ الرَّحْمَنُ عَظِيمٌ﴾ [القيامة: ٣] الاستفهام هنا خرج عن حقيقته وهو (الاستفسار) إلى معنى التوبيخ والإنكار، أي هل يظن الكافر الفاجر، أن الله لن يعييه بعد موته؟

٣ - قوله تعالى: ﴿بَلْ يَرَوْنَ كَذَبَتِي تَأْمُرُ﴾ [القيامة: ٤] البتآن: أطراف الأصابع (السَّلَامِيَّات) أي تجمع أنامله ورؤوس أصابعه، التي هي أصغر أعضائه، فكيف بالعظام الكبار؟ وإنما ذكر تعالى البتآن، لما فيها من غرابة الخلق، ودقة الصنع، في خطوطها وتكوينها، وقد ثبت علمياً أن بشرة الأصابع، مغطاة بخطوط دقيقة، متناهية في الدقة، منها ما هو على شكل دوائر، أو أقواس، أو عراوٍ، وهذه الخطوط لا يمكن أن يشابه بها إنسان آخر، ولذلك اعتمدتها الدول رسمياً، وأصبح يتميز بها الإنسان عن غيره، وهذه إحدى (المعجزات العلمية) القرآنية، والإعجاز في الآية أن التعبير جاء بلفظ: ﴿تَأْمُرُ﴾ لأنه ولم يقل: نخلق بناته، ليشير إلى قدرة الله الباهرة، في إعادة الهيئة والشكل، الذي كانت عليه الأصابع، وبفلس الخطوط واللمسات والدوائر، التي خلق عليها الإنسان، وتبارك رب العزة والجلال، في قدرته وإبداعه.

٤ - قوله تعالى: ﴿يَنْتَظِرُ أَصْحَابُ الْقُبُورِ﴾ [القيامة: ٦] أي متى يوم القيامة؟ والسؤال هنا لا يراد به معرفة الوقت، إنما هو سؤال (استهزاء وإنكار)، واستبعاد لمجيء ذلك اليوم الرهيب.. نبه تعالى أن الكافر الفاجر، يريد بهذا الإنكار أن يستمر على فسقه وفجوره، ويريد أن ينطلق مع غرائزه وشهواته البهيمية، ولذلك ينكر الآخرة، لأن الإيمان بالحساب والجزاء، يُنْغِصُ عليه مُتْعَتَهُ، فهو يقول على جهة الاستهزاء والتكذيب: متى يكون يوم القيامة؟

٥ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي سَاعَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ١٨، ١٩] نُسب تعالى القراءة إليه (قرأناه) وهي لجبريل عليه السلام، لأن قراءة جبريل القرآن على رسول الله ﷺ، لما كان يأمر الله، نُسب الفعل إلى الله عز وجل، لأنه هو الأمر بذلك، فالآية واردة على سبيل (المجاز المرسل) كقولهم: بنى الملك المدينة أي أمر ببنائها، مع أنه لم يبن شيئاً منها، وكقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [السجدة: ١١] وقوله في آية أخرى: ﴿أَنَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] نُسب التوفي إليه سبحانه، فهو الأمر بقبض روح الميت، والذي يقبض الروح مَلَكُ الموت، فافهم - رعاك الله - دقائق القرآن!

٦ - قوله تعالى: ﴿وَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] أطلق الوجوه وأراد بها أصحابها المؤمنين، وهذا من (إطلاق الجزء وإرادة الكل)، ففيه (مجاز مرسل) وفي الحديث الشريف: «فيكشف الحجاب، فما أعطي المؤمنون شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجه ربهم جل وعلا» رواه مسلم.

٧ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تِلْكَ الْبُتُونُ﴾ [القيامة: ٢٦، ٢٧] الضمير في (بلغت) راجع إلى الروح، وإن لم يخبر لها ذكر، لأن الكلام يدل عليها، أي إذا بلغت الروح أعالي الصدر - العظام التي تكون عند الشرح - وهي التراقي، جمع ترقوة، وأشرقت على الموت، وقال أهل المريض: من يرقبه ويشفيه مما هو فيه؟ والاستفهام بمعنى الطلب، كأنهم يطلبون له طبيباً يعالجه. قال الشوكاني: وتكنى ببلوغ النفس التراقي، على الإشفاء على الموت، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿مَلَأُوا إِبْرَاهِيمَ الْأَخْلَافَ﴾ [الواقعة: ٨٣] والمقصود: تذكيرهم شدة الحال عند نزول الموت. اهـ. تفسير الشوكاني ٣٣٨/٥.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تِلْكَ الْبُتُونُ﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠] المراد بالتغاف الساقى بالساق: اجتماع الأهل والشدائد عليه، شدة كرب الدنيا،

مع شدة كرب الآخرة، كما يُقال: شُمرت الحربُ عن ساقها، فالآية مجازٌ عن الكرب والشدة، وهذا مروى عن ابن عباس، قال: هو آخرُ يومٍ من أيام الدنيا، وأولُ يومٍ من أيام الآخرة، فتلطّي عليه الشدة بالشدة. تفسير ابن كثير.

وعلى هذا القول يكون ذلك من باب التمثيل،

وقال ابن المسيب: هما ساقاه حين تلقان في أكفاته.

وقال الحسن البصري: ماتت رجلاه فلم تحملاه، وقد كان عليهما جواراً،

يسير بهما نحو المعاصي.

وعلى هذا تكون الآية على الحقيقة، لا على المجاز والاستعارة.

٩ - قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَوَازٍ ۚ ثُمَّ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَوَازٍ ۚ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥] تهديدٌ ووعيدٌ، مقرون بالدعاء عليه بالهلاك، أي ويلٌ لك أيها الشقي الفاجر، ثم ويلٌ لك على طغيانك وفجورك!! نزلت الآيات في (أبي جهل) لقيه رسول الله ﷺ في أحد طرقات مكة، فأمسكه بمجامع ثوبه، ثم قال له: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَوَازٍ ۚ﴾ فقال له أبو جهل: أثهددني وتتوعدني يا محمد؟ والله لا نستطيع لا أنت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئاً، وإني لأعزُّ من مشى بين شعاب مكة!! فلما كان يوم بدر صرعه الله، وقتله شرٌّ قتلة!! كرر اللفظ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَوَازٍ ۚ﴾ مبالغةً في الوعيد والتهديد، وفي الآية التفاتٌ، من (الغائب إلى المخاطب) زيادةً في التوبيخ له والتشنيع، لأن ما قبله: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَوَازٍ ۚ﴾ [القيامة: ٣٣] بصيغة الغائب، ثم جاء بلفظ المخاطب ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَوَازٍ ۚ﴾.

١٠ - قوله تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ إِلَّا قَوْمٌ يَلْعَنُونَ﴾ [القيامة: ٣٦] استفهامٌ للإنكار والتوبيخ، أي هل يظنُّ الكافرُ الفاجر، أن يُترك هَملاً من غير تكليف، بحيث يبقى كالبهائم والأنعام، يسرخ ويمرح، دون حساب ولا جزاء؟ لا ينبغي أن يظنُّ هذا الظنُّ الكاذب، والمقصود من الآية إثبات يوم المعاد، ولهذا جاءت الآية بعده وهي:

١١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ يَكْفُرُ كُلُّ يَمِينٍ ۖ قُلُوبُهُمْ لَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجُومًا ۚ﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨] استفهامٌ للتقرير مع التوبيخ، أي أما كان هذا الإنسان، المتكبرُ على ربه، نطفةً ضعيفةً، تُراق وتُصبُّ في الأرحام؟ ثم أصبح بعد ذلك غُلقةً تعلق بجدار الرحم، ثم خلقه الله في أبداع صورة، وأحسن تقويم؟ وجعل من النطفة الواحدة نوعين: ذكراً، وأنثى؟ مع أن النطفة واحدة؟ نَبّه سبحانه بهذا

على خشة قدر الإنسان أولاً، وعلى كمال قدرته تعالى ثانياً، حيث صيّر مثل هذا الشيء الدنيء (المنني) الذي يخرج من مكان النجاسة بشراً سوياً، ولهذا ختم الآيات بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [البقرة: ١٧٩] أي ليس ذلك الذي أنشأ هذا الخلق البديع، وقدر عليه، بقادرٍ على أن يعيد خلقه بعد وفاته وفنائه؟ بلى ونحن على ذلك من الشاهدين!!

ومن السنة إذا قرأ المسلم هذه الآية، أن يقول: (بلى وأنا على ذلك من الشاهدين) وكذلك إذا قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [التين: ٨] أن يقول ذلك، لما ورد من تعليمه ﷺ ذلك لأصحابه، فقد روى أبو داود عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم بالتين والزيتون، فانتهى إلى آخرها» ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ: ﴿لَا أُشْفِقُ يَوْمَ يَكْفُتُ﴾ فانتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فليقل: بلى» رواه أبو داود، وذكره ابن كثير ٤/ ٤٨٢ في تفسيره.



الإبداع البياني في سورة الإنسان

١ - قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ عَلَى الْإِنْسَانِ مَنْ ذَكَرَ مِنْ ذِكْرِهِ لَمْ يَخْرُ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] (هل) بمعنى (قد) استفهام للتقرير والتوكيد، كما تقول: هل رأيت صنيعة فلان؟ وقد علمت أنه رآه، ومعنى الآية: لقد أتى على الإنسان، وقت طويل من الزمان، كان في عداد الموتى، لم يكن له ذُكْرٌ ولا أُنْر، ثم أوجده خالق الكون، وبارئ النُسم.

والإنسان نفسه آية من آيات الله الباهرة، ومظهر من مظاهر قدرته ووحدانيته جل وعلا، فقد أبدع الله خلقه، فركب فيه الحواس (السمع، البصر، العقل، النطق) قائلين: كيف كان قبل أن يُخلق؟ من الذي أوجده؟ ومن الذي صوره بهذه الصورة البديعة؟ أليس هو الله رب العالمين؟

والمقصود من الآية: تقرير الإنسان الذي ينكر البعث، بالاعتراف بعدم وجوده، ثم التفكير بعد ذلك، بمن خلقه وأوجده، بعد أن لم يكن إنساناً سوياً، فيقال له: من خلقك؟ فكيف تنكر إحياءك بعد موتك؟

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا بِأَعْيُنِنَا لَكَ شَتَّى لَطِيفًا﴾ [الإنسان: ٧] المستطير: الساطع المنتشر، شبه أهرال وشدائد يوم القيامة، بالنور الذي سطع وانتشر، حتى عم أرجاء السموات والأرض، بطريق (الاستعارة البديعة) أي شرُّ ذلك اليوم العصيب، بلغت أهواله وشدائده، أقصى حدود الشدة والفرع، حتى كأنه ريح عاصفة، أثلفت البشر والشجر.

قال قتادة: استطار والله شرُّ ذلك اليوم، حتى ملأ السموات والأرض. اهـ ابن كثير. لم يقل: شره عظيم، وإنما استعار لفظ (مستطيراً) الذي يشير إلى الانتشار المذهل، الذي يفيد التعبير، ليدل على الشدة والهول، الذي يأخذ بالأنفاس، نجانا الله من هول ذلك اليوم العصيب.

٣ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْكِرُ لَوْنَهُمْ لَئِيْلًا يُدْبِرُ مَا لَهُمْ لَبِئْسَ مَا لَكُمُ الْإِنْسَانُ: ٩﴾ [الإنسان: ٩] ذكروا وجه الله (كناية بديعة) عن ثوابه ورضوانه، أي إنما نحسن إليكم

وننطمعكم، طلباً لثواب الله، وابتغاء مرضاته، لا نقصد منكم الحمد والثناء على هذا الإحسان.

قال مجاهد: لم يتكلموا بهذا، ولم يقولوه بالاستهم، ولكن عَلِمَ اللَّهُ ذلك من قلوبهم، فأتى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب. اهـ ابن كثير ٤/ ٤٨٥.

١ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأُولَادِ﴾ [الإنسان: ١٠] (عبوساً): العبوس: تقطيب الوجه من الألم الذي يحصل في القلب، والقمطير: الشديذ العصب الذي يطول بلاؤه، واليوم لا يوصف بالعبوس، لأنه لا وجه له حتى يقطب به، فالمراد أهله، أي تقبّل فيه الوجوه وتكلّح، من فظاعة أمره، وشدة هوله، ففيه (مجاز عقلي) من إسناد الشيء إلى زمانه وأهله، مثل قولهم: فلان ليله قائم، ونهاره صائم، أي يقوم الليل ويصوم النهار، ومن هذا المجاز قوله تعالى: ﴿لَا تَكْرِهْ يُؤْتِيهِمْ عَلَيْكَ ذِكْرُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ﴾ [سبا: ٣٣] نسب المكز إلى الليل والنهار، وهو لأهله، والمراد به من كان سبباً لشقاقتهم، وهم الدعاة المضلون أي: مكركم بنا في الليل والنهار.

٥ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأُولَادِ﴾ [الإنسان: ١٩] في الآية (تشبيه بديع رائع) يسمى (التشبيه التمثيلي) شبه الولدان لحسنهم، وصفاء ألوانهم، وانتشارهم بين أهل الجنة، باللؤلؤ المنشور، والحكمة في تشبيههم باللؤلؤ المنشور، أن اللؤلؤ إذا لم يُثقب، يكون أشد صفاء، وأحسن منظراً، وأجمل ما يكون إذا كان منشوراً أي متفرقاً هنا، وهناك، لوقوع شعاع بعضه على بعض، فإذا كان الخادم كاللؤلؤ، يشع بالجمال والبهاء، فكيف يكون المخدم من أهل الجنة؟

٦ - قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا كُنُوزَكُمْ لِلْيَوْمِ الَّذِي يَكُونُ الْكَافِرُونَ﴾ [الإنسان: ٢٤] صيغة (كفور) من صيغ المبالغة، ومعناه المبالغ في الكفر والجحود، و(أو) في قوله: ﴿أَوْ كُفُّوا﴾ بمعنى (ولا) أي لا تطع آثماً ولا كفوراً، وليست بمعنى (أو) التي هي للتخيير، بل هي للتحذير من إطاعة كل فاجر، منهك في المعاصي والإجرام، وكل جاحل كافر بربه.

قال الزجاج: دخول الألف هنا، أكد من الوار وحذها، لأنك إذا قلت: لا تطع زيدا وعمراً، فاطاع أحدهما لم يكن عاصياً، لأنه أمره أن

لا يُطِيعَ الإثنين، فإذا قال: ﴿وَلَا تَطِيعُ بَيْنَهُمَا بَيْنَاءُؤُ كَثُورًا﴾ دل ذلك على أن كل واحد منهما ينبغي أن يُعصى، كما إذا قلت: لا تُخالف الحسن أو ابن سيرين، كأنك تقول: إنهما أهل لأن يُشعأ، وكل واحد منهما أهل أن يُشع. اهـ تفسير الشوكاني ٣٥٠/٥.



الإبداع البياني في سورة المرسلات

١ - قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ ۚ بَلَىٰ يَؤُومٌ ۚ﴾ [المرسلات: ١١، ١٢] أصل (أنت) وقفت من الوقت أي جعل لها وقت محدد للشهادة على أمها، وللفضل بين الأنبياء والمكذبين، والاستفهام هنا (لأي يوم) لتعظيم ذلك اليوم وتهويل شأنه كما أن الاستفهام في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ [المرسلات: ١٤] لزيادة تفضيع الأمر وتهويله، لأنه يوم عصيب، وكرب رهيب.

٢ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْفِيُ لِلْكَافِرِينَ﴾ [الإنسان: ١٥] كررت هذه الآية في هذه السورة (عشر مرات) لمزيد التخويف والترهيب، والتكرار في مقام الترهيب منحس، لا سيما إذا تغايرت الآيات التي أندروا بها.

٣ - قوله تعالى: ﴿أَنزَجَلِ الْأَرْضَ كَنَاءً ۖ وَأَنزَلْنَا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦] الكف: الضم والجمع، وفي الآية تشبيه بديع للأرض، شبهها بالأم تحضن أولادها، والمعنى: ألم نجعل هذه الأرض التي تعيشون عليها، كالأم الحانية الحاضنة لكم؟ تجمع الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها، الأحياء يسكنون في الدور، والأموات يسكنون في القبور، فقد جمعت بين الأحياء والأموات، والتكبير للتضخيم، والتعظيم.

٤ - قوله تعالى: ﴿أَطْلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي تَتَنَبَّسٍ ۖ لَا ظِلٌّ وَلَا يُبْقِي مِنَ النَّارِ﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١] تسمية عذاب جهنم بالظل، أسلوب (سخرية وتهكم) فإن الظل ما يدفع عن الإنسان وهج الحر، ودخان جهنم ليس بظل، إنما هو العذاب نفسه، فهو ظل خائق، ودخان أسود قائم، فكيف يستظل به المرء من الحر؟ فتسميته بالظل، للسخرية والتهكم.

٥ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَزِمْنَا بِهِنَّ الْقَعْرَ ۚ كَالْقَعْرِ ۚ لَأَنَّهُ جَنَّاتٌ مُّزْرَ﴾ [المرسلات: ٣٢، ٣٣] في الآية تشبيه مخيف، يسمى (التشبيه التمثيلي) شبه تعالى الشر الذي يتطاير من جهنم بالقصر، وهو البناء الضخم، وشبه لون هذا الشر، بالأبل الصفرة، في الكثرة وسرعة الحركة، وهذا التشبيه من روائع صور

التشبيه، لأن الشرارة إذا كانت مثل القصر الضخم، فكيف تكون حال تلك النار الملتهبة؟ والمعنى: إن جهنم ترمي بشرر عظيم، كل شرارة كأنها قصر شامخ، في العظم والضحامة، وكأن شررها المتطاير من لهبها يشبه (الجمالة الصفر) جمع جل أي يشبه الجمل الأصفر من شدة اللهب.

٦ - قوله تعالى: ﴿مَذْيُومَ الْفَصَلِ حَتَّكَوْا وَالْأَوَّلِ • فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ [المرسلات: ٣٨، ٣٩] أي هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي يفصل الله فيه بحكمه العادل، بين السعداء والأشقياء، وأهل الجنة وأهل السعير، فإن كان لكم حيلة في الخلاص من العذاب فاحتالوا، وأنقذوا أنفسكم من هذا البلاء والعذاب، وهذا أسلوب تقريع (وتعجيز وتوبيخ)!!

٧ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَشُكِّرُوا • كَلُوا وَاشْتَبُوا لَيْلًا إِنَّكُمْ تُعْرِضُونَ﴾ [المرسلات: ٤٥، ٤٦] هذا وعيد وتهديد للكفرة الفجار، أي كلوا من لذائذ الدنيا، واستمتعوا بشهواتها الفانية، كما هو شأن اليهائم، التي همها ملء بطونها، ونيل شهواتها، فإنكم مجرمون لا تستحقون الرحمة والكرامة، فالأمر هنا واردة على وجه (التهديد والوعيد) بدليل وصفهم بالإجرام.

٨ - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَشُكِّرُوا • وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ لَا يَرْكَبُوا﴾ [المرسلات: ٤٧، ٤٨] أطلق (الركوع) وأراد به (الصلاة) أي وإذا قيل لهم: صلوا لربكم واسجدوا له لا يصلون ولا يسجدون، ففي الآية مجاز بديع، يسمى (المجاز المرسل) من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، لأن الركوع أحد أركان الصلاة، وإن تعجب فعجب والله شأن الكفار، يأبون السجود للرحمن، ويسجدون للأوثان، وهي حجارة لا تضر ولا تنفع!!

٩ - قوله تعالى: ﴿يَأْتِي حَبِيبٌ نَقْدُهُ يُؤْمِنُ﴾ [المرسلات: ٥٠] كثر بالحديث عن القرآن العظيم، أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، الواضح الساطع، فبأي كتاب وبأي كلام يصدقون ويؤمنون؟ هل هناك كلام أصدق من كلام رب العالمين؟ تكررت هذه الآية ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَشُكِّرُوا﴾ عشر مرات، للتحذير والوعيد، فعقب كل آية وخبر، يتوعدهم ويهددهم رب العزة والجلال، بالمصير المشؤم الذي ينتظرهم.



الإبداع البياني في سورة النبا

١ - قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمِعُونَ لَهُمْ مَسَلِّمُونَ﴾ [النبا: ٤، ٥] الآية فيها إسهابٌ يتكرر الجملة، للوعيد والتهديد، و(كَلَّا) للردع والزجر، أي ليرتدع هؤلاء الجهلاء، المكذِّبون بالبعث والنشور، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وسخريتهم، ﴿لَا يَسْتَمِعُونَ﴾ تأكيد للوعيد، مع التهويل له والتشديد، أي سوف يعلمون ما يحلُّ بهم من ألوان الكرب والعذاب.

٢ - قوله تعالى: ﴿أَنْزَجْنَاهُ مِنَ الْأَرْضِ هَذَا﴾ [النبا: ٦، ٧] في الآية تشبيه بديع يُسمَّى (التشبيه البليغ) لحذف أداة التشبيه ووجه الشبه، وأصل الكلام: جعلنا الأرض لكم كالمهاد - الفراش - الذي يفرشه النائم، تبنون عليها وتسكنون، وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض، نُثَبِّئُهَا ونَحْفَظُ توازنها، لئلا تضطرب بكم وتزلزل، فحذف من الكلام كلُّ هذا فأصبح بليغاً، كقولنا: عليَّ أسدٌ، أي كالأسد في الشجاعة والقوة، ومثلها: ﴿وَحَمَلَهَا إِلَيْنَا﴾ [النبا: ١٠] أي كاللباس، بغشاكم ويستركم بظلامه، كما يستر اللباس عورة صاحبه، فالآية على التمثيل والتشبيه.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبا: ١٩] فيها أيضاً تشبيه، أي تصدعت وتشققت السماء لتنزل الملائكة منها، فصار فيها مثلُ الأبواب، بعد أن لم يكن بها شقوق ولا صدوع، فالتشبيه هنا (بليغٌ وبديع)، أي صارت السماء كلها كأنها أبواب، مفتحة من هول الموقف العصيب.

٤ - قوله تعالى: ﴿إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبا: ٢١] المرصاد: العكان الذي يجلس فيه العدو، ليرصد عدوه حتى يبطش به، شبه تعالى جهنم بإنسان، جلس على مرتفع من الأرض، يترقب مرور عدوه، لينقض عليه فيقتله، ففي الآية (تشبيه تمثيلي) بديع، من روائع صور التمثيل.

ومعنى الآية: إن جهنم تترصد وترقب نزلاءها الكفار لتلتقطهم، كما

يتربص الإنسان عدوّه، فجهدتم لا يجاوزها شقي، وكأنها تنتظر أعداء الله، لتخطفهم إليها، ويا له من تمثيل بديع!!

٥ - قوله تعالى: ﴿لَيْسَ مِنَّا أَهْلًا﴾ [النبا: ٢٣] (الأحقاب): جمع جُثب وهو الدهر، والزمن الطويل الذي لا نهاية له، أي ماكثين في جهنم دهوراً متتابعة، كلّما مضى دهرٌ تبعه دهر، وهو (كتابة) عن التأيد، ولهذا جاء منكراً (أحقاباً) ليغيد التأيد.

قال القرطبي: أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب أي الدهور، وهي لا تنقطع. اهـ تفسير القرطبي.

٦ - قوله تعالى: ﴿مَذْمُومًا لِّزَيْدِكُمُ الْإِعْدَابُ﴾ [النبا: ٣٠] الأمر هنا للإهانة والتحقير، وليس على أهل النار آية هي أشدّ من هذه الآية، كلّما استغاثوا بنوع من العذاب، أغيثوا بأشدّ منه، وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب، زيادة في التوبيخ والإهانة.

٧ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ سُجًّا﴾ [النبا: ٣٨] (الروح): جبريل عليه الصلاة والسلام وهو داخل في زمرة الملائكة، فقد ذكر مرتين: مرة استقلالاً، ومرة في جملة الملائكة، تنبيهاً على جلالة قدره، ويسمّى هذا (ذكر العام بعد الخاص) للعناية به، وهو من الأسلوب البياني الرائع.



الإبداع البياني في سورة النازعات

١ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَشجارُ تَرْجُفُهَا الرّادفةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧] (الرجافة، والردافة) كلُّ منهما (كناية) عن النفخة الأولى، والنفخة الثانية في الصور، سميت الأولى (راجفة) لأن عندها يرتجف ويتزلزل كلُّ شيء ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأشجارُ وَالْجبالُ﴾ [المزمل: ١٤] ثم تتبعها النفخة الثانية وهي (الرادفة) التي تأتي بعدها، الأولى تُعيب الخلق، والثانية تحييمهم، لا يبقى عند وقوع الأولى حيٌّ إلا مات، ولا عند وقوع الثانية ميتٌ إلا بُعث، وجميعها براهين ودلائل على هول يوم القيامة.

٢ - قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَ يَوْمٍ راجفةٌ﴾ [النازعات: ٨، ٩] (راجفة) خائفة فرعة (خاشعة) ذليلة منكسرة، نسبُ الخوف والفرع إلى القلوب، والمراد بها أصحابها (الكفار الفجار) أي قلوب الكفار المتكررين للبعث والتشور، خائفة فرعة، أبصار أصحابها ذليلة منكسرة، لهول ما ترى من الشدائد والبلايا، ففي الآية (مجازٌ عقليٌّ) لأن الأبصار لا تخشع ولا تذلل، إنما الذين يخافون ويفزعون، هم أصحاب القلوب، وأصحاب الأبصار، مثل قوله تعالى: ﴿رَسَلْنَا نوحًا إِلَىٰ كُتْلَيْهِمَا وَالْمِيزَ إِلَىٰ إِفْكائِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] أي اسأل أهل القرية، وأهل الإبل.

٣ - قوله تعالى: ﴿مَلَأْنَا بَدِئَ نوحٍ﴾ [النازعات: ١٥] استفهام بأسلوب بديع يسمى بأسلوب (التشويق والترغيب) لسماع الخبر والقصة، كما تقول لإنسان: هل تدري ما حدث اليوم؟ تريد لفت انتباهه، وتشويقه لسماع الخبر.

٤ - قوله تعالى: ﴿قُلْنَا إِنَّكَ نَكالُ الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥] (نكال) عقوبة، وكفى بالآخرة والأولى عن مقالاتيه الشنيعتين: الأولى وهي قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ بِهِ إِلاَّ عَذَابٌ﴾ [الفصص: ٣٨] والآخرية وهي قوله: ﴿أَنَّا رَتَقْنَا الْآخِلَ﴾ [النازعات: ٢٤] والمعنى: غاقبه الله وأهلكه بسبب كلمتيه الفاجرتين، وجعله عبرة لمن يعتبر، في الدنيا بالعذاب الأليم، وفي الآخرة بعذاب الجحيم.

الإبداع البياني في سورة عبس

١ - قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ وَمَا يَذَّكَّرُ لَهُمْ يَذَّكَّرُ ۝﴾ [عبس: ١ - ٣]
 جاء الخبر بضمير الغائب ﴿عَسَىٰ يَكُونَ﴾ تليقاً به ﷺ، وإجلالاً لمقامه ﷺ، فلم يعاتبه ربّه مشافهةً، كأن يقول: عبست يا محمد وتوليت، لما في المخاطبة من الشدة والصعوبة ما لا يخفى!! واسم الأعمى (عبد الله بن أم مكتوم) وسبب نزول السورة، أن الرسول ﷺ كان مع صناديد قريش، يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فجاء إليه (ابن أم مكتوم) وهو أعمى فقال يا رسول الله: علّمني مثلاً علمك الله!! وكرّر ذلك وهو لا يعلم أن الرسول مشغول مع القوم، فكره الرسول ﷺ معيته وسؤاله في هذا الوقت، وعبس أي قطب وجهه وأعرض عنه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إن أتباعه السفلة، والعيذ، والعميان، فعبس في وجهه ولم يلتفت له، وأقبل على القوم يحدثهم، فنزلت الآيات: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝﴾ فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يَبْشُرُ في وجهه ويكرمه، ويقول له: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي» تفسير القرطبي.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ لَهُمْ يَذَّكَّرُ ۝﴾ [عبس: ٣، ٤]
 في الآية (التفات من الغيبة إلى الخطاب) زيادة في العتاب، وهو من المحسنات البديعية، ولو جاء الكلام على الأصل، لقال: وما يذريه؟ وإنما وردت الآية بطريق (الالتفات) تنبيهاً لسيد الأنبياء بشأن ذلك الأعمى، الذي لم يعلم بانشغال النبي ﷺ مع زعماء قريش، ولذلك جاء يسأل عن بعض أمور الذين.

٣ - قوله تعالى: ﴿تَفَرَّقَ فِي ذَرْبٍ ۝ مَرَّةً ذَرَأَ ۝﴾ [عبس: ١١، ١٢] تسليةً للنبي ﷺ بعد ذلك العتاب، كأنه يقول له: لن نؤاخذك يا أيها الرسول على ما فعلته، ولكن لا تعُدْ إلى مثله، وكفّ عن التصدي للكبراء والعظماء، واعتنِ بشأن الفقراء والضعفاء، فهؤلاء هم الذين يُرجى منهم الخير!! ولولا هذا التلطّف من الله برسوله ﷺ، لكاد قلب النبي أن يتفطر، من شدة الحزن والألم، ولكن الله واساه بهذه الآية، ومع هذا العتاب للرسول ﷺ فقد بلغ هذا الوحي

كما نزل عليه، ولم يكتف شيئا منه، تنفيذاً لأمر الله عز وجل: ﴿يَتَّبِعُوا الرُّسُولَ يَنْفَعَا أَرْسِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ولو كان يطلع كاتماً من الوحي شيئاً، لكتف هذه الآيات، كما يقول المفسرون.

وروي أنه عليه الصلاة والسلام ما حبس بعد ذلك في وجه فقير قط، ولا تصدى لغني، وكان الفقراء في مجلسه أمراء، يُقربهم ويدنيههم منه.

٤ - قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ آيَاتِنَا أَكْثَرَ﴾ [عبس: ١٧] المراد بالإنسان: الكافر المجاهد لوجود الله ونعمه، والآية دعاء عليه بأشنع الدعوات وأفظعها، وتعجيب من إصراره على الكفر والمصيان، مع كثرة إحسان الله تعالى إليه، أي قاتل الله هذا الكافر الفاجر، ما أشد كفره بالله!! والصيغة صيغة تفضيع، وتقبيح، وتشنيع لأمره، كأن الله يقول: أدعوا على هذا الكافر، بالموت واللعن، لارتكابه مع ربه أعظم القبائح والشنايع، ما أشد كفره لمن خلقه، ورزقه، ورباه!!

٥ - قوله تعالى: ﴿مَنْ أَيْتَى خَلْقَهُ يَنْظُرْ خَلْقَهُ فَنَفَرُ﴾ [عبس: ١٨، ١٩] الاستفهام للتحقير لشأن الكافر، والتوبيخ له، لإنكاره فضل الله عليه، وفيه ما يُسمى (بالتفصيل بعد الإجمال) فقد أجمل الكلام، ثم فضله بقوله: ﴿يَنْظُرْ خَلْقَهُ فَنَفَرُ﴾. ومعنى الآية الكريمة: من أي شيء خلق الله هذا الكافر حتى يتكبر على ربه؟ أليس من شيء مهين حقير، وهو (المنهي) الذي يشبه المخاط؟ فكيف يتكبر على ربه، وهو بهذا الضعف وهذه الحقارة؟ قال الحسن البصري: كيف يتكبر من خرج من مكان البول مرتين؟ يريد به عضو الرجل، وفرج المرأة، وكلاهما مكان للبول والنجاسة.

٦ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الْبَيْلَ يَنْزُرُ ۚ ثُمَّ أَنَا لَهُ أَفْزَرُ﴾ [عبس: ٢٠، ٢١] (السبيل) كناية عن (فرج المرأة) وهي كناية لطيفة بديعة، وأصل معنى البيل: الطريق، أي يشر له طريق الخروج من بطن أمه، ولولا أنه سبحانه يشر خروجه، فجعل رأسه منكوساً وقت الولادة، لاختنق في بطن أمه، ولما عاش من الألف إلا واحد، أو نحتاج إلى شق بطن الأم في كل ولادة، كما هو الحال في (الولادة القيصرية). ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَا لَهُ أَفْزَرُ﴾ أي جعل له قبراً يُوارى فيه، ولم يتركه ملقى للسباع والوحوش، كما هو الشأن في البهائم، وهذه تكريمة لذرية آدم على سائر الحيوانات، يُقال: أقبر الميت: إذا أمر بدفنه ومُكن له، وقبرته: إذا دفنته، وعدَّ تعالى الموت نعمة، لأنه طريق إلى الحياة الأبدية.

٧ - قوله تعالى: ﴿لَيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ إِنَّ حَيَاتَ الْآلَةِ مَاءٌ ثُمَّ شَقَّقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿عبس: ٢٤ - ٢٦﴾ المراد بالنظر: نظرٌ (التفكر والاعتبار) لا مجرد النظر، والمعنى: لينظر هذا الإنسان الغافل، إلى أمر رزقه ومعاشه، كيف هيا الله له أسباب العيش الكريم، فأنزل له المطر من السحاب إنزالاً عجيباً، جعله ينزل قطرات، قطرات، لا ينصب دفعة واحدة، لئلا يَتَلَف الثمر، ويُفسد الزرع والنبات، ثم شق الأرض لخروج النبات شقاً بديعاً ۝ وفي هذه الآية (لفتة بديعة) إلى القدرة الباهرة، التي أودعها الله في هذه البذرة الضعيفة، فإن هذه النواة، أو البذرة، تشق الأرض الصلبة، فيخرج منها ساق، تتكون منها شجرة باسقة، تحمل الفواكه والثمار، وهي (معجزة باهرة) يراها الناس بأبصارهم، ولكنهم يغفلون عن مصدر هذه القوة، التي أوجدها الله في هذه النواة، أو في هذه البذرة الضعيفة ۝

٨ - قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ إِنَّا جَعَلْنَا لَكَ لَآئِنِيكَ﴾ ﴿عبس: ٣١، ٣٢﴾ (الآب): المرعى الذي ترعاه البهائم، كالحشيش، والكلا، وسائر ما تخرجه الأرض طعاماً للحيوان، وفي الآية من المحسنات البديعية، ما يسنى (باللف والنشر المرتب) فإن الفاكهة طعام للإنسان، والآب طعام للحيوان، فجمعهما أولاً، ثم أعاد المنفعة الحاصلة منهما مرتباً، فقال: ﴿فَنَنْتَ لَكَ﴾ عاد إلى الأول الفاكهة ﴿وَلَآئِنِيكَ﴾ عاد إلى الثاني الآب، وهو الكلا والغشيب الذي ترعاه البهائم، ذكر ذلك بالإجمال، ثم أعقبه بالتوضيح والبيان.

٩ - قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْفَاءُ﴾ ﴿عبس: ٣٨، ٣٩﴾ مضيئة متهللة مشرقة، أي أصحابها وأهلها مسرورون، بما يشاهدونه من النعيم المقيم، الذي أكرمهم الله به، وهي وجوه أهل السعادة، وقابل ذلك بحال الأشقياء وجوه أهل النار، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْفَاءُ﴾ ﴿عبس: ٤٠، ٤١﴾ القشرة السوداء، والظلمة، وهي وجوه أهل الشقاء والإجرام، فقابل بين السعداء والأشقياء، بهذه المقابلة اللطيفة البديعة، وفي الآية (مجاز مرسل) حيث أطلق الوجوه، وأراد بها أصحابها، أي أصحاب تلك الوجوه.



الإبداع البياني في سورة التكويد

١ - قوله تعالى: ﴿وَالْمَوْءِدَةُ شَيْتَةٌ﴾ [التكويد: ٨، ٩] (المؤودة): البئس التي دُفنت وهي حبة، وهذه منتهى الوحشية من سفهاء الجاهلية، حيث كانوا يغبونها في حفرة وهي على قيد الحياة، والغرض من سؤالها: التوبيخ لقاتلها، لأنها ستقول: دُفنت بلا ذنب. قال في الكشاف: (كان الرجل إذا وُلدت له بنت، وأراد إبقاءها، ألبسها جبة من صوف أو شعر، وجعلها ترعى له الإبل والغنم، وإن أراد قتلها تركها حتى تبلغ ست سنين، فيقول لأنما طيبها وزينها، لأذهب بها لأعمامها، وقد خُفّر لها بشراً في الصحراء، فيأخذها فيقول لها: انظري ماذا هنا؟ ثم يدفعها من خلفها، ويهيل عليها التراب). تفسير الكشاف.

٢ - قوله سبحانه: ﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْحَيْرِ﴾ [التكويد: ١٥، ١٦] (الحُيْس): وصفٌ للنجوم التي تختفي بالنهار، وتظهر بالليل، أي أقسم لكم بهذه النجوم، الساطعات الزاهرات، التي تختفي بالنهار، (الحُيْس) هي النجوم الجارية التي تسير في أفلاكها، ثم تدخل في كناسها، وأصل الكناس: الكهف الذي تأوي إليه الظباء، جمع ظبي، فيه تشبيه بديع رائع، باختفاء النجوم عن الأنظار، كأن النجوم ظباء دخلت في كهوفها مختفية عن الأنظار، وفي هذا التشبيه جمال وإبداع، يعرفه علماء الفصاحة والبيان.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا غَشِيَ وَالْفَجْرُ إِذَا تَنَسَّرَ﴾ [التكويد: ١٧، ١٨] ﴿غَشِيَ﴾ أقبل بظلامه الدامس ﴿تَنَسَّرَ﴾ أضاء وأشرق بنوره الساطع، أقسم تعالى بالليل، إذا جاء بظلامه الحالِك، حتى غطى الكون، وبالصبح إذا أضاء وأشرق، وانبج نورُه، حتى أصبح نهاراً ساطعاً مضيئاً.

وفي هذه الآية من جمال (الاستعارة البديعة) ما يأخذ بالألباب، فقد شبه النورَ ينبج به الصبح، بنسَمات الهواء العليل، تُخيي القلب والنفس، وشبه الفجر بنائم، يَغْطُ في سُبات عميق، والفجر حي يتنفس، أنفاسه: (النور،

والحركة، والضياء) كأنه كان نائماً ثم استيقظ، فاستنشق الهواء المنعش للنفس، واستعاد نشاطه وحيويته، وإنما جاءت روعة التعبير والبيان، من هذه الاستعارة البديعة ﴿وَأَلْقَيْتُ بِالْقَلَمِ﴾ فما أروع هذا التمثيل، وأبدع هذا البيان؟!

٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩] أضاف القرآن إلى (جبريل) وهو في الحقيقة قول الله عز وجل، لأنه نزل به من عند الله، فإسناده إليه (مجازاً) باعتبار أنه السبب في نزوله كما قال سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ أَلْفًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وإسناده إليه باعتبار (المسيبة) في الإنزال والإيصال، ومما يدل على ذلك، وصف جبريل بالقوة، والمكانة عند رب العرش جل جلاله، وأنه أمين على الوحي، وأن الملائكة تطيع أمره لأنه رئيسهم.

٥ - قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَ كُرُورٍ﴾ [التكوير: ٢٢] في الآية (كناية) لطيفة، لم يقل تعالى: وما محمدٌ بمجنون، وإنما كنى عنه بقوله: ﴿صَاحِبَ كُرٍ﴾ دون اسمه الشريف (محمد) ليتوخيهم، ويبين سخافة ما افتروا به عليه، من الكذب على الله، ورميهم له بالجنون، كما قالوا: ﴿بَنَاتِهَا الَّذِي شِئِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّهُ لَمُخَوَّنٌ﴾ [الحجر: ٦] كأنه يقول لهم: لقد صاخبكم محمد أربعين سنة، قبل أن ينزل عليه الوحي، وقد عرفتم صدقه، وأمانته، وكمال عقله، حتى كنتم تلقبونه بـ(الصادق الأمين) أفلا تكفي هذه المدة الطويلة، لمعرفة حقيقة أمره، هل هو صادق أم كاذب؟ في دعوى النبوة؟ أفليست لكم عقول تدركون بها صدق رسالته؟ ﴿فَتَكَذَّبْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ عُزْرَاءَ مِن قَبْلُ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] ففي الآية تلميح بسفاهة عقولهم، وتشجيع عليهم بما افتروه وزعموه.

٦ - قوله تعالى: ﴿وَمَا مَوْعِدُكَ يَوْمَ تَفُوتُ أَتَأْتِيَنَّهُمْ بَغْزٌ غَاسِقٌ أَعْيُنُهُمْ كَالضَّفَادِ اللَّامِثَةِ﴾ [التكوير: ٢٥، ٢٦] أي ليس هذا القرآن المعجز، من قول بعض الشياطين كما افترقتم وزعمتم، فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم لهذا القرآن، مع سطوع بيانه، وروعة إعجازه!!

وفي هذا التعبير ﴿تَأْتِيَنَّهُمْ بَغْزٌ غَاسِقٌ﴾ تسفيه لهم وتضليل، فيما ينسبونه إلى القرآن، كما تقول لمن ترك الطريق الواضح: هذا هو الطريق فأين تذهب؟ شُبّهت حالهم بحال من ترك الجادة المستقيمة، وذهب في الشُعاب والوديان حتى هلك، ومعنى الآية: أين تذهب عقولكم بهذا المنطق المخيف، يا أصحاب العقول النيرة؟!

الإبداع البياني في سورة الانفطار

١ - قوله تعالى: ﴿رَبِّهِ الْكَوَكِبِ أَتَنَزَّلُ﴾ [الانفطار: ٢] في الآية استعارة لطيفة نسى (الاستعارة المكنية) حيث شبه النجوم بجواهر منتظمة في عقد، قُطِعَ بذلك هذا العقد، فتناثر متفرقة، وطوى ذكر المشبه به، وهو (العقد) المنظوم، وزمزه بشيء من لوازمه، وهو (الانتشار) على طريقة (الاستعارة المكنية)، وهي من لطيف أنواع الاستعارة.

٢ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] استفهام للعتاب والتوبيخ، أي كيف تجرأت على عصيان أمر ربك، مع إحسانه إليك، وعطفه عليك!! والمراد بالإنسان: الكافر، بدليل الاستفهام الذي هو للتوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ خطاب للكافر، أي ما الذي غرّك وخدّعت حتى كفرت بربك الكريم، الذي تفضل عليك في الدنيا، فأكمل خلقتك وحواشك، وجعلك عاقلاً، سميعاً بصيراً، وأغدق عليك الرزق والنعمة؟

قال الحسن البصري: غرّه شيطانه الخبيث.

وقال عمر رضي الله عنه: غرّه والله جهله.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْيَوْمِ ثُمَّ مَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨] كرر اللفظ لزيادة النهويل، والتعظيم لأمر يوم القيامة، كأنه من الهول والشدة، فوق الوصف والخيال، إظهاراً لهوله وفخامته.

٤ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] التذكير في قوله: ﴿نَفْسٌ لِنَفْسٍ﴾ للتعميم، وليبين هول ذلك اليوم العصيب، الذي قال الله تعالى عنه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] أي لا تستطيع نفعا لها بوجه من الوجوه.



الإبداع البياني في سورة المطففين

١ - قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ أَوْ لِيُنْفِضُوا إِلَيْكَ رُسُلَهُمْ لَقِيَهُمْ بِصُورٍ﴾ [المطففين: ٣] فيه (إيجاز بالحذف) حذف الجارز ووصل بالفعل، أي كالوا لهم، أو وزّئوا لهم، يُنْقِصُونَ من المكيال والميزان، ولهذا جاء الوعيد لهم بالويل والعذاب.

رُوي عن ابن عباس قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلاً، فلما نزلت السورة، كانوا من أحسن الناس كيلاً بعد ذلك» رواء النسائي.

٢ - قوله تعالى: ﴿أَلَا يَنْظُرُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ شَاعَتُونَ﴾ [المطففين: ٤]، [٥] أدخل الهمزة على (أ) النافية للتوبيخ، وفي الآية إنكار وتعجيب من حالهم، والمعنى: ألا يعلم ويستيقن أولئك الظلمة، أنهم سيّئون ليوم عصب رهيب، يقفون فيه بين يدي الجبار جلّ جلاله، لينالوا جزاءهم وعقابهم؟ وفي هذا الإنكار والتعجيب، ما لا يخفى من شدة الهول.

أما اليوم العظيم فهو (يوم القيامة) ولهذا فشره بقوله سبحانه بعده ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَنْفُسُ إِلَىٰ أَلْتَّالِيْنَ﴾ [المطففين: ٦] أي يقومون من قبورهم فزعين، ويقفون بين يدي ربّ العالمين، للحساب والجزاء، وجاء في الحديث الشريف: «إن العرق يلجم أخذهم، حتى يغيب في رشحه إلى أنصاف أذنيه» رواء مسلم.

٣ - قوله تعالى: ﴿تَقَوُّنَ مِنَ رَّحِيْقٍ مَّخْتَوِيٍّ بِجَنَّتَيْهِ يَنْفَخُ فِيْهِ سَافِرٌ﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦] الرحيق: الخمر البيضاء الصافية، وهي صافي الخمر وخالطها، الذي لا غش فيه، ولم تذكرها الأبيدي.

قال ابن عباس: (طيب الله لهم الخمر، فكان آخر طعمه مختم بمسك). وفي الآية تشبيه بديع يسمى (التشبيه البليغ) أي كالمسك في طيب الرائحة، حذفت منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً.

الإبداع البياني في سورة الانشقاق

- ١- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُ وَابْنًا وَرَحْمَةً...﴾ [الانشقاق: ١، ٢]
جواب (إذا) في الآيات الأربع محذوفٌ للتحويل، وزيادة الفزع والتخويف، أي إذا حدث ذلك كله، لقي الإنسان من الشدائد والأحوال، ما لا يتصوره الخيال.
- ٢- قوله تعالى: ﴿وَنَافِلًا أَوْفَى كَيْفَ يُبِيدُ...﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]
في الآية (كناية) لطيفة، فقد كثُرَ بالحساب اليسير عن (الغرض) أي تعرض على المؤمن بعض أعماله، ويذكره الله بفضل عليه وإنعامه، ثم يدخله الجنة من غير حساب ولا عذاب، وفي الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من ثَوَّقَ الحسابَ حُذِبَ، فقلت: أفليس الله عز وجل يقول: ﴿غُفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مِائَةً أَلْفًا مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأَ لَهُمْ أَفْوَاجًا﴾ [الانشقاق: ٨]؟ فقال: ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك الغرض، من ثَوَّقَ الحساب يوم القيامة حُذِبَ» رواه البخاري، وفي رواية أخرى: «إنما ذاك الغرض، وليس أحد يحاسب يوم القيامة، إِلَّا هَلَكَ» رواه البخاري.
- ٣- قوله تعالى: ﴿لَنَرَكُنَّ فِطْرًا طَيِّبًا﴾ [الانشقاق: ١٩]
الطَّبِيقُ في الآية: (كناية) عن الهول والشدّة، التي سيلقاها الإنسان في الآخرة. والمعنى: ستلاقون يا معشر البشر، أحوالاً وشدائد، هي طبقات في الشدة والفظاعة، بعضها أشد من بعض، أولها مكراث الموت، وما بعدها من أحوال يوم القيامة العصيب.
- قال ابن القيم: ﴿لَنَرَكُنَّ فِطْرًا طَيِّبًا﴾ أي حالاً بعد حال، فأول أطباقه: كونه نطفة، ثم غلقة، ثم مضغة، ثم جنيناً، ثم مولوداً، ثم رضيعاً، ثم فطيماً، ثم صحيحاً أو مريضاً، إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة، إلى أن يموت ثم يُبعث، ثم يوقف بين يدي الله عز وجل ثم يصير إلى الجنة أو النار. اهـ تفسير ابن القيم ص ٥٠٩.
- ٤- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْسِلُ...﴾ [الانشقاق: ٢٣، ٢٤]

(يوعون) أي يجمعون في صدورهم ويضمرون من الكفر، والحسد، وعداوة الرسول، واستعمال البشارة في موضع الإنذار، تهكم وسخرية بالكفار، ﴿مَتَّعْنَاهُمْ بِمَذَاقٍ آخَرَ﴾ وازد بأسلوب السخرية والتهكم بهم.



الإبداع البياني في سورة البروج

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْصُرُوا عَنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِآثِقِ الْغَيْبِ﴾ [البروج: ٨] في الآية من الأسلوب البديع، ما يُسمى بـ (تأكيد المدح بما يشبه الذم) كأنه يقول: ليس لهم جريمة عند هؤلاء الفجار، إلا لأنهم آمنوا بالله، وكفروا بالطاغوت، وهذه فضيلة وليس بذنب، ويسمى في علم البديع (المدح بما يشبه الذم).

٢ - قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنتَ حَدِيثُ الْخُودِ﴾ [البروج: ١٧] أسلوب التشويق لسماع القصة والخبر، أي هل يلفك يا محمد خبرُ الجموع الكافرة، الذين تحزبوا على رسل الله وأنبيائه؟ ماذا فعل الله بهم؟ وكيف أهلكهم الله ودمرهم؟ والآية متضمنة تسليته عليه الصلاة والسلام، بأنه سيصيب قَوْمَهُ ما أصاب الجنود الكافرة، من الأمم السابقة، من أنواع العذاب والولاء.

٣ - قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاكَ كَفْرًا فِي تَكْذِيبٍ وَأَنْتَ مِنْ زَاوَاهُمْ تُحِيطُ﴾ [البروج: ١٩، ٢٠] ﴿تَكْذِيبٍ﴾ مصدرٌ أتى به للمبالغة، و(يل) للإضراب، أي لم يعتبر كفار مكة بما حل بالكفرة المجرمين، بل هم مستمرّون في الكفر والتكذيب، والجمعود والعناد، فهم أشدّ طغياناً وفجوراً من السابقين.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْتَ مِنْ زَاوَاهُمْ تُحِيطُ﴾ تمثيل لعدم نجاتهم من عذاب الله، يقوم أحاط بهم العدو من كل جانب، فسُدّ عليهم الطرق والمالك، والمراد بالآية. بيان قرب هلاكهم، وبإله من تمثيل بديع!!

تنبيه: انظر توضيح قصة أصحاب الأخدود في (صحيح مسلم) وفي كتابنا (التفسير الواضح الميسر) ص ١٥٥٠ وهي من روائع القصص القرآني، وضّحها النبي ﷺ بأسلوبه البديع!!



الإبداع البياني في سورة الطارق

١ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الطارق: ٢، ٣] الاستفهام للتفخيم والتعظيم للأمر، والطارق مأخوذ من الطَّرَق وهو الضرب الشديد، وكل ما أتى ليلاً فهو طارق، قال الشاعر:

يَا زَائِدَ اللَّيْلِ مَسْرُوراً بِأَرْلِهِ إِذْ الْحَوَادِثُ قَدْ يَطْرُقُنْ أَشْحَاراً
ثم فسر الطارق بأنه النجم الثاقب المضيء، الذي يثقب الظلام بنوره، ولهذا قال: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ سمي النجم طارقاً، لأنه يظهر بالليل ويختفي بالنهار، وقد كثر القسم في كتاب الله المجيد بالشمس، والقمر، والنجوم، لأن أمورها جليلة، تشهد بعظمة الخالق المبدع ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَنَاجِزِ النَّجُورِ﴾ وإنه لقسمتكم نَقْلُورَ عَظِيمُ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] فالقسم بها للتفخيم والتعظيم لشأنها.

٢ - قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦، ٧] في الآية (كتابة بديعة لطيفة) فقد كثي بالصلب عن الرجل، وبالترائب عن المرأة، وهذا من (لطيف الكنايات) وأبدعها، أي يخرج الماء الدافق من صلب الرجل، ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها، جمع «تريبة» وهي ما بين الثديين، كما قال ابن عباس، وقد جاء العلم الحديث بمخترعاته ومكتشفاته ليخبر عن هذه الحقيقة التي حدث عنها القرآن، فقد كشف العلم الحديث أن في عظام الظهر يتكوّن ماء الرجل، وفي عظام الصدر العلوية يتكوّن ماء المرأة، وعند اللقاء الجنسي يتدفق المني بقوة وشدة. ويلتقي مع (البريضة الأنثوية) ليجتمعا في قرار مكين، هو (الرحم) وخلق الإنسان من نقطة مهينة (معجزة المعجزات) وأعجوبة الأعاجيب، فهذا الماء الدافق من صلب الرجل، يحمل معه جيشاً جراراً من الجنود الشجعان المغاوير، يُسمّيها علماء الأجنة (الحيوانات المنوية) وفي الدفقة الواحدة، يتدفق ما يزيد على أربعة ملايين حيوان منوي، واحد منها يكفي لإنجاب إنسان، وهنا ندرك سُرّ قول الباري جل وعلا: ﴿قَسَطَ الْإِثْمُ وَيَكُنَّ خُلُقًا مِّنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ لشرى عظمة المبدع الحكيم!!

٣ - قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ثَبَلًا فَسَخَّرْنَا بِآيَاتِنَا لِقَوْمٍ كَانَ يَعْزِقُ فِيهِمْ مِّنَ السَّحَابِ فَنَزَّلْنَا مِن تَحْتِهَا الْإِبْرَاهِيمَ الْبُخَارَ الْمُتَنَزِّلَ فَنُفِثْنَا لَهُ الرُّيحَ فَفُثَّتْ فَمِن مَّاءٍ مِّنْ ذَٰلِكَ شَجَرَةُ الْغَيْثِ ۚ وَأَنزَلْنَا لَهُ مَائِدَتًا مِّنَ السَّمَاءِ تَاجِيَةً ۚ إِنَّهُ يَفْقَهُ بِآيَاتِنَا ۚ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]

شُئِي المطر بالرجع، لعوده إلى الأرض بعد أن يخرج منها، والمرب كانوا يعرقون، أن المطر الذي ينزل من السحاب، أصله من البحار، يرتفع بواسطة الأبخرة إلى الأعلى، ثم يرجع من السحب إلى الأرض، كما قال قائلهم: كالبحر تُمطره السماء ومائها فضل عليه لأنه من مائه والله تعالى أخبرنا عن هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ثَبَلًا فَسَخَّرْنَا بِآيَاتِنَا لِقَوْمٍ كَانَ يَعْزِقُ فِيهِمْ مِّنَ السَّحَابِ فَنَزَّلْنَا مِن تَحْتِهَا الْإِبْرَاهِيمَ الْبُخَارَ الْمُتَنَزِّلَ فَنُفِثْنَا لَهُ الرُّيحَ فَفُثَّتْ فَمِن مَّاءٍ مِّنْ ذَٰلِكَ شَجَرَةُ الْغَيْثِ ۚ وَأَنزَلْنَا لَهُ مَائِدَتًا مِّنَ السَّمَاءِ تَاجِيَةً ۚ إِنَّهُ يَفْقَهُ بِآيَاتِنَا ۚ﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١] والمراد بالصدع: الشق، وهو ما تنشق عنه الأرض وتصدع، فيخرج عنها النبات والثمر.

٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۚ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۚ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] الكيد من الكفار: الاحتيال والمكر، أي يحتالون لإطفاء نور الله، والمكر من الله: بمعنى المجازاة، أي إنهم يمكرون وأجازيهم على مكرهم، بالإمهال، ثم أخذهم بالعذاب والثكال، ولا يجوز إطلاق هذا الوصف على الله تعالى، إلا على وجه الجزاء، فسيئ بالكيد من (باب المشاكلة) وهي الاتفاق في اللفظ، مع الاختلاف في المعنى، كقول الشاعر:

قَالُوا اقْشِرْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبِخُهُ قُلْتُ اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَبِيضًا وَمِثْلُ هَذَا مَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، عَنِ الْخِدَاعِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ، وَالسَّخَرَةِ الْخ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٤٢] وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ لِنَاصِرُونَ ۚ اللَّهُ يَنْتَهِي إِلَيْهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥] وقوله جل ثناؤه: ﴿يَسْتَحِرُّونَ بِمَاءٍ مِّنْ عَيْنِ اللَّهِ فَهُمْ عَلَىٰ عَذَابٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧٩] كلها محمولة على وجه المجازاة والمعاقبة لهم على إجرامهم، كما نبه على ذلك الحافظ ابن كثير، فتدبر هذا والله يرعاك !



الإبداع البياني في سورة الغاشية

١ - قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ خَبِيرٌ﴾ [الغاشية: ١، ٢] استفهام أريد به التعجب، والتشويق إلى استماع خبره، لأنه من الأخبار الهامة، التي حقها أن يستمعها الناس، ويتناقلوا أحداثها، والمراد بالوجوه (الأعيان والذوات)، فهو (مجاز مرسل) من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) كما يقال: جاءك وجوه القوم أي أعيانهم وشرفاؤهم، والمعنى: هل جاءك يا أيها الرسول خير القيامة، وما يراه البشر فيها من شدائد وأحوال؟ وجوه الفجار الأشقياء في ذلك اليوم ذليلة مهينة، لما يغشاها من الخزي والهوان.

٢ - قوله تعالى: ﴿يَا عِزَّةٌ﴾ [الغاشية: ١٢] لا يُراد بالعين عيناً واحدة، إنما هو (اسم جسر) فالتنوين للتكثير، أي في الجنة عيون كثيرة، يجري ماؤها ولا ينقطع، تجري بالماء السلسيل، وفي الحديث: «أنهار الجنة تُفجر من تحت ثلال المنك» أي جبال المنك، رواه ابن أبي حاتم.

٣ - قوله تعالى: ﴿يَا مَرْزُوقَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣] هذه (كناية بديعة) فقد كثر عن الحور العين، بالسرور، كما كثر عنها بالفُرُش في قوله في سورة الواقعة: ﴿وَمَرْزُوقَةٌ﴾ [الواقعة: ٣٤] والمعنى: فيها سرور مرتفعة، مزينة بالباقوت والزبرجد، عليها الحور العين.

قال الحافظ ابن كثير: فيها سرور عالية رفيعة، كثيرة الفُرُش، عليها الحور العين، فإذا أراد وليُّ الله أن يجلس عليها تواضعت له، أي انخفضت له ليستلقي عليها، ويستمتع بالحور العين.

٤ - قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَ﴾ [الغاشية: ١٧] الهمزة للإنكار والتوبيخ، والمراد بالنظر (نظر الاعتبار والتفكير) في بديع خلق الله، وإنما خص الإبل بالذكر، لأنها أفضل (دواب العرب) وأكثرها نفعاً، لهذا يسمونها (سفينة الصحراء) فانظر إلى خلقها العجيب، فلأنها في غاية الشدة والقوة، تجلس لتوضع عليها الحمولة الثقيلة، ثم تقوم بما تحمله بما يعجز عن

حمله الغضب أولو القوة، ثم صبرها على الجوع والعطش، الأيام العديدة، ورعيها بكل ما يتيسر لها من نبات، وانقيادها للإنسان، فلو كان هناك قافلة من مائة بعير، لقادها طفل صغير، فهذا الخلق البديع لها والتسخير، من عجائب القدرة الباهرة.

٥ - قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرْ إِنَّكَ أَنْتَ مُذَكَّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْبٍ ۚ إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٣] الاستثناء في الآية منقطع، أي لكن من أعرض عن الإيمان، وكفر بالرحمن، فالله جل وعلا يتولى عقابه، ويحرقه بنار جهنم الكبرى، فأنت لست مكلفاً بهداية هؤلاء الأشقياء، إنما عليك التذكير وعلينا الحساب.



الإبداع البياني في سورة الفجر

١ - قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا بَتَرَهُ مَدَى ذِيكَ قَمَّ يَدَى حَمِيرٍ﴾ [الفجر: ٤، ٥] في الآية (استعارة لطيفة بديعة) في قبة الروعة والجمال، فالسرى معناه: السفر ليلاً، شبه الليل بمسافر، يمشي في ظلمة الليل، يقطع الصحارى والقفار، ويختار وقت الليل للمشى، لأنه الطفُّ جواً، وأبعد عن حرارة النهار، وحذف لفظ المسافر، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو السرى - المشى بالليل - على طريق (الاستعارة المكنية) والفرق كبير جداً بين أن يقول: والليل إذا مضى، وبين قوله: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا بَتَرَهُ﴾ كالفارق بين الثرى والثريا، فالتعبير القرآني في غاية الإبداع والإعجاز، لتناسق الآيات لأنها مختومة بحرف الراء (الفجر، عشر، وتر) فجاءت كلمة (يسر) على النظم المتناسق، ولوقال: إذا مضى، لذهب هذا الجمال الساحر، فتدبر روائع القرآن.

٢ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فُصِّلَتْ آيَاتُ﴾ [الفجر: ٦] عبر عن العلم بالرؤية (ألم تر) أي ألم تعلم أيها المخاطب علماً يقينياً، كيف عذب الله عاداً قوم هود؟ وكيف أهلكهم بالريح الصرصر العاتية؟ ولما عبر بالرقية لأن أخبار عاد، ودرعون، وثمود، كانت منقولة بالتواتر، وقد عرفوا ما حدث عليهم، فالعلم بهم جارٍ مجرى الرؤية العينية.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠] في الآية (كناية لطيفة) فقد كثر عن الجنود، والجموع، والجيوش التي كان فرعون يتقوى بها (بالأوتاد)، لأنها كانت عُدته وعمدته.

قال ابن عباس: الأوتاد: الجنود الذين يشدون له أمره، تفسير ابن كثير ٥٤٣/٤.

٤ - قوله تعالى: ﴿فَقَسَّ عَلَيْهِمْ ذِيكَ سَوَاطِئَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣، ١٤] في الآية (استعارة بديعة) استعار لفظ (السواط) للعذاب الذي نزل عليهم بغزارة وكثرة، تشبيهاً له بالمطر المدرار، المنصب من السماء،

فكان العذاب لكثرتِه وشدته، مطرٌ غزير مدرار، انصبَّ عليهم كسباطٍ لاذعة، وأشار بلفظ الصبِّ إلى كثرتِه وتتابعه.

٥ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تُكْرَهُ الْقَبْرُ﴾ [الفجر: ١٧] في الآية التفاتٌ من ضمير الغائب، إلى ضمير الخطاب، زيادة في التوبيخ والعتاب، وسباق الكلام: كلا بل لا يكرمون النسيم، فعدل عنه إلى الخطاب، وهو من (المحسنات البديعية).

٦ - قوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثُ﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠]. الثراث: يراد به الميراث، ومعنى ﴿لَث﴾ أي شديداً بحرصٍ وشره.

والمعنى: تأكلون الميراث أكلاً شديداً، لا تسألون أهو من حلالٍ أم حرام؟ وهذا وصفٌ لهم بالظلم والعدوان على حقوق الآخرين، فقد كان العربي يأخذ نصيبه ونصيب غيره، ولا يعطون الأثى ولا الصغير.

وجاء التعبير بصيغة المصدر ﴿تَأْكُلُونَ﴾ لزيادة التأكيد على الخبر، فإن العرب إذا أرادوا التأكيد، كرروه بصيغة المصدر.

٧ - قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُنَا أَنْقَرُ الْمَوْجِةِ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] هذا يقال للمؤمن عند الاحتضار، قبل نزع الروح منه، لتكون للمؤمن بشرى عاجلة، سارة له قبل موته، كما تبشّره الملائكة بالروح والريحان، ودخول الجنان، قال تعالى إخباراً عن حال المؤمن المحتضر: ﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهِ وَرُحْمَةً مِنْهُ وَرُضْوَانٍ مِنْهَا بَاقِيَةً﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].



الإبداع البياني في سورة البلد

١ - قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِمَا أُبَدِّلُ﴾ [البلد: ١، ٢] استفاض عند العرب زيادة (لا) لتأكيد الكلام، والمعنى: أقسم لكم قسماً مؤكداً بالبلد الحرام (مكة) شرفها الله، وأنت يا أيها الرسول ساكن ومقيم بالبلد الأمين، وفائدة (لا) تأكيد القسم، قال امرؤ القيس: «فَلَا وَأَيُّكَ ابْنَةُ الغامري»! يعني: وأييك.

٢ - قوله تعالى: ﴿يَحْتَسِرُ لَرَأَيْتُ عَبْدًا﴾ [البلد: ٥] الاستفهام هنا (إنكارى) للتقريع والتوبيخ، أي هل يظن الكافر الفاجر، أن لن يقدر على الانتقام منه أحد؟ الضمير يعود إلى أحد صناديد فريش، وهو (أبو الأشد بن كِلدة) كان طاغية جباراً، يغتر بقوة وشدة، كان يوضع له الجلد الغليظ تحت قدميه، ويجذبه عشرة من الأقوياء، فيتقطع ولا تنزل قدماه.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمَذِينَةُ السَّبِيلِ﴾ [البلد: ١٠] استعارة لطيفة بديعة، فاصل السُّجْد: الطريق المرتفع، أي أرشدناه إلى طريق الخير، وطريق الشر، ليسلك طريق الهدى، ويترك طريق الضلال، فاستعير كل منهما لسلوك طريق السعادة، وسلوك طريق الشقاوة، ففيها (الاستعارة التمثيلية) وهي من أطف أنواع الاستعارة.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَزِيدُ مَا أَنْفَقْتُ﴾ [البلد: ١١، ١٢] الاستفهام ﴿وَمَا أَزِيدُ مَا أَنْفَقْتُ﴾ للتحويل والتعظيم لشأنها، يقول: فلأ أنفق ماله في اجتياز العقبة الكؤود؟ بدل أن ينفقه في عداوة محمد؟ وأصل العقبة: الطريق الوعر في الجبل، وفي الآية (استعارة لطيفة) أراد بالعقبة هنا: الشدائد والأهوال التي يلقاها الكافر في الآخرة، وهذا مثل ضربه الله لذلك الشقي الكافر (أبي الأشد بن كِلدة) الذي كان يقول فخراً ومباهاة: لقد أنفقت مالا كثيراً في معادة محمد.

٥ - قوله تعالى: ﴿مَكَارِهِيْ﴾ [البلد: ١٣] أطلق الرقبة وأراد بها إعتاق عبده

أو أمة، وتخليصه من الرق والعبودية، ففيه (مجاز مرسل) من باب (إطلاق
الجزء وإرادة الكل) وهو معروف ومشهور في أساليب العرب، يقولون: أرسلت
الدولة عيونها أي جواميسها، وجاء وجوه القوم: أي أشرافها وأعيانها.



الإبداع البياني في سورة الشمس

١ - قوله تعالى: ﴿فَدَاخِعَ مُرُؤْنَهَا وَقَدَحَاتٍ مِّنْ دُخَانِهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] أي فاز ونال مبتغاه، من زكَّى نفسه بطاعة الرحمن، وطهرها من دنس الآثام، وقد خاب وخسر من أخفاها وحفرها بمعصية الله، وبالفسور والمعاصي، وأصل التدسية: الإخفاء، فالعاصي يدس نفسه بالمعصية، ويتوارى عن الخلق من سوء ما يصنع، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وعند الناس، فسقط من عداد العقلاء، وصار في عداد البهائم، وفي الآية (تمثيل) للكافر الفاجر، بالساقط من أوج العز والكرامة، إلى حضيض الذل والهوان.

٢ - قوله تعالى: ﴿نَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣] إضافة الناقة - أنشئ الجمل - إلى الله تعالى ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ للتكريم والتشريف، نُسبت إلى الله تشريقاً مثل (بيت الله) لأنها خرجت من صخرة صفاء، معجزة لنبي الله (صالح) عليه السلام، أي احذروا الناقة وسقياها (ناقة صالح) والله تعالى ليس له ناقة ولا جمل!

٣ - قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَتَوَنَّى﴾ [الشمس: ١٤] أي أهلكهم الله ودمرهم عن آخرهم، ولم يبق منهم أحداً، فالآية واردة مورد (التحويل والتفطيع)، فإن لفظ (الدمدمة) يدل على هول العذاب وشدة، والدمدمة: إهلاك باستئصال، يقال: دمدم الله عليهم أي أهلكهم عن بكرة أبيهم. تفسير الشوكاني ٤٤٧/٥.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٥] العقبى: عاقبة الشيء وما يتبعه من مسؤولية.

والمعنى: ولا يخاف رب العزة والجلال، عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، كما يخاف الملوك والرؤساء عاقبة أفعالهم، لأنهم يخشون ثورة الشعوب والأمم عليها. قال الشوكاني: أي فعل الله ذلك بهم، غير خائف من عاقبة ولا تبعه. اهـ تفسير الشوكاني ٤٤٧/٥.

الإبداع البياني في سورة الليل

١ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ أَنزَلْنَاهُ فِي سِدْرٍ مَّطْهَرٍ مُّتَبَيَّنٍّ لِلْيَشْرَى﴾ [الليل: ٥ - ٧] سُمِّيَ اللَّهُ تعالى طريق الخير (يُشْرَى) لَأَن عَاقِبَتَهَا الْيُسْرُ، وهي الجنة دارُ النعيم، وسُمِّيَ طريق الشرِّ (عُشْرَى) لَأَن عَاقِبَتَهَا الْعُسْرُ، وهي دخول نار الجحيم، وبين (اليُسْرَى) و(العُشْرَى) طباقٌ وهو من (المحسنات البديعية).

٢ - قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا الْأَنْزَلُ﴾ [الليل: ١٧] المراد بالأنقى (أبو بكر الصديق) رضي الله عنه، ولا يمكن حمل الآية على (علي) رضي الله عنه كما يقول الشيعة، لأن الله تعالى قال في وصف هذا الأنقى ﴿وَمَا الْأَحَدُ بِمَدُّ مِنْ يَقِينٍ نَزَقَ﴾ [الليل: ١٩] وهذا لا يصدق على (علي) لأنه كان في بيت النبي ﷺ، رباه ﷺ وكان يطعمه ويشفقه، ويكسوه، وينفق عليه، لأنه أخذه من أبيه (أبي طالب) لفقره وكثرة عياله، فله عليه (نعمة) فثبت أن الآية - كما يقول المفسرون - نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن كثير: ذكر غير واحد من المفسرين، أن هذه الآيات نزلت في (أبي بكر الصديق) رضي الله عنه، حتى حكى بعضهم الإجماع على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، وهو مقدم الأمة وسابقتهم في جميع هذه الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً، تقياً، جواداً، كريماً، بذل أمواله في طاعة مولاة، ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دنانير بذلها ابتغاء وجه ربّه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عليه منّة، يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن فضلّه وإحسانه كان على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال فيه (عروة بن مسعود) وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد - أي نعمة - لك عندي لم أجزك عليها لأجبتك - وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة - فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب، ورؤساء القبائل، فكيف بمن غداهم؟ ولهذا قال تعالى عنه: ﴿وَمَا يَأْخُذُ عِندَ مَنْ يُنْتَوَىٰ تَجَرَّبَا﴾ [آلِ أَنْبِيَاءٍ وَتَوَارَىٰ الْأَعْلَىٰ] وَلَسَوْفَ يَرَىٰ ﴿[الليل: ١٩ - ٢١] اهـ تفسير ابن كثير ٥٥٧/٤.

الإبداع البياني في سورة الضحى

١ - قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَى • وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى • مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى ﴾ [الضحى: ١ - ٣] اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، ولم يخرج إلى الناس، فجاءت امرأة (أبي لهب) إلى رسول الله ﷺ، فقالت يا محمد: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد هَجَرَكَ - تقصد بالشيطان جبريل الذي ينزل بالوحي - لم أره قُرْبِكَ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَى • وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ السورة، رواه البخاري. (سجى الليل): اشتد ظلامه (قلَى) أبغض، أقسم تعالى بالضحى وضياؤه، وبالليل إذا اشتد ظلامه، بأنه سبحانه لم يهجر محمداً، ولم يبغضه، وهذا ردُّ على المشركين ونسفية لقولهم: إن محمداً قد هَجَرَهُ رَبُّهُ وأبغضه، فـقَطَعَ الوحي عنه!! إن انقطاع الوحي عن رسول الله ﷺ مدةً من الزمن، فيه لطف بالنبي الكريم، كما أن انقطاع نور الشمس عن الناس بالليل، فيه لطف بالبشر، حيث يخلد الناس إلى الراحة والهدوء، وكما أن غياب الشمس لا يكون على الدوام، بل يعقبه نور الصباح الوضاء، كذلك أمر الوحي، فهو إبطاء يعقبه نور وبهاء، فالقصّة إذاً زيادة حب، وعلو شرف، وإشراق بعد غياب، ليزداد الرسول شوقاً إلى اللقاء، وهذه كرامة عظيمة له ﷺ، أن يُقسم له ربه، بأنه حبيب إليه، قريب منه، رفيع القدر والشان عند ربه!!

٢ - قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَبْتُ فَلَا نَهَرٌ • وَأَمَّا السَّابِلُ فَلَا نَهْرٌ • وَأَمَّا يَنْتَوِي بَرُّكَ فَخَلَّتْ ﴾ [الضحى: ٩ - ١١] لقد أنعم الله على نبيه محمد ﷺ في هذه السورة الكريمة بنعم ثلاث، وأوصاه بمقابلها برصايا ثلاث:

الأولى: ﴿ أَلَمْ يَعِدْكَ رَبُّكَ بِمَا تَدَّوَى ﴾ [الضحى: ٦] أي ألم تكن يتيماً فرعاك الله، وهياً لك من يعطف عليك، ويكفلك حتى بلغت سن الرشد!!

وقابلها بقوله: ﴿ فَأَمَّا الْيَبْتُ فَلَا نَهْرٌ ﴾ أي فلا تُنهت ولا تحقره، ولا تغلبه على ماله، بل أحسن إليه، وكن لليتيم كالآب الرحيم.

الثانية: ﴿ وَوَعَدَكَ صَاحِبُكَ بِمَا نَهَدَى ﴾ [الضحى: ٧] أي كنت تائهاً عن معرفة

الشريعة والدين، لا تعرف القرآن، فتور الله قلبك وهداك إلى الإيمان والرحمة. وقابلها بقوله: ﴿وَأَنَا يَمُنُّ رَبُّكَ حَدِيثٌ﴾ أي علم الناس كما علمك الله، وأرشدهم إلى طريق الخير والسعادة، واشكر ربك على نعمة الهداية والمعرفة.

الثالثة: ﴿وَوَجَدَكَ غَائِبًا قَائِمًا﴾ [الضحى: ٨] أي كنت فقيراً محتاجاً فأغناك الله عن الخلق.

وقابلها بقوله: ﴿وَأَنَا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي لا تطرد السائل ولا تزجره، إذا سألك بمض الموعظة والإحسان وكان الآيات تقول لسيد المرسلين: كنت يتيمًا، وتائهاً، وفقيراً، فأواك الله، وهداك، وأغناك، فتعطف على اليتيم، وترحم على السائل، وأرشد الضالين إلى طريق الهداية والدين، كما هداك الله إلى دينه القويم.

تنبيه هام: قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ لا يراد بالضلال في الآية: الضلال الذي يقابل الهدى والإيمان، كضلال أهل الجاهلية، وأهل الزين والشرك، إنما الضلال هنا بمعنى الغفلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حُكِّمَتْ مِنْ قَبْلِهِ لَبِيسَ آفَافِيكَ﴾ [يوسف: ٣] هذا اختيار الزجاج، وقيل: معنى ﴿ضَالًّا﴾ أي لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع، فهذا الله لذلك. اهـ تفسير الشوكاني ٤٥٦/٥.

فلا ينبغي لأحد أن يظن أن رسول الله ﷺ كان في أول حياته ضالاً، يعبد غير الله، أو يرتكب الفواحش والموبقات، فأخرجه الله من ظلمة الضلال، هذا خطأ فاحش، لا يخطر ببال أحد من المسلمين، لأنه عليه الصلاة والسلام كان على الهداية والفطرة، منذ نومة أظفاره، لم يشرب خمرًا، ولم يعبد صنماً، ولا كان على دين قومه، وكان يعرف بين جميع قومه بطهارة النفس، والبعد عن كل الفواحش والموبقات، فتدبر هذا والله يردك.



الإبداع البياني في سورة الإنشراح

١ - قوله تعالى: ﴿الْزُّقَرَّحَ لَكَ مَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] الاستفهام في الآية للتقرير، يقرّره تعالى بالاعتراف بنعمة الله عليه، وللامتنان على الرسول والتذكير له بالنعمة، أي لقد شرحنا صدرك يا محمد بالهداية والإيمان، ونورناه بأنوار اليقين والقرآن، فاشكر ربك على هذه النعمة الجليلة، وفم بواجب تبليغ الدعوة، مهما تحملت من متاعب ومشاق.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَاكَ وَرَدًا • أَلَيْسَ لَكَ لَهْرًا﴾ [الشرح: ٢، ٣] في الآية استعارة بدیعة تسمى (الاستعارة التمثيلية) شبه تعالى ما كان يحمله الرسول ﷺ من هموم وأكدار، وحزنه وتحسّره على عدم إيمان قومه، بحمل ثقيل، يُرهق ظهر الإنسان، فأذهب الله عنه الهم والغم، بتسليته بالآيات البينات، التي كانت تنزل عليه، تُواسيه وتُسليه، كقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ فَنَّمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا يَأْتِيهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي مَسْئٍ يُشَاقِقُونَ﴾ [الشحل: ١٢٨] وغيرها من الآيات الكريمة، فالآية تمثيل لما كان يلقاه الرسول ﷺ من هموم وأكدار، في سبيل تبليغ دعوة الله، بالحمل الثقيل الذي يُرهق كاهل الإنسان بطريق (الاستعارة التمثيلية).

٣ - قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَعَ الْفِتْرِ مِتْرًا • إِنَّمَا مَعَ الْفِتْرِ مِتْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦] تنكير اليسر في الآيتين، للتفخيم والتعظيم، وكرّره لبيان أن الفرج قريب، أي إن لك بعد هذا الضيق فرجاً، وبعد ذلك الكرب مخرجاً، وفي هذه الآيات بشارة للرسول ﷺ بأن الله سيحول حاله من العسر إلى اليسر، ومن الضيق إلى السعة، وقد حقق الله له ذلك، فأعزّه ونصره على أعدائه، وجعل دين الإسلام منتشراً في أنحاء المعمورة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، أفواجا.

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَتَى النَّفْسَ الْكَافِرَةَ﴾ [الشرح: ٧، ٨].
 النَّفْسُ: الشَّعْبُ، أي إذا فرغت من دعوة النَّاسِ إلى الله، فأتَيْتَ نفسك،
 واجتهد في عبادة ربك، واجعلْ هَمَّكَ ورغبتك فيما عند الله، لا في هذه الدنيا
 الزائلة الفانية، فَإِنَّ ما عند الله خَيْرٌ وأبقى.



الإبداع البياني في سورة التين

١ - قوله تعالى: ﴿الزيتون﴾ [التين: ١] هذا قسم أقسم الله به، ولا يُراد بالتين والزيتون حقيقتهما، التين الذي يؤكل، والزيتون الذي يُعصر، بل هو قسم بالمواقع التي بنيت فيها التين والزيتون، وهي بلاد فلسطين، والشام، وبيت المقدس، التي كانت مهداً للرسالات السماوية، وبها ظهر أنبياء الله ورسله الكرام، بدليل أن الله عطف عليها (جبل الطور) الذي كلم الله عليه موسى، و(مكة) شرفها الله بلد الله الأمين، فهي أقسام ببقاع مشرفة مباركة، وهو من باب (المجاز المرسل) من باب إطلاق الحال، وإرادة المحل، على رأي أكثر المفسرين.

قال الحافظ ابن كثير: ذهب بعض أئمة التفسير إلى أن هذه محال ثلاث، بعث الله في كل منها نبياً مرسلًا من أولي العزم، أصحاب الشرائع الكبار: قال الأول: محل التين والزيتون، وهو (بيت المقدس) الذي بعث الله فيها (عيسى بن مريم) عليه السلام.

والثاني: (طور سين) وهو طور سيناء، الذي كلم الله عليه (موسى بن عمران) عليه السلام، ونال من التجليات ما نال.

والثالث: (البلد الأمين) الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل الله فيه محمداً ﷺ خاتم النبيين، وقد ذكر في آخر التوراة هذه الأماكن الثلاثة. اهـ تفسير ابن كثير.

قال الإمام الألوسي: والقرص من القسم بهذه الأشياء، الإبانة - أي الكشف - عن شرف البقاع المباركة، وما ظهر فيها من الخير والبركة، ببعثة الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. اهـ تفسير روح المعاني ١٧٤/٣٠.

٢ - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] قوله: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ كناية بديعة لطيفة، عن (نار الجحيم)، أي نرده إلى أسفل دركات النار، أجازنا الله منها.

الإبداع البياني في سورة العلق

١ - قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلَّمَهُ عِزًّا﴾ [العلق: ٩، ١٠] كثرى (بالعبد) عن رسول الله ﷺ، ولم يقل: ينهالك، تفخيماً لشأنه ﷺ وتعظيماً لقدره، وفي الآية تعجيب من حال ذلك الشقي الفاجر (أبي جهل) والمعنى: أخبرني عن حال ذلك المجرم، الذي ينهى أفضل الخلق عن الصلاة، ويتوعد إن صلى، ما أشنع فعله، وما أسخف عقله!!

وأجمع المفسرون على أن المراد (بالعبد) هنا رسول الله ﷺ، وأن الذي نهاه هو اللعين (أبو جهل) حيث قال: لئن رأيت محمداً يصلي، لأطأن على عنقه، ولأعقرن وجهه بالتراب.

٢ - قوله تعالى: ﴿لَأَنِّي لَأُبْنِيَنَّ الشَّقِيَّ إِنِّي بَالِغٌ فِيهِ الْحَقِّ﴾ [العلق: ١٥، ١٦] الناصية: مقدم شعر الرأس، والمراد بالناصية صاحبها، فقيه (مجاز) من باب استناد الشيء إلى صاحبه ومالكه، أي صاحب هذه الناصية كاذب، فاجر، خاطئ، كثير الذنوب والإجرام.

والمعنى: لئن لم يكف هذا الشقي (أبو جهل) عن غيه وضلاله، فلنسحب من ناصيته، ولننقذه في نار الجحيم، ذليلاً مهاناً حقيراً، فلبداع هذا الشقي أهل ناديه ليعينوه ويخلصوه من عذابنا!

سبب النزول: نزلت هذه الآيات في عدو الله (أبي جهل) قال يوماً لسادة قريش: هل يُعقرُ محمدٌ وجهه بالتراب؟ - يعني هل يصلي ويسجد أمامكم لربه - قالوا: نعم، قال: واللآلئ والعزى، لئن رأيتُ يفعل ذلك، لأطأن على عنقه، ولأعقرن وجهه بالتراب، فأقبل ذات يوم على رسول الله ﷺ وهو يصلي، ليطأ على عنقه، فما فجأهم أبو جهل، إلا وهو ينكمص على عقبه - أي يرجع إلى الوراء فرعاً - وهو يثقي وجهه بيديه، فقالوا له: ما لك يا أيا الخكم؟ فقال لهم: والله لقد رأيتُ بيني وبين محمد خندقاً من نار، ورأيت هولاً وأجنحة تكاد تختطفني!! فقال النبي ﷺ: «لو دنا مني لتخطفتني الملائكة فوضوا عضواً». روى

هذه القصة البخاري والنسائي، وفيه نزلت هذه الآيات الكريمة، انظر البخاري كتاب التفسير ٧٢٤/٨.

٣- قوله تعالى: ﴿لَتَنبَأَنَّ نَاصِيَةً نَّاسِيَةٍ كَذِبَتْ غَابِرَةٌ ۖ فَلْيُنْعُ نَابِئُهُ ۖ فَلْيَنْفَعِ الْإِنبَاءُ﴾ [العلق: ١٥ - ١٨] الناصية: مقدم شعر الرأس، في الآية (مجاز مرسل) وهو من باب (إطلاق الجزء وإرادة الكل) أي سنأخذ بهذا الشقي من ناصيته، وننقذه في نار الجحيم مهاناً مخذولاً، أطلق الناصية وأراد صاحبها، وفي قوله: ﴿لَيُنْعُ نَابِئُهُ﴾ أراد النادي أهل النادي، فهو على حذف مضاف كقوله تعالى: ﴿وَلَتَنبَأَنَّ الْفِتْيَةَ﴾ والنادي: مجتمع العشيرة.



الإبداع البياني في سورة القدر

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] (القَدْر) الشرف والمرتبة الرفيعة، أي أنزلنا هذا القرآن المعجز، في ليلة القَدْر والشرف، سميت (ليلة القدر) لشرفها ورفعة قدرها عند الله، وأتى بضمير الغائب (أنزلناه) الذي يعود على القرآن، مع أنه غير مذكور، للتنويه والتفخيم لشأنه، كأنه حاضر في جميع الأذهان، غير غائب عن البشر.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَيْنَاكَ إِلَّا بِالْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢] ورد بصيغة (الاستفهام) لغرض التفخيم والتعظيم لشأنه، أي ما أعلمك ما هي ليلة القدر؟ هل وصل إلى علمك فضلها، ومكانتها التي اختصت به من بين سائر الليالي؟ إن علو قدرها خارج عن علم البشر، لا يعلمه إلا الله علام الغيوب.

٣ - قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] في الآية الكريمة (إيجاز بالحذف) لظهور المعنى وجلالته، تقديره: العبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر غيرها، والعمل فيها خير من العمل في ألف شهر، لأنها ليلة من أعظم ليالي العُمر، فالآية كما يقول العلماء: على (حذف مضاف).

٤ - قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤] في الآية (ذكر الخاص بعد العام) فذكر جبريل بعد الملائكة، مع أنه داخل في جملةهم، لينبه على جلالة قدره، وعلو منزلته، أي تنزل الملائكة ومعهم (جبريل) رئيس الملائكة، في تلك الليلة المباركة إلى الأرض احتفاء بها، وهذا من المحسنات البديعية.

٥ - قوله تعالى: ﴿مَنْ حَتَّى تَطْلُعَ النُّجُومُ﴾ [القدر: ٥] أي ما هي إلا سلامة وخير كلها من غروب الشمس، إلى طلوع الفجر، حيث تُصَفَّدُ مردة الشياطين فيها، وتُغْلَى عقارب الجن، وتُفْتَحُ فيها أبواب السماء، وما هي إلا أمن وسلامة من بدايتها إلى نهايتها، لا يحدث الله فيها كوارث ونكبات، كالزلازل،

والأعاصير، والفيضانات، فهي خير وبركة كلها، لأنها الليلة العظيمة المباركة، التي بدأ فيها تنزل القرآن.

وقد اختصت هذه الليلة بثلاثة خصائص:

الأول: أن العبادة فيها تعدل ألف شهر في غيرها أي / ٨٣ / سنة وأربعة أشهر.

الثاني: أن ملائكة السماء والعرش، تنزل إلى الأرض احتفاءً بهذه الليلة المباركة ومعهم (جبريل الأمين).

الثالث: أن الله تعالى يكتب فيها الأمن والسلامة لجميع البشر.

سبب النزول: (رؤي أن رجلاً من الأمم السابقة، خنل السلاح وجاهد في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله - ﷺ وعجب أصحابه من ذلك الأمر، وتمنى ﷺ لأمته أن يمد الله في أعمارها، وقال يا رب: جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلها أعمالاً!! فأعطاه الله ليلة القدر، وقال له: ليلة القدر هذه خير لك ولأمتك من ألف شهر، جاهد فيها ذلك الرجل، إلى يوم القيامة) رواه ابن أبي حاتم، وكفى بذلك فضلاً من الله تعالى على هذه الأمة المحمدية، إكراماً لرسوله ﷺ، وتعظيماً وتفهيماً لكتابه الجليل.



الإبداع البياني في سورة البينة

١ - قوله تعالى: ﴿تَعْلِيكَمْ إِلَى اللَّهِ عَالِمِهِ﴾ [البينة: ١، ٢] (متفكرين) أي منتهين عن الكفر، حتى تأتيهم الحجة الواضحة، وهي بعثة خاتم المرسلين ﷺ، ففي الآية من المحسنات البديعية ما يُسمى بـ (التفصيل بعد الإجمال) أجمل البينة أولاً، ثم فصلها بقوله: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ فبعثة الرسول ﷺ هي البينة الكبرى، لأنه أظهر الحق المبين، بتعاليمه الرشيدة، وبالكتاب المعجز للخلق.

٢ - قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا صَفْحًا مِثْلَهُ﴾ [البينة: ٢، ٣] لفظة (مطهرة) فيها (استعارة بديعة) أي منزهة عن الباطل، شبه تنزه كتاب الله عن الزور والباطل، بطهارتها عن الأنجاس، فكما يتنزه الثوب عن النجس، تتنزه هذه الصحف عن الكذب، وعن الزور، والبهتان، والمراد بقوله: ﴿يَتْلُوا صَفْحًا مِثْلَهُ﴾ أي أحكام قيمة، وشرائع وتكاليف محكمة، مسطرة في هذه الصحف الجليلة.

تنبيه: سُمي الله تعالى رسوله محمداً ﷺ وما جاء به (بينة) لأن أمر نبوته ورسالته في غاية الوضوح والجلال، فهو رسول أمي، لا يعرف القراءة والكتابة، جاءهم بكتاب معجز، يحفظه في صدره غيباً، فهذا أعظم دليل وبرهان على صدقه، كما قال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ فَدَعَا لَهُمْ قُلُوبُهُمْ نِيحًا وَيَرْجِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٧٤] أي جاءكم أكبر حجة، وأعظم برهان، وهو بعثة خاتم المرسلين ﷺ بالنور المبين، وهو القرآن العظيم، فهل يُعقل لرجل أمي، أن يأتي بكتاب معجز، من عند نفسه، يتحدّى به جميع الخلق، وهو لا يعرف قراءة ولا كتابه؟

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ أَلَيْسَ أُولَئِكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [البينة: ٤] كُتِبَ بالبينة عن رسول الله ﷺ وهي (كناية بديعة) أي ما اختلف اليهود والنصارى، في شأن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، إلا بعد وضوح الحق، وظهور الأدلة القاطعة، على أنه خاتم النبيين، الذي بشرت به الكتب

السماوية، وقد كانوا يترقبون بعثته بفارغ الصبر ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَاعَوْهُمُ كَقَرْوَانِيَةٍ، فَلَمَّا عَلَّ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

هذه السورة الكريمة، أمر النبي ﷺ أن يقرأها على من خضه الله تعالى بأعظم وسام، وهو (جمع القرآن العظيم) في مصحف واحد، وكان أقرأ الصحابة لكتاب الله عز وجل، وهو (أبي بن كعب) رضي الله عنه.

فقد روي البخاري عن أنس أن النبي ﷺ قال لأبي: إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، أقرأ عليك ﴿لَا يَكْفُرُ الْبَرُّ كَمْوَا﴾ قال أبي: أَللهُ سَمَانِي لَكَ؟ قال ﷺ: أَللهُ سَمَاكَ لِي، فجعل أبي يكي، فقرأ عليه ﷺ: ﴿لَا يَكْفُرُ الْبَرُّ كَمْوَا﴾ فقرأ ﷺ: ﴿لَا يَكْفُرُ الْبَرُّ كَمْوَا﴾ وفي تخصيص (أبي بن كعب) بالقراءة عليه: هو التبيين على أنه أقرأ الصحابة، فإذا قرأ عليه النبي ﷺ - مع عظيم منزلته - كان غيره من الصحابة بطريق التبع له. اهـ فتح الباري ٧٢٦/٨.

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وشفاء صدورنا، وضياء أبصارنا، واجعله شافعاً لنا يوم الدين، برحمتك يا أرحم الراحمين.



الإبداع البياني في سورة الزلزلة

١ - قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١] إضافة الزلزلة إلى الأرض ﴿زِلْزَالَهَا﴾ للتهويل والتفطيع، أي الزلزال الشديد الذي لا يكاد يتصور، من شدته وهوله، كما قال سبحانه: ﴿أَتَقْرَأُ يَتَكَلَّمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] والمعنى: اهتزت الأرض بمن عليها اهتزازاً عتيفاً، يَفْزَعُ الألباب، ويقطع الأكباد، وهذه الزلزلة من علامات الساعة الكبرى.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ الْأَمْثَلُهَا﴾ [الزلزلة: ٢] كثرى بالانقال عن الموتى، وهي (كنية لطيفة) لأن الميت يثقل على الأرض، نحمله في بطنها كما تحمل الأم جنينها في البطن، أي أخرجت الأرض ما في بطنها من الأموات، والكنوز، والأموال.

٣ - قوله تعالى: ﴿قَالَ الْإِنْسَانُ مَاذَا﴾ [الزلزلة: ٣] هذا الاستفهام للتعجب والاستغراب، أي يقول الإنسان قزحاً وهلعاً: ما لهذه الأرض تزلزلت هذه الزلزلة الشديدة؟ وأخرجت ما فيها من الأثقال؟ استعظماً لما رآه من الهول الهائل، والأمر العجيب.

٤ - قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ نَحْنُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، ٥ [أي في ذلك اليوم الرهيب، تُخبر الأرض بما فعل الناس على ظهرها، من خير أو شر، وعمّا فعل البشر من جرائم، وقبائح عليها، وذلك بأمر الله لها أن تنطق، وأن تُخبر بما حدث على ظهرها!!]

قرا رسول الله ﷺ الآية: ﴿يَسْأَلُ نَحْنُ أَخْبَارَهَا﴾ فقال: «أتدرون ما أخبأها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: «فإن أخبرها أن تشهد على كل عبد وأمة، بما عمل على ظهرها!! نقول: عمل يوم كذا، كذا وكذا، فهذه أخبارها» رواه الترمذي.

وفي الحديث الشريف: «تخفطوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عاملٍ عليها، خيراً أو شراً، إلا وهي مخبرة به» رواه الطبراني.

الإبداع البياني في سورة العاديات

١ - قوله تعالى: ﴿وَالْفَيْيَافُ ضَرَّاءٌ تَسْرُبُ فَذَافًا﴾ [العاديات: ١، ٢] هذا قَسَمٌ بخيل المجاهدين، و(العاديات) جمع عادية، وهو وصف لها (بالعدو) أي الركض السريع، أقسم تعالى بخيل الغزاة المجاهدين في سبيل الله، حين تُغير على الأعداء، فيُسمع لها عند إسرائعها، صوت فوق صوت الصهيل، هو صوت أنفاسها، وهي تتسابق لاقتحام الميدان، وتقدحُ بحوافرها الحجارة، فيتطاير منها الشرر، ولقَطُ (العاديات) صفة لموصوف محذوف هي الخيل، أي أقسم لكم بالخيل العاديات، وإذا كان هذا شرفُ الخيل، فما هو الظنُّ يشرف الغزاة؟

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] في الآية التأكيد بـ(إِنَّ) و(اللام) زيادة في التقرير والبيان، ومثله التأكيد في قوله: ﴿وَلَبَّ أَلَمَةً لَّشِيدًا﴾ [العاديات: ٨] المراد بالخير هنا: العال، والكُفُورُ: التجحود، وهي من صيغ المبالغة، ومعناها شديد الكفر والجحود.
قال ابن عباس: (كُفُود) جاحدٌ لنعم ربه.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْتَظِرُ أَجَلَ مَوْتِهِ﴾ [العاديات: ٩] هذا الاستفهام (إنكارِي) ينكر على الإنسان جحوده لفضل ربه، وهو يحمل في طياته الوعيد والتهديد لكل جاحد منكر لفضل الله وإنعامه، ولكل فاجر لا يؤمن بيوم الحساب.

٤ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١] لا يُراد بالآية هنا الإخبار عن علم الله بأعمال البشر، إنما هو متضمن لمعنى (المجازاة) أي مطلع على أعمالهم، ومجازيهم عليها.

تنبيه: إنما أقسم الله عز وجل، بخيل الغزاة المجاهدين في سبيل الله، إظهاراً لشرفها وفضلها عند الله تعالى، لأنها آلة الجهاد في كل

زمانٍ ومكان، لا يُستغنى عنها في المعارك، تصعدُ الجبال، وتهبطُ
 الوديان، وتدخلُ في المضائق التي لا تدخلها دَبَّابةٌ ولا سيارة، ولهذا قال
 نبينا المصطفى ﷺ: «الخيْلُ معقودٌ في نواصيها الخير، إلى يوم القيامة»
 رواه البخاري ومسلم.



الإبداع البياني في سورة القارعة

١ - قوله تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ مَا أَفْرَاقُهَا الْقَارِعَةُ ۝﴾ [القارعة: ١ - ٣] تكرر لفظ القارعة ثلاث مرات، لتهويل أمرها، وتفتيح شأنها، و(القارعة) اسم للقيامة، سُميت بذلك لأنها تفرع القلوب والأسماع، بفنون الأهوال والأفزع، أي هل تدري ما هي القيامة؟ إنها فوق التصور والخيال، لا يعلم حقيقة أمرها، ولا مقدار فظاعتها، إلا الله رب العزة والجلال، والاستفهام هنا: للتفخيم والتهويل.

٢ - قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ السَّوْثِ ۝﴾ [القارعة: ٤، ٥] في الآية تشبيه بديع، يسمى (المرسل المجمل) ذكر فيها الأداة، وحذف وجه التشبيه، أي كأنهم فراش متفرق، منتشر هنا وهناك، يمزج بعضهم في بعض، من شدة الاضطراب والفرع، لا يدرون ما يصنعون!! شبههم تعالى بالفراش، الذي إذا طار لا يدري أين يتوجه؟ وتكون الجبال كالصوف المتطاير في الهواء، وهذا معنى (العهن) أي الصوف، شبه الجبال وهي متنوعة الألوان، منها الأبيض، والأسود، والأحمر، فعند تطايرها تشبه الصوف الملون ألواناً، ألواناً، هكذا يكون حال الناس يوم القيامة، من شدة الهول والفرع.

٣ - قوله تعالى: ﴿فَأَنصَبْ أَفْئِدَتَهُمْ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝﴾ [القارعة: ٧] العيشة: بمعنى: العيش والحياة، لا توصف بأنها ترضى أو لا ترضى، إنما المراد بها صاحبها، ففي الآية (مجاز عقلي) والمعنى: فهو في عيشة هنية سعيدة، يرضى عنها صاحبها.

قال الشوكاني: ﴿يُنْصَبُ رَاضِيَةً﴾ أي مرضية يرضاها صاحبها. اهـ فتح القدير.

الإبداع البياني في سورة التكاثر

١ - قوله تعالى: ﴿أَتَمْكُرُونَ﴾ [التكاثر: ١] معنى التكاثر: التفاخر بكثرة الأموال والأولاد، وفيه معنى التباهي بنعيم الدنيا ومباهجها، وقد خرج الخبر عن حقيقته إلى (التأنيب والتوبيخ) بدليل ما بعده من الوعيد والتهديد ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ] ولم يذكر عما شغلهم عن طاعة الله، بل أطلقه ليكون أبلغ في الذم، أي شغلكم حب جمع الأموال، وحب التباهي والتفاخر بالبنين والأولاد، عن طاعة الله وعبادته.

٢ - قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢] زيارة القبور هنا (كناية) عن الموت، يقال لمن مات: قد زار قبره، أي شغلكم المباهاة والتفاخر بكثرة الأموال والأولاد، عن طاعة الله عز وجل، وعن الاستعداد للآخرة، حتى مثم وأصبحت من أهل القبور، ولا يراد زيارة القبور، ثم العودة إلى الدور والقصور.

٣ - قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣، ٤] وعيد وتهديد، و(كَلَّا) أداة زجر، أي ارتدعوا أيها الناس واتزجروا عن الاشتغال بالدنيا الفانية، وتكديس الثروات والأموال، فسوف تعلمون عاقبة تفريطكم في جنب الله، وعفلتكم عن الآخرة، وهذا التكرار في الآية للتهديد والإنذار، وعُطف بد(ثم) للتنبيه على أن الثاني أبلغ من الأول، كما يقول السيد لعبد المملوك: أقول لك، ثم أقول لك لا تفعل، ولكونه أبلغ نُزُل منزلة المغاير فعطف بد(ثم).

٤ - قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْبَاقِينَ﴾ [التكاثر: ٥] حذف جواب (لو) لتهويل الأمر وتفظيعه، أي لو عرفتم الحقيقة على وجه اليقين، لرأيتم ما تشيب له الرؤوس، وتفزع له القلوب، من شدته وهوله، وينبغي الوقوف عند كلمة (اليقين) لثلاثيهم أن ما بعدها جواب (لو) فيفسد المعنى.

قال الرازي: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْبَاقِينَ﴾ جواب قسم محذوف، زيادة في الوعيد

والتهديد، أي والله لتروُن الجحيم في الآخرة، وليس هذا جواب (لو) لأن جواب (لو) يكون منفياً، وهذا مثبت، ولهذا عطف بقوله: ﴿ثُمَّ لَنُنَلِّقَنَّ﴾ فتح القدير ٤٩٢/٥.

تنبيه: روى الترمذي عن (عبد الله بن الشيخير) رضي الله عنه أنه قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ: ﴿الْهَيْكُمُ النَّكَارُ﴾ وسمعتُه يقول: يقول ابنُ آدم: مالي، مالي!! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» رواه الترمذي، أي هو الذي بقي لك ذخراً في الآخرة، وما عداه فقد ذهب واستمعت به في الدنيا.



الإبداع البياني في سورة العصر

١ - قوله تعالى: ﴿الْعَصْرُ﴾ [الإنسان: ١، ٢] المراد بالعصر: الوقت والزمان، ولا يُراد به وقتُ العصر، الذي يعقبه المغرب.

أقسم تعالى بالعصر والزمان، وما فيه من أصناف العجائب والغير، على أن الإنسان - والمراد به الجنس، لا إنسان معين - أي جنس الإنسان في شقاء وخسران، ثم استثنى من ذلك، المؤمنين الذين عملوا الصالحات، والامتناء معيار العموم، فهو من باب (إطلاق البعض وإرادة الكل) والخسر بضم الخاء: الخسران الفادح، والتكيز فيها للتعظيم، أي في خسرانٍ عظيم، ودمارٍ شديد.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَتَوَامَلَا بِالْخَيْرِ وَآَمَلُوا بِالنَّارِ﴾ [العصر: ٣] في الآية (ذكرُ الخاص بعد العام) فإن الصبر داخل في عموم الحق، إلا أنه أفرده بالذكر، إشادةً بفضيلة الصبر.

هذه السورة الكريمة على ما فيها من إيجاز - جمعت دعائم الإيمان، وعناصر النجاة والسعادة، وهي (الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر) وهذه الدعائم الأربع، هي سبيلُ الفلاح، وطريقُ الفوز والنجاح، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله: (لو لم ينزل الله من القرآن، سوى هذه السورة الكريمة، لكفّت الناس) أي تكفيهم لمعرفة أبواب الخير، وقد كان الرجال من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، إذا التقوا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلمان ويتصرفان. أخرجه البيهقي.

اه ابن كثير.



الإبداع البياني في سورة الهنزة

١ - قوله تعالى: ﴿وَبَلَّ لَحْظُ قَمَرٍ لَّمْرًا﴾ [الهنزة: ١] ﴿هَمْزٌ﴾ الذي يَغْتَابُ الناسَ ويطعمن في أعراضهم ﴿لَمْزٌ﴾ الذي يَلْمِزُ الناسَ ويعيبهم بعينه وحاجبه، وبناء (فُعْلَةٌ) يدلُّ على الكثرة والاعتياد، فهي (صِغَةُ مُبَالِغَةٍ)، ولا يقال: لُغْتَةٌ، وَضَحْكَةٌ إلا للمكثَر المعتاد.

والمعنى: عذابٌ وهلاكٌ ودمارٌ، لكل من يَعِيبُ الناسَ ويطعمن في أعراضهم، أو يَنَالُ منهم سرًّا بعينه، وحاجبه، وهما رذيلتان مركبتان، من الجهل، والكبر.

٢ - قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ مَالًا عَدَدُهُ﴾ [الهنزة: ٢] التنكيرُ في قوله سبحانه: ﴿مَالًا﴾ للتفخيم والتكثير، أي جمع مَالٍ كثيراً، وأحصاه وحافظ على عدده، فلم يُنْفَقْ منه في وجوه الخير، شُحًّا وبُخْلًا.

قال محمد بن كُفَيْبٍ: ألْهَاءُ مَالِهِ بِالنَّهَارِ، يَجْمَعُ وَيُكْدُسُ، فإذا جاء الليلُ نام، كأنه جيفةٌ مستنة.

٣ - قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلَدًا لَّخَطْمَةٌ﴾ [الهنزة: ٤] التعبيرُ بِالتَّجْدِيدِ ومعناه: الطَّرْحُ، للاستخفاف والتحقير، كأنه لمهاتته حطْبٌ يطرح في النار لإشعالها، أو حصياتٌ تُلقَى في البحر، أو في مكان مهين.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَمَا أَزْنَانَا لَخَطْمَةٌ﴾ [الهنزة: ٥] استفهام (للتهويل والتفظيع) لأمر نار الجحيم.

والمعنى: ما أعلمك ما حقيقة هذه النار الفظيعة المسقرة؟ إنها نارُ الجحيم (الْخَطْمَةُ) التي تُخْطِمُ العظامَ، وتُحْرِقُ الأشلاءَ، وتَأْكُلُ اللحومَ، حتى تكاد تبْتَلِغَ من يُلْقَى فيها.

٥ - قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ عَلَى الْأَقْبَةِ﴾ [الهنزة: ٧] خَصَمُ الْأَقْبَةِ - يعني القلوب - بالذكر، لأنَّ الأَلَمَ والعذابَ إذا وصلَ إلى القلبِ، مات صاحبه،

ولكنهم في حالة من يموت، ولا تُزهق رُوحه، ليستمر عليه العذاب، فهم أحياء في صورة أموات، وأيضاً فإن القلب مركزُ النيات الخبيثة، وموطنُ الحقد والحسد، ولذلك وصل إليها أَلَمُ العذاب، لإحراق ما أضمرت من حُبٍ وفجور.

٦ - قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَلَّمِمْ نُؤْمِدَةً • فِي عَمْدٍ مُدَدَةٍ ﴾ [الهزرة: ٨، ٩] ﴿ نُؤْمِدَةً ﴾ مغلقة محكمة الإغلاق ﴿ عَمْدٍ ﴾ جمع عمود، والمعنى: إن نار جهنم مطبقة مُغلقة عليهم، لا يدخل عليهم فيها رُوح ولا ريحان، وهم مقيدون بالسلاسل والأغلال، تشدُّ بها أيديهم وأرجلهم، كحال المجرمين في الدنيا، بعد إطباق أبواب جهنم، وقد ينسوا من الخروج منها، بعد أن أغلقت عليهم الأبواب، فلم يعد لهم أمل في النجاة أو الخروج، كما قال سبحانه في موطن آخر: ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِنَّا أَنْصَارُهُمْ • رُسُلًا فَتَوَفَّ يَقْلُوتَ • إِيَّا الْأَعْلَى فِي أَغْلِقِهِمْ وَالسَّلِيلَ بِسَحُونِ • فِي الْقَيْمِ رُتَدٍ فِي النَّارِ يُتَحَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢] أي يُحرقون، أجازنا الله والمسلمين من عذاب الجحيم.



الإبداع البياني في سورة الفيل

١ - قوله تعالى: ﴿الْفِيلُ كَيْفَ قُتِلَ زَيْدٌ يَاسُوبَ أَنْبِيلُ﴾ [الفيل: ١] الاستفهام للتقرير والتعجيب، والمراد بالرؤية: العلم، لا الرؤية البصرية، أي ألم يبلغك يا أيها الرسول، وتعلم علماً يقينياً، كأنه مشاهد بالعين، ماذا صنع ربك العظيم الجليل، بأصحاب الفيل، الذين قصدوا هدم الكعبة المشرفة؟ كيف دمرهم الله وأهلكهم، وجعلهم عبرة لمن يعتبر؟

والمقصود من ذكر القصة، نسيئة الرسول ﷺ، وتهديد الظلمة الفجّار، من كفار مكة، الذين كذبوا الرسول ﷺ، وحاربوه، وأخرجوه من البلد الأمين، أن الله سيقم منهم ويهلكهم، كما أهلك جماعة (أبرهة الأشرم) أصحاب الفيل.

٢ - قوله تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ كُفَّابًا﴾ [الفيل: ٥] فيه تشبيه بديع يسمى (المرسل المجمل) ذكرت فيه أداة التشبيه، وخلف منه وجه الشبه، أي جعلهم كورق الشجر المنساقط، الذي عصفت به الرياح قطيرته، وأكلته البهائم والدواب، ثم أخرجته قذراً، وهو تشبيه في غاية الوضوح والإبداع.

وصفوة القصة: أن قتيك اليمن النصراني بنى كنيسة بصنعاء، ليصرف الحجاج إليها، وسمع رجل من العرب، فجاء إليها ليلاً، ولطخ جدرانها بالنجاسة والقذر، وبلغ الخبر إلى الملك (أبرهة الأشرم) فغضب وحلف أن يهدم الكعبة المشرفة، وجاء بجيش عرمرم على الفيلة، فأرسل الله عليهم طيوراً رمتهم بحجارة من طين متحجرة، فأهلكهم الله عن بكرة أبيهم.

وكانت هذه الحادثة العجيبة المشهورة، إرهاباً لبعثة النبي عليه الصلاة والسلام، حتى أرخ بها العرب، ذكريات بعض الأحداث، فيقولون: حدث الأمر عام الفيل، أو بعد الفيل بثلاث سنوات، وولد فلان عام الفيل.

قال ابن عباس: (وُلد النبي ﷺ عام الفيل)، وأخرج البيهقي عن (قيس بن مخزومة) قال: (وُلدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل) فتح القدير للشوكاني ٥/ ٥١٠.

الإبداع البياني في سورة قريش

١ - قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُرْسِلُ الرِّيَّاتِ وَالْغَمَامِ﴾ [قريش: ١]، الإيلاف: الاعتبار، مصدر أَيْفَ الشيء: إذا اعتاد عليه، ذكّرهم تعالى بالنعمة ليعبدوه ويشكروه، واللّام في قوله (لإيلاف) متعلقة بالفعل بعدها ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ [قريش: ٣] وفي الفاء معنى الشرط، كأنه قال: إن يعم الله على قريش كثيرة، غير محصورة، فإن لم يعبدوه لساثر نقمه، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة، وهي نعمة تسهيل الله لهم، ما كانوا يألّفونه من رحلتني (الشتاء، والصيف) في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام.

وقال الفراء: هذه السورة متصلة بالسورة قبلها، لأنه سبحانه ذكّر أهل مكة؛ بعظيم نعمته عليهم، فيما فعل بأصحاب الفيل، فجعلهم كمصغى مأكول لإيلاف قريش، أي ليألفوا الخروج ولا يجترئ عليهم أحد.

والمعنى: أهلك الله أصحاب الفيل، لتبقى قريش وما قد القوه، من رحلتني الشتاء، والصيف. اه فتح القدير ٥/٥٠٢.

وجمهور المفسرين على القول الأول، وفي السورة ما يُستعمل (بتقديم ما حقه التأخير).

٢ - قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤] التشكير في لفظ «جوع» و«خوف» لبيان الشدة العظيمة التي كانوا عليها، أي جوع شديد، وخوف عظيم، لأنهم كانوا في بلاد تحيط بها الجبال، لا زرع فيها ولا ضرع، وآمنهم بعد شدة خوف، ممّا جعلهم يسافرون آمنين، لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأنهم جيران الله، وسكان حرمه..

عن أسامة بن زيد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُرْسِلُ الرِّيَّاتِ وَالْغَمَامِ﴾ ويحكم يا معشر قريش، اعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف» تفسير ابن كثير، ٤/٥٩٢.

الإبداع البياني في سورة الماعون

١ - قوله تعالى: ﴿أَوَدَّتْ آلِيكَ يَكْذِبُ الْيَتِيمَ﴾. فَذَلِكَ الْيَتِيمُ يَدْعُ الْيَتِيمَ [الماعون: ١، ٢] استفهام يُراد به (الاستغراب والتعجب) ومعنى ﴿يَدْعُ﴾ يدفع بعنقب، وشدة وغلظة، أي هل عرفت الذي يكذب بيوم الحساب والجزاء؟ هل عرفته وعرفت أوصافه القبيحة؟

إن أردت أن تعرفه، فهو ذاك الشقي، الغليظ القاسي، الذي يدفع الفقير، بجفاء وغلظة، ويظلمه ولا يعطيه حقاً!! وفي الآية (إيجاز بالحذف) تقديره: إن أردت معرفته، فذلك الذي يَدْعُ اليتيم، يعني يدفعه بالشدة والغلظة.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْصُرْ عَنْ طَعَامِ الْيَسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣] في الآية إشارة بديعة، إلى نهاية (الجُنة والدناءة) فإذا امتنع عن حث غيره، على إطعام المسكين، الذي عضه ألم الجوع، فكيف يطعمه هو من ماله، أو يحتر ويحطف عليه؟ وهذا أبلغ مما لو قال: ولا يُطعم المسكين، لأنه إذا بلغ به الشح، أن لا يوصي بعون المسكين، فكيف يجود عليه من ماله؟

٣ - قوله تعالى: ﴿تَوَسَّلْ لِلتَّائِبِينَ﴾. اليتيم مِمَّنْ غَرَبَتِ ذَاتُهُمُ صَاهُونَ [الماعون: ٤، ٥] أي عذاب ودمار للتائبين يؤخرون الصلاة عن وقتها، لانشغالهم بتجارتهن وشهراتهن، وإذا كان الويل لمن يؤخر الصلاة، فكيف بمن لا يصلي أصلاً!!

قال ابن عباس: (هو المنافق الذي إن صلى لم يَزُجْ لها ثواباً، وإن تركها لم يَخْشَ عليها عقاباً، لأن قلبه خلا من الإيمان).

أقول: ويدل عليه قوله تعالى بعدها: ﴿الْيَتِيمِ مِمَّنْ بَرَّاهُ يَت﴾. وَمَتَّقُوا آلَ مَاعُونِ [الماعون: ٦، ٧] أي هم المنافقون المراءون في أعمالهم.

وفي الحديث الشريف: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يَرْقُبُ الشمس - يعني عند غروبها - حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقر أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» رواه البخاري.

ومعنى ﴿الْمَاعُونَ﴾ كل ما فيه منفعة للغير، كالإبرة، والفأس، والفِذْر، والدَّلْو، وأمثال ذلك. قال ابن مسعود: (كثا نعدُّ الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدَّلْو، والقدر) رواه أبو داود.

ففي الآية الزجرُ عن البخل الذي هو صفةُ المنافقين، قال بعضُ السلف: الحمدُ لله الذي قال: ﴿عَمَلَانِ مَاعُونَ﴾ ولم يقل: (في صلاتهم ساهون)، وألا هلكَ النَّاسُ، لأنه لا يخلو أحدٌ من السهو في الصلاة.

روى البيهقي عن (مُضْعَبِ بْنِ سَعْدٍ) قال: قلتُ لأبي: أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أَيْنَا لَا يسهو؟ أَيْنَا لَا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ؟ فقال لي أبي: إنه ليس ذلك - أي لا يراد السهو في الصلاة - إنه إضاعةُ الوقت (أه سنن البيهقي، ورواه ابن جرير الطبري. وفي حديث (سعد بن أبي وقاص) رضي الله عنه قال: (سألت النبي ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها).



الإبداع البياني في سورة الكوثر

١ - قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَوْثَرِ ﴾ [الكوثر: ١] ﴿ الْكَوْثَرُ ﴾ الخير الكثير،

أ - صيغة (فَوَعَلَ) تدلُّ على الكثرة الكثيرة، والخير العميم، فقد أعطي رسولنا ﷺ الفضائل الكثيرة العميمة، أعطي النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأنبياء، ومنها (نهر الكوثر) إلخ... فالصيغة مبالغة من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير (كوثرًا) قال الشاعر:

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا ابْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ وَثَمَانُ أَبْرَكَ ابْنُ الْغَفَائِلِ كَوْثَرًا

ب - كما أن تصدير الجملة بحرف التأكيد (إِنَّا) لأن أصلها «إِنْ» و«نحن» جار مجرى القسم، أي واللَّهِ نحن يا محمد، الذين أعطيناك هذا الخير الكثير، الذي من جملته «نهر الكوثر».

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: (الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه)!! قال أبو بشر - راوي الحديث - قلت لسعيد بن جبير: إن ناساً يزعمون أنه نهرٌ في الجنة! فقال سعيد: النهرُ الذي في الجنة، من الخير الذي أعطاه الله إياه) رواه البخاري في التفسير ٧٣١/٨.

ج - صيغة الماضي (أعطيناك) تُفيد حصول الأمر ووقوعه، فلم يقل: منعطيك، لأن الوعد لما كان محققاً، عبّر عنه بالماضي مبالغة، كأنه حدث ووقع.

٢ - قوله تعالى: ﴿ تَصَلِّ بِرَبِّكَ وَأَنْصَرْ ﴾ [الكوثر: ٢] الإضافة في قوله: ﴿ بِرَبِّكَ ﴾ للتكريم والتشريف له ﷺ، أي اجعل صلاتك لربك وحده، الذي أفاض عليك ما أفاض، من أنواع الخير والكرامة، وانحر الإبل لوجهه لا لغيره، وتصدّق على المحاويع، مخالفاً لعبدة الأوثان، الذين يتحرون للأصنام، وحذف من الفعل الجار والمجرور (وانحر له) اكتفاء بما قبله، فهو من باب (حذف الإيجاز).

٣ - قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ فَابِتْرُكٌ مُّؤْتَذَنٌ﴾ [الكوثر: ٣] (شأنى) مبغض، و(الآبتر): المنقطع من كل خير، من البتر بمعنى القطع، وفي الآية معنى الحصر، أي هو الآبتر لا غيره.

والمعنى: إن مبغضك يا محمد هو الآبتر المنقطع من كل خير، أما أنت فذكرك باقٍ دائم، خالد إلى آخر الدهر، واسمك مرفوع على المآذن والمتابر، مقرونٌ باسم ربك الجليل (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

نزلت هذه السورة في ذلك الشقي الخاسر (العاص بن وائل) فإنه لما مات ابن الرسول ﷺ (القاسم) قال عدو الله: دَعُوهُ فإنه رجلٌ أبتر، لا نسل له، فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة، وأخبر أن هذا الكافر الفاجر، هو الآبتر، المقطوعٌ خيرُه ونسلُه، مقطوعٌ من رحمة الله، لا يُذكر إلا بالسوء واللعنة!!

وفي هذه السورة مطابقة لطيفة، بين أولها وآخرها، بين (الكوثر) و(الآبتر) فالكوثر: الخير الكثير، والآبتر: المنقطع ذكره وخيرُه، الذي لا يُذكر إلا بالخزي واللعنة، والمنقطع عن كل خير، وهذه المطابقة والمقابلة من (المحسنات البديعية)، فهذه السورة على وجازتها وقصرها، جمعت فنون البلاغة والبيان، فبحان منزل القرآن بأفصح لسان، وأعذب بيان!!



الإبداع البياني في سورة الكافرون

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَّغْنَا الْكُفْرَانَ﴾ [الكافرون: ١] أمر الله رسوله ﷺ أن يخاطب قريشاً بالوصف ﴿يَكْفُرُوا﴾ زيادةً في (التوبيخ والتشنيع) على أهل مكة، فلم يقل: يا معشر قريش، وإنما خاطبهم بالوصف (الكافرون)، وفي هذا الخطاب - وهو يعلم أنهم يتغضبون من ذلك - أكبر برهان على أنه ﷺ محروس من الرحمن، إذ كيف يمكن لشخص واحد، أن يجابه طواغيت قريش، بهذه المجابهة العنيفة، ويتحداهم هذا التحدي السافر، ويسمقهم الكلمات التي تجرح كبرياءهم، لو لم يكن محفوظاً من رب العزة والجلال؟!

وسبب نزول هذه السورة: أن المشركين دعوا رسول الله ﷺ إلى المهادنة، وعرضوا عليه خطةً سخيفة، وهي: (أن يعبدوا إلهه سنة، ويعبد آلهتهم سنة) فقال: معاذ الله أن نشرك بالله شيئاً! قالوا: فاستلم بعض آلهتنا وتمسك بها، نصدقك، وتعبد إلهك، فنزلت السورة الكريمة، فغداً ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملاء من قريش وصناديدها، وقام على رؤوسهم فقرأها جهاراً عليهم، فيسروا منه وآذوه وأصحابه أشد الأذى.

والمعنى: قل يا أيها الرسول، لهؤلاء الكفار الفجار، الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار: لا أعبد هذه الأوثان، التي تعبدونها من دون الرحمن، فإنا بريء منكم ومن آلهتكم المزيقة، ما عبدتها في الجاهلية، فكيف أعبدتها في الإسلام؟! كذلك أنتم لا تعبدون إلهي الحق!

٢ - قوله تعالى: ﴿وَلَا آتَا غَايَةً مَا عَدْتُمْ. وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَقْدُمُ﴾ [الكافرون: ٤، ٥] أي ولا أنا في المستقبل عابد آلهتكم المزعومة أبداً ما عشت، كما أنكم لا تعبدون إلهي الحق الذي أعبد، لغاية ضلالكم وطغيانكم، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] هذا نيتيس لهم من عبادته ﷺ لأصنامهم وبراءة منهم ومن أوثانهم، وليس في الآيات تكرار، إنما الأولى تشير إلى الزمن الحاضر - أي الآن - والثانية تشير إلى المستقبل، لقطع أطماع هؤلاء السفهاء.

قال البخاري: ﴿لَا أَقْدُمَا مَعْدُونَ﴾ [الكافرون: ٢] الْآن ﴿وَلَا أَنَا عَلَيْهِمَا
عَدْتُمْ﴾ أي لا أجيبكم فيما بقي من عمري. اهـ صحيح البخاري كتاب التفسير
٧٣٣/٨.

هذه السورة الكريمة تعني (البراءة من الشرك) كما أن سورة الإخلاص
تعني (إخلاص التوحيد لله) ولهذا كان ﷺ (يجمع بينهما، في ركعتي الطواف)
رواه مسلم.

ومن أنس رضي الله عنه (أن النبي ﷺ قال لمعاذ: اقرأ ﴿قُلْ يَتَأْتِيَ الْكَافِرُونَ﴾
عند منامك، فإنها براءة من الشرك). رواه البيهقي، فتح القدير ٥١٢/٥.



الإبداع البياني في سورة النصر

١ - قوله سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] المراد بالفتح هنا: الفتح الأعظم (فتح مكة) المكرمة شرفها الله، وفي الآية من المحسنات البديعية (ذكر الخاص بعد العام) فإن عبارة (نصر الله) يشمل جميع الفتوحات والغزوات التي انتصر فيها المسلمون، وعطف (فتح مكة) عليه هو من باب عطف (الخاص على العام) تعظيماً لشأن هذا الفتح، واعتناء بأمره، لأنه كان فتح الفتح، وبسبب فتح مكة، دخل الناس في الإسلام أفواجا، أفواجا.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ٢] يُراد بالناس (العرب) فهو من باب (إطلاق العموم وإرادة الخصوص) أي رأيت سكان جزيرة العرب، يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، كما أن المراد بدين الله (الإسلام) أضاف الدين إليه ﴿دِينِ اللَّهِ﴾ (تشريفاً وتعظيماً).

تنبيه هام: هذه السورة الكريمة فيها نعي النبي ﷺ، والتنبيه بدنو أجله، ولهذا لما نزلت هذه السورة الكريمة قال النبي ﷺ للسيدة عائشة: «ما أراه إلا قد حضر أجلي»، وخرج كالمودع لأصحابه، فخطب فيهم فقال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا، وبين ما عنده، فاختر ما عند الله!! فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: فديناك بأنفسنا، وآبائنا، وأولادنا يا رسول الله!! قال الراوي: فمجبنا لبكائه، أن يُخَيَّرَ الله عبداً من عباده، وبكبي له أبو بكر!! فكان رسول الله ﷺ هو المختير، وكان أبو بكر أحلماً» رواه البخاري.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ - بعد نزول هذه السورة - سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يتأول القرآن» رواه البخاري أي يستشعر أن وفاته دنت، فيمثل قول الله تعالى: ﴿وَأَسْتَمِعُهُ إِشْفَاءً مِمَّا كَانُوا تُؤَافِكُ﴾ [النصر: ٣].

روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: (كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر -

وكان شاباً - فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تُدْخِلْ هذا مقنناً، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم!! - يشير إلى فطنته وذكائه - قال: فدعاني ذات يوم فادخلني معهم، فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره، إذا نصرنا الله وفتح علينا!! وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هذه السورة فيها أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، يقول: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فَتَبِعْ خَيْرَ بَيْتٍ يَسْتَجِيبُ إِسْمَهُ كَمَا نُودِيَ﴾ [النصر: ٣] فقال عمر: (والله ما أعلم منها إلا ما تقول) رواه البخاري ٧٣٤/٨ في كتاب التفسير.



الإبداع البياني في سورة المسد

١ - قوله تعالى: ﴿ نَبَتْ بَنَاتُ أَبِي لَهَبٍ وَنَتْ ﴾ [المسد: ١] الثَّبَابُ: الخسران والهلاك، أي هلك الشقي أبو لهب، وخاب وخسر، وضلّ سعيه وعمله، الأولى دعاء عليه بالهلاك، والثانية إخبار، كما يُقال: أهلكه الله، وقد هلك وخسر فعلاً.

وفي الآية (مجاز مرسل) من باب إطلاق الجزء - اليدين - وإرادة الكل يعني الشقي (أبي لهب) أي هلك أبو لهب نفسه، وإنما ذُكر بالكنية (أبو لهب) للتصغير والتحقير، ولاشتهاره بكنيته أكثر من اسمه، مثل (أبي جهل) مشهور بالكنية أكثر من اسمه، ولكرامة ذكر اسمه (عبد العزّي) حيث يُنسب إلى بعض أوثان الجاهلية، والعزّي أحد الأصنام والأوثان.

٢ - قوله تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ [المسد: ٤] في الآية (استعارة لطيفة) استعار للنميمة عبارةً عجيبة، وهي (حمل الحطب) أي وستدخل معه امرأته الخبيثة، ناز الجحيم، لكفرها وفجورها، فقد كانت تنقل الكلام بطريق النميمة من شخص إلى آخر، لتفسد بين الناس، وتوقد بينهم نار العداوة والبغضاء، وقد اشتهر عند العرب، هذا النوع من الاستعارة، قال الشاعر:

وَلَمْ يُمْشِ بَيْنَ الْحَيِّ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ

وانتصب على الشتم والذم، لفظ ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ أي أخص بالذم حمالة الحطب، زيادة في التشنيع والتفبيح عليها.

سبب النزول: رَوَى البخاري عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عِبَادَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه!! فاجتمعت إليه قريش فقال لهم: أرايتم إن حدثكم أن العدو مُصْبِحُكُمْ، أو مُصْبِحُكُمْ أكنتم تصدقوني؟! قالوا: نعم: ما جرئنا عليك كذباً!!

قال: فيأتي نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال له أبو لهب: تباً لك يا محمد، ألهذا جمعتمنا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَدَّأْبِرْ لَهُمْ وَتَأْتِ السُّورَةُ﴾، أخرجه البخاري،

قصة عجيبة: ومن عجائب الأخبار أن امرأة (أبي لهب) لما سمعت ما أنزل الله فيها وفي حق زوجها، أتت الرسول ﷺ وهو جالس في المسجد الحرام، إلى جوار أبي بكر، وببدها قهراً - حجر حاد يشبه السكين - فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله: لقد أقبلت الموراء، وأنا أخاف أن تراك!! فقال له الرسول الكريم: إنها لن تراني، وقرأ قرآناً يعتصم به، فلما دنت أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ، فقالت يا أبا بكر: بلغني أن صاحبك يهجونني أنا وزوجي!! فوالله لو رأيته لأضربن بهذا الحجر وجهه، ثم انطلقت وهي تقول: «مذمماً عصينا، ودينه قلينا - أي أبغضنا - وأمره أبينا» فقال أبو بكر يا رسول الله: أما تراها رأتك؟ فقال له ﷺ: «لقد أسمى الله بصرها عني» رواه ابن أبي حاتم.

قال الحافظ ابن كثير: (وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَ لَكُم مَّا كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ [المسد: ٣، ٤] فأخبر عنهما بالشقاء، وعدم الإيمان، لم يقبض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما، لا ظاهراً ولا باطناً، لا سرّاً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة، على النبوة الظاهرة). اهـ. ابن كثير ٦٠٤/٤.



الإبداع البياني في سورة الإخلاص

١ - قوله تعالى: ﴿قَدْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] لفظ (الأحد) يدل على مجامع صفات الجلال، كما دلّ لفظ (الله) على جميع صفات الكمال، فالأحدية تتضمن نفى الوالد والولد، ونفي النظير والشبيه، ونفي الكثرة والعدد، ولهذا جاء لفظ (أحد) ولم يقل: الله واحد، لأن الواحد له بداية فيقال: واحد، اثنان، والله جلّ شأنه لا بداية له ولا نهاية ﴿هَمَزَ الْأَوَّلَ وَالْخَيْرَ وَالْأَلَّامَ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] ولهذا اختصّ تعالى (بالأحدية)، وذكره تعالى بضمير الشأن (هو) للتعظيم والتفخيم، فإنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل إنسان يعيش بالفطرة.

٢ - قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ الْغَنِيُّ﴾ [الإخلاص: ٢] (الضمد) معناه السيد الذي انتهى إليه العز والسيادة، والذي يقصد في قضاء الحاجات.

روى البخاري عن أبي وائل أنه قال: (الضمد: هو الذي انتهى شؤده) أي عظمته وجلّاله، والتعريف في كل من ﴿إِنَّهُ الْغَنِيُّ﴾ لإفادة التخصيص.

سبب النزول: روي أن بعض المشركين، جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا يا محمد: صف لنا ربك!! أمّن ذهب هو؟ أم من فضة؟ أم من ياقوت، أم من زبرجد؟ فنزلت السورة: ﴿قَدْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...﴾.

٣ - قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] الأولى نفى للدرية والبنين، والثانية (ولم يولد) نفى للوالدية، أي ليس له تعالى والد، ولا أم، كما أنه ليس له ولد ولا بنت.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] في الآية زيادة الإيضاح والبيان، فإن قوله: ﴿قَدْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يقتضي نفى الكفو - أي المثل - والولد، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يوجب عدم مماثلة شيء من المخلوقات والموجودات له، فصار الكلام في غاية الإيضاح والبيان، ونفي

المشابهة والمماثلة، فإنَّ قوله: (أَحَدٌ) أي لا يماثله أحد، وهو يبطل مذهب
النصارى في التثليث، ومذهب الصابئين في الشمس والقمر والنجوم، ومذهب
من أثبت خالقاً سوى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ مَّا يَنسِبُهُ الْيَهُودُ وَالنَّهَارُ
وَالنَّحْسُ وَالْقُرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].



الإبداع البياني في سورة الفلق

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ من شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿[الفلق: ١، ٢]﴾
 ﴿الْفَلَقُ﴾ الصبحُ إذا انفلق عنه نورُ ضياء الصباح (فالقُ الإصباح) وفي الأمثال
 (هو أنينٌ من قلق الصبح) تكرر في السورة كلمة (شر) أربع مرات ﴿مِنْ شَرِّ مَا
 خَلَقَ﴾ ومن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ • ومن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ • ومن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا
 حَسَدَ ﴿[الفلق: ٢ - ٥] ويسمى هذا به (الإطناب) وذلك للتنبيه على شناعة هذه
 الأوصاف المذكورة.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣] (غاسق) الغاسقُ:
 الليلُ إذا اشتدَّ ظلامه، وإنما أُمِرَ بالاستعاذة من شرِّ الليل إذا اشتدَّ ظلامه، لأن
 بمجيء ظلمة الليل، يكثر الأشرارُ، وينتشر الفجَّارُ، وتكثر اللصوصُ، ويقلُّ
 العَوَثُ، ولهذا قالوا في الأمثال: (الليلُ أخفى للويل) أي أسترُّ للأحداث
 والجرائم الشنيعة.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]
 ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ النفثُ: هو النفخُ بدون ريق، فإن كان معه ريقٌ فهو الثقلُ،
 والنَّفَّاثَاتُ: النساءُ السواحرُ اللاتي يعقدن عُقْدًا في خيوط، وينفثن فيها، للتفريق
 بين الزوجين، والإضرار بعباد الله، وإنما خصَّص النساءُ بالذكر (النَّفَّاثَاتِ) لأن
 السحر أكثر ما يقع منهن، بسبب غيرة بعضهن من بعض.

وهذه الآية الكريمة، دليلٌ صريح على أن السحر له حقيقة، وله تأثير على
 الناس، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يستعيذ من شرِّ السحر، وقد نزلت هذه
 السورة تعويذاً للنبي ﷺ، ورُقِيَّةً له من السحر، الذي فعله بعض اليهود، فقد
 رُوي في الصحيح: «أن يهودياً سحر النبي ﷺ فمرض، فنزلت المعوذتان،
 وأخبره جبريل بموضع السحر، فأرسل علياً وبعض أصحابه فجاءوه بالسحر، وبه
 إحدى عشرة عقدة، فقرأهما ﷺ فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى وجد خفَّةً
 ونشاطاً، ورَقَّاه جبريل بهذه الدعوات: (بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك،

من كل حاسد، وهين، الله يشفيك) « فشفاه الله عز وجل، أخرجه ابن ماجه في الطب رقم (٣٥٢٤).

قال الإمام الشوكاني: اعلم أن القرآن نزل بلسان العرب، ومن مذاهبهم التي لا تُجحد، واستعمالانهم التي لا تُنكر، أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروه، كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أجزوا، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب، وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه، لأنه إنما يُستدل على ما فيه خفاء، وأما ما كان من الوضوح والجلال، بحيث لا يشك فيه شاك، ولا يرتاب فيه مرتاب، وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن، وربما يكثر في بعض السور، كما في سورة الرحمن، وسورة المرسلات، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه المحصر،

كقول الشاعر:

يَا لَبَنَكِرٍ أَتُسِرُّوَالِي كَلْبِيَا يَا لَبَنَكِرٍ أَيَّنَ أَيَّنَ الْمُرَاذَا؟
وقول الآخر:

أَتَاكَ أَتَاكَ اللَّاجِقُونَ أَخْبِرِ أَخْبِرِ

وقد ثبت عن الصادق والمصدوق - وهو أفصح من تكلم بلغة العرب - أنه كان إذا تكلم بالكلمة، أعادها ثلاثاً. اهـ تفسير فتح القدير ٥/ ٥١٣.



الإبداع البياني في سورة الناس

١ - قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ • مَلِكِ النَّاسِ • إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٣] في الآية ما يسمى في علم البديع بـ (الإطناب) وهو تكرار لفظ الناس (خمسة مرات) مع إضافتهم إلى خالق الكون، ربُّ العزة والجلال، وهذا التكرار فيه تكريمٌ وتشريفٌ لذرية آدم، بإضافتهم إليه، اعتناءً بشأنهم، وفي التكرار عزٌّ لهم وفخار، كما قال الشاعر:

أَعِذْ ذِكْرُنَا نَفَمَانِ لَنَا إِنْ ذَكَرَهُ هُوَ الْمَشْكُ مَا كَرَّرْتَهُ يَتَضَوُّعٌ
ولو جاء بالضمير فقال: ملكهم، إلههم، لما كان لهم هذا الشأن العظيم من التكريم.

وصف الباري جلَّ وعلا نفسه (بالمليك، وبالإله، وبالرب) لأن في الناس ملوكاً، فذكر أنه ملكهم، وفي الناس من يعبد غير الله، فذكر أنه هو إلههم ومعبودهم الحق، وفي الناس من يدعي الربوبية كفرعون، فذكر أنه ربُّ جميع الخلق، وأنه هو الذي يجب أن يلجأ إليه، وأن يستعاذ به، دون غيره من الملوك والعظماء، أمّا المستعاذُ منه فهو (الشيطان الرجيم) الذي يوسوس للبشر، فيغريهم بالكفر، والمعاصي، والفجور، والوسواسُ: اسمٌ للشيطان الذي يخس إذا ذكر العبدُ ربَّه، فإذا غفل عن ذكر الله، عاد فوسوس له، نسال الله أن يصرف شرَّه عنا، وعن جميع عباد الله المؤمنين آمين.



تنبيه هام

تكرارُ بعض الآيات، يُراد منه التأكيدُ، حتى يستقرَّ الكلامُ في الذهن، على طريقة العرب في أحاديثهم ومخاطباتهم، فإن العرب إذا أرادوا تأكيد الكلام، أعادوا اللفظَ ليتمكن في النفس غاية التمكن، وتستوعبه الآذان والقلوب والأفهام.

والغرض من التأكيد: تمكين الشيء في نفسه، وتقوية أمره، وفائدته: إزالة الشكوك، وإمالة الشبهات، ويُقال له: التكريرُ أيضاً، وليس يخفى موقعه البليغ، ولا علو منزلته الرفيع، وكم من كلام هو عن التحقيق بعيد، حتى يخالطه صفو التأكيد، فعند ذلك يصير قلادةً في الجيد، وقاعدةً للتحسين والتجويد.

وهو قسمان:

١ - تأكيد في اللفظ والمعنى.

٢ - تأكيد للمعنى دون اللفظ.

القسم الأول: ما يكون تأكيداً لللفظ والمعنى، كقوله سبحانه في سورة الرحمن: ﴿بِإِنَّ إِلَٰهًا رَّحْمًا تَكْبَرُ﴾ ذكرت هذه الآية (٣١) إحدى ثلاثين مرة في هذه السورة الكريمة، والحكمة من هذا التكرار، تذكير العباد (الإنس والجن) بكثرة نعم اللّٰه على عباده، ليشكروه ويحمدوه عليها، فبعد كلِّ نعمة يذكرها، يردفها بقوله: ﴿بِإِنَّ إِلَٰهًا رَّحْمًا تَكْبَرُ﴾ تقريراً للنعم الجليلة التي أكرمهم اللّٰه بها، ونفخيماً لشأنها، وهذا كما تقول لشخص أحسنت إليه، وهو ينكر ذلك الإحسان: ألم تكن جاهلاً فعلمتك؟ أأنكرت هذا؟ ألم تكن فقيراً فواسيتك؟ أأنكر هذا؟ ومثل ذلك قوله سبحانه في سورة القمر: ﴿وَكَيْفَ كَادِبٍ يُزَكَّى﴾ تكررت عدة مرات، لإيقاظ النفوس بذكر قصص الأولين، والأعماظ بما أصابهم من أنواع العقوبات، فتكون بمنزلة فزع العصا، لئلا تستولي عليهم الغفلة، ويغلب عليهم الذهول والنسيان.

والقسم الثاني: التأكيد للمعنى دون اللفظ، وهذا القسم كثير في القرآن، مثل قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ أَنْفُسُهُمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ أكدها بقوله بعده: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْعُرُ الدُّثُورَ جَمِيعًا﴾ ثم كرر المعنى دون اللفظ بقوله: ﴿دَائِمُوا إِلَىٰ رَحْمَةِ اللَّهِ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ ويقول: ﴿وَأَتَّبِعُوا احْسَنَ مَا أُرِيدُ إِلَيْكُمْ مِن رَّحْمَةٍ﴾ ومن هذا التأكيد المعنوي على جهة التأكيد والمبالغة، قول الشاعر:

قُلْ لِلَّذِي بِصُرُوفِ الدُّفْرِ عَيْرُنَا	هَلْ عَائِدُ الدُّفْرِ إِلَّا مَنْ خَطُرُ
أَمَا نَرَىٰ الْبَحْرَ تَغْلُو فَوْقَهُ جَيْفُ	وَتَسْتَقِيرُ بِأَقْصَىٰ قَعْرِهِ الدُّرُ
وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ لَا غَيْدُ لَهَا	وَلَيْسَ يُكْخَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

خاتمة البحث

تذكيرٌ وتبصير

● يلاحظ القارئ الكريم، من هذه الدراسة التي عرضناها في هذا الكتاب، حول (الإبداع البياني في القرآن العظيم) أن هذا القرآن المعجز، الذي تحدى الله به الخلائق أجمعين (الإنسَ والجنَّ) بقوله جَلْ ثَنَاؤُهُ: ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] كان تعجيزاً للبشر، وصيحةً مجلجلة في وجوه كفار قريش.

● وفي هذا التحدي السافر للبشر، بما فيهم أربابُ الفصاحة والبيان من العرب، ما يشير إشارة قاطعة، على أن القرآن الكريم كلامُ ربِّ العزة والجلال، أنزله الله على خاتم الأنبياء والمرسلين (محمد بن عبد الله) ليكون معجزةً ساطعة، تدلُّ على صدقه - عليه أفضل الصلاة والتسليم - في دعوى (النبوة والرسالة).

● ولم يكتف القرآن باجتماع الإنس، حتى أذرجَ معهم الجنَّ، مبالغةً في التحدي، ليكون ذلك أبلغَ في العجز، ومع هذا التحدي الصارخ للجميع، أقرَّ العرب بالعجز - وهم فرسانُ الفصاحة وملوكُ البيان - وهذا أعظم برهانٍ على روعة المعجزة الإلهية الخالدة ﴿أَوَلَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَيْنِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

● ولم يكن إعجازُ القرآن للعرب بأسلوب بيانه فحسب، وإنما بهرهم بتشريعهِ وأحكامه، وبالعلوم والمعارف التي جاء بها، في (العقائد، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات، وفي حقول التربية والتعليم، والسياسة والاقتصاد، والمناهج التربوية، والقصص والأخبار، وسائر العلوم المتنوعة)!! فهل كان باستطاعة النبي الأمي، وهو لا يعرف قراءة ولا كتابة، ولم يتلقَ العلم على يد أحد من الأساتذة البلغاء، أن يأتي بمثل هذا الكتاب المبدع، لولا أن الله تعالى أوحاه له؟!

● وقد اقتصرنا في هذا الكتاب، على ذكر نثر يسير، من روائع وبدائع (الأسلوب البياني) المعجز، مقرّين ومعترفين بعجزنا عن الإحاطة، بجميع ما فيه من وجوه الفصاحة والبيان ومن العجيب بل والغريب، أن يُنكر بعض من ينتسب إلى العلم، وجود الكناية، والاستعارة، والمجاز في القرآن الكريم، ويزعم أن القرآن يجب حملُه على الحقيقة، وأن إثبات الاستعارة والكناية والتمثيل ممّا لا يتناسب مع مكانته الجليلة!!

● وهذه النظرة خطأ فاحش، وأمرٌ يدعو إلى الدهشة والاستغراب، بل يأخذ بنا إلى العَجَب العُجَاب، وذلك بأن يجهل الإنسان أساليب العرب في مخاطبتهم، ويُعرّي اللغة العربية عن أخصّ خصائصها، ويسلبها أعزّ مزاياها.

فما خلّت لغة العرب ولا صفّت، ولا حَسُن رونقُها، ولا فاقت سائر اللغات، إلا بما احتوت عليه من بديع الاستعارة، ولطيف الكناية، وجمال التصوير والتمثيل، ولما كان ربُّ العزة والجلال، قد أنزل هذا القرآن بلسانٍ عربي مبين، فقد سلك فيه أساليب العرب، في مخاطبتهم، ومحادثاتهم، وكلامهم، من التشبيه والتمثيل، والاستعارة والكناية، وغير ذلك من الوجوه البيانية، التي تخلو منها كثيرٌ من اللغات.

● استمع إلى القرآن الكريم، وهو يصوّر لنا الأرض الجرداء اليابسة، قبل أن ينزل عليها المطر، كيف تشبه حالتها حالة الرجل البائس المسكين، الذي قَبِع على قارعة الطريق، يستجدي حسنة المحسنين، بأسلوب يهزُّ القلب هزّاً، ويشير شفقة الناس عليه ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَفْزَرَتْ وَرَبَتْ إِنَّ الْأَیَّ أَحْيَاهَا لَمَنَّى الْمَوْفِقَ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

● إن اللسان لمعجز عن تصوير البلاغة الفائقة، والبيان المعجز، في جمال الأسلوب القرآني المبدع. . تأمل معي ذروة الروعة في التعبير والأداء، وتصوّر التناسق الفني في لفظ (الخشوع، والاهتزاز، والنمو) للأرض القاحلة الجرداء، بعد أن يسقيها الماء، كيف تصبح بعد نزول الغيث عليها، وكأنها عروسٌ فاتنة، تزينت بأبهى حلل الزينة، وهي تَمِيسُ طرباً، وتختال عُجْباً، فتُخرج من أنواع الزروع والثمار، ما يُدهش الأفكار والأبصار!! من أين جاء هذا الجمال في الإبداع؟ إنه من الاستعارة التي فاقت الخيال في الجمال ﴿تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَفْزَرَتْ وَرَبَتْ﴾ ولولا هذه (الاستعارة) لما كان في الأسلوب

والتعبير، ما يدعو إلى هذه الصورة الفنية البديعة، التي تسبي العقول بزيينة الجمال والأداء. ١.

• ولو حملنا الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم، على ظاهرها - كما يرى البعض - فسوف نرى العَجَب العَجَاب، في تفسير الكتاب العزيز، فنقرر الآتي:

١ - أن للعذاب يَدَيْنِ حِسِّيَتَيْنِ كيدي الإنسان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبا: ٤٦].

٢ - وَأَنَّ الصَّدَقَ له قدمٌ لقوله تعالى: ﴿وَيَثِيرُ اللَّيْلِ ءَامِنًا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

٣ - وَأَنَّ النهار له وجهٌ لقوله سبحانه: ﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ آلِ كَتَبٍ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ﴾ [آل عمران: ٧٢].

٤ - وَأَنَّ تنصور أَنَّ النار تشتعل برأس الإنسان وتلتهب، لقوله جل ثناؤه: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤].

٥ - وَأَن نتخيّل أَن الصبح يتنفسُ كما يتنفسُ الإنسان، لقوله سبحانه: ﴿وَالْبَلِّ إِذَا عَمْسَ. وَالضُّحَى إِذَا تَفَنَسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

٦ - وَأَنَّ نعتقد بأن الإبل يمكن أن تُخاطب وتفهم الكلام وتجب، لقول الحق جل جلاله: ﴿إِنْتَهَا أَلَيْسَ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

٧ - وَأَنَّ الكفار الذين اخترعوا الطائرات، والمراكب الفضائية، وداروا حول الكرة الأرضية، كانوا خُرُسًا، وَعُمِيًّا، وَصُمًّا وهم لا يرون ولا يسمعون لقوله سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْمَعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

٨ - وَأَنَّ العُني جميعاً ضالون، وهم في نار جهنم، لقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْيُنٌ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

٩ - وَأَنَّ النار يمكن أكلها لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

١٠ - وَأَن جميع الفواكه والخضار، واللحم والثمار، ينزلها الله لنا من السماء، لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَابَائَكُمْ ءَابَائَكُمْ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] مع أن جميع الأرزاق يُخرجها الله لنا من الأرض.

١١ - وتصوّر معي ذلك الفهم العجيب، الذي فهمه (عدي بن حاتم)، من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] حيث عمّد إلى حبلين: أحدهما أسود، والآخر أبيض، وجعل يأكل وينظر إليهما، فلم يفرّق بينهما إلا بعد مضي زمن على طلوع الفجر، فقال له الرسول الكريم: إنك لعريضُ القفار - أي بليد الذهن سيئ الفهم - إنما هما: سوادُ الليل، وبياضُ النهار!! كما في رواية البخاري، وأمثال هذا كثيرٌ وشهير، بيّنا توضيحه في هذا الكتاب، وشرحنا معناه شرحاً وافياً.

إنّ في القرآن العظيم صوراً بديعة، وأمثلة رائعة، على إعجاز القرآن الكريم، ببيانه العربيّ الساحر، الذي يأخذ بالألباب، في جميل تشبيهه وتمثيله، وسلوكه أساليب العرب في مخاطبتهم ومحادثاتهم، واستعمالهم للاستعارة، والكناية، والتشبيه، والمجاز، وغير ذلك من الوجوه البيانية التي اختصت بها اللغة العربية، فما حَلَّتْ لغةُ العرب، ولا حَسُنَ رونقُها، وما فاقت سائر اللغات، إلّا بما احتوت عليه من بديع الاستعارة، ولطيف الكناية، فمن أراد أن يُعرِّفها عن أخصّ خصائصها، ويسلبها أعزّ مزاياها، فقد سلك بها طريق الغي والجهالة، ونزع عنها ثوب الإبداع والجمال.

هذا ما أردنا توضيحه وبيانه في هذا الكتاب (الإبداع البياني في القرآن العظيم) واللّه الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلواتُ ربي وسلامه على من أيّده الله بالمعجزة الكبرى (القرآن العظيم) والحمد لله رب العالمين.

تمّ بعونه تعالى تأليف هذا الكتاب، في البلد الحرام، في الخامس من شهر رمضان المبارك من عام ١٤٢٤هـ وكان البدء به في تركيا، ثم أكملت بحوثه المهمة في البلد الأمين (مكة المكرمة) واللّه نسأل أن ينفع به المسلمين، ويجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، إنه سميعٌ مجيب الدعاء.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. مكة المكرمة - الخامس من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢٤هـ

خادم الكتاب والأئمة
الشيخ محمد علي الصابوني

فهرس المحتويات

٧ مقدمة الناشر
٩ المقدمة
١١ تمهيد الإبداع البياني في القرآن العظيم
١٣ الأمثال في الكتاب العزيز
١٤ تنوع الأمثال في القرآن الكريم
١٥ روائع الحكم والأمثال في أساليب القرآن
١٥ ما هو التشبيه؟
١٦ ما هو التمثيل؟
١٦ أقسام التشبيه
١٧ التشبيه المقلوب
١٨ التشبيه التمثيلي
١٨ الغرض من التشبيه
١٩ بين الحقيقة والمجاز والاستعارة
٢١ ما هي الاستعارة
٢٢ الاستعارة التمثيلية
٢٣ تعريف الكناية
٢٥ المجاز اللغوي

الإبداع البياني في القرآن العظيم

٢٩ الإبداع البياني في سورة البقرة
٤٣ الأمثال المذكورة في سورة البقرة
٤٣ الإبداع في التمثيل لأحوال المتنافقين
٤٥ الإبداع في التمثيل لقسوة القلوب
٤٦ الإبداع في التمثيل بالراعي مع أغنامه
٤٦ الإبداع في تمثيل الإنفاق

- الإبداع في إبطال العمل بالرياء ٤٨
- التمثيل بالجنة ذات الربوة ٤٩
- الإبداع في ذكر الإعصار الذي فيه النار ٥٠
- الإبداع في التمثيل لآكل الربا ٥٣
- الإبداع البياني في سورة آل عمران ٥٦
- الأمثال في سورة آل عمران ٦٣
- مثل من صور البطولة والفداء ٦٤
- شجاعة وبسالة أنس بن النضر ٦٥
- استشهاد سبعة من الصحابة ٦٦
- الإبداع البياني في سورة النساء ٦٨
- الإبداع البياني في سورة المائدة ٧٦
- الإبداع البياني في سورة الأنعام ٨٤
- الأمثال في سورة الأنعام ٨٩
- ضرب المثل بالأعمى والبصير ٨٩
- التمثيل لعابد الوثن بالتائه في الصحراء ٩٠
- مثل للتمييز بين نور الإيمان وظلمة الكفر ٩١
- مثل رائع للإيمان والكفر ٩١
- مثل للإسلام الحق والأديان المختلفة ٩٣
- الإبداع البياني في سورة الأعراف ٩٥
- الإبداع التمثيلي في سورة الأعراف ١٠٠
- التمثيل لاستحالة دخول الكفار جنات النعيم ١٠٠
- الإعجاز في الإيجاز من خصائص القرآن ١٠١
- التمثيل بالأرض الطيبة والأرض الخبيثة ١٠١
- التمثيل النبوي للعلم والقلوب التي تستوعبه ١٠٢
- التمثيل الشنيع لعلماء السوء ١٠٣
- التمثيل للكفار بالدواب والأنعام ١٠٦
- الإبداع البياني في سورة الأنفال ١٠٧
- الإبداع التمثيلي في سورة الأنفال ١١٠
- التمثيل للكفار بالبهائم والدواب ١١٠
- تشبيه الكفرة بالقمامات التي تحرق ١١٠

١١١	من معجز الإيجاز في الكلام
١١٢	الإبداعُ البيانيُّ في سورة التوبة
١١٨	الإبداعُ التمثيليُّ في سورة التوبة
١١٨	التمثيلُ للكفار بالقَدَر والنَجس
١١٩	التمثيلُ للإسلام بالشمس الساطعة
١١٩	التمثيلُ للمنافقين بالدابة الجموح
١٢٠	المال قد ينقلب إلى نعمة
١٢١	التمثيلُ بجيش العسرة
١٢١	معجزة نبوية في هذه الغزوة
١٢٢	قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة
١٢٤	الإبداعُ البيانيُّ في سورة يونس
١٢٧	الإبداعُ التمثيليُّ في سورة يونس
١٢٨	اللجوء إلى الله عند الشدائد والكروب
١٢٩	التمثيلُ للعالم ونعيمها الزائل
١٣٠	التمثيلُ للجنة بالدار، السالمة من الأحزان والأكدار
١٣١	التمثيلُ لوجوه الكفار بظلام الليل الدامس
١٣٢	التمثيلُ للكفرة بالصُّمِّ والعُمي
١٣٤	الإبداعُ البيانيُّ في سورة هود
١٣٨	الإبداعُ التمثيليُّ في سورة هود
١٣٨	تمثيلُ العداوة الشديدة من الكفار للنبي ﷺ
١٣٨	التمثيلُ بالأعمى والبصير، والأصمِّ والسميع
١٣٩	التمثيلُ للأمواج العاتية بالجبال
١٤٠	التمثيلُ في التعبير القرآني المعجز
١٤١	التمثيلُ بالأخذ بناصية الخلائق
١٤١	التمثيلُ للمسارعة نحو الفجور
١٤٣	التمثيلُ بعدم الاكتراث بالشيء
١٤٤	التمثيلُ لأصوات أهل جهنم بأصوات الحمير
١٤٥	الإبداعُ البيانيُّ في سورة يوسف
١٤٨	الإبداعُ التمثيليُّ في سورة يوسف
١٤٨	تسمية كلام النساء بالمكر تمثيلٌ عجيب

١٤٨	لم سُمي الحديث مكرراً؟
١٤٩	التمثيل للرؤيا بالبقرات السمان، والبقرات الهزيلة
١٥٠	تفصيل الرؤيا المنامية
١٥٠	التمثيل للحيلة التي ألهم الله بها يوسف بالكيد
١٥١	من لطائف بدائع التعبير القرآني
١٥٢	التعبير القرآني المعجز
١٥٣	الإبداع البياني في سورة الرعد
١٥٦	الإبداع التمثيلي في سورة الرعد
١٥٦	مثلٌ بديع لعُباد الأوثان
١٥٦	السخرية بالآلهة المزعومة
١٥٧	مثلان بديعان للحق والباطل
١٥٩	التمثيل البديع لمعجزة القرآن العظيم
١٦٠	الإبداع في التشنيع على عبادة غير الله
١٦٠	الإبداع في أوصاف جنة النعيم
١٦٢	الإبداع البياني في سورة إبراهيم
١٦٤	روائع التمثيل في سورة إبراهيم
١٦٤	التمثيل البديع لضياح أعمال الكفار
١٦٤	التمثيل لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة
١٦٥	التمثيل لكلمة الكفر بالشجرة الخبيثة
١٦٦	التمثيل للموقف المخزي للظالمين
١٦٧	الإبداع البياني في سورة الحجر
١٧١	الإبداع البياني في سورة النحل
١٧٤	روائع التمثيل في سورة النحل
١٧٤	التمثيل للمخترعات الحديثة بالأسلوب الحكيم
١٧٤	التمثيل لمكر الماكرين بالبنیان ينهدم على أصحابه
١٧٥	مثلان في بطلان عبادة الأصنام والأوثان
١٧٦	التمثيل لناقض العهد بالمرأة الحمقاء
١٧٧	التمثيل لجحود نعمة رسالته ﷺ
١٧٩	الإبداع البياني في سورة الإسراء
١٨٣	روائع التمثيل في سورة الإسراء

١٨٣	التمثيل لعمل الإنسان بالطائر
١٨٣	التمثيل للتواضع للوالدين بخفض الجناح
١٨٤	التمثيل لليخل بقبض اليد وبسطها
١٨٤	التمثيل للمتكبر بالمتناول على الجبال
١٨٥	التمثيل لإضلال إبليس للبشر
١٨٦	التمثيل بعمى القلب
١٨٦	التمثيل لطغيان الإنسان
١٨٧	التمثيل للرزق بخزائن الملك
١٨٨	الإبداع البياني في سورة الكهف
١٩١	الأمثال في سورة الكهف
١٩١	الكناية اللطيفة في قصة أصحاب الكهف
١٩١	التمثيل لرضوان الله بذكر الوجه
١٩١	التمثيل لمن يشكر النعمة ومن يكفرها
١٩٣	مثل بديع للحياة الدنيا وفنائها
١٩٤	الحكمة والغاية من ضرب الأمثال
١٩٤	التمثيل لإعراض الكفار عن الذكر الحكيم
١٩٥	التمثيل لسعة علم الله وعظمته
١٩٦	الإبداع البياني في سورة مريم
١٩٨	الإبداع البياني في سورة طه
٢٠٢	الأمثال في سورة طه
٢٠٢	التمثيل للجرائم بالجمل الثقيل
٢٠٢	التمثيل لنعيم الدنيا بالزهر الفواح
٢٠٣	الإبداع البياني في سورة الأنبياء
٢٠٦	الأمثال في سورة الأنبياء
٢٠٦	تشبيه الحق بقديفة ضخمة تشدخ رأس الباطل
٢٠٦	التمثيل بانتكاس الإنسان رأساً على عقب
٢٠٧	التمثيل لاختلاف الناس في الأديان
٢٠٨	الإبداع البياني في سورة الحج
٢١٢	الأمثال في سورة الحج
٢١٢	التمثيل للمناقق في قلبه واضطرابه

٢١٢	التمثيل لمن أشرك بمن هوى من السماء
٢١٣	مثل لمن عبد الأصنام والأوثان
٢١٤	الإبداع البياني في سورة المؤمنون
٢١٦	الكناية والاستعارة في سورة المؤمنون
٢١٧	الإبداع البياني في سورة النور
٢٢٠	الأمثال في سورة النور
٢٢٠	التمثيل لطاعة الشيطان باتباع خطواته
٢٢٠	التمثيل بالخبيث والطيب للمصالح والفاجر
٢٢١	التمثيل للنور الإلهي في قلب المؤمن
٢٢٢	التمثيل لبطلان أعمال الكفار ومعتقداتهم
٢٢٤	الإبداع البياني في سورة الفرقان
٢٢٧	الكناية والاستعارة في سورة الفرقان
٢٢٨	الإبداع البياني في سورة الشعراء
٢٣١	الكناية والاستعارة في سورة الشعراء
٢٣٣	الإبداع البياني في سورة النمل
٢٣٦	الكناية والاستعارة في سورة النمل
٢٣٦	التمثيل للسرعة بارتداد الطرف
٢٣٨	الإبداع البياني في سورة القصص
٢٤٠	الكناية والاستعارة في سورة القصص
٢٤٢	الإبداع البياني في سورة العنكبوت
٢٤٣	الكناية والاستعارة في سورة العنكبوت
٢٤٥	الإبداع البياني في سورة الروم
٢٤٦	الكناية والاستعارة في سورة الروم
٢٤٩	الإبداع البياني في سورة لقمان
٢٥٠	الكناية والاستعارة في سورة لقمان
٢٥٢	الإبداع البياني في سورة السجدة
٢٥٣	الكناية والاستعارة في سورة السجدة
٢٥٥	الإبداع البياني في سورة الأحزاب
٢٥٧	الكناية والاستعارة في سورة الأحزاب
٢٦١	الإبداع البياني في سورة سبأ

٢٦٣ الكناية والاستعارة في سورة سبأ
٢٦٥ الإبداع البياني في سورة فاطر
٢٦٦ الكناية والاستعارة في سورة فاطر
٢٦٩ الإبداع البياني في سورة يس
٢٧٥ الإبداع البياني في سورة الصافات
٢٧٨ الإبداع البياني في سورة ص
٢٨٠ الإبداع البياني في سورة الزمر
٢٨٤ الإبداع البياني في سورة غافر
٢٨٧ الإبداع البياني في سورة فصلت
٢٩٢ الإبداع البياني في سورة الشورى
٢٩٥ الإبداع البياني في سورة الزخرف
٢٩٨ الإبداع البياني في سورة الدخان
٣٠٠ الإبداع البياني في سورة الجاثية
٣٠٢ الإبداع البياني في سورة الأحقاف
٣٠٥ الإبداع البياني في سورة محمد
٣٠٨ الإبداع البياني في سورة الفتح
٣١٣ الإبداع البياني في سورة الحجرات
٣١٦ الإبداع البياني في سورة ق
٣١٨ الإبداع البياني في سورة الذاريات
٣٢١ الإبداع البياني في سورة الطور
٣٢٣ الإبداع البياني في سورة النجم
٣٢٦ الإبداع البياني في سورة القمر
٣٢٩ الإبداع البياني في سورة الرحمن
٣٣٣ الإبداع البياني في سورة الواقعة
٣٣٧ الإبداع البياني في سورة الحديد
٣٤١ الإبداع البياني في سورة المجادلة
٣٤٣ الإبداع البياني في سورة الحشر
٣٤٦ الإبداع البياني في سورة الممتحنة
٣٤٨ الإبداع البياني في سورة الصف
٣٥٠ الإبداع البياني في سورة الجمعة

٣٥٢	الإبداع البياني في سورة المنافقون
٣٥٤	الإبداع البياني في سورة التغابن
٣٥٥	الإبداع البياني في سورة الطلاق
٣٥٧	الإبداع البياني في سورة التحريم
٣٦٠	الإبداع البياني في سورة المُلْك
٣٦٣	الإبداع البياني في سورة القلم
٣٦٧	الإبداع البياني في سورة الحاقة
٣٧٠	الإبداع البياني في سورة المعارج
٣٧٣	الإبداع البياني في سورة نوح
٣٧٥	الإبداع البياني في سورة الجن
٣٧٧	الإبداع البياني في سورة المزمل
٣٧٨	الإبداع البياني في سورة المدثر
٣٨٠	الإبداع البياني في سورة القيامة
٣٨٤	الإبداع البياني في سورة الإنسان
٣٨٧	الإبداع البياني في سورة المرسلات
٣٨٩	الإبداع البياني في سورة النبأ
٣٩١	الإبداع البياني في سورة النازعات
٣٩٣	الإبداع البياني في سورة عبس
٣٩٦	الإبداع البياني في سورة التكوين
٣٩٨	الإبداع البياني في سورة الانفطار
٣٩٩	الإبداع البياني في سورة المطففين
٤٠٠	الإبداع البياني في سورة الانشقاق
٤٠٢	الإبداع البياني في سورة البروج
٤٠٣	الإبداع البياني في سورة الطارق
٤٠٥	الإبداع البياني في سورة الغاشية
٤٠٧	الإبداع البياني في سورة الفجر
٤٠٩	الإبداع البياني في سورة البلد
٤١١	الإبداع البياني في سورة الشمس
٤١٢	الإبداع البياني في سورة الليل
٤١٣	الإبداع البياني في سورة الضحى

٤١٥	الإبداعُ البيانيُّ في سورة الإنشراح
٤١٧	الإبداعُ البيانيُّ في سورة التين
٤١٨	الإبداعُ البيانيُّ في سورة العلق
٤٢٠	الإبداعُ البيانيُّ في سورة القدر
٤٢٢	الإبداعُ البيانيُّ في سورة البينة
٤٢٤	الإبداعُ البيانيُّ في سورة الزلزلة
٤٢٥	الإبداعُ البيانيُّ في سورة العاديات
٤٢٧	الإبداعُ البيانيُّ في سورة القارعة
٤٢٨	الإبداعُ البيانيُّ في سورة التكاثر
٤٣٠	الإبداعُ البيانيُّ في سورة العصر
٤٣١	الإبداعُ البيانيُّ في سورة الهُمزة
٤٣٣	الإبداعُ البيانيُّ في سورة الفيل
٤٣٤	الإبداعُ البيانيُّ في سورة قريش
٤٣٥	الإبداعُ البيانيُّ في سورة الماعون
٤٣٧	الإبداعُ البيانيُّ في سورة الكوثر
٤٣٩	الإبداعُ البيانيُّ في سورة الكافرون
٤٤١	الإبداعُ البيانيُّ في سورة النصر
٤٤٣	الإبداعُ البيانيُّ في سورة المسد
٤٤٥	الإبداعُ البيانيُّ في سورة الإخلاص
٤٤٧	الإبداعُ البيانيُّ في سورة الفلق
٤٤٩	الإبداعُ البيانيُّ في سورة الناس
٤٥٠	تنبیه هام
٤٥٢	خاتمة البحث
٤٥٢	تذكيرٌ وتبصير
٤٥٦	فهرس المحتويات